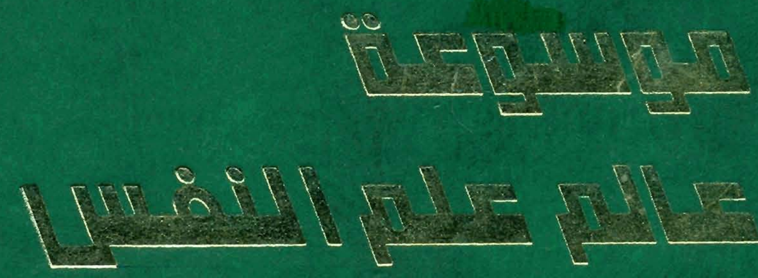




NOBILIS

الموسوعة النفسية

1

علم النفس والطب النفسي في حياتنا اليومية

إسم الموسوعة	:	موسوعة عالم عِلم النفس
إسم المؤلّف	:	الدكتور عبد المنعم الحفني
إعـداد	:	قسم الدراسات في دار نوبِليس
		بـإشراف الأستــاذ غسّان شديـد
قياس الكتاب	:	27.5 × 19.5 سم
عدد صفحات الجزء	:	320
عدد صفحات المجموعة	:	6436
إسم الكتاب	:	الموسوعة النفسية – عِلم النفس والطب النفسي
		في حياتنا اليومية - مجلد (1)
مكان النشر	:	بيروت – لبنان
دار النشر والتوزيع	:	دار نوبِليس
تلفاكس	:	961 1 583475
تلفون	:	961 1 581121
		961 3 581121
الطبعة الأولى	:	2005

عالم عِلم النفس

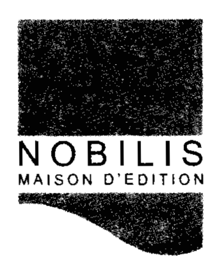
1

الدكتور عبد المنعم الحفني

الموسوعة النفسيّة

عِلم النفس والطب النفسي في حياتنا اليوميّة

المجلّد الأوّل



كلمة الناشر

عالمُ علم النّفس

موسوعة كاملة لعلم متكامل

الطب النفسي، وعلم النفس والتحليل النفسي، العِلم النفسي للأحلام، معجم التحليل النفسي، مدارس عِلم النفس وأعلام عِلم النفس، إضافة إلى الموسوعة النفسية الجنسية؛ جمعناها ٢٤ مجلداً بعنوان «عالم عِلم النفس» لتُـؤرِّخ بالتفصيل تاريخ هذا العلم منذ بداياته الأولى، والحركات التي تفرَّعت من مدرسة فرويد الذي يُعتبر، من دون منازع، رائدها الأول. ثم أفردنا المجلّدات الثلاثة الأخيرة لمصطلحات هذا العِلم ولما وضع فيه من مؤلّفات، وللموتمرات التي عقدها المؤسّسون له في معجم موسوعي شامل بأربع لغات، هي العربية والانجليزية والفرنسية والألمانية.

وبذلك تكون دار نوبِليس قد ساهمت، في هذا الميدان العلمي المهم والشيِّق، لتزوّد المكتبة العربية سلسلة كاملة لعِلم النفس الذي يؤثّر في حياتنا اليوميَّة ويسبر أغوار عمرنا منذ الطفولة الأولى، وما قبل!.

ويطيب لدار نوبِليس أن تتقدَّم بالشكر إلى الدكتور عبد المنعم الحفني الذي جمع بعلمٍ وصبرٍ ودقَّة، هذه المعلومات الموسوعية المتعلّقة بعِلم النفس التي نزفُّها إلى قرّاء العربية من المحيط إلى الخليج في أروع ما يكون من المجلّدات، لتكون متعة للنظر والفكر. والله وليُّ التوفيق.

نبيل عبد الحق

صاحب دار نوبِليس

الموسوعة النفسية

علم النفس والطب النفسي في حياتنا اليومية

في التعليم، والتربية، والتجارة، والصناعة، والأدب، والفن، والحرب، والسلام، وفي الصحة والمرض، والعلاج النفسي، وفي البيت، والمصنع، والشارع، والزواج، والغرائز، والحب، وفي التخيل، والقيم، والمعايير، وفي الموضة، والبغاء، والقمار، والمرور، واللعب، والجنس، والنوم، والعادات، والتحيل والإنجاز، وفي النوم واليقظة والأحلام، وفي الحسد والخرافة، والسحر، والدين، وفي الجريمة والعقاب والثواب، والإعلان والدعاية والإعلام إلخ، والاختبارات والاستبيانات والمقاييس المستخدمة في ذلك...

الباب الأول

علم النفس والطب النفسي
في خدمة الأدب
والفن والفكر

- ١ -
سيكولوجية الأدب والفن

الأدب والفن ومعناهما النفسي. أنماط الشخصيات الأدبية في علم النفس. الدراسات النفسية للأعمال الأدبية. عالم الأديب وطريقة الأدب في الاصطفاء من الواقع. الأدب يتسامى على الواقع. إختلاف الميول النفسية عند الأدباء بحسب تخصصهم. الإبداع الفني والحدس الأدبي. الأدب السيكولوجي. الموهبة الفنية وصراعات الأديب والفنان...

❖ ❖ ❖

الكثير من الأعمال الأدبية والفنية المعاصرة يتصل بناؤها بعلم النفس وكشوفه ومجالاته بأسباب قوية. وينصرف الأدب Literature إلى استجلاء النفس البشرية، وهو الهدف نفسه الذي يترسّمه علم النفس. وكلما تقدمت البحوث في علم النفس فإن ذلك له انعكاساته على الكتابات الأدبية، وخاصة في مجال الدراما بفرعيها، الرواية والمسرحية. وكانت شهرة بعض الروايات أو المسرحيات سبباً في اتخاذ علم النفس من بعض أسماء شخوصها أو مؤلفيها مسميات لانحرافات أو اضطرابات نفسية اشتُهرت بها، فالسادية Sadisme نسبة إلى الماركيز دي ساد Marquis de Sade (١٧٤٠ - ١٨١٤)، الكاتب الفرنسي الذي تخصّص في وصف حالات الأشخاص الذين يعانون من العنف الداخلي، ويستمدون لذّة من إنزال الألم بالآخرين، كما في رواية «Justine ou les malheurs de la vertu». والماسوكية Masochismus نسبة إلى ليوبولد فون ساخر ماسوك أو ماسوخ Masoch (١٨٣٦ - ١٨٩٥)، الكاتب النمسوي الذي كانت شخوص رواياته واغلة في الجنس، وتجد لذّة من معاناة الآلام يُنزلها بها الآخرون، على عكس السادية؛ وتشتَهر العُقد النفسية بأسماء شخصيات درامية من أعمال كبيرة لسوفوكل ويوروبيدس وغيرهما، فهناك عقدة أوديب Oedipus Complex مثلاً نسبة إلى الملك أوديب Oedipus the

King، الشخصية الأسطورية، صاحب أروع مأساة في تاريخ المسرحية اليونانية، وكذلك عُقَد أوريست، وكليتمنسترا، وإليكترا، وجوكاستا، وميديا، وفيدرا، وجميعها تناولها المسرحيون الثلاثة الكبار: إسخيلوس Aeschylus (٥٢٥ - ٤٥٦ق.م). ويقتبس علماء النفس أسماء مشهورة من الأدب الأسطوري والديني مثل عُقدة قابيل، وعقدة ديانا، وعقدة إخوة يوسف، وعقدة سارة زوجة ابراهيم عليه السلام. وهناك دراسات نفسية لروايات ومسرحيات مشهورة مثل مدام بوڤاري Madame Bovary لفلوبير Flaubert (١٨٢١ - ١٨٨٠) ويطلقون على الحالة النفسية التي تتسم بها إسم البوڤارية Bovarism. وبعض الروايات هي دراسات نفسية خالصة لاضطرابات معروفة، مثل الجريمة والعقاب Prestupleniye i nakazaniye (١٨٦٦) لدستويڤسكي Dostoyevsky (١٨٢١ - ١٨٨١)، وكان روائياً له بصيرة نفسية نافذة، وعلم ودراية بالنفسية الإنسانية وانحرافاتها وشذوذها.

وهناك مسرحيات لكتّاب مشهورين مثل هنريك إبسن Ibsen (١٨٢٨ - ١٩٠٦)، أفادت من نظريات علم النفس، وإن كان إبسن وغيره من الموهوبين لا يَظهر تأثرهم بالاتجاهات العلمية السيكولوجية مباشرة. وتدور معظم مسرحيات إبسن على أفكار ترتبط بالوراثة، مثل: «الأشباح Ghosts»، «وعدو الشعب An Enemy of the people»، و«بيت الدمية A Doll's House». ونعلم أن الجدال ما يزال بين أصحاب نظرية الوراثة ونظرية البيئة حول تشكيل النفس الإنسانية وميولها ونوازعها واهتماماتها. وكان الأدب دائماً كاشفاً لخبايا النفس التي يمكن أن تحتجب عن الناس في تعاملهم اليومي بسبب الغفلة التي يكونون عليها، حيث لا تتطلب تعاملاتها كبير دراية بالنفس، ويميل الأفراد إلى فهم الناس باعتبارهم أنماطاً، وميزة الأديب أنه إنسان يخترق الحُجُب، وينزع الأقنعة، ويُعرّي الأشخاص وأهدافهم، ويناقش قيمهم السلوكية، ويطرح ذلك من خلال العلاقات الشخصية البيئية، والاحتكاكات والمماحكات والصراعات

وتبادل الأفكار ومطارحة الأقوال. وإذا كنا كبشر نميل إلى تبسيط الأمور وردّ الكثرة إلى الوحدة في معاملاتنا، ونميل إلى التجريد والعموميات، فإن الأديب على العكس في رسمه للأشخاص لا يكرر الشخصية، ويصوّرها متميّزة، بتفاصيلها ورغباتها وعواطفها وآمالها وآلامها وطموحاتها. وعالم الأديب هو عالم أفراد متكثرة، وطريقة الأدب هي الاصطفاء من الواقع، واختيار ما يخدم الرؤية الفنية من الأحداث والوقائع. وكل أديب ينحصر اهتمامه بالواقع وإدراكه ومن ثم له رؤياه الخاصة، على عكس الإنسان العادي غير الأديب الذي تتوجه إهتماماته للواقع إلى ما يشبع حاجاته، ويفهم من الناس بقدر ما ييسر له التعامل معهم، بينما الأديب يدرك الأفراد لذواتهم، ويحيط بالواقع من علاقاته بهم سلباً وإيجاباً. وإذا كان بعضنا قد يغلب على اهتماماته بالحياة الجانب الحسّي العملي، أو العقلي، أو الأخلاقي، أو الديني، فإن الأديب يغلب عليه الجانب الجمالي، إلا أنه أيضاً يمكن أن يكون له أيٌّ من الجوانب السابقة، أو أن يكون في الوقت نفسه حسياً عملياً، أو عقلانياً، أو أخلاقياً، أو متديناً صوفياً، وأن تكون له إشراقات ميتافيزيقية. ولعل ذلك يفسّر أن بعض الأدباء لهم رسالات اجتماعية، كتولستوي مثلاً أو نجيب محفوظ، أو يوسف السباعي، أو يكتبون بإلهامات دينية كفرانز كافكا، وعبد الرحمن الشرقاوي، وقد كان الكثير من المتصوفة شعراء، كرابعة العدوية، وابن عربي، والبوصيري، وأبي العلاء المعري.

والأديب له مواقفه المتميّزة من المجتمع والإنسان والكون، وتبعاً لاختلاف هذه المواقف يكون اختلاف عوالم الأدباء، ويمكن أن يكون عالم الأديب محدوداً بحدود ثقافته وخبراته واهتماماته، ويمكن أن يتسع ليشمل الكون كله ويكون زاخراً بالعواطف الغنية والأفكار الثريَّة. وكما نفرّق بين عالم الأديب وعالم غير الأديب، فكذلك نفرّق بين عوالم الأدباء، فمنهم من يكون شاعراً، أو روائياً، أو مسرحياً، وينعكس عالم كلٍّ في أدبه. وهذا التخصّص يفسّره علم النفس بأنه ظاهرة نفسيّة وتعويض عن طموحات ورغبات أساسية، لم يشبعها الأديب في نفسه وحياته بسبب

عوائق من داخله أو خارجه. والأدب على ذلك تعويض يتسامى Sublimation به صاحبه عن الواقع غير المفهوم والمختلط والمتشابك، ويصنع به واقعاً متميزاً ومفهوماً. وهناك دراسات كثيرة في مجال علم النفس على الآثار الأدبية، وفي حياة الكثير من الأدباء لاستكناه الدوافع التي تجعل من الأديب أديباً، أو التي تدفعه إلى هذه الصياغة الأدبية أو تلك، أو التي تجعله يختار موضوعات بعينها، أو يرسم شخوصه على منوال معين، أو [illegible] من خلال رواياته ومسرحياته رؤيا فلسفية وفنية خاصة. وتذهب بعض النظريات النفسية في الأدب كما عند فرويد وأدلر، إلى أن الأديب إنسان مُخفق في حياته، وأنه يعوّض عن اخفاقه بالخَلق الأدبي، متسامياً بغرائزه. ومن رأي بعض النفسانيين أن الأديب تسيطر عليه من طفولته بعض ميوله الغريزية ورغباته، فتجعله يؤثر مجالاً من مجالات الأدب على سائر المجالات، سواء بالخَلْق أو التذوّق. وقد تتعرض ميولنا ورغباتنا للكفّ أو الكبت، فتتّجه إلى مسارب أخرى غير مباشرة للتنفيس، وتؤدّي بنا إلى الخلق أو التذوق لأنواع من الكتابات دون غيرها، وقد نتّجه إلى الرسم أو التصوير أو التشكيل. وقيل إن الشعراء يغلب عليهم الطابع النرجسي Narcissistic، بينما المسرحيون لديهم ميول إستعراضية Exhibitionistic، والروائيون يحبون الكلام ويبدو عليهم الطابع أو النمط الفموي، أو أن شخصياتهم بها الكثير مما يقال له الشخصية الفموية Oral personality. كما قيل في مجال الفنون أيضاً إن العنصر السادس الشرجي Anal sadistic يميل بالفنان إلى ممارسة التشكيل، وإلى أن تكون تعبيراته تشكيلية، وأن يصوغ أفكاره صياغات فنية تشكيلية. وكذلك فإن حب الاستعراض قد يجعل البعض يمتهن التمثيل. ولا شك أن الممثل إستعراضي من الطراز الأول، كما أن هواة الفنون والمسرح والباليه خصوصاً لا شك قد وُهبوا ما يقال له حُبّ التطلّع Voyeurism، كما إن الميول الجنسية المثلية قد تجعل البعض يهوى فن الرقص. وقد تبين إحصائياً أن أغلب مشاهير الراقصين مأبونون، وأن مصمّمي الأزياء يعانون

غالباً من التخنث بارتداء الملابس النسائية والتفنّن في صُنعها وتصميمها. ويقال لذلك النوع من الشذوذ Transvestism أي التشبّه بالنساء في الملبس والمظهر والمخبر. ويؤيّد هذه النظرة النفسانية أن الأدباء والفنانين في تخصصاتهم المختلفة تُلاحَظ فيهم هذه الطباع. ولعل أكثر ما يلفت النظر إلى تخصص الأديب أن عالمه هو عالم فني وليس عالماً عملياً. بمعنى أنه ينسجه من خياله ويختاره بإرادته الحرّة، كما يقول سارتر عن بودلير - أنه قد اختار في أشعاره أن يرى نفسه، أو أن اختياره لهذا العالم بوحي من تكوينه البيولوجي النفسي كما يقول برجسون - إن بعض النفوس بها ميل فطري تنفرد به في النظر والفهم والتفكير، وان الأديب يكتب بتأثير من نزعاته الخاصة. وربما كان هذا الاختيار لأن الأديب ليس له أن يختار إلا ما اختاره الله له كما يقول شعراء المتصوفة وفلاسفة الوجودية، مثل سارتر في روايته الفذّة «دروب الحرية Les Chemins de la Liberté». وقول سارتر إن بودلير Baudelaire (١٨٢١ - ١٨٦٧) اختار أن يرى نفسه في أشعاره، لأنه كان بوهيمياً بحكم تكوينه النفسي البيولوجي، فكان لا يكتب إلا أشعاراً بوهيمية، وقد اختار لنفسه عشيقة عاشرها كزوجة كانت سوداء وفي غاية القبح كانت تدعى جان ديفال، وكتب عن النساء المثليات الجنسية كما في مجموعته الشعرية: «اللزبيانيات Les Lesbiennes». والمهم أن عالم الأديب، وهو هذا العالم الفني، يصنعه بحيث يأتي وكأنه ليس من الخيال وإنما هو عالم عياني Concrete. ويتميّز الأديب عن غير الأديب بأنه زُوِّد بقابليات حسية وعقلية ونفسية تهيؤه للرؤية والتعبير بفن من فنون الأدب دون سواه، فهو شاعر، أو ناثر مسرحي، أو روائي، أو قصّاص حسب تخصّصه. وهو في أدبه ينحو إلى أن يُخرج من إطار شخصيته، ويتمثّل نفسه في شخوصه التي يطرحها كائنات حيّة تسعى، ولها تميزها وحياتها وتفاصيلها الشخصية. والأديب يتّجه في أدبه إلى أن يكون لاشخصياً Impersonal، فلا تدرك مما يكتب أو يصوغ أنه يحب هذا أو ذاك، أو يؤثر هذا على ذاك، وإنما هو يعلو على

ذاته ويصنع عالماً قد يكون متّسعاً، أو قد يضيق قليلاً، أو يرحب كثيراً، بحسب رؤياه الفنية، ويستهدي فيه بخيال فني، ليس كالخيال الذي يكون لنا في حياتنا اليومية، فهو خيال خاص يصبو به إلى واقع أكمل، ولا يحتاج به إلى أن ينتقي شخوصه من الحياة، وإنما هو يصوّرهم من ذاته التي تتسع لتكون كل هذه الذوات للشخوص التي يصوّرها، وذلك أن ذاته تتضمن كل هذه الذوات الأخرى التي كان من الممكن أن تكون هي نفسها ذاته. ومن رأي النفسانيين أن الذات التي يؤلّفها الأديب هي إمكانات لذاته، أو أنها ذاته في حالة كمون أو خمود، والأديب لا يفعل سوى أن يوقظها ويبعث فيها الحياة فتتحرك وتتحدث وتنفعل وتفعل كما في رواية: «A Portrait of the Artist as a Young Man» لجيمس جويس Joyce، وشخصية ستيفن ديدالوس في القصة هي نفسها الصورة الفنية لشخصية جويس نفسه. فالأديب بين ذاته وشخوص أدبه في علاقة جدلية، وكلما كانت ذاته ذات ثريّة بالخبرات والانفعالات والعواطف كلما كانت شخوص أدبه غنية وجاءت على قدر من العمق والرحابة يلفت إليها الأفهام، وبمعنى آخر فإن شخصية الأديب كلما تحررت من التحديات والتقييدات كلما كان تمثله لما يرسم من شخوص أرحب وأعمق. ويتميز الأدباء في ذلك بحسب شخصياتهم، والذي يميّز الخيال الأدبي أو الفني عن الخيال الذي يكون للمفحوص في اختبار من اختبارات الشخصية، أن أخيلة المفحوص في هذه الاختبارات هي إسقاطات شخصية محدودة بحدود شخصيته ويتجاوزها باستمرار. والكثير من الأعمال الأدبية الحالية هي محاولات في التحليل النفسي، وبعضها يكون كما نقول في مجال علم النفس «تاريخ حالة»، وبعضها لا يكون التحليل النفسي فيه صريحاً ومباشراً، ومع ذلك لا يمكن إلا أن تكون هناك هذه المحاولات في تحليل الشخصيات ودوافعها من جانب أبطال الرواية أو المسرحية أنفسهم، أو من جانب المؤلف أو النقاد. وبعض الأعمال الأدبية تظهر فيها «النفسانية Psychologism» ظهوراً واضحاً كرواية «السراب» لنجيب محفوظ حتى ليكون

تأليفها كالتلفيقات المصطنعة، فلا نحسّ فيها بنبض الحياة الصادر عن صدق الرؤيا والحسّ، وصدق الحدس الفني والبصيرة الأدبية، وهي قدرة الأديب على معايشة أبطاله وتعاطفه معهم. والأديب في ذلك يقارن موقفه بالطبيب النفسي، ففي الطب النفسي لا بد أن يتعاطف الطبيب مع مريضه دون أن يتورط معه عاطفياً، والأديب أو الطبيب النفسي غير المتعاطف مع أشخاصه أو مرضاه لا يمكن أن يتمثل أحوالهم النفسية، ويسبر أغوارهم، ويعايش خبراتهم. ولن يستطيع الأديب الذي لا يتعاطف مع أشخاصه تصويرهم تصويراً فيه بصيرة الأدب وصدق الرؤيا الأدبية. والرواية الأدبية التي تقوم على المعرفة السيكولوجية دون الحدس الأدبي Literary intuition لا بد أن تأتي مطبوعة بالصنعة والافتعال. ولا يفيد الأثر الأدبي أن يكون مبنياً على حقائق من علم النفس. والعبرة أن تأتي هذه الحقائق في ثناياه وتبطّنه ولا تشدّ الانتباه إليها دونه. ومسرحية كعطيل لشكسبير Othello تقوم على الغيرة، وعلى حقائق نفسية أجناسية لا تشدّنا إليها واقعية الخصائص النفسية لإياجو وعطيل وديدمونه، وإنما روعة الصياغة الأدبية والسياق الفني للمسرحية، بحيث يصنعان واقعاً فنياً يوازي واقع الحياة إن لم يتفوق عليه من حيث الوضوح والتفرّد. فإذا شئنا ونحن في معرض الحديث عن الغيرة مثلاً أن نضرب لها مثلاً فإننا لن نجد أوضح وأميز من مَثَل عطيل، وتلك خاصة من خصائص الأدب الرفيع أنه يقوم على حقائق نفسية حتى ليُستشهَد به، ويأتي ذلك فيه من خلال النسيج الأدبي. ولربما يَصدُق يونج في تفسيمه للأدب بأنه إما أدب سيكولوجي وإما مجرد وقائع عيانية، والأدب الأول هو الأدب الذي ينصرف الاهتمام فيه إلى النفس الإنسانية وتصويرها والتوعية بها، وهو لذلك أدب يصور الناس في حياتهم وهم يعتركون ويتصالحون، ويحبون ويكرهون، ويسعدون ويشقون، وينفذ إلى دوافعهم ويصف سلوكياتهم، بينما الأدب الثاني فيه الكثير من الخيال والحبكة والصنعة دون أن يتوغل في النفوس أو يهتم بالعواطف، ومن ذلك أدب الخيال العلمي Scientific fiction والروايات

البوليسية Detective stories. ومن الطبيعي لذلك أن يهتم علم النفس في تطبيقاته بدراسة «العملية الأدبية The literary process»، أي الخلق الفني في الأدب، والمقومات النفسية للأثر الأدبي وللأديب والتي بها يتميز هذا الأثر عن أية كتابة أخرى ليست أدبية، أو تكون للأديب فتميزه عن غير الأديب، وتجعل منه خالقاً ومن أدبه إبداعاً. ومن مزايا الدراسات السيكولوجية للأدب: إنها تجعلنا نفهم المضمون الأدبي أكثر، واتجاهات الأدباء، ونتذوق العمل الأدبي. وما من شك أن شخصية الأديب تؤثر في أدبه، وفي تذوقه واختياره لموضوعاته، وفي صياغته لأسلوبه ولغته، وفي بنائه لشخوصه ومواقفهم من الحياة. وكان لفرويد Freud (١٨٥٦ - ١٩٣٩) ولمدرسة التحليل النفسي Psycho-analytic school، وخاصة من بعده عند يونج Jung (١٨٧٥ - ١٩٦١) ومدرسة زوريخ، وعند أدلر Adler (١٨٧٩ - ١٩٣٧)، وشتيكل، وجونز، وجرافت، ورانك، وفون هيلموت، وسانجر، وجراف، وستوفر، ووايت وجيليف، ومن تابعهم: الفضل الأكبر في إيجاد نقد أدبي سيكولوجي من نوع جديد، والتوعية بالمبادئ اللاشعورية التي أوضحت الكثير من جوانب عملية الخلق الأدبي والتذوّق الفني، والتدليل على أن الأدب ظاهرة بيولوجية نفسية Psycho-biological phenomenon في المقام الأول، وانه تعويض متسام Sublimating compensation لرغبات لم تشبع، فالحرمان وما يترتب عليه من ألم ينشّطان الموهبة الأدبية، وبواسطة الإبداع الأدبي يعوِّض الأديب عما حُرِم منه، فيحل عالم الأدب عنده محل عالم الواقع. والحرمان يُذكّي الخيال، ومن شأن الفقر الذي تكون عليه ظروف الأديب الخارجية أن يدفعه إلى أن يكون له عالم داخلي غني يطرحه خارجه في رؤية أدبية عظيمة، وما من أديب، ولا فنان، ولا رسّام، ولا موسيقار حقيقي، إلا وكان يعيش في واقع مصادمٍ له، ويستشعر الحرمان، ويعاني من الجدب العاطفي. ويذهب أصحاب هذه المدرسة النفسية في الأدب إلى البرهنة على دعاواهم النفسية بالتغييرات التي تستحدثها ظروف الأديب الجديدة إذا انصلحت

بالنجاح أحواله المادية، فيتضاءل إنتاجه من ناحية الكم والكيف، وتنتفي عنه - للعجب - صفة الابتكار، وتضمحل ملكته الأدبية بتأثير الدعة والاسترخاء والإشباع الذين يصير إليهم مع الشهرة والرواج.

وطالما أن الأديب أو الفنان يعاني - كإنسان - سيكولوجياً حتى لكأنه كالمريض النفسي، وطالما أن الإبداع عموماً إنتاج فني أو أدبي يميّزه باعتباره مريضاً نفسياً، فإن معالجته من اضطراباته النفسية ستفسد عليه حتماً تفرّده وعبقريته، فعندما يعاني الفرد من الكبت أو الكفّ أو القمع، فإن غرائزه، لتتحصّل على الإشباع ولو رمزياً، قد تلجأ إلى الأحلام أو إلى التسامي الديني أو الأدبي أو الفني، كطريقة بديلة للإشباع، ولذلك كان الحب هو المحور الذي تدور عليه غالبية الأحلام والقصص والشعر والتصوير والنحت والإشراقات الصوفية. وكل الأدب الفني محوره الفَرَج أو البطن، فالأدب الجنسي أو الرومانسي هو من نوع أدب وفن الفرج، وإذا تطرّف كان الأدب المكشوف أو ما يسمى Pornography؛ والأدب الثوري أو الأدب الاجتماعي هو من نوع أدب وفن البطن، ومن ذلك رواية «البؤساء Les Miserables» (١٨٦٢)، ومن أمثال أدب الجنس روايات هنري ميللر Miller، كثلاثيته في سيرته الذاتية بعنوان: «Sexus»، و «Plexus»، و«Nexus» (١٩٤٥ - ١٩٦٠)؛ ومن أمثال الأب الفاضح أو المكشوف رواية لورنس Laurence: «عشيق اللادي تشاترلي Lady Chatterly's Lover» (١٩٢٧). ولا يمكن أن يحلم بالجنس إلا المحروم منه، وكذلك لا يمكن أن يتغنّى به إلا من كان معذباً به. والجوع إلى الجنس أو إلى الخبز - كما سنؤكد دائماً هو مصدر كل النشاط الفني والأدبي. وليس الشعر والموسيقى والرقص والكثير من التصوير والنحت إلا أشكالاً مثالية للرغبة والحرمان بأنواعه وبدرجاته. وليست اللذة المتحصّلة من مشاهدة الجمال ومعاينته إلا إشباعاً نفسياً جنسياً في حقيقتها، وهي لذلك قد تكون جزئياً سادية أو ماسوشية أو نرجسية، أو أساسها الميول الاستعراضية، ومنها أيضاً لذّة الأديب إذ يرى رواج روايته، أو إقبال الناس على مسرحيته، أو إنصاتهم لشعره، فيُرضي

ذلك غروره، وتتحقق به أحلامه في المجد والعظمة، ويولّد ذلك سعادة ترقى إلى التهيُّج الشبقي. والحب الذي يلهم كل الأعمال الأدبية الكبيرة هو الحب الذي لا يشبع نفسياً، وقديماً قال بلزاك (١٧٩٩ - ١٨٥٠) عبارته المشهورة: «إن كل امرأة ينام معها هي رواية لم تكتب»، أي ان ما يكتب هو قصة الحب اليائس. وبلزاك أيضاً هو القائل: «إن إيروس - إله الجنس - كان الأجدر أن يكون الماسك بقيثارة الشعر بدلاً من أبوللو - إله الشعر والموسيقى والفن»، يعني كان الأجدر أن يُنسب الإبداع إلى إيروس أو الجنس أو الرغبات الشهوية، وليس إلى نشدان الجمال للذة الجمال.

ويتصل الأدب اتصالاً وثيقاً بالحلم، والعمل الأساسي للأدب والحلم هو تحرير الغريزة من عقالها تحريراً رمزياً. والحلم والشعر كلاهما نتاج رغبات جنسية لم تتحقق ولم تجد الإشباع وكُبتت في اللاشعور، والفرق بينهما أن الإنسان العادي يتواصل مع اللاشعور أثناء النوم، بينما الشاعر بالإضافة إلى ذلك يمكنه أن يتواصل معه في اليقظة. «والشاعر» هو الذي يستطيع أن يخلق في حال اليقظة ما لا يستطيع أن يخلق «الانسان العادي» إلا في النوم. ومن غير الممكن أن يقوم شعر عظيم بدون حرمان، وكان ذلك سبب عظمة دانتي كما قال شوبنهاور، فقد استطاع دانتي أن يكتشف أن بإمكانه أن يحلم أثناء اليقظة، وأن يستعيض بالحلم عن الواقع، وأن يكون شعره تعبيراً عن حب عظيم. والشاعر أو الأديب عموماً أو الفنان، في موقف يتوسط بين الحالم والعُصابي، وفي حالة الحالم، والأديب، أو الفنان، والعُصابي فإن الثلاثة يهربون من الواقع إلى عوالم متخيّلة، إلا أن الحالم يفيق من حلمه مع اليقظة، والأديب أو الفنان يلجأ إلى الخلق والإبداع، بينما العُصابي Neurotic هو الوحيد الذي يستمر سادراً في عالمه المتخيَّل. ومع ذلك لا يخلو التعويض بالتسامي من بعض العُصابية، ويمكن أن يكون تعويضاً عُصابياً Neurotic compensation، كما إنه عند العصابيين قد تتسرب بعض الميول الأدبية والفنية فتكون لهم كتابات فنيّة في بعض الأحيان. وهناك الكثير من الابداعات الأدبية فيها الكثير من عناصر

العصاب والذهان مثل رواية: «Justine ou les malheurs de la vertu»، ورواية: «La philosophie dans le boudoir» للمركيز دي ساد. ومن رأي شتيكل Stekel (١٨٦٨ - ١٩٤٠): «إن الأديب يتخفف بالأدب، والشاعر يتداوى إلى حد كبير بالخَلْق، والإبداع الفني هو إفراغ وتنفيس وتطهير، وهو تحليل نفسي يتولاه الأديب بنفسه لنفسه. والإبداع الأدبي بالنسبة لأديب يعاني - هو غذاء»، والكثيرون يصفون إلهة الإبداع بأنها للأديب أو الفنان كالأم الحنون، والأدب والفن عزاء الأديب والفنان. والأديب يقارب في إبداعه الفني الانسان الانطوائي العصابي The neurotic introvert، ورغباته التي لم تشبع تقوّي خياله، وهو بالأدب يعود من الخيال إلى الواقع مع استمرار الحلم. ويقول فرويد إن الأديب الذي يحلم بالحب والمجد والسلطة والثراء تتحقق له أحلامه ورغباته وأمانيه من خلال كتاباته الأدبية، ويحصل بها على ما لم يكن له من قبل إلا في خياله.

ولا بد للأديب من أن يعرض أدبه على الناس، وأن يقرأوه ويطالعوه، ليشبع بذلك ميوله الطفولية للاستعراض أو للاستعراء. وهو يطرح في أدبه مخاوفه الطفولية من العقاب ليبرئ نفسه، وإنتاجه الأدبي هو نوع من الاعترافات، والكثير من الأدب العظيم هو اعترافات، وحتى في الأدب العربي كان هناك أدب الاعترافات، ككتاب المنقذ من الضلال للغزالي، والغزالي أديب عظيم ومفكر له تأثيره على الفكر الفلسفي الأوروبي والاعتراف من عمليات التحليل النفسي، وهو إسم آخر لميكانيزم من ميكانيزمات التحليل النفسي هو التداعي الحر Free association والأديب يحلل نفسه بالاعترافات، وهو في حاجة إلى قرّائه ومطالعيه، وهم بالنسبة له كالمحكمة، كما في مسرحية «الشرفة «Le balcon» لجانيه. والأديب في حاجة لأن يقف أمام محكمة نفسه وإلا فإنه يظل يعيش في قلق وصراعات، وتعتصره مشاعر الذنب. وطرح الأديب لمنتجه الأدبي في الأسواق ليس سببه حبه للظهور، أو إثبات وجوده على مسرح الواقع، أو أن ينال الشهرة والمجد فقط، ولكنه كي يتخلص من الرغبات المستعرة في اللاشعور والتي

تهدّد توافقه مع المجتمع والناس ونفسه، وينفض عن نفسه عقدة النقص ومشاعر الذنب التي تستولدها، والإبداع الفني هو تحرير لنفسه.

ومحبة الناس للأدب، والفن عامة، لأنهما عالم يمكن أن نهرب إليه، وأن نجد فيه العزاء والسلوى، والانسحاب إلى هذا العالم ليس انسحاباً ولكنه يكفي لكي يعطينا بعض الخدر اللذيذ الذي لا نستشعر معه بقسوة الحياة وسلطان مطالبها، وهو انسحاب بسيط لا يبلغ من العمق ما يكفي لكي ننسى به شقاءنا الواقعي كما يقول فرويد. وحتى بالنسبة للأديب أو الفنان فإن ما ينتجه لا يكفي ليتخفف به من شقائه فيعاود لذلك الكتابة والإبداع ليكتمل له التخفف والتطهر اللذان لا يكتملان أبداً.

والواقع أن نفسية الأديب أو الفنان لا بد أن تكون محلاً لصراعات نفسية لا تنتهي، وليس معنى ذلك أنه بالصراعات النفسية فقط يكون الأديب أو الفنان، فلا بد من الموهبة الأدبية أو الفنية، وليست هذه الموهبة ميلاً فطرياً للفنون والآداب، فهذا الميل يمكن أن يوجد للكثيرين ولكن القلة تكون لديها هذه الموهبة التي يتجه بها الحرمان والشقاء والتسامي إلى الابداع الأدبي أو الفني، ولا يمكن أن تتفتح الموهبة للأديب إلا بالمعاناة ومعايشة الواقع. وبعض الأدباء وخاصة في الشعر يمكن أن تستغرقهم عملية الإبداع فينصرفوا إليها، إلا أن الروائيين والقصّاصين والمسرحيين والموسيقيين والرسّامين يمكنهم كثيراً أن يوفقوا بين تفرّغهم للأدب وللفن وحياتهم العملية. وكل أديب أو فنان هو في الواقع إنسان يحاول أن يتوافق مع الواقع بشكل من الأشكال، ولو إلى الحد الأدنى الذي بدونه لا يمكنه أن يداوم البقاء في الحياة، والبعض كانت حياته زاخرة وحافلة ونشيطة، وتلك حالات نادرة لا يقاس عليها حيث الأغلبية يعانون من سوء التوافق. وقد لاحظ علماء النفس أن الأدباء والفنانين بوجه عام - كما سبق أن نوّهنا - يتصفون بما يتصف به العُصابيون، وأن حياتهم تمتلئ بالمآسي وتحفل بالصدمات النفسية، وقد تكون هذه الحياة الأسيانة هي السبب في هذه العصابية، كما قد يكون الميل الفطري

للإبداع هو السبب فيها، أو أن تكون العصابية هي التي تدفع إلى الإبداع.

❖ ❖ ❖

مراجع:

- Eysenck: Some Factors in the Appreciation of Poetry and their Relation to Temperemental Qualities.
- Jung: Modern Man in Search of his Soul. Psychology and Literature.
- Jung: On the Relation of Analytical to Poetic Art. Contributions to Analytical Psychology.
- Freud: The Relation of the Poet to Daydreaming. Collected Papers Vol.4.



- ٢ -
سيكولوجية الإبداع

البديع والمبدع ومعنى «الأصيل». البديع هو الكامل. مراحل الابتداع. الانفتاح والصراحة والاستقلالية عند المبدع. القلق الخلاّق. أنا المبدع. التدريب على التفكير الابتداعي...



الإبداع Creativity هو القدرة على خلق البديع الذي قد يكون رسماً، أو نغماً، أو فكرة، أو نظرية، أو تمثالاً، أو اختراعاً. والعمل المبدع لا يصدر إلا من شخص خلاّق مبدع، له خصائصه وتفكيره والخلفية الاجتماعية والثقافية، والظروف البيئية التي تواجهه بمشكلة في مجال تستعصى على الحل، ويعيها جيداً ويحيط بها فيتصدى لها، ويكون انتصاره عليها بما يقدمه من جديد مبتكر. ودراسة الابتداع إذن تقتضي دراسة العمل المبدع أو ناتج عملية الإبداع Creative resultant، وكذلك دراسة ما يكتبه المبدعون من تواريخ لحياتهم، والظروف التي أهّلتهم للإبداع، ومطابقة ما كتبوه أو ما كتبه الغير عنهم، ووقائع حياتهم. ولعل مثل هذه الدراسات تكون معيناً للنقاد عندما يكونون بصدد الحكم على عمل ما بأنه بديع، أو مبتكر، أو خلاّق، بمعنى أنه

«أصيل Original» ولم يسبق إليه أحد من قبل. وقولنا بأن العمل المبتكر أو البديع هو جديد في بابه، وأصيل ليست له سابقة، أننا ننسبه إلى مجال معين أو إطار مرجعي Frame of reference، فلا بد للحكم على عمل ما بأنه جديد أو أصيل أن يكون حكمنا عليه من خلال هذه النسبة، فالطفل الذي يأتي بسلوك غير مسبوق قد يكون مبدعاً بالنسبة لزملائه الأطفال، ولكنه ليس بالمبدع إذا قيس عمله إلى أعمال الكبار. وكذلك فإن ما قد يظنه شخص ما في مجتمع جديداً وأصيلاً، قد لا يكون كذلك في مجتمع آخر، ولذلك كان من تمام الجدّة والأصالة أن تكون نسبة الجديد للخبرة الإنسانية بعامة. وثمّة متطلبات أخرى في العمل لكي يكون مبدَعاً أو مبتكراً، ومن ذلك أن يكون كما قدّمنا حلاً لمشكلة قائمة، والتفكير الابتكاري Creative thinking في بابه هو نوع من التفكير في حلّ المشكلات، ولذلك كان لا بد للشيء كي يكون مبدعاً أن يأتي وفق المقتضيات التي تطلّبت التفكير فيه، وأن يخدم غاية ويتحقق به تقدم في مجال معيّن. وكل عمل فني أو علمي اعتُبر إبداعاً في مجاله كانت له غاية وتحقق به الارتقاء في هذا المجال، إلا أن الحلول التي قد تطرح للمشكلة التي عالجها العمل المبدع قد تكون جميعها حلولاً طيبة، ومع ذلك لم نعتبرها إبداعاً، وإنما كان هذا العمل وحده هو الإبداع بعينه بالنظر إلى أنه كان الأمثل الذي يلبي حاجات الموقف، والذي يمكن أن نرتاح إليه أكثر من غيره ويستحدث فينا إحساساً بالجمال والكمال. وجمال الشيء البديع في كماله، ويتأتى جماله وكماله من بساطته وتعقيده معاً، فهو البسيط الذي نرتاح إليه وإن أخفت بساطته تعقيده، وهو المعقّد شديد التعقيد الذي ينصرف تعقيده إلى الربط بين عناصره ربطاً محكماً يخلق منها وحدة بسيطة معجزة في بساطتها. وربما كان الشرط الثالث الذي لا بد أن يتحقق في الشيء ليكون بديعاً، هو أنه بظهوره وتحقّقه يخلق ظروفاً جديدة وتتغير به مواصفات وجودنا البشري، ولكي تكون له هذه الخاصة لا بد أن يتجاوز نطاق خبرتنا بواقعها الحالي، ويستشرف تغييراً في مسارها، بما يقدم من مبادئ أو أفكار

أو مفاهيم جديدة تتحدى القديم، وتغير من نظرتنا إلى الأشياء. ولعل خير نموذج نقدمه في هذا المجال للشيء المبدَع الذي يتجاوز زمنه ويستحدث التغيير الهائل هو: «النظرية الفلكية Astronomical theory» عند كوبرنيك Copernicus (١٤٧٣ - ١٥٤٣)، و«نظرية التطور Evolutionary theory» عند داروين Darwin (١٨٠٢ - ١٨٨٢)، و«نظرية التحليل النفسي Psycho-analystic theory» عند فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٩)، و«نظرية فائض القيمة Surplus-value theory» عند ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣)، و«نظرية النسبية Relativity theory» عند إينشتاين Einstein (١٨٧٩ - ١٩٥٥).

ومن صفات العمل المبدع أنه في أول الأمر يكون مجرد رؤية أو استبصار بالحل، ثم يأتي تحقيقه على مراحل، يكون فيها تقويمه وتطويره، ليأتي على الصورة المبتكرة التي هي كماله أو تمام صنعه، وبعد ذلك يكون تقديمه للناس منتجاً مبدعاً. ولربما يكون أيسر علينا أن ندرس الأعمال المبتدَعة دون ما يكتبه المبتدعون عنها، بالنظر إلى أن الشيء البديع هو الملموس والمحسوس، غير أن كتابات المبتدعين ومذكراتهم وما يصرحون به عما ابتدعوا، هي بمثابة التقارير الاستبطانية لعملية الخلق، وقد سهّلت على علماء النفس أن يتبينوا المراحل التي يتم من خلالها الابتكار أو الابتداع، وقيل إنها مراحل خمس، قد تُختَصر إلى عدد أقل، أو قد تزيد عن ذلك أحياناً. وأولى هذه المراحل: هي مرحلة الإعداد أو التأهيل للابتكار والابتداع، بأن يدرس المبتدع ويراكم المعلومات، ويكتسب المهارات والتقنيات، وتكون له عناصر الخبرة التي تمكّنه من استطلاع مشكلة من المشاكل في هذا الباب أو ذلك - من الخبرة أو المعرفة، وحتى تاريخ مواجهته للمشكلة، فإن حياة المبتكر تكون منصرفة إلى هذا التحصيل السابق. ويذهب بعض علماء النفس إلى أن هذا الانصراف إلى التحصيل يكون من بعد مواجهة المشكلة، وأن ماهية المشكلة هي التي تحدّد نوعية الخبرات والمهارات التي عليه أن يكتسبها. والإعداد والتأهيل الكاملان كثيراً ما يكون لهما المردود الفعّال على

الزمن الذي يستغرقه أن يصل المبتدع أو المبتكِر إلى حلّ المشكلة. ولقد بدأ أينشتاين مثلاً يفكر في المفاهيم الأساسية للفيزياء في علاقاتها بسرعة الضوء منذ كان طالباً في السادسة عشرة. واستغرق منه ذلك سبع سنوات أخرى من الدراسة المركّزة وتجميع المعلومات والحقائق قبل أن يدرك أن بإمكانه أن يحل التناقضات في النظريات المعاصرة، بالتوجّه مباشرة إلى المفهوم العادي للزمن، وبعد ذلك لم تستغرق منه كتابة أطروحته الثورية عن النسبية Relativity إلا خمسة أسابيع فقط، رغم أنه كان موظفاً في مكتب لتسجيل براءات الاختراع يضطلع بأعباء الوظيفة الكتابية شأن الموظفين. وقد يبدو أحياناً أن الكثير من الأعمال المبتكرة تأتي نتيجة الصدفة وحدها، فالعالم فليمنج (١٨٨١ - ١٩٥٥) إكتشف تأثير البنسلين بالصدفة، فلقد كان يصنع نوعاً من البكتريا التي من شأنها استحداث الصديد على شريحة زرع عليها فطر البنسلين، وتبين له أن البنسلين حلّل البكتريا. وكانت حادثة سعيدة وصفحة جديدة في علم الطب، ومع ذلك هل كان اكتشافه ذاك عملاً من فعل الصدفة وحدها؟ والذي لا ريب فيه أنه لولا خبرة فليمنج وعلمه الغزير وتخصّصه المتمكّن لما استطاع أن يتفهّم هذه الواقعة ويعلنها اكتشافاً علمياً. ومن قبله كان الناس يعرفون أن عَفَن الخبز - وهو البنسلين - يعالج الكثير من الالتهابات والتلوث، ولكن أحداً لم يرَ في ذلك ما رآه فليمنج. ويبدو أنه في مجال الفن يوجد الكثير من الإلهام Inspiration، لدرجة أنه قد يظن البعض أن الإعداد غير لازم فيه بالضرورة، إلا أن النقاد والمؤرخين ينفون ذلك بشدّة، فخلف كل الأعمال الفنية الكبيرة والمبتكرة كان هناك جهد كبير ومعاناة هائلة ومحاولات مستميتة، إلى أن يجد الفنان المبدع طريقه ويحدّد أسلوبه، ويخرج على الناس بالتحفة التي طالما حلم بها. وهناك موسيقيون معجزة من الأطفال قد نحسب أنهم بدأوا فجأة، إلا أن ذلك من الخطأ البيّن، فالطفل المعجزة Prodigy child يتدرب كثيراً حتى ليمضي النهار كله في التدريب وصقل موهبته وإنضاج قدراته.

والمرحلة التالية التي يعايشها المبتكر أو المبدع هي مرحلة الحضانة Incubation، وفيها تكون المشكلة التي يفكّر فيها، معه دائماً، وتلاحقه باستمرار، ويعيش بها شعورياً ولاشعورياً، ويحتضنها مركّزاً عليها انتباهه، وقد يستغرق ذلك وقتاً نسبياً، بحيث يتوجّه انتباهه تماماً للمشكلة وحلّها دون غيرهما، وكثيراً ما يحدث أن لا يوفق المبتكر أو المبتدع، وأن تواجهه العقبات ويصاب من كثرة التجريب والتفكير وإعمال الرأي بالإجهاد والتوتر والاكتئاب، وقد يدخل المرحلة الثالثة من باب أن يحمي نفسه مما يحلّ به من إحباط، فيتوقف لبعض الوقت، وقد نحسب أنه قد آثر السلامة وانسحب من الميدان، إلا أن تلك مرحلة نسميها «مرحلة ما قبل الاستبصار»، وفيها يكون توقفه وكأنما يحشد قواه النفسية ويعدّ نفسه لكَرّة أخرى على المشكلة، وهو ينتزع نفسه من التفاصيل ويبتعد قليلاً ليراها في منظور كلي، وعندئذ تأتي المرحلة الرابعة وهي مرحلة التنوير Illumination stage، ويلتبس التنوير عند البعض بالإلهام، ويكون في مرحلة التنوير الاستبصار بالحلّ وإدراكه، ويستشعر له بغثيان يصيبه، وتكون به نشوة غريبة حتى لقد يصيح مثل أرخميدس Archimedes (٢٨٧ - ٢١٢ق.م): وجدتها! وباليونانية Heureka ويشتهر نطقها Eureka. ويذهب بعض علماء النفس إلى أن فترة ما قبل الاستبصار هي فترة تريث وراحة، وأنها فترة ضرورية، حيث أن التفكير الابتكاري أو الابتداعي قد ينهكه طول التثبت على المشكلة ومحاولات تنظيم الخبرة، ثم صياغة المشكلة وإعادة صياغتها المرّة بعد المرّة. ومن شأن التوقف لفترة أنه عند البدء من جديد يكون الطرح المتجدّد للمشكلة ورؤيتها من زوايا جديدة. ويذهب علماء نفس آخرون إلى أنه برغم التوقف الظاهري إلا أن المشكلة تظل في التفكير الباطن حتى أنها تكون في الأحلام، وكان ديكارت Descartes (١٥٩٦ - ١٦٥٠) يقول بأنه رأى في حلمين فكرة الهندسة التحليلية: ويذكر فريدريك كيكوليه Kekulé (١٨٢٩ - ١٨٩٦) أنه رأى الحل في حلم تمثّل في ثعبان يستدير على نفسه ويعض ذيله،

فأعطاه ذلك فكرة الشكل الحلقي لجزء البنزين؛ ويذكر هنري بوانكاريه Poincaré (١٨٢٤ - ١٩١٢) تأكيداً لنظرية التفكير الباطن أن فكرة حساب التفاضل والتكامل جاءته وهو يخطو بقدمه على عتبة أحد الأتوبيسات، وكان الموسيقار موتسار Mozart (١٧٥٦ - ١٧٩١) يقول إن الأنغام تأتيه على شكل خطوط متموجة تظل تتحرك إلى أن تأتلف حركاتها في الموسيقى التي يكتبها. ولعله لذلك يقول علماء نفس آخرون إن التفكير الابتكاري هو تفكير حدسي Intuitive thinking. ومن رأي البعض أن المبتكر قد لا يرى في لحظة التنوير حلّ هذه المشكلة فقط ولكن حدسه أو بصيرته «تتفتح» على مشاكل أخرى وحلول لها تتعلق بالمشكلة الأولى وتفجّرها.

ولا شك أن المرحلة الأخيرة وهي مرحلة التحقيق Vertification من أهم المراحل التي يمرّ بها التفكير الابتداعي أو الابتكاري. فالمبتدع إذ يتوصل إلى حلّ المشكلة أو يكتشف الجديد يكون عليه أن يتحقق من صدق ما توصّل إليه والتجريب عليه، واختبار صدقه وتطويره وطرحه حقيقة واقعة، فالرؤية التي تجيء الفنان لا بد أن يجسدها في الألوان والأشكال، أو ينحتها في الحجر، أو يكتبها كلمات وحواراً وفصولاً وأبياتاً شعرية أو عبارات موسيقية. والفرض الذي يتوصل إليه العالم يتوجب عليه أن يختبره بالملاحظة والتجريب. وهناك معايير للحكم على الإبداع الفني تختلف عن تلك التي تستخدم في مجال الإبداع العلمي، بسبب اختلاف الموضوعات، إلا أنه لا بد في كل الأحوال من أن تكون هناك محاولات يتحقق من خلالها العمل البديع الفني أو العلمي. ولربما يكون من الأيسر أن نرى رأينا في الإبداع العلمي بالنظر إلى أن مجاله لا يخضع للذوق، إلا أنه حتى في الابداع العلمي هناك اختلافات لا بد منها، فمثلاً كان من الميسور التحقّق من صدق نظرية النسبية من ملاحظة واحدة لحالة الكسوف الشمسي، بينما اقتضى الأمر إجراء آلاف التجارب على العقاقير النفسية المسماة بالمهدئات للتأكد من صدق تأثيراتها على الجهاز العصبي.

وهذه المراحل الخمس السابقة قد

تتحصل في عملية الابتداع تباعاً وبالترتيب الذي أوردناه، أو قد تنضغط وتتداخل وتُختَصر. وقد تستغرق وقتاً قد يستمر لسنوات كما في حالة أينشتاين ونظرية النسبية، وقد لا تستغرق إلا أقل الزمن كما عند ارتجال الشعر المعجز والكثير من الموسيقى المبهرة. وعملية الابتداع عملية شديدة التعقيد فيها التذكر والتفكير والتصور، وفيها الكثير من الدوافع، وتتضمن إصدار القرارات. وهناك الكثير من الدراسات حول شخصية المبتدع. وتقيس الابتداع إختبارات الابتداع Creation tests. ويتميز المبتدع بأنه إنسان ذكي، أو انه في الابتداع لا بد من قَدّر من الذكاء قد يختلف من مجال إلى مجال آخر، لكنه في كل الأحوال لا بد أن يكون ذكاء المبتدع فوق المتوسط. والذكاء وحده لا يكفي. ويُروى أن توماس هكسلي Huxley (١٨٢٥ - ١٨٩٥) عالم الأحياء الأشهر وكان معاصراً لداروين، عندما سمع بنظرية التطور صاح متعجباً كيف لم تعنّ خواطرها له وهو يعرف كل حقائقها التي قامت عليها. والأهم من الذكاء أن تكون للمبتدع القدرة على استخدام الذكاء بكفاءة عالية، ويبدو أن صفة «الانفتاح» التي نوَّهنا عنها من أهم صفات المبتدع، وبقدر ما هو منفتح على ما يأتيه من العالم الخارجي من مؤثرات فإنه أيضاً منفتح على تجاربه الباطنة، ويستقبل المدركات الحسية ولها عنده معان ومتضمنات. وانفتاحه يجعله صريحاً يكشف باطنه، ومرناً مع الناس والمواقف، ويريد أن يتواصل بالغير. ومع ذلك فهو المستقل بتفكيره وسلوكه والذي لا ينتمي عن غير تعمّد، إلا أن هموم جماعته تعنيه ويصدر في قراراته عن التزام بمشاكلهم برغم أنه لا يلتزم بتقاليدهم. وصراحته تصادمه مع الغير، ونقده حاد يأخذ به حتى نفسه، ويغيّر باستمرار في قراراته، ومستعد لتقبل ما يقتنع به من غير حساسية، وأن يبني عليه ويطوره. وثقته في نفسه تجعله دائباً على العمل ولا يعوّل على أحد. وفكرته عن ذاته عالية جداً حتى ليتصرف وكأنه الذي على يديه خلاص الناس وارتقاء العالم وحلّ المشاكل، ومع ذلك فهو المتواضع شديد التواضع وبه رقّة كالنساء. واحتماله

لأعباء عمله تجعله مجاهداً، وذكورته ضرورية لكي تكون به هذه العدوانية التي تدفعه إلى مهاجمة المشاكل والتصدّي لها حتى يبلغ فيها إلى الحل، إلا أن سلوكه الأنثوي ليحجب أحياناً ذكورته. والمبتدع يتميز بالطلاقة في التعبير، ويقصد إلى العبارة التي ينشدها من أيسر سبيل، وطلاقة تعبيره تكون بحسب مجاله، فإن كان موسيقاراً فهي بالأنغام، وإن كان رسّاماً فبالألوان والخطوط، وإن كان نحّاتاً فبالأوضاع، وإن كان رياضياً فبالأرقام والرموز. والمبتدع الفنان يتميّز بحسّ وجداني عال؛ والمبتدع العالم له القدرة العظيمة على التفكير، وفي كل الأحوال هو الذي يرى ويسمع ويفكر ويتصور كما لا يفعل الناس، ولا تحدّه الحدود، ولا يعاني من العُقَد والكوابت والقوامع، ولكنه يعاني القلق أثناء الخلق والابتداع، ولكنه ليس القلق العصابي وإنما القلق الخلاّق، وقيل هو قلق ينفرد به المبتدعون، وأنه طوال عملية الخلق والابتداع تكون به عصبية Nervosity، إلا أنها ليست العُصابية Neuroticism وإن كانت تجعله مغرباً في السلوك بعض الشيء. وقد يلبس كما لا يلبس الناس، وقد يتّسم ببعض الشذوذ، إلا أن المبتدعين عموماً أسوياء بدنياً ونفسياً وعقلياً، وأهم ما يميّزهم أنهم القادرون على السيطرة على الأنا والتحكم في انفعالاتهم. ودراسة حياة المبتدعين تجعلنا نجزم أن الابتداع ربما يتوافق وظروف خاصة تكون لهم في طفولتهم، وقيل إن الملاحظ أن الغالبية منهم كانوا أيتاماً، وكانت لهم طفولة بائسة، وأشرفت أمهاتهم على تربيتهم، وعاشوا معهن في التصاق شديد ألهب فيهم الحسّ الأنثوي، وأوقد جذوة الذكاء والخيال والطموح، وجعل لهم حياة باطنة ثريّة لولاها لما كانت توجهاتهم الابتداعية المستقبلة. وحتى من تربّي منهم في أحضان الوالدين، ولم يعانِ المعاناة السابقة، فإن حياته اتسمت بالاستقلالية وتشجيع والديه له على أن يكون له تفكيره وسلوكه المستقلان، وأن تكون له الحرية التي تيسر له الاستكشاف وأصدار القرارات، وكانت في محيطه العائلي أو بيئته الاجتماعية نماذج جيدة يقتدى بها ويتمثل قيمها ويكوّن على منوالها أناه

المثالي. وكانت المعايير التي يأخذ بها من الوضوح بحيث يسهل عليه أن يتمثّل معاني وموضوعات الخير والشرّ، والحقّ والباطل، والصواب والخطأ، والجميل والقبيح. ويميّز حياة المبتدعين جو التدريب على التفكير الابتداعي الذي كان لهم في حياتهم وعبر مراحلها المختلفة، واختلاف ما نشأوا عليه من الطرق التربوية التقليدية. وينفي المؤرخون الدارسون لحياة المبتدعين أن تكون لهم بيئات متزمتة، أو أن يكون قد أخذهم أحد بالنظام الصارم، أو أن تكون طريقة التعلّم عندهم هي طريقة الحفظ بدون فهم. ويروون أنهم منذ الطفولة كانت لهم أسئلة تُحتَرم من قبل ذويهم ومدرّسيهم، وأن خيالاتهم ما كانت تُسَخّف، وأن أفكارهم كانت تُقابل بالاحترام، وأن استجاباتهم ما كانت تواجَه بالتهديد بالتقويم الخارجي، غير أنه بالنظر إلى أن المبتدع يميل بطبعه إلى المعقّد عن البسيط، والتسامح مع الغامض، ونقصان التصلب الوجداني والمعرفي، والانفتاح الذهني، وروح الدعابة، والميل إلى القَدَرية، وسعة الخيال، فإنه قد يصدّق كل ما يقال له ويسايره لتجربته، ويُروَى الكثير عن سذاجة مبتدعين من أمثال كوبرنيك، ورمبرانت، ومايكل أنجلو، وبيتهوفن، وجوته، وفرويد، وداروين، وأينشتاين. وقيل مثلاً إن فرويد وهو عالم النفس الذي له عمق النظرة قد صدّق لفترة الفلسفة الحروفية التي للأعداد والحروف وأخذ بها وسايرها لبعض الوقت، وأن أينشتاين قد أخذ بالفكرة الصوفية وكان أوقيانوسي Oceanic النظرة كما يقولون أي شمولياً كونياً، وأن داروين كانت له بساطة أهل الريف حتى كانوا يتحدثون عنه باسم «القروي The villager».

والمبتدع بالإضافة إلى الذكاء الذي نوهنا عنه ينبغي أن تكون له قدرات خاصة بحسب مجال تخصّصه الذي يكون فيه إبداعه. ولا يتأثر الابداع بالسن كثيراً، وقد ثبت من الدراسات المختلفة أن المبتدع يظل ابتداعه وابتكاره طوال العمر، إلا أن هناك فترات يبدو فيها كما لو كان معين الابتداع قد نضب، أو أن هذا المعين قد أخذ يدر بغزارة وثراء. ويختلف ذلك أيضاً بحسب مجال

الابتداع، ففي الرياضيات والشعر مثلاً ثبت أن أفضل القصائد وأعظم النظريات وضعها المبتدعون في سن العشرينات، بينما كان تأليف أفضل الروايات والقصص عند الروائيين والقصّاصين في سن الثلاثينات وحتى في الشيخوخة. وفي العلوم الطبيعية لوحظ أن أحب سنين العمر هي السن بين السادسة والعشرين والثانية والثلاثين. وبرغم ذلك كانت هناك أعمال مبتكرة عظيمة وكثيرة في كل الأعمار حتى سن الثمانين وما بعدها. وقد يحدث أن المبتدع يُشغَل بالحياة والوظيفة، وتكوين الأسرة وإعالتها وتأمينها، حتى ليؤجل إبتداعه إلى سن يستطيع فيها أن يواصل بحوثه وقراءاته. وقيل إن فرويد تأجل اكتشافه للعُصاب وسبقه إليه بروير بسبب انشغاله بميعاد غرامي مع زوجته المستقبلة. وعندما تستقر أمور المبتدع فقد يعود إلى قراءاته التي يحبّها وبحوثه التي تركها، وقد نسمع آنذاك عن أعمال بديعة يأتيها في سن متأخرة. ويعوق الابتداع أن يكون هناك قصور في ثقافة المبتدع، أو أن تعوقه ظروفه والبيئة الاجتماعية غير المشجعة أو المعلومات المغلوطة، أو تكون له اتجاهات ثابتة وآراء جامدة، أو تكون دوافعه غير كافية أو دوافع مادية محضة أو ذاتية خالصة، أو كانت به مخاوف من أن يساء فهمه، أو ينبذه قومه أو يصدم الناس من حوله. وقد تكون له طرق في التفكير والبحث تجعله دائم الشك ويغالي في التحليل، حتى ليذهب فيه بعيداً عن دائرة المشكلة ويدخله في متاهات فكرية وتجريبية، ويصرفه إلى المزيد من القراءة والتحصيل حتى ليشغل بذلك دون ما يعالج من مشاكل وما يتصل بها مباشرة.

وقد يبدو أنه في الابتداع والابتكار يختلف الذكور عن الإناث، ويكاد يكون الابتداع تاريخياً وقفاً على الذكور دون الإناث، وهناك مجالات تقتصر بالكلية على الذكور دون الإناث، إلا أنه مع الظروف المتغيرة حالياً والتنشئة الاجتماعية المختلفة بدأت الإناث يتعرضن للتربية نفسها التي يتعرض لها الذكور، ومن ثم صارت النساء يشاركن في مختلف الأنشطة الاجتماعية والعلمية

والأدبية والفنية والوظيفية، وبدأت تظهر لهن إبداعات ملحوظة، وإن كان أكبر إبداع يمكن أن يكون للمرأة هو إنجابها للأطفال وتنشئتها لهم بحكم تكوينها البيولوجي، وحتى من كانت لهن أنشطة فكرية من النساء فإن الإنجاب كان متساوقاً مع الإنتاج الفكري، وهو مثلاً ما علمناه من حياة الروائية جورج صاند George Sand (١٨٠٤ - ١٨٧٦)، والعالمة مدام كوري Marie Curie (١٨٦٧ - ١٩٣٤). وربما تكون المرأة أكثر عصبية من الرجل، وربما تعاني من قلق أساسي وتفتقد الاستقرار الانفعالي والإيجابية والمبادأة اللازمة لعملية الخلق والابتداع، إلا أن البعض قد يكون بهن المطلب الذكوري Masculine protest بتعبير أدلر، وربما ينشدن لذلك بتأثير عُقدة الذكورة Masculinity complex الدخول في منافسات مع الرجال، وأن تكون لهن اتجاهاتهم وميولهم، ومن ثم يدخلن ميدان الابتداع والخلق والابتكار. ومع ذلك فقد قيل أيضاً من ناحية أخرى إن المبتدع رغم ذكورته به بعض الأنوثة، وكذلك فإن بعض المبتدعين يعاني من اضطرابات نفسية واضطرابات في الشخصية، إلا أنه في الابتداع عموماً تلزم للذكور والإناث بعض المعاناة النفسية التي لا شك فيها. ويختلف المبتدع من جهة العصبية عن غيره، ويزيد به القلق، غير أنه يسيطر على قلقه وعلى عصبيته، وكانت الاختبارات النفسية في صف: القليل من الاعتلال النفسي مع الكثير من الذكاء وثراء الشخصية، والصراحة في التعبير، والميل إلى النقد الذاتي، وأخذ النفس بالشدة والاعتراف بأوجه القصور، وأثبتت أيضاً أنوثة المبتدعين أو اهتماماتهم وطرائقهم الأنثوية في التعبير من جهة العواطف والمشاعر، وبلغة يونج فإن ذكور المبتدعين لا يتعينون تماماً بأدوارهم الذكورية، وأن أنوثتهم تجعل لهم حساسية للخبرات الباطنة، حتى انهم ليحدسونها ،ويضفون عليها إيحاءات تجعلهم يميلون إلى الانطواء وإن غالبوا أنفسهم أن يكونوا منبسطين، ولعل هذه المراوحة بين الأنوثة والذكورة بمقتضياتهما، وبين الانطواء والانبساط، هي ما يجعل سلوك

المبتدع على غير المألوف حتى ليُتّهم أحياناً بالشذوذ أو الإغراب.

مراجع:

- Wertheimer,M: Productive Thinking.
- Koestler, A: The Act of Creation.



-٣-
سيكولوجية الأحلام
Dream Psychology

الأحلام وضرورتها، وأنواعها، وأنماط الناس الذين يحلمون، والأسباب التي من أجلها نحلم، والفرق بين أحلام الكبار وأحلام النساء، وأحلام الأطفال.



الناس غالباً عمليون وماديون، ورغم أنهم أنماط، إلا أن النمط العملي المادي هو النمط السائد الذي كثيراً ما نلتقي به في الحياة، وكذلك صار الفنانون والأدباء عمليين وماديين، وصارت نظرياتهم في الفن نظريات عملية مادية، تهتم بتصوير حاجات المجتمعات والشعوب والأفراد، وبلغة علم النفس فإن ما يهم الجميع اليوم هو الأشخاص كأنا the «I»; the ego، وكَهُوَ the «he»; the unconscious، وأما بواطن الناس ونواياهم وما تنطوي عليه أفكارهم وتحتوي عليه عقولهم، فذلك ما لا يهتم به أحد، وعلم الباطن هذا هو الذي نسميه علم اللاشعور the unconscious. والأنا ego هو الجزء المستور من النفس والذي يتعلق غالباً بالماضي، والناس يعنيهم الظاهر دون الباطن، ويهمهم أن يعرفوا من أمر الذات والأنا ما يساعدهم في لقاءاتهم مع غيرهم بحيث يخرجون من هذه اللقاءات بحصيلة من الفوائد، أو بحيث يستطيعون أن يتنبأوا بسلوكهم فيكيّفون أنفسهم على ذلك، ويغيّرون من معاملاتهم، ليجنوا أكبر الفائدة. وسيكولوجية الأنا ego-psychology تجد رواجاً معاصراً دون سيكولوجية اللاشعور unconscious psychology، سواء من الناس العاديين أو من علماء النفس. وتقوم سيكولوجية

الأحلام Dream-psychology على الإحاطة بمجريات اللاشعور، فليس ما يظهر في الحلم هو حقاً موضوع أو معنى الحلم Dream-thought، والحلم نفسه Dream-text كجبل الثلج، ما يظهره من أحداث the d.-phantasies هو شيء بسيط جداً يعلو على السطح، بالنسبة لما يخفيه تحت السطح وفي الأعماق the d.-problem، والإحاطة بسيكولوجية الحلم هو ما نعرفه باسم تحليل الأحلام Dream-analysis. وكانت الأحلام وما تزال من أهم وسائل الكشف عن ديناميات الشخصية ومكوناتها النفسية وأبعادها. وإذا كانت مذكرات الشخص أو يومياته أو كتاباته التي بينه وبين نفسه هي من وسائل الإحاطة بما يفكر فيه الشخص، وما يدور في نفسه، وما يخبئه ولا يفصح عنه إلا لماماً، فإن الأحلام هي الأكثر فائدة في هذا المجال، وذلك لأن الكبت Repression يعمل عمله في الكاتب عند كتابة المذكرات أو اليوميات، أو ستر الأشياء، والتمويه على القارئ، وأما في الحلم فالكبت أقل عملاً؛ والحلم أقدر على التعبير عن الأماني والرغبات والحاجات والآمال والمخاوف التي تعجّ بها نفس صاحب الحلم.

والحلم سجل للشخصية، وإذا كنا نتميز عن بعضنا البعض في المشي أو الكلام أو الكتابة بطريقة معينة نُعرف بها وتكون علامة علينا، وإذا كان في استطاعتنا أن نوجه كلامنا أو نصطنع الكتابة أو المشي بطريقة مختلفة للتمويه، فإنه في الأحلام لا سبيل لنا للاصطناع، فنحن في الحلم على سجيتنا، ونعبّر عن أنفسنا بتلقائية.

ولا تراعي الأحلام الأصول الاجتماعية، وتوصف بأنها وسيلة إسقاطية، بمعنى أننا نسقط فيها كل ما نتمنى ونرغب متحررين من أية قيود اجتماعية، ونُخرج كل ما عندنا من المعاني، وكل مشاعرنا، بعفوية لا يمكن أن نجدها في أي موقف آخر. ونحن في الأحلام نتخيل ونمارس الخيال، غير أن خيالاتنا في الأحلام ليس فيها إعمال وتكلف واصطناع كممارساتنا له في الكتابة مثلاً أو في التمثيل.

والحالم في حلم النوم Night-dream ليس كالحالم في حلم اليقظة -Day

waking dream or d.، فإن كان حلم اليقظة إهتمامه بالحاضر، ومشاهده الخيالية لأحداث مستقبلية، فإن حلم النوم يتوجّه بمشاهده إلى الماضي وإلى المستقبل معاً. والحلم منه ما هو هروب من الحاضر إلى الماضي، وما هو هروب من الحاضر إلى المستقبل، ففي الحلم تتصارع الرغبات، وبعضها من الماضي يدفع إليه الندم، وبعضها يمت بصلة للمستقبل ويستشرقه، والحلم ينظمها جميعاً بعد شتات، وينفخ فيها حياة جديدة، لها وحدة درامية فريدة تجعل كل حلم نسيج وحده، وتضمه لبقية أحلام الشخص، كفصول المسرحية الواحدة أو تابلوهاتها المتابعة، فيفسّر كل حلم أحلاماً أخرى ويضفي عليها معان جديدة. وحتى لو لم تكن الأحلام تهمّ الحالم، فإن عملية الحلم Dream-process نفسها ضرورية كنشاط حيوي، والكثير من الناس يحلمون أحلاماً مبهرة تعطي لحياتهم بريقاً ولمعة ليست لها، وكأن الأحلام تعويض أو استكمال لحياة تخلو من كل بهرج أو جمال.

والحالم قد يحلم لأنه يريد أن يحلم، وكان المصريون القدماء يستجلبون الأحلام ليستلهموا منها حلول مشاكلهم وعلاج أمراضهم، ومن ذلك حلم فرعون يوسف في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ المَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ(٤٣) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ(٤٤) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ(٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ(٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ(٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ(٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ (يوسف: ٤٣ - ٤٩)، فلو لم يكن مشغولاً بالفيضان وبالمحصول ما كان يمكن أن يحلم هذا الحلم. وكان الملوك والغزاة

والفاتحون يطلبون الأحلام ويعيّنون في بلاطهم المفسّرين، لعلهم يستفتحونها تواريخ الأحداث الكبرى والنتائج المترتبة عليها، وفي عصرنا من يفعل ذلك، وقيل إن السادات استجلى الأحلام وطلب المفسّرين قبل هجومه على خط بارليف في حرب التحرير، والكثير من الروائيين سعوا أن يحلموا بنهايات لوقائع رواياتهم.

وللأحلام لغتها ومنطقها Their language and logic، فهي نشاط ونتاج إنساني، ومن ثم كان لا بدّ أن تُطبَع بالطابع الإنساني، ولا بدّ أن تشترك الأحلام عند كل الشعوب في بعض الصفات، وهذا هو الجانب الإنساني العالمي فيها، ويلزم لهذه اللغة المشتركة كتيبات يؤلفونها كقواميس للأحلام Dream-dictionaries، مع فارق أن معاني بعض النباتات أو الحيوانات قد تختلف باختلاف الثقافات، فمن يحلم بالخنزير مثلاً في بلاد الإسلام قد يؤوِّل الحلم تأويلاً مختلفاً عما يمكن أن يؤوِّله الحالم من دائرة الثقافة الأوروبية والتي فيها الخنزير محلل أكله بعكس بلاد الإسلام.

ويبدو أن الناس يتباينون في الأحلام كنشاط إنساني إبداعي تباينهم في سائر الأنشطة الإبداعية بحسب أجناسهم، والملاحظ أن الساميين هم أكثر شعوب العالم إهتماماً بالأحلام، ولذا قيل إن الشعوب السامية شعوب ميتافيزيقية وليست فيزيقية، ولذلك أبدعت الديانات وهي من مجال الميتافيزيقيا، وكانت أقدم مؤلفات في الأحلام سامية، وقيل إن أقدم كتاب في الأحلام كان ورقة بَرْدى مصرية (والبردى نبات مائي كالقصب يُصنع منه الورق قديماً) من الأسرة العشرين يرجع تأليفها إلى زمن بين السنوات من ٢٠٠٠ إلى ١٧٩٠ق.م، وقيل إن البابليين مهروا في تفسير الأحلام، وكانوا يعتبرونها رسالات سماوية منبئة أو منذرة أو مبشرة. وكان مفسرو الأحلام يشكلون طبقة عليا من المجتمع، ولا تخلو منهم مدينة ولا قرية، وكانوا نوعاً من الكهنة. وكان الناس يذهبون للمعبد وينامون فيه لعلهم يحلمون بحلّ لمشكلتهم أو مرضهم. وكان الاسكندر الأكبر (الاسكندر وشهرته الأكبر، وذو القرنين (٣٥٦ - ٣٢٤ق.م، وكان من أكبر الغزاة

والفاتحين) يحلم ويهتم بتفسير أحلامه ويراعي التفسير في قراراته، وكذلك فَعَل رمسيس الثاني (من أمجد ملوك مصر ١٢٩٢ - ١٢٢٥ق.م) وحلم ابراهيم أنه يقتل إبنه اسماعيل، وحلم الامبراطور (أشور بانيبال ٦٦٨ - ٦٣٣ق.م)، وتحتمس الرابع (من ملوك مصر عاش نحو سنة ١٤٢٠ق.م)، وعرفنا أحلامهم لأنها كانت محورية في سيرتهم الذاتية، وفي تحريك الأحداث في العالم. وتقوم سيكولوجية الحلم على أن الأحلام تأتي الناس أصحاب الشفافية، وأن الأحلام إما رغبات لم تتحقق، أو نرجو أن تتحقق، وإما أخبار ننتظرها ونتوقعها لأحداث نخشى مغبتها. وكما في الأحلام دراسات سيكولوجية، كذلك فيها دراسات انثروبولوجية. وهناك نظريتان فيها، إحداهما تُرجع الأحلام كرؤى إلهية وتجسّدها كتعبير عن القَدَر، وعن الإيديولوجية الدينية السائدة في الأمة، والثقافة التي تميّزها؛ والأخرى نظرية عقلانية تعامل الأحلام كرؤى خاصة بالأفراد وتصنّفها كأنماط، وتعمد إلى تفسيرها وتحليلها وتأويلها باجتهادات فلسفية، والنظريتان موجودتان في الثقافة العربية، فابن سيرين (محمد بن سيرين، ٦٥٣ - ٧٢٩م، إشتهر بتعبير الرؤيا، ويُنسب إليه الكتابان «تعبير الرؤيا» و«منتخب الكلام في تفسير الأحلام») يقسّم الأحلام إلى قسمين: فقسمٌ من الله، وقسمٌ من الشيطان، ويطلق على الحلم من القسم الأول «الرؤية الصالحة»، وينسب إلى الثاني: أن بعضها أحلام فسيولوجية، مصدرها الجسم وما يصيبه من امتلاء بالطعام أو خلوه منه، فالجائع يحلم بالخبز، والمحروم جنسياً يحلم بالنساء، وبعضها أحلام نفسية فيها الآمال والمخاوف والأحزان.

ومن عباقرة سيكولوجية الأحلام في العربية عبد الغني النابلسي (١٦٤١ - ١٧٣١م وله في التفسير «تعطير الأنام في تعبير المنام»)، ويذهب إلى نظرية في مصدر الأحلام، فيقول: إن النائم يرى في منامه ما يغلب عليه من الطبائع الأربعة، فإن غلبت عليه السوداء، رأى الأحداث والسواد يجللها، والأهوال والأفزاع تتخللها؛ وإن غلبت عليه

الصفراء، رأى النار والمصابيح المعصفرات؛ وإن غلب عليه البلغم، رأى البياض والمياه، والأنهار والأمواج؛ وإن غلب عليه الدم رأى الشراب والرياحين والمعازف والمزامير. ويطلق النابلسي على هذه الأحلام إسم الأحلام النفسية، أو الأحلام التي من هِمّة النفس، ويقول: «إنَّ أنصح الرؤى هي البشرى، وهي التي تبشّر الرائي بالخير، بعكس الرؤيا الزاجرة التي تحذّر الرائي من شيء من الأشياء. والرؤيا البشرى صريحة، بعكس الرؤيا الزاجرة، وهي المرموزة التي تكثر فيها الرموز، كأن يحلم الشخص بأن زوجته تخونه، فيراها تدسّ له السمّ، والسمّ هنا رمزٌ للزنى؛ أو كأن يرى الرائي نفسه يغنّي في المسجد بدلاً من أن يصلي، فذلك رمزٌ إلى إتيان المعصية وافتضاحه». وابن سيرين يُخضع سيكولوجية الحلم في العربية أو في الإسلام للمكان والزمان ولنوع الثقافة. ويقول النابلسي: «واعلم أن تربة كل بلد تخالف غيرها من البلاد، لاختلاف الماء والهواء والمكان، ولذلك يختلف تأويل كل طائفة من المعبرين باختلاف الطبائع والبلدان، كالذي يرى في المنام في بلاد الحر ثلجاً أو جليداً، أو بَرَداً ، فإنه يدل على الغلاء والقحط؛ وإن رأى الرائي ذلك في بلد من بلاد البرد فإن ذلك لهم خصباً وسعة. والوحل لأهل الهند مال، ولغيرهم محنة وبلية. والسمك في بعض البلاد عفونة، وفي بعضها مصيبة».

ويذهب كثير من ثقاة الأنثروبولوجيا إلى ردّ الصور الحلمية إلى بداية الإنسانية، وأنها بمنزلة الفطرة، ويقولون إنها لغة بدائية، وتشبه لغة الديانات البدائية، وكأنما التفكير البدائي أو الفطري يجمع بين الاثنين، ولعل ذلك سبب القول إن بعض الأحلام مصدره إلهي، وكل الثقافات بها ما يثبت أن البعض يردّ بعض الأحلام إلى الوحي الإلهي، وفي تصنيفها أن الأحلام إما رؤى وإما منامات، والرؤيا صادقة لأنها موحى بها، والمنام يحتاج إلى التفسير ومصدره الشخص نفسه والظروف المحيطة به. وكان القدماء يؤمنون بما يسمى الاحيائية Animism، نسبة إلى الأحياء، بمعنى أن كل ما في الطبيعة هو حيٌّ بحياة، حتى الجبال والصخور والمياه والمعادن. وفي

العلم الحديث فإن ذرة كل عنصر تشتمل على النواة وحولها تدور إلكترونات ونيوترونات، إلخ، وهذا الدوران دليل حياة حتى في أعتى الصخور صلابة وأقوى المعادن. وكان الناس قديماً يرون أن قوى الطبيعة في تواصل، وأن كل الأرواح والحيوانات على اتصال، وأظهر ما يكون ذلك في الأحلام، وفيها تبوح الكائنات والموجودات بأسرارها. وكان ابن سيرين - هذا العبقري العربي - يقول: إن الناس يرون الرؤيا بالروح Spirit، ويفهمونها بالعقل Mind. وعنده أن مكان كل حركات الحياة القلب، والقلب هو روح الإنسان، ويتصل بالدماغ، ويؤثّر في النفس، فالقلب المريض يعني أن الروح مريضة، ومن ثم فالدماغ والأعصاب والجسم كله مريض، وكذلك في كل الانفعالات والمزاجات، فإذا نام الإنسان إمتدَّ روحه مثل السراج أو الشمس واتصل بهذا وذاك، ورأى من يحب، وخاف من يكره، وتمنى وأمِل، وبذهاب النوم ترجع إلى النائم نفسه، فتعود الحواس باستيقاظه إلى أفعالها العادية.

وهناك رأي يصنّف الحسّ إلى حِسّين، الحسّ الروحاني والحسّ الجسماني، والروحاني Spiritual علوي وأشرف من الجسماني ويدل على ما سيكون؛ والجسماني Carnal خسيس، ويدل على ما هو موجود، يعني أن الأرواح في الأحلام تستشرف ما سيكون، وأنها تستبطن النائم، وتظهر بواطنه، وتكشف مكنونه، وتعرّي أسراره.

وزيارة القبور من العبادات، ومصدر هذه الشعيرة هو الأحلام، فإذا كان الميت عزيزاً فإننا نزوره تأكيداً للتواصل بيننا وبينه، وأهم من ذلك أن نجعل الزيارة سبباً لأن يردّ الميت زيارتنا له بزيارة مماثلة في الحلم. ولولا أننا نعجب لحشود الأحلام التي نحلم بها وتنوعها، لما كان اعتقادنا في زيارة الجبّانات، فعالم الأحلام الحافل هو عالم روحاني، والدليل على ذلك أننا ونحن نيام، والمفروض أن تتعطل كل الحواس، فإن حاسة الأحلام تنشط حينئذ لتواصل حياة النائم وتحقّق له ما كان يتمنى، وما كان يلح عليه على هيئة رغبات شديدة. والأحلام هي السبب في قولنا بالروح Soul; spirit; nous; psych; pneuma، وأنها

كائن يتخارج عنا، ويجوب الآفاق ويعود إلينا مع نهاية الحلم ليواصل عمله في الجسم، وذلك يدل على أن الروح لا تنام بينما ينام الجسم، وأن مجالها الأحلام في النوم، كما أن مجالها الحياة الخارجية في القظة، وما كان يمكن أن نقول بذلك لولا الأحلام ومعرفتنا ودراستنا لسيكولوجيتها. والأحلام هي سبب قولنا بفكرة الخلود Eternity ، لأن النوم موت أصغر، والروح فيه تتجوّل إلى الجوار، فإذا كان الموت الأكبر فلا بد أنَّ الشيء نفسه يحدث معها إلا أنها لا تعود فيه إلى الجسم، فرحيلها هذه المرة رحيل بلا عودة، والروح إذن موجودة ولا يعتريها الموت كالجسم، وهي كائن خالد، فإذا وقع عليها عقاب، أو نالها ثواب، فلا بد أنهما خالدان بخلودها، ولذا قيل بجهنم وبالجنة خالدين فيهما. والأحلام أكبر دليل على وجود الله، وأنه حيّ لا تأخذه سِنَة ولا نوم، فالأرواح المتكثرة لا بدّ أن ترجع إلى الواحد غير المتكثر، مثل الناس الكثيرين، فمرجعهم إلى آدم وحواء، ثم هذان مرجعهما إلى واحد وهو آدم. وآدم لم يخلق نفسه، لأن كل مُحدَث (بالفتح) لا بد له من مُحدِث (بالكسر)، وإذن فالله موجود، وكانوا قديماً يسمونه الروح الأكبر The supreme spirit. والأرواح لا تنام، وتواصلها أكيد مع بعضها في أثناء نوم الأجساد، وبعضنا قد يرى أن الله تحدّث إليه أو أشار عليه، وذلك من عمل الأحلام في عالم الأرواح، وحتى فكرة التناسخ Transmigration; metempsychosis مردّها إلى الأحلام، ففي الحلم يمكن أن يتحول الإنسان إلى حيوان أو طائر، ومن ثم تولّد الاعتقاد بإمكان ذلك في الحياة، باعتبار أن عالم الأحلام يعكس عالم الأرواح، وعالم الأرواح هو عالم المُثُل أو الأصول، وعالم الواقع هو عالم الأشباح، وما يجري في عالم الأرواح لا بد أنه أيضاً يجري مثله في عالم الواقع. ومن ثم ذهب الناس إلى الاعتقاد في فكرة التناسخ، والقول بالطوطمية Totemism، وبالطوطم Totem، وهو أن يكون لنا جميعاً كقبيلة أو شعب أصل إلهي نُنسَب إليه، ويسري فينا، ويجعل من ثم من الممكن أن نتحول شكلاً إلى بعضنا البعض في الواقع وفي الحلم أيضاً.

ومن البديهي أن تكون للشخصية ومكوناتها والأحداث التي تمرّ بها تأثير على أحلامنا، غير أن القليلين جداً تحدثوا في تأثير الأحلام على سلوكياتنا وعلى الثقافة التي نتفيأها، والأنثروبولوجيون النفسيون Psychological anthropologists هم أكثر العلماء دراسة لهذا المجال، فضلاً عن أن الأحلام تجعل الحالم بمزاج معين بعد أن يصحو من نومه، فيتوجه لأفعال معيّنة، أو يفكّر بطريقة خاصة، كأن يحذر - بعد الحلم - أحد الناس، أو يحاذر فيما يسلك، فإنَّ الكثير من الإنتاج الفكري هو من وحي الأحلام، والكثير من الأساطير، والملاحم، والشعر الملحمي، والعقائد، والخرافات، يمكن ردّه إلى الأحلام. وعند اليهود والنصارى والمسلمين مثلاً فإن النبيّ يوسف لم يُعيَّن وزيراً إلا نتيجة حلم - هكذا تقول الرواية، وانه لم يبنِ صوامع الغلال ويغيّر النظام الاقتصادي الإنتاجي المصري، والنمط الاستهلاكي في أرض جاسان من أرض مصر (محافظة الشرقية) حيث جرت وقائع قصص إبراهيم ويوسف وموسى، إلا بسبب الأحلام. ولو لم يكن حلم إبراهيم بأنه يذبح إبنه إسماعيل لما كانت نظرية الفداء Redemption theory في الدين، ولما كان احتفال المسلمين بالملايين بعيد الأضحى وتضحيتهم بالأكباش السمان، وقد نتساءل: لو لم يكن ذلك الحلم، أكان العالم يخسر سنوياً هذه الثروة الحيوانية التي تذهب هباءً في يوم واحد باسم أضحية العيد؟ وقد صدّق ابراهيم الرؤيا وهَمَّ بذبح ابنه، ولولا أن تداركتنا رحمة الله لكان الفداء الآن بالابن الأكبر! ولكن تصحيحه تعالى لفهم إبراهيم بوظيفة الحلم أكّد أن الأحلام رمزية، وأننا لا ينبغي أن نأخذ الحلم بحذافيره، وأن للحلم محتوى -Dream material، أو d.-content، وظاهراً - ظاهر الحلم .Manifest-d، وأن ظاهره هو ما نتذكره من الحلم، وباطنه هو ما تتداعى به ذاكرتنا حول أحداثه وينتهي إليه تفسير الحلم أو تأويله. وابراهيم رغم أنه كلداني أو أشوري من بلاد ما بين النهرين، حيث تزدهر صناعة تفسير الأحلام، لم يكن يعلم شيئاً عن تأويلها، ففسّر الحلم على ظاهره، وأما يوسف فقد

تعلم التأويل وبرع فيه حتى أن القرآن ليذكر ذلك من مناقبه؛ وكذلك كان حفر زمزم بناءً على حلم. ويوسف كان من صغره شديد الطموح حتى أن إخوته لاحظوا ذلك فيه، ولاحظه أبوه، فحلم يوسف حلمه المشهور الذي رأى فيه عصاه قد طالت حتى علت على عِصيّ إخوته، وحلم كذلك أن أحد عشر كوكباً بعدد إخوته والشمس والقمر سجدوا له. وما كان من الممكن أن يرتقي لولا أحلام صاحبيه في السجن. وموسوليني ظل أبوه يردّد عليه أنه يحلم باستمرار بابنه يخطب في الناس ويقودهم، حتى أن الابن توجّه في دراسته إلى ما يؤكّد ما كان الأب يحلم به. وتقوم ملحمة جلجاميش في الأدب الفارسي بناءً على حلم. وكان «أوتنا بشتم» قد حلم بالطوفان فصنع فُلكاً لينجو بجنس الإنسان وسائر أجناس الكائنات من الغرق. وكانت الأبقار والعجول والقطط في أحلام المصريين طواطم لقوى الخير في الطبيعة، فكانوا الآلهة حاتحور، وإيزيس، وتوت، وأبيس، وبسطة، وكان سلوك المصريين قديماً يوجهه رؤياهم لهذه الحيوانات في الأحلام، ولكل حيوان في الحلم هيئة يكون عليها التفسير ويتوجه بها السلوك في الغد، فالكبش: رجل عظيم من قومه، والبقرة: إمرأة؛ والأخذ بقرن الكبش: يعني المَنَعة؛ والأخذ بإليته: يعني التسيّد والغِنَى؛ وذبح الكبش: إنتصارٌ للحالم؛ والبقرة الحلوب: إمرأة مخصبة؛ وذات القرون: المرأة المنيعة؛ والعثور على بقرة: يعني العثور على زوجة. وقد يرى الحالم الذي طمه الكبش - قد يراه غاضباً أو راضياً، وقد يتوارى منه الحالم، وقد يراه في هيئة والده، أو أخيه الأكبر، بحسب الكيفية التي يكون الحالم بها راضياً أو غاضباً من نفسه. وسُخط الطوطم: معناه سخط الوالدين أو أولي الأمر؛ وغَضَبُ الطواطم قد يعني أنه مغضوب عليه من جهة عليا. وهذه التفسيرات كانت في الماضي وما يزال الناس يأخذون بها حتى اليوم.

وحتى في السياسة تلعب سيكولوجية الأحلام أدواراً مهمة، فالحزب السياسي قد يتخذ الحمار مثلاً رمزاً له كما في أميركا، وهو أيضاً تعويذة للحرب، واتخذ ست أخو إيزيس شكل الحمار في إحدى

تحولاته، ولعل ذلك سبباً في أن الحمار في الحلم يعني الخير، وقد يعني الحكمة أو الصبر، والحمار أيضاً إمرأة معينة على المعيشة، وكثيرة الخير، وذات نسل. ولفظ الأتان والأتانة من الإتيان وهو مباشرة الأنثى. وقيل من مات حماره في الحلم فقد مالَه. وهذا التبادل النفسي بين الحالم وقوى الطبيعة والكائنات فيها يضفي معانٍ وقيماً على الأحلام، ويسقط الناس هذه المعاني والقيم من بعد على الحياة.

وقد تلهم الأحلام الدواء، وتستحدث الشفاء، وهكذا كان حلم أيوب في قوله تعالى: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ (ص: ٤٢)، وقد تستحدث الإيمان والتحوّل من ديانة إلى ديانة مثلما حدث مع بولس الرسول (أعمال الرّسل الفصل الرابع كتاب الأناجيل)، وقد تلهم أعمالاً أدبية كبيرة مثل الكوميديا الإلهية Divina Commedia عند دانتي Dante (١٢٥٦ - ١٣٠٧)، وقصيدة كوليردج Coleridge (١٧٧٢ - ١٨٣٤) المشهورة Kubla Khan. ولم يكن فرويد أول من أعطى إسم اللاشعور إلى الروح أو الإله أو الولي، أو الشيطان، أو السلف، المنوط به الأحلام، ونذكر أن إسم اللاشعور بدأ أول مرّة في الفلسفة في القرن التاسع عشر عند هارتمن Hartmann بكتابه: «فلسفة اللاشعور The philosophy of unconscious»، وفرويد ليس صاحب التسمية.

والأحلام فسّرها الإنسان كرسالات إلهية موحى بها، أو كإشراقات روحية وتأثيرات شيطانية، وإنذارات وتحذيرات أو مبشّرات، وفُسِّرت كانعكاسات للتفاعلات النفسية والاجتماعية للمدرَكات؛ وقد تكون رغبات تنفّس عن نفسها، أو تحقّق نفسها، أو تكون محاولات من قِبَل الحالم لسبر أغوار نفسيته واكتشاف أحوالها، وأن يتبصّر مشاكله وحلولها، وقد تعبِّر عن أسلوب كل حالم الذي ارتضاه لنفسه في حياته، أو تكون محاولات من الحالم لحلّ صراعاته، وقد تكون كل ذلك أو بعضه، ولن تتوقف محاولات الذين يحلمون عن تفسيرها مختلف التفسيرات، وسيظل الناس مشغولون بتفسيرها طالما أنها مستمرة

معهم. غير أن الأحلام أنواع، وبعضها بلا معنى Nonsensical d. أو معناه سخيف - الحلم السخيف Absurd d.؛ وبعضها يتصل بشدّة بحياة الحالم Biographical d.؛ وبعضها مصطنع - يعني به تنبيهات خارجية تسببت فيه Artificial d.؛ وبعضها محتواه القلق - حلم القلق Anxiety d.، وضدّه الحلم المعزّي Consolation d. يعني إذا كان حلم القلق عن الموت، فالحلم النقيض هو الذي يطمئن الحالم إلى أنه لن يموت؛ وبعضها يتضمن إعترافات للحالم أو لغيره - حلم الاعتراف Confession d.؛ وقد يتمثل الخصاء في الحلم - حلم الخصاء Castration d.؛ وقد تكثر الأحلام في فترات النقاهة - حلم النقاهة Convalescent d.، وهكذا.

والأطفال يحلمون كما يحلم الكبار، والطفل يحلم لينفّس عن نفسه ما يعانيه ويكابده، ويصب في الأحلام آماله ومخاوفه. والحلم يعكس إحباطات الطفل وفشله وعداواته، غير أنه للفارق في التركيب النفسي عند الطفل والتركيب النفسي عند البالغ، فإن أحلام الطفل فيها المباشرة والبساطة والوضوح. وتكثر أحلام الأطفال في الريف عنهم في المدن، وتتأثر أحلامهم بظروفهم المعيشية وأحوالهم العائلية والاجتماعية والصحية، وخبراتهم اليومية، وذكائهم، وأعمارهم، وبناء شخصياتهم، ويتعذر على المعالج رصد أحلام الطفل لعدم درايته وقلّة خبرته وضآلة محصوله اللغوي. ويميل الطفل إلى أن يسقط من روايته للحلم ما لم يفهمه منه، وما لم يحبّه فيه، وقد تختلط عليه أحداث الحلم بالخيال والشطحات، ومع ذلك أمكن رصد الكثير من أحلام الأطفال عقب اليقظة مباشرة، والكثير من حركاتهم وكلامهم أثناء النوم وخلال الحلم. وأحلام الأطفال الذين يعانون الفقر أو العوز المادي أكثر من أحلام غيرهم ممن يعيشون في بحبوحة. كما إن الأطفال الذين ينامون في سرير وحدهم يحلمون أقل من الأطفال الذين يتشاركون في سرير واحد. وتختلف موضوعات أحلام الأطفال بحسب انتماءاتهم الطبقية، فالأطفال الفقراء يحلمون بامتلاك الأشياء التي تعوزهم، وتكثر أحلامهم في

الأعياد والمناسبات حيث تكون الهدايا لغيرهم ويُحرم منها الأطفال الفقراء.

ومعظم أحلام الأطفال عن حوادث اليوم السابق، والرغبات التي تَحرُم عليهم أو يتعذر تحقيقها، وما يعاني الأطفال في ذلك اليوم من عقاب أو إحباط. والحلم يعوّض الطفل عما فاته، ويشفي غليله في الانتقام، فإذا كان قد أهين فهو يردّ الإهانة، وإن كان قد حُرم إحدى الألعاب فهو يلعب بها حتى يشبع. ويتأثر الطفل الذي يقرأ قبل النوم بما قرأ، وما قرأه كأنه حوادث جرت له يحلم بها، ويتقمّص شخصية بطل القصة أو من يشاء من شخوصها الأخرى التي يتعاطف معها ويرى نفسه فيها.

والطفل الصحيح البنية يحلم أقل من الطفل المعتل، والصحة والمرض يوثران في السلوك سواء في اليقظة أو في النوم. وإذا مرض الطفل وزادت درجة حرارته كثرت أحلامه. ومع التغيّر الكمي للأحلام يكون التغيّر الكيفي أيضاً، فتصبح الأحلام أوضح، ولها طبيعة عصبية. وقد يحلم الطفل بالموت، وتتنوع صور الموت في أحلامه، فإذا شفي الطفل من مرضه، وهبطت درجة حرارته، قلّت أحلامه بعد الكثرة، واختلفت طبيعتها. ولوحظ أن الأطفال إذا أصابتهم الأنفلونزا تكون أحلامهم من نوع الكوابيس، وتكون لهم هلوسات في اليقظة.

ويرتبط الذكاء بكثرة الأحلام، وكلما زاد ذكاء الطفل كثرت أحلامه، وإذا زاد الذكاء عن المتوسط فقد لوحظ أن أحلام الأطفال تتّجه إلى كائنات خرافية، وكثيراً ما يحلمون بالسقوط من حالق، وبالتواجد في أماكن عالية، ويلتقون بالأغراب. وأما الأطفال متوسطو الذكاء فأحلامهم عن الواقع كما هو، فإذا قلّت أعمارهم عن المتوسط إتجهوا إلى معاودة رؤية ما شاهدوا من أفلام سينمائية أو ما جرى لهم من نوادر طريفة، وما سمعوه من حكايات ونوادر. والأطفال الجانحون أكثر أحلاماً من الأطفال الأسوياء، وكذلك الأطفال الذين تُطلّق أمهاتهم وينفصلون عن أحد أبويهم، ويعانون كثيراً من الانفصال عن أخواتهم وإخوتهم وأجدادهم. وفي إصلاحيات الأحداث لوحظت كثرة أحلام

الأطفال، وحالة الأرق المزمن التي يمكن أن تلازمهم. وإذا انتقل الطفل من بلد إلى بلد وتغيّر أصدقاؤه والمحيط المدرسي، كثرت أحلامه، وبعد أن يموت أحد أقاربه تزيد عنده الأحلام.

وتتغير طبيعة الأحلام عند الأطفال مع تغيّر أعمارهم، وتنضج أحلام الطفل مع نضوجه العاطفي، والأطفال الصغار أشد تأثراً بالحيوانات في محيطهم، وحتى الأليف منها فإن الصور الحلمية عنها لا تكون مبهجة، وقد يرى الطفل الناس من عائلته أو المتعاملين معه في شكل حيوانات من البيئة، وإذا سمع أمه مثلاً تصف الخادم بأنه حمار فقد يراه في الحلم في شكل حمار لا غير. والطفل عموماً يغالي في تقدير عقاب المحيطين به له، فالكلمة من أحدهم قد يراها في الحلم صرخة، وقد يرى أباه الذي يكثر من عقابه مرّة في صورة كلب متوحش، ومرّة في هيئة قط مخيف، وإذا سمع حكاية عن الغول أو العفاريت، فقد يرى الأب أو المعلم أو المربية أو حتى الأم، أو الأخ، في صورة الغول أو العفريت كما قيل له في وصفه.

والطفل بعد الخامسة تتحول أحلامه عن الناس إلى نفسه وإلى المحيط الذي يعيش فيه. وهو لا يرى نفسه بطلاً للحلم ولكنه يكون كالمتفرج يراقب ويشاهد، ولذلك فأحلام الأطفال بعد الخامسة ليست أحلام حركة ولكنها أحلام مشاهد، ومعظمها أحلام مثيرة للخوف، عن العفاريت، والغيلان، واللصوص، والعصابات، والكلاب الضالة، والقطط المؤذية.

ومع بلوغ الثامنة أو نحوها، حتى ما بعد البلوغ، فإن الكوابيس Nightmares تكثر، وتدور أحلامهم حول الهرب والمطاردة، والعجز، والهلع، واليأس.

والنوم منه المُرَمَّش REM sleep أي الذي ترمش فيه الجفون، ومنه النوم غير المُرَمَّش non-REM sleep أو العميق Deep sleep. ويخبر الأطفال فترات النوم المرمش أقل في المراحل الأولى من النوم، ويكثر هذا النوم بعد الخمس ساعات الأولى، وعندئذ تكون الأحلام أكثر بعد هذه الساعات، وتأتي الكوابيس وهم نيام على الجنب، ومعظم الخوف الذي يظهره الأطفال هو خوف لم يخبروه

فعلاً، ولكنهم استلهموه مما قيل لهم من قصص، أو قرأوا عنه، أو شاهدوه في الأفلام.

والأحلام قبل العاشرة أحلام عن المحيط الخارجي، وبعد العاشرة تكون الأحلام عن موضوعات من داخلهم.

والبنات يحلمن أقل من الصِّبيان، لأن خبراتهن بالحياة محدودة، والمحيط الذي تجري حياتهن فيه ضيق، فإذا كان البلوغ Puberty فهنا الطامة الكبرى، فإن قدوم البلوغ له أبلغ الأثر في البنت عنه في الصبي، وتكثر الأحلام لذلك في سن البلوغ عند البنات أكثر من الصِّبيان، وتكون لها طبيعة فسيولوجية بسبب دم الحيض Menses الذي ينزل على البنت كل شهر، ثم تصبح لها طبيعة جنسية مع زيادة الرغبات الجنسية قوة وإلحاحاً. وتكثر عند البنات أحلام الغيرة، وأحلام سندريلا Cinderella's dreams والرغبة في الظهور، والأحلام الرومانسية وامتلاك الملابس والملابس من نوع أحلام مدام بوفاري.

وأحلام الأطفال بحسب شخصياتهم، فالطفل العدواني أحلامه عدوانية، والطفل القلق أحلامه فيها القلق، وقد يبول الطفل أثناء النوم لتخلف نضجه العاطفي عن عمره الزمني، أو لمخاوف يعانيها، ولقصور في الشخصية. وكذلك يؤثر العمى والصمم على أحلام الأطفال، والطفل الأصم يحلم أحلاماً كلها بصرية وتخلو من الأصوات، وخاصة إذا كان صممه منذ الولادة. ولا يميل الطفل الذي أصيب بالعمى قبل سن الخامسة إلى الأحلام كثيراً، فإذا كان العمر به بعد سن السابعة فإنه يرى في أحلامه كالمبصر تماماً. وأحلام الأعمى أحلام تمنّي، ويحلم بأن يتحرك في حرية، وأن يرى أشخاص بيئته، فإذا خاف أو زال عنه الشعور بالزمان فإنه يحلم بالنار، وهي أخوف ما يخافه الطفل الأعمى. وحركة الطفل الأعمى في الحلم محدودة وأقل من الطفل المبصر، والحركة في أحلام الطفل الأصم معدومة.

وأحلام البنات عموماً أقل حركة من أحلام الصِّبيان، والخوف هو السمة الغالبة على الطفل الجانح والطفل اليتيم، والفروق الجنسية بين الأطفال تستتبع

فروقاً في موضوعات الأحلام وكثرتها، وأكثر أحلام البنات أنهن مطاردات.ويتأثر الصِّبيان بالأحلام أكثر. والبنات أدق في سرد أحلامهن، ويصفن شخوص أحلامهن بحذق. وتحلم البنات أكثر بالهدايا والأطعمة والسفر والزيارات والملاهي والضيافة، ويمارسن الثرثرة في أحلامهن. وأحلام الصِّبيان عن الشجاعة والبطولة، الصِّبيان يخشون في أحلامهم الحيوانات كبيرة الحجم كالحصان والثور، وأما البنات فينتابهن الرعب من الحيوانات صغيرة الحجم كالفئران والثعابين والعناكب والقطط.

والاختلاف بين الذكور والإناث الكبار في الأحلام كثيرة، والنساء أحلامهن عاطفية، وفيها الحزن والشجن، وقد يكون فيها اغتصاب، وأكثرها عن أماني، وأقلها عن مشاكلهن اليومية، وتدور حول نفسها. ويحلم الرجال أحلاماً جنسية، ومنها أحلام إمناء، ويدفع إليها التهيج، وقد يضاجع الذكر من لا يعرف من الإناث في الحلم، وذلك عكس التي لا تجعل الرجل الذي لا تعرفه يقربها، والأنثى عموماً لا تحلم بمواقعة الرجل إلا إذا كانت شديدة الحب له، وقلما يحلم الرجل المتزوج حلماً جنسياً، بعكس المرأة المتزوجة التي تعاني من الحرمان الجنسي أو الإجداب العاطفي في حياتها. وقد يواقع الذكور الحيوانات في الحلم ولا تفعل الإناث ذلك، ولا يحلمن جنسياً في الحيض. والمرأة تحتلم كالرجل، إلا أن الذكور أكثر احتلاماً من الإناث. والفروق بين النساء في الاحتلام بسبب السن، وكلما زاد تعليم الذكر كلما تهيّأ أكثر للاحتلام على عكس الأنثى. وللتدين علاقة بذلك. والأحلام عموماً صورة لثقافة صاحبها، وبوسعنا من خلفية الحلم وأحداثه أن نلمَّ بالمستوى الثقافي للحالم، وتأتي الأحلام الجنسية متوافقة مع نمط الشخصية.

ولتفسير الحلم يقتضي أن يُسأل صاحبه فيه، والأفضل أن لا يكون حلماً واحداً وإنما عدّة أحلام، ليقارن بينها فتُعرَف التماثلات والمتغايرات فيها، ويُربَط بينها، ويساعد ذلك كثيراً في تفسيرها حتى أن بعض الأحلام تُسمَّى

من سهولة تفسيرها أحلاماً مكشوفة Bareface dreams. وما من شيء في الحلم إلا وللحالم يد فيه وهدف، والحالم هو الذي يؤلف حلمه، وهو المسؤول عنه، وقد يحلم الحالم بشخص واحد في عدد من الأدوار، وبتركيب ذلك على بعضه البعض يظهر نسق الحلم والصورة الحلمية للدافع الموضوعي لهذا الشخص. والحلم كلٌّ عضوي فلا يجوز أن نعزل جزئية منه عن السياق ونفسّرها وحدها.

ولولا أن هناك أفكاراً كامنة في الأحلام لما كانت الرموز، وتفسير هذه الرموز له مدرستان، إحداهما تقول بالتفسير المادي الرمزي، حيث الرموز لها معان ثابتة، كرمز الثعبان فقد يتّصل في الحلم بمعناه المؤذي، وصفته المكر والخداع؛ أو بالتفسير الوظيفي وهو كشف ما يؤدّيه الثعبان من دور في الحلم بصرف النظر عن أذاه. ومن تفسيرات المدلول الرمزي المادي أن الغمر في الماء في الحلم قد يشير إلى الحمل والولادة، والعدوى بالحشرات ربما تشير إلى الإخصاب، وقد تشير المجوهرات إلى أعضاء المرأة الجنسية. ومن التفسير الوظيفي أن يحلم حالم بأمه كبقرة، لأن أمه تهتم بغذائه وتمدّه كالبقرة بالحليب، ولو طلبنا من فنان مثل بيكاسو (الرسّام الاسباني الأشهر صاحب المدرسة التكعيبية) أن يصور أماً فربما لن تجد أبلغ من أن يصورها كبقرة، والعبارة البليغة في الأدب تقابلها الصورة البليغة في التصوير، والحلم تصويري ولغة الأحلام التصويرية إختزالية عقلية. ولتفسير هذه الرموز قد نسأل فيها الحالم ونتركه لانطباعاته عنها، ويسمون ذلك منهج التداعي الحر Free association method في التفسير. وقد تكون صور الحلم إدراكية حسيّة تهتم بالشكل، وقد تكون عقلية تستقي وجودها من الذهن والأفكار.

والأحلام أنواع، منها أحلام العنف، والقتل نادر في الأحلام، وكذلك السرقة، ويتفاوت العنف بحسب الأعمار والذكاء ونمط الشخصية وثقافة الحالم، والأحلام صور تجسّد مشاهد وشخصيات وأحداثاً، وما نحلم به كأننا نخبره في الواقع، فإذا كان شراً

فقد نستشعر الذنب، وإذا كان خيراً رضيت نفوسنا. وتتمثل في الأحلام أنواع من الصراعات الأخلاقية، وأكثر ما يكون ذلك عند الذكور، وأما الإناث فأحلامهن أكثر واقعية، وأغلب مشاعر الذنب عند الذكور عن الجنس والعدوان. وهناك أحلام مدارها مظاهر الصراع على الدور الجنسي، فالمرأة قد تعاني أنها تريد أن تكون لها حقوق الرجال، والرجل قد يعاني أن تهضم حقوقه فيبدو كالإناث، وتكشف الأحلام هذا الصراع - صراع الأدوار الجنسية Gender conflict، أو صراع إزدواج الجنسية Bisexuality conflict. وهذه المعلومات التي يمكن أن يزودنا بها الحلم هي التي جعلته وسيلة من وسائل تشخيص الشخصية، والأحلام إسقاطات لكل ديناميات الشخص الباطنة، وتستخدم الأحلام بعض الحيل لإخفاء وجه الحقيقة فيها، ومن ذلك أن تكثف الأحداث ليعمى عنها الحالم.

والأحلام منها النمطي Typical أي التي نعرفها جميعاً ولنا بها خبرة، كأحلام العري Nackedness dreams، وهو العري الذي لا يعيره أحد إلتفاتاً أثناء الحلم، ومع ذلك فإن الحالم يرتبك، وهو تناقض يلفت الانتباه، ولولا ذلك لما كان للحلم معنى. وتعكس أحلام العري رغبات من الطفولة عندما كنا نمشي عرايا ويلذ لنا ذلك. وكذلك أحلام موت الأحباب Dreams-of-the-beloved-persons، ويثيرنا منها أنها لا تقترن بالحزن، وذلك دليل على أنها ليست عن موت حقيقي ولكنه أمنية أن يموت الذي حلمنا به. وأحلام الامتحان Examination-dreams، وأحلام الطيران Aviation ds.، وأحلام السقوط، والحفاء، وسقوط الأسنان، وسقوط الشعر، وأحلام النار، والولادة، والحمل، والسقط، والميلاد، والرضاعة، والحيض، كل ذلك من نوع الأحلام النمطية. وهناك أنواع أخرى كثيرة من الأحلام، يهمنا منها الكابوس وأحلام اليقظة. فأما الكابوس Nightmare فهو الحلم المفزع المتكرر، والصور فيه تكون واضحة جلية، ويأتي الكابوس الأصحاء والمرضى النفسيين على السواء، والطفل قد يرى في الكابوس

حيوانات يخافها، ويسهل تذكر الكوابيس، وتأتي البنات والنساء أكثر من الفتيات والرجال، وهي ليست أحلاماً جنسية، وأسبابها غالباً جسمية كالتخمة وامتلاء المعدة وما ينشأ من ذلك عن ضغط على الحجاب الحاجز وإعاقة الدورة الدموية للقلب والرئتين، وقد تستحدثها منبهات خارجية، فقد تتعرى القدم خلال النوم فيحلم النائم بأنه يغوص في البحر، وكانوا قديماً ينسبون الكوابيس للشيطان.

وأما أحلام اليقظة Waking dreams فالانسحاب فيها بانشغال الفكر وانصرافه تماماً إلى موضوع حلم اليقظة، والحالم في أحلام النوم يتنبه بأن يصحو من نومه، وأما الحالم في أحلام اليقظة فيتنبّه بأن يعود إليه وعيه. وأحلام اليقظة مدارها الحالم نفسه، ومنها أحلام نمطية. ويكشف تحليل الحلم عن ميول انطوائية للحالم، ومنها أحلام ألعاب إيهامية، وللطفل فيها قرين متوهم يلاعبه. ومن أحلام اليقظة أحلام إستعراضية نتصور فيها أنفسنا نقومبأعمال بطولية، وأحلام إنقاذ ننقذ فيها من نحب، وأحلام عظمة نتصرف فيها بخيلاء وكبرياء، وأحلام ولاء نحلم فيها أننا نوالي ونخلص لإنسان ما. وهناك صلة بين أحلام اليقظة والأدب والفن، وقد نشارك الكاتب ونحن نقرأ ونرى أنفسنا في شخصياته. والفن والأدب باعتبارهما خبرة جمالية يشاركان حلم اليقظة في نفس الخبرة الجمالية نفسها. والفنان أو الأديب وهو يرسم أو يكتب يستحضر صوراً لاشعورية ويطرحها بشكل شعوري إنتقائي لا سبيل إليه إلا من خلال أن يحلم بالعمل الفني أو الأدبي. وأغلب الأعمال الأدبية والفنية تأتي على أساس من أحلام اليقظة، ولعل ذلك أحد الفروقات بين الأحلام المناميَّة وأحلام اليقظة، واستمتاعنا بالعمل الفني أو الأدبي ربما لأننا ونحن نقرأه أو نتأمله أو نستمع إليه نعيش التجربة بحواسنا ووجداننا كأننا في حلم يقظة، يتطابق فيه العمل الفني أو الأدبي مع مكونات شخصياتنا وتوجهاتنا. وربما لا يكون النقد الأدبي أو الفني إلا معايشة لحلم يقظة عن هذا العمل الفني أو الأدبي،

بحيث يتوافق فيه مع تطلعاتنا وما نتمناه لأنفسنا ونرغب فيه في حياتنا.



مراجع:
- التحليل النفسي للأحلام: دكتور عبد المنعم الحفني.
- تفسير الأحلام لفرويد: ترجمة دكتور عبد المنعم الحفني.

- The New World of Dreams: R.L. Woods and W.B. Greenhouse. Mcmillan.
- Some Must Watch While Some Must Sleep: W.C. Dement. Freeman.
- Night Life Exploration in Dreaming: Englewood, N.J.: Prentice Hall.
- The Mind in Sleep Psychology and Psychophysiology: Antrobus, J.S. and S.T. Ellman. New York.
- Handbook of Dreams: Van Nostrand Reinhold.



- ٤ -

سيكولوجية التخيّل

Imagination Psychology

التخيُّل والأخيلة وأحلام اليقظة. إستجابة التخيُّل عند الطفل والراشد. اللعب التخيُّلي. التخيّل إستعداد من أبعاد الشخصية. سيكولوجية التخيّل...

❖ ❖ ❖

التخيّلات Fantasies لا تستند إلى الواقع بخلاف الأخيلة التي قوامها الواقع. والتخيّل عملية يلجأ فيها المرء إلى الخيال ولكنه الخيال الجامح أو الشاطح. ويتمثل التخيّل في أحلام اليقظة، والحالم يلجأ إلى التخيّل كنوع من التعبير حيث يفتقد التعبير في الواقع أو يعجز عنه، أو كنوع من تحقيق الرغبة التي لم يتيسر له أن يُشبعها. وقد نستحث التخيّل بأن نطلب من الفرد أن يتخيّل ما يراه في صورة غامضة فيذهب به خياله مذاهب شتى بحسب شخصيته وداخلياته. والوسائل الإسقاطية كاختبار الرورشاخ Rorschach

Inkblots Test، «واختبار تفهم الموضوع TAT» من الوسائل التي تُختبر بها الشخصية، والمفروض أن المفحوص يُسقِط على الصور أو غيرها من محتويات الاختبار ما يدور في نفسه ويكشف عن صراعاته ورغباته وخواطره في الشطحات التي يذهب إليها خياله. وقد نبّه فرانسيس جالتون Galton (١٨٢٢ - ١٩١١) إلى التخيلات باعتبارها من ضروب الخيال، كما أن وليام جيمس James (١٨٤٢ - ١٩١٠) إختصَّها بالتعريف فقال إنها خواطر جامحة. والكثير مما قيل في التخيلات هو من إسهام نظرية التحليل النفسي وسيجموند فرويد نفسه. وهو يقول: إن التخيل كالحلم، كلاهما تنفيس عن مكبوتات ورغبات لم تُشبَع. والشاعر حالم متخيِّل، وأحلامه أحلام يقظة يصوغ بها عوالم من نسجه يضمّنها الرغبات من الطفولة التي لم تتحقق، والتي قد لا يعيها أو لا يعترف بها، فيموّهها على نفسه بأن يجعلها تخيلات شعرية. ومن رأي فرويد أن الإنسان السويّ الذي لا يعاني في حياته لا يحلم أحلام يقظة لأن رغباته كلها مجابة ومحقّقة، وأن التخيلات أو أحلام اليقظة منصرفات للطاقة التي لا تجد منصرفاً لها تحقق به مطالب الشخص، وأنها وسيلة لخفض التوتر. والطفل يصرف معاناته اليومية من خلال اللعب والتخيل. والمتخيل الذي يبتدع هذه الوسيلة لنفسه للتنفيس يستطيع من ثم أن يسيطر على الكثير من عدوانيته وميوله اللاإجتماعية، وهو إذ يحلم أنه بطل يضرب الأعداء ويلحق بهم الهزيمة، أو يحلم بأنه بطل هذا المسلسل التليفزيوني أو الفيلم الكارتوني، يصرف في توهمه أو تخيّله كل عدوانيته، ولولا ذلك لصرفها في أعمال عنف مع زملائه أو جيرانه. ولولا أحلام اليقظة الجنسية لوقعت الكثير من المشاحنات بسبب الجنس، والكثير من حوادث الاغتصاب.

وتفسر نظرية التعلّم إستجابة التخيل تفسيرها للاستجابات المتعلَّمة الأخرى، فالطفل الذي يجوع يتخيّل أمه وقد عادت تحمل له الطعام الذي يشتهيه، وتتعلق عينه بالباب، فإذا حضرت الأم تعزّزت إستجابة التخيّل بانتظام عودتها كلما استبدَّ به الجوع أو حاصرته الوحدة،

وهكذا يتعلم الطفل النشاط التخيلي كاستجابة لرغبات مؤجّلة التحقيق أو معاقة التحقيق. والتخيّل في بعض النظريات مهارة معرفية يتدرب عليها الطفل وتُصقَل عنده وتساعده على التوافق من بعد في مواقف مماثلة. ولقد ثبت أن الطفل الأعمى تقل عنده ممارسة التخيّل في الحكايات وما يمكن أن تشتمل عليه من حركة. والتخيّل يُعِدّ الطفل للسيطرة على العالم الخارجي بزيادة استبصاره لعملياته النفسية الداخلية وتنامي قدرته على استدخال خواطره ومشاعره الارتدادية. ويختلف الأطفال فيما بينهم في قدراتهم على التخيّل السمعي أو البصري. واللعب التخيلي Fantasy play كما يقول بياجيه هو ممارسة للتمثّل والتكيّف، ويصبح به التخيّل مهارة كاملة وقدرة على التعامل مع المواقف والظروف والأشخاص وليس مجرد استجابة نمطية وقتية.

ومن رأي البعض أن التخيّل يزكّيه في الطفل تمثّله لأبويه وتخيله لنفسه في أدوارهما. وتثبت اختبارات الرورشاخ أن الأفراد الذين يظهرون قدرة ومهارة أكبر على التخيّل هم الذين تكون لهم بالأبوين علاقات وديّة. وتكثر أحلام اليقظة عند الذكور والإناث على السواء الذين لهم علاقات حميمة بالأم أكثر من الأب، ومن الشائع لجوؤهم إلى التخيّل، وكذلك فإن الأبناء الذين يكونون موضع سر أمهاتهم تزيد عندهم قوّة التخيّل. وقد يزكّي التخيل في الطفل أن يكون راغباً في استرضاء الوالدين ومحاكاتهما في السلوك. وهناك من الشواهد ما يثبت أن الطفل الذي يلعب مع من هم أصغر منه سناً يلجأ إلى تخيّل نفسه في دور الأبوين أو المعلم. وأما الطفل الأصغر فإن اشتراكه في اللعب مع الأطفال الأكبر يحرمه من التخيّل، لأنهم يخطّطون ويرتبون له كل شيء ولا يتركون له مجالاً لإعمال تخيُّله. والطفل الأكبر، وكذلك الطفل الوحيد، يكون لجوؤهما أكثر للتخيّل وكأنهما يدفعان به شعورهما بالوحدة. كما ان الأطفال الذين يسعدهم اللعب الإيهامي يصيبهم الإحباط إذا ما تدخلت ظروف تفسد اللعب، وحينئذ يلجأون إلى أن يقتصر لعبهم الإيهامي على أنفسهم، أو أنهم يحاولون من جديد

تشكيل الفريق من أعضاء لهم تأثير عليهم لينتظم الجميع في اللعب الإيهامي، من أمثال العسكر والحرامية، والبوليس السري، إلخ. ويشجّع الطفل على الاشتراك في اللعب الإيهامي أن يكون وحيداً أو من أسرة تشجّع على القراءة وتأليف القصص، أو أن ينشأ في وسط ثقافي يزكّي الرياضات الذهنية والتخيّل كوسيلة لتصور المشاكل والحلول لها. ويتميز الطفل الذي يكثر من اللجوء إلى التخيّل بثراء الخبرة بسبب دخوله في مواقف متخيّلة متعددة ومتنوعة، وتكثر مفرداته، ويتعاظم فهمه للعلاقات التفاعلية. وهو بتخيلاته يحتمي من الشعور بالفشل ومن ضغوط الحياة. ولا يعني انخراطه في التخيل أنه يهرب من الواقع، ولكنه ينتصر بالتخيّل على الواقع ويتجاوزه، وهو وسيلة إضافية عنده تزيد بها مشاركته لإخوانه في اللعب وإشباعه لحاجاته. وليس هناك ما يثبت أن الاستغراق في التخيل من علامات الذُهان، وليس ما يشكو منه مريض الذُهان هو التخيلات ولكنه الهذاءات. ومريض الذهان على العكس يشكو عجزاً عن التخيّل، وفقراً في تخيلاته إن وُجدت، ونضوباً في حياته النفسية الداخلية. ولا يصاب المشهورون بلجوئهم إلى أحلام اليقظة بالهلاوس، كما أن الشخص الذي يتعامل كثيراً مع التخيلات لا يعاني القلق إذا تواجد وحده، فله من تخيلاته مُعين له على وحدته، وإذا خلت بيئته من المنبهات المثيرة فإن عوالم تخيلاته تسعفه بها، ويُثري الشخص الذي يُنمّي في نفسه القدرة على التخيّل من خلال القراءة والاطلاع واللعب الإيهامي مخزون استجاباته. وقد تزيد كفاءته بذلك على التعامل مع المواقف الجديدة والمتطلبات الاجتماعية المتزايدة. كما أن الشخص الذي يتخيّل نفسه مقدّماً في الموقف قبل دخوله تزيد قدرته على التعامل معه عند اللزوم ويتهيأ له نفسياً. ويبدو أن الرغبة أو الاستعداد للتفكير التخيلي هو بُعدٌ من أبعاد الشخصية يستحق الدراسة. ومن صفات المستغرق في التخيلات أن تثبُت حركة عينيه، وعلى العكس فإن محاولة قطع حبل تخيلاته يتسبب عنده في الرَّمَش وحركة العينين. ولم يُكتَب إلا القليل حول تيار التفكير، والعوامل التي

يمكن أن تؤدّي إلى ترتيب الأولويات في الانتباه، والفروق بين الأفراد في أحلام اليقظة وما يتعلق بها من فروق في الشخصية، والفروق بين الشعوب في التخيلات وتأثير اقتصادياتها على اللجوء إلى أحلام اليقظة عند الأفراد، والمحتويات التي يمكن أن تكون لهذه الأحلام، وهناك ما يُثبت أن أحلام اليقظة تزيد مع الحرمان.

مراجع:

- Atkinson,: Motives in Fantasy.
- Mckellar, P.: Imagination and Thinking.

❖ ❖ ❖

– ٥ –

سيكولوجية الحرية

الحرية السيكولوجية، وحرية الإرادة. الحرية إختيار بين بدائل، وهي نسيج الوجود الإنساني. آدم أول إنسان مارس الحرية. الحرية عند السادي والماسوشي. حرية الفنان والطفل. فردية الذات في الحرية.

❖ ❖ ❖

الحرية Freedom في علم النفس هي «تحرر من Freedom from» القيود والخوف والعوز، وأن يصدر سلوك المرء دون تأثير عليه من خارجه، وهي «حرية لأن Freedom to» يفعل الفرد الحر ما يريد، وأن يختار لنفسه، ويفكر بوحي من نفسه. وحرية الإرادة Free will تقابلها الحتمية أو الجبرية Determinism، وهي القول بأن الحرية مقيّدة، وأن السلوك تحكمه الضوابط والظروف، وأن الإنسان محتوم من داخله وخارجه، وأن لسلوكه محددات في إمكانيات الفرد وقدراته وميوله واتجاهاته، وفي انتماءاته الطبقية والثقافية، وتكوينه البنيوي، وسماته أو خصائصه النفسية والعقلية، وبيئته الطبيعية والاجتماعية. ويذهب أنصار الحرية إلى أن للحرية سيكولوجية، وأن الظروف النفسية والاجتماعية والمادية ليست عبئاً على الحرية، ولا تحددها، لأن هناك باستمرار إختيارات وبدائل على المرء أن يفاضل بينها. والحرية هي الشرط الأساسي لكل موجود فاعل، وليست لها ماهية لأن وجودها يسبق الماهية ويحدّدها، فالحرية تصير

بالأفعال، وهي ليست صفة مضافة أو خاصية من خصائص طبيعة الفرد، وإنما هي نسيج وجود كل إنسان. وإذا كان الإنسان مقدوراً فهو مقدور بالحرية، ولا مناص من أن يكون حراً، ولا فكاك له من الحرية. وقد يُقال هذا حر وذاك عبد، وتلك مغالطة لها ظاهر التعبير عن الواقع، إلا أن الإنسان دائماً هو الإنسان الحر، لأن الحرية هي وجود الإنسان وليست أي وجود آخر. والعبارة «أنت حر» تعني أن لك أن تختار بنفسك، ولكن أن يتحقق إختيارك أو تنجح في نيل ما تريد فهذا شيء آخر بخلاف الحرية، فالنجاح لا يهم الحرية، إلا أنه لما كان الاختيار هو نفسه الفعل، فإن الاختيار يفترض إمكان تحقيقه، وذلك ما يميّزه عن الحلم أو الأمنية.

وتحكي قصة آدم وحواء في الجنة أن آدم عصى ربّه فحكم الله عليهما بالهبوط إلى الأرض، وأن يعاينا الخوف والحاجة والعداء، ومعنى أن آدم وحواء إختارا أن يأكلا من شجرة المعرفة أنهما قاما بأول فعل حر، ومارسا أول اختيار إنساني. والإنسان يَعرِف بالحرية، ويختار عندما يكون حراً، وجوهر الفعل هو الحرية.والمغزى الواضح من القصة أن الإنسان منذ أن خُلِق محكوم عليه بالحرية، أو بتعبير هايدجر Heidegger أنه قد أُلقي به في الحرية. وكان بمقدور آدم أن يذعن فتكون له الجنة خالصة فلا يتعب ولا يحتاج ويعيش في أمان، ولكنه كان نفسَه، وفضّل الحرية، فتقطّعت أسبابه بالجنة. والقصة كلها تلخص حياة الإنسان عموماً، فأولاً إن الإنسان في بداية وجوده كان غريزياً، ولكنه انفك من قيود الغريزة وتصرّف بحرية، واختار سلوكه وارتقى في مدارج الاستقلال، وأصبحت له هوية وفردية. والطفل ثانياً يبدأ معتمداً على أمه، وأسبابه بها عضوية أو بيولوجية، وكلما نما تقطّعت أسبابه البيولوجية بأمه، وتخلّص من سيطرتها النفسية، واستقل بنفسه وأصبح الراشد الواعي الحر. ومع ذلك فسيكولوجية الحرية جدلية، فإذا كان الإنسان قد تحرّر واستقلّ، وصار ذاتاً وله هوية وفردية، فإنه بحريته قد أصبح وحده واغترب عمّن حوله، ووحدته واغترابه يصيبانه بالقلق، وهو يعي الموت لأنه

يواجهه وحده وفي عزلة، وهذه أزمة الحرية التي يعاني منها الإنسان، ومن أجل ذلك قد يلجأ البعض إلى الهرب من الحرية والتحلّل منها، ربما بأن يعهد بحريته لغيره يفكّر له، في مقابل أن يضفي عليه حمايته. والهارب من الحرية إما ماسوشي يعيش معتمداً على آخر، وإما سادي يؤكد ذاته بأن يسيطر على ذوات الآخرين، والماسوشي يستشعر الحرية بالمعنى السلبي، بأن يتخلص من وحدته وعزلته وشعوره بالعجز، بأن ينصاع للآخرين، والسادي يستشعر الحرية سلبياً أيضاً بأنها السيطرة على الآخرين وإخضاعهم، أو استغلالهم، أو أنها تدمير لكل ما يبعث في نفسه الخوف ويشعره بالوحدة ويستشعر منه الخطر. وقد يختار الماسوشي الدور الذي يناط به، وتكون له قيم الناس والشخصية النمطية في المجتمع، وتزول المفارقة بين الأنا عنده والعالم من حوله، أي بأن يتأتمت Automatonized، ويفقد ذاته. والحرية الإيجابية Positive freedom هي التي يعيشها الفرد باعتباره ذاتاً مستقلة، ولكنه ليس معزولاً عن الناس، وفي توحد مع العالم والطبيعة والآخرين. وهو يحقّق ذاته بأن يكون نفسه ويعيش فكره ويعبّر عن وجداناته، وكل فرد يستطيع ذلك. والحرية الإيجابية هي أن تكون لنا شخصياتنا المتكاملة، وأن نمارس الحياة تلقائياً Spontoneously. وليست التلقائية فعلاً عفوياً صادراً عن الشعور بالعجز وبتأثير الوحدة، وليست الفعل المؤتمت الذي تشايع فيه الآخرين على ما يذهبون، ولكنه النشاط الحر للذات، الصادر عن إرادة حرة، وعن انفعال حقيقي به واقتناع كامل بأدائه. ولعل خير مثال للنشاط التلقائي هو نشاط الفنان ونشاط الطفل، وكلاهما يعايش فكره ومشاعره ويعبّر عن ذاته. ومن خلال التحقّق التلقائي للذات يتوحّد الإنسان من جديد بالعالم والناس والطبيعة ونفسه، والحب هو أعظم ما يؤلف هذا التوحّد، وهو ليس الحب الذي يعني أن يذوب الفرد في الآخر، أو الحب الذي يعني امتلاك الآخر، ولكنه الحب الذي هو تأكيد تلقائي للآخرين. والذي يدمج الفرد في الآخرين. ولعل الصفة الدينامية للحب هي هذه الازدواجية، أنه يصدر عن الحاجة إلى إلغاء التمايز

والتباعد، ويؤدّي إلى الاتحاد والوحدة، ومع ذلك لا يلغي الفردية.

والعمل عنصر آخر من عناصر النشاط التلقائي، وهو ليس العمل الذي تأتيه قسراً وقهراً وهرباً من الوحدة، وليس العمل بمعنى السيطرة على الطبيعة، وليس هو العمل الذي يتضمن الاستعباد والاستغلال، ولكنه العمل بمعنى الإبداع، وأن يخلق الإنسان ويضاهي الطبيعة. وما يصدق على الحب والعمل يصدق على كل النشاط التلقائي، سواء كان تحقيقه لمتعة حسية أو مشاركة في الحياة السياسية، وهو يؤكّد فردية الذات، وفي الوقت نفسه يوحّدها بالإنسان والطبيعة، وبذلك تختفي الثنائية الأساسية الكامنة في الحرية، والتي تشكل أزمتها السيكولوجية وتصنع منها مشكلة نفسية - ثنائية ميلاد الفردية، وآلام الوحدة والعزلة. وفي النشاط التلقائي يحتضن الفرد العالم ولا تظل ذاته كما هي، وإنما تكبر وتمتُن، لأن الذات تكون قوية طالما هي ذات فاعلة، ولا توجد قوة حقيقية في الامتلاك والحيازة والملكية المادية، ولا في الاستغلال والنفوذ والسيطرة والهيمنة، وإنما القوة هي أن تحقق الذات نفسها وأن يكون انتسابها لما تملكه فعلاً، وينتسب لها على الحقيقة، وهو نشاطها الخلّاق المبدع، وهو مضمون الحرية الإيجابية.

مراجع:

- Sartre: L'Existentialisme est un Humanisme.

- Fromm: Fear of Freedhom.



- ٦ -
سيكولوجية الخرافة

معنى التفكير الخرافي، والاعتقاد الخرافي، والسلوك الخرافي، ورواجه في مجتمعات دون مجتمعات، وأحوال هذه المجتمعات من العلم والجهل والوفرة والحاجة؛ ومواصفات التفكير الخرافي.



التفكير الخرافي Superstitious thinking تفكير غيبي بدائي، مِن خَرِف (بكسر الراء) وخَرُف (بضم الراء) أي فسد عقله من الكِبَر، فهو خَرِف وهي خَرِفة. والاعتقاد الخرافي Superstitious belief إيمانٌ بالخرافات تفسّر به العامة والبسطاء من الناس المبهم والغامض من الأمور، ويلجأون إليه كلما أعوزتهم الحيلة، وكمحاولة للسيطرة على الأمور بطريقة ما. والسلوك الخرافي Superstitious behaviour سلوك ينبني على هذا التفكير وذاك الاعتقاد، ويستهدي بهما. وتذهب المدرسة الاشتراطية الإجرائية عند سكينر Skinner (١٩٤٠) إلى تفسير السلوك الخرافي بأنه من تأثير التدعيم للاستجابات العشوائية، والتزامل الجزافي بين ظهور فعل ما وحدوث عملية التدعيم. ويشبّه سكينر السلوك الخرافي عند الناس بسلوك الحمام الذي يجيعه إلى حد أن يفقد بعض وزنه، ثم يضعه في الصندوق المشهور باسم صندوق سكينر Skinner box، ويطعمه جزافاً بصرف النظر عما يُصدِر من سلوك، وإجاعة الحمام بهذه الطريقة تجعل للطعام عندما يقدم له تأثيراً تدعيمياً فاعلاً على سلوكه. وقد لاحظ سكينر أن الحمام يميل إلى أن يسلك السلوك الذي يصدر منه قبل التدعيم مباشرة، وأنه يكرّر ذلك ولا يمل تكراره. وربط سكينر بين هذا السلوك عند الحمام وسلوك الفلاّح الذي قد يحدث أن يؤدّي طقوساً معينة طلباً لنزول المطر، ويتصادف أن ينزل المطر فعلاً، فيزامل بين طقوسه وبين نزول المطر، ومن ثم يظل يؤدّي هذه الطقوس من بعد كلما أعوزه المطر، وبالطبع فقد يحدث أن ينزل المطر مرة ثانية، وثالثة، وفي كل مرّة يزيد التدعيم.

ويروج التفكير الخرافي في المجتمعات البدائية، وأينما تدنّت الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. والسلوك في الريف وعند العمال كثيراً ما يكون أقرب إلى السلوك الخرافي، والفلاحون والعمال أكثر مَنْ يأخذ بهذا المستوى. وللمستوى التعليمي، وكذلك النضج، والسن، علاقة بالاعتقاد الخرافي. والأطفال أكثر أخذاً بالخرافة من البالغين، وكذلك النساء أميل إلى

الخرافة من الرجال، وخاصة فيما يتعلق بالزواج والإنجاب. ويزيد الأخذ بالخرافة وقت الأزمات والنكسات الاقتصادية أو الاجتماعية أو الصحية، وقد يلجأ الناس كلما أعوزتهم الحيلة وأعياهم تلمس الأسباب إلى الدجّالين والمشعوذين والسحرة. وتكون للناس اتجاهات قَدَرية في بعض الظروف أو المجتمعات. وبعض الناس يكون تقبلهم للخرافة عندما يصابون بالنَّهَك النفسي، وشبيه بذلك عملية غسيل المخ Brain-washing التي تُجرَى للبعض باستحداث التهافت النفسي فيسهل التأثير عليهم.

والتفكير الخرافي تفكير إحيائي Animistic، بمعنى أنه يَنسب للأشياء التي لا تحس إحساساً. ويجعل لها أرواحاً وانفعالات، وقد ساد هذا التفكير في فترة غياب الوعي، بتعبير هيجل Hegel (١٧٧٠ - ١٨٣١) في كتابه: «فينومينولوجية العقل Phenomenology of Mind». وللكاتب يحيى حقي دراسة كلاسيكية ممتعة في التفكير الغيبي الخرافي والسلوك بوحيه وهديه في قصته قنديل أم هاشم، وأم هاشم هي السيدة زينب، وكان مسجدها يُضاء بالقناديل بالزيت، فكان الناس يتداوون من أمراض العين بزيت هذه القناديل تيمناً وبركة، إعتقاداً أن زيت قناديل أم هاشم سيشفيهم ببضع نقاط منه في العين، والنتيجة أن بطلة القصة أصيبت بالعمى. وينسب يحيى حقي هذا التفكير لغياب وعي الأمة كلها، وكذلك فعل هيجل من قبله، وفعل توفيق الحكيم من بعده في كتابه «غياب الوعي». ففي الحضارات كلها، وخاصة القديمة، كانت للأشياء كلها، وللوديان والأنهار والجبال وغيرها من أدوات الطبيعة والاجتماع، أرواح قد تتسلّط على الناس، ومن ذلك تفسير غُلْمة الرجال بأنها لسيطرة الروح ساطور من أرواح الغابات على قدرة الرجال الجنسية وإشباقها، حتى لينسب هذا الاضطراب إلى هذه الروح فيقال إنه Satyriasis من ساطور، ومثل ذلك تفسير غلمة النساء بسيطرة النيمف Nymph من الأرواح الهائمة على الأنثى، فيكون تعطّشها الدائم للجنس الذي لا يرتوي بسبب تلبّس النيمف بها، ومن ثم كان إسم الاضطراب Nymphomania. وكانوا قديماً وما يزالون

في المجتمعات المختلفة، يفسّرون الاضطرابات النفسية بتلبّس الشياطين والأرواح الشريرة لأجسام المرضى. ويقرب سلوك المريض بالوسواس القهري من السلوك الخرافي، ويكثر لذلك التطيّر والتشاؤم والتفاؤل. وكان العرب يعتقدون في الطيّرة وزَجْر الطير، ويتيمنون بالسانح وهو الطير يأتي من ناحية اليمين، ويتشاءمون بالبارح، وهو الذي يأتي من ناحية الشمال، ويتطيّرون أيضاً بصوت الغراب ويتأوّلونه البَيْن، ولذا كانوا يسمون الغراب: غراب البَيْن. وكانوا يستدلون بمجاوبات الطيور بعضها بعضاً على أمور، وبأصواتها في غير أوقاتها المعهودة. وهكذا الظباء إذا مضت سانحة أو بارحة. وتطيّر الناس بالوجوه وتفاءلوا بالحَسَن منها وتشاءموا بالقبيح. ونهى الإسلام عن التطيّر والتشاؤم والتفكير الخرافي بعامة، وقال النبيّ (ﷺ): «الطيّرة شِرْك»، وحسم ذلك الأمر تماماً فأمر المسلمين إذا سمع أحدهم مقالة من مقالات الخرافة أن يقول: «اللهمَّ لا طير إلا طيرُك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك»، ثم يمضي لحاجته، وهو تفسير لقوله تعالى: ﴿ألا إنَّما طَائِرُهُمْ عِنْدَ الله﴾ (الأعراف: ١٣١)، وهو نفيٌّ تام، ونهيٌّ قاطع عن التفكير الخرافي، وكذلك الاعتقاد في الحسد والسحر. وبعض المرضى بالهُذاء Psychosis يذهبون إلى تفسير أعراضهم العضوية المتوهمة إلى تأثير السحر ويتّقون العين. والخرافة لغوياً - كما سبق - من الخَرَف، وفي الطب النفسي هو فساد العقل نتيجة الشيخوخة، أو عند الإصابة ببعض الاضطرابات العضوية أو النفسية. وفي خرف الشيخوخة تكون التفسيرات الشاطحة والهلاوس والجنون إلى الخرافة، أي الشطح والتفكير غير المنطقي واللاعقلي.

ويبدو أنَّ من الممكن أن يكون هناك نمط خرافي من الشخصية Superstitious type of personality، حيث قد تبيَّن أن السلوك الخرافي يمكن أن يتحصّل عند بعض المتعلمين تحصُّله للجهلة. ولكثير من عظماء التاريخ وكبار المبتدعين أفكار خرافية هي مصدر تحيّر لكتّاب سيرتهم وللمحللين النفسيين. وصاحب الشخصية الخرافية إستهوائي، يميل إلى

التشاؤم ولا يشعر بالرضا، ويغلب عليه الحزن والتوتر الانفعالي ويعاني من الصراعات، ويميل سلوكه إلى أن يكون خرافياً في أحوال حتى ليمكن أن يؤثّر عليه دجّال أو مشعوذ، أو يسيطر على تفكيره أيٌّ من أهله أو أصدقائه، ويوجهه أحياناً إلى ما لا يقبل أن يأتيه في ظروفه العادية، ومن ذلك ماكبث وزوجته وتصديقهما للساحرات في رائعة شكسبير الخالدة. وفرويد نفسه كانت به هذه الهنة وكان يأخذ بتفسيرات زوجته ومعظمها خرافات، سواء عن الناس، أو عن صيدلية البيت. وكان الدكتور يوسف إدريس من أصحاب النمط الخرافي من الشخصية، وكذلك توفيق الحكيم. وثبت من علم الباراسيكولوجي Parapsychology أو سيكولوجية الغيبات أن الاتصال بالأرواح شأنه شأن التنويم المغنطيسي هو من عمل الإيحاء Suggestion، وكذلك الاتصال بالجان، وقراءة الكف والفنجان وضرب الودع والرمل، وقراءة الطالع في البلورة، والتخاطر Telepathy، والاتصال عن بعد Communication at a distance، والتنجيم، كل ذلك من الخرافة، والأخذ به من التفكير الخرافي، وأساسه العلمي الإيحاء، وثبت أن الآخذين به والعاملين بمقتضاه من الشخصيات الاستهوائية Suggestible. والإيحاء عملية عقلية تنتهي بقبول غير فاحص ولا ناقد - لأفكار تنشأ في العقل ولا أساس لها من الواقع، ومنه الإيحاء الذاتي .Auto-s، وهو أن يوحي الشخص لنفسه ويقنع نفسه ويساير هواه، ومنه الإيحاء الغيري .Hetero-s، وهو التأثير في الآخرين من غير أوامر ولا نواه. وفي الطب النفسي يقال إن هذا الشخص أو ذاك خاضع للإيحاء، عندما تكون لديه فكرة أو يتبنى اعتقاداً، أو ينزع إلى التصرف بلا روية، ودون أن يقيم وزناً لكون الفكرة أو الاعتقاد أو الميل لها أصولها في الواقع الحقيقي. وعرّف بيير جانيه Janet الإيحاء بأنه إيعاز يدفع صاحبه إلى التفكير في شيء أو فعله بدلاً من التحقّق منه (Méditations Psychologiques). وفي تجارب دراسات الإدراك لما هو خارج الحواس أو ما هو فوق حسّي Extra-sensory perception التي قام بها راين Rhine نحو سنة ١٩٢٧،

وتعرف أيضاً باسم تجارب جامعة ديوك University experiments Duke لم يثبت أن التفكير في الأرواح أو الاتصال بها، أو بالجان، له شيء من الواقع، وإنما كانت جميعها تخمينات، وتصدر عن نفوس ضعيفة ومريضة، ولم يكن يؤمن به ويصرّ عليه إلا المرضى العقليون خصوصاً الذين كانت لهم إستجابات هذاء. ومن المعتاد أن يعتقد المريض بالصورة البارانوية من الفصام أن الآخرين على بُعد أميال منه، لا يقرأون أفكاره فقط وإنما يتحكمون فيها بكاملها، وهي الظاهرة التي يطلق عليها البعض إسم قراءة الأفكار Mind-reading، وتبادل الأفكار عن بعد Thought-exchange at a distance، وانتقال الأفكار Thought-transference. ويبدو أن فرويد لم ينكر تماماً في كتابه: «سايكوباثولوجية الحياة اليومية» التفكير الخرافي، ولا نذُر النحس Bad Omens، ولا أحلام التنبؤات، أو خبرات التخاطر، أو الاتصال بالأرواح وبالجان، بينما كان مكدوجال يؤمن بها وينسب خبراتها لشخصيات تحت شعورية لها قوى نفسية خاصة.

(أنظر أيضاً سيكولوجية السحر والحسد).

مراجع:

- Johoda, G.: The Psychology of Superstition.



- ٧ -
سيكولوجية السحر

التفكير السحري نقيض التفكير العلمي. السحر والخرافة. أنواع السحر. رواج السحر عند الأطفال والمرضى النفسيين. الشخصية الاستهوائية والاتجاه الغيبي.



يصدر السحر Magic عن إعتقاد خرافي Superstitious belief بإمكان التأثير في الطبيعة والأحداث والأشخاص عن طريق استخدام كلمات معينة Magical use of language وإتيان طقوس

خاصة. إذن فالتفكير السحري -Magico pensée phénoméniste ، أو Magical thinking تفكير خرافي Superstitious thinking. والسحر منه الأبيض .White m الذي ينشد تحقيق الخير، ومنه الأسود .Black m الذي لا يتحصَّل منه إلا الشر. وهناك السحر بالمحاكاة .Imitative m بأن يقلّد الساحر الشخص المعني المراد السحر له، وقد يقيم تمثالاً على شكله أو يخط رسوماً على منوال هذا الشيء أو ذاك المقصود التأثير فيه. وهناك أيضاً السحر العاطف .Sympathetic m الذي يقوم على فكرة أن الأشياء والكلمات لها روح، وأن من الممكن أن نجتزئ من الأشياء بعضها فتكون لها بَرَكة تحل بمن يحملها، كأن نقتني التمائم أو التعاويذ، أو خصلاً من الشعر، أو بعضاً من الملابس أو المقتنيات، فيمكن أن تكون لنا معيناً في المواقف التي نحتاج فيها إلى التأييد والتعضيد. ولذلك قيل إن التفكير السحري يخلط الواقع بالرمز، فالذي يصنع دُمية باعتبارها شخصاً ما ثم يحرقها أو يفقأ عينيها وينفث فيها ويُعزّم عليها، ويرسم حولها الدوائر، إنما يصنع ذلك باعتبار أن ما قد يقع للرمز سيحدث حتماً للواقع. والتفكير السحري تفكير يحسب به صاحبه أنه قادر، وهو لذلك يرادف التفكير مطلق القدرة Omnipotent thinking، فمجرد الرغبة والتركيز عليها والنطق ببعض كلمات، يعني عند صاحب هذا التفكير إمكان تحققها وتغيير مجريات الأمور، مثل الدجّالين الذين يعالجون بكلمات مثل بو-ووو Pow-wow، أو أن يقولوا: حابس حابس، إلخ وذلك من غرائب المصطلحات والكلمات والأصوات. ويروج هذا التفكير عند الأطفال خصوصاً، وعند المرضى بالفُصام، والطبقات الاجتماعية المتخلفة، والمجتمعات البدائية. والطفل الصغير قد يحسب أن مجرد تفكيره في الشيء قد يصنعه، وأنه بمجرد أن يغمض عينيه ويرغب بشدّة فإن رغبته ستتحقق. ويذهب أهل التحليل النفسي إلى أن هذا التصوّر يتحصّل للأطفال مما يستشعرونه من القوّة والقدرة عندما يحركون أعضاءهم في مراحل العمر الباكرة. وقد يلجأ الراشد الواعي إلى التفكير السحري كتعبير عن الرغبة

الجامحة والعجز المبين، وعندئذ يتوهم أنه قد أصبح له كل شيء وهو يحلم أحلامه النهارية التي نطلق عليها إسم أحلام اليقظة Waking dreams. وحتى الأحلام العادية هي ضرب من التمنّي الذي يصدر عن التفكير السحري، وهي طريقة بدائية وقديمة تخلّفت فينا وصارت جزءاً من طبيعتنا ويأتيها البدائيون في رسوماتهم. ولغة التفكير السحري لغة غير منطقية، وما يزال بنا بعضها، وذلك أننا عندما نلعن أعداءنا فإنما نكرّر ما يفعله البدائي، حيث كان يعتقد أن مجرد إلصاق اللعن باسمه يستجلب عليه الشر أو الموت. وينكص المريض بالعُصاب الوسواسي القهري أو بالفُصام إلى هذا التفكير السحري، ويحسب أنه بتكرار طقوس معيّنة أو كلمات قد يطرد عنه النحس، أو يغيّر من الأحداث، أو يكفّر عن السيئات، أو يسترضي الإله. والطقوس القهرية Compulsive rituals تصدر عن أفكار سحرية على المستوى اللاشعوري، والبعض قد يبصق مثلاً كلما ذُكر أمامه إسم مَنْ لا يحبّه، وذلك من تأثير التفكير السحري بأن مجرد البصق مصحوباً باسم العدو قد يحقّره ويدفع به إلى دَرْكات السوء والشر. ويذهب المريض بالفُصام إلى إتيان حركات غريبة، كأن يبقى في مكانه ساكناً لا يتحرك بالساعات، والمعنى الرمزي لذلك أن المريض يتمنّى لو ينتهي العالم ويتلاشى ويتوقف عن الحركة، ويحسب أنه لو سكن لسكن العالم أيضاً بسكونه. وبعض المرضى بالفُصام يظنون أنهم يستطيعون أن يستحدثوا الموت لمن يتمنون له الموت بمجرد أن يفكّروا أنه ميت. وحتى عندما يبدو أن المريض بالفُصام لا يفكّر في شيء، فإن تفكيره يكون مشغولاً عما حوله بتصور الأشياء وكأنها تحقّقت بفعل ساحر، فقد يحسب مثلاً أنه يخوض معركة حياة أو موت بالنسبة للبشرية، وتسوس له نفسه أنه سيحسمها بتفكيره. ويختلف التفكير الوسواسي عن التفكير الفُصامي من حيث أن الأول أكثر معقولية من الثاني.

والاعتقاد في السحر وتأثيره ربما يكون ألصق بالشخصيات العُصابية Neurotic، وربما يكون من سمات

الشخصية القاصرة Inadequate التي تعاني من عدم الكفاءة وتُغالي في إظهار الاعتمادية، وتلجأ لذلك إلى التفكير السحري كتعبير عن العجز. وقيل إن السحر يكثر في البيئة التي ترتبط بالفقر والجهل، وإن الساحر فيها يعتمد على الإيحاء Suggestion، ويقصد بسحره إلى الشخصيات الاستهوائية Suggestible personalities. وربما لا يكون تأثير السحر كنتيجة لتدخل القوى الغيبية، وإنما كنتيجة للإيمان به عند البعض، بحيث يعدّلون هم أنفسهم من سلوكهم، فيكون به صلاح أحوالهم. فالمريض الذي يشكو مرضاً نفسياً قد يفيده الإيحاء، وكذلك قد يتوهم التلميذ الذي يستعين بالسحر أنه قادر على النجاح فيذاكر، وقد تصدّق الزوجة ما يقوله لها الساحر فتعدّل من سلوكها، ويكون بذلك توافقها مع زوجها وأسرتها.

وكانت للسحر قديماً وظيفة إجتماعية حيث ييسر الصيد والقنص ويساعد في الحروب. وكان شيوخ القبائل يستعينون بالسحرة ليمكّنوا لهم عند شعوبهم. وارتباط السحر بالقوى الغيبية يجعله يرتبط بالدين، وقد يحذّرنا الدين منه، وقد يذكره كحقيقة، وقد ينقض وجوده. فإن حذّرنا منه: فلأن السحر تفكير خرافي، والتفكير الخرافي ضد الدين؛ وإن ذكرناه كحقيقة: فلأن السحر واقع يمارسه البعض في حياتنا. وفي القرآن أن السحر علمٌ يعلمه ويتعلمه أهله، ومن ذلك مقالة فرعون عن موسى: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ (الشعراء: ٣٤)، أي لديه علم بالسحر، وقوله عن موسى أيضاً: ﴿إِنَّ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ (طه: ٧١)، زيادة في وصفه بالعلم عن السحر، ويقول القرآن عن سحرة بابل: ﴿يُعَلِّمونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ (البقرة: ١٠٢)؛ وإن نَقَض الدين السحر: فلأنه ليس علماً على الحقيقة، لأنه يقوم على الخداع البصري Optical illusion، وأبطله القرآن فقال عن سحرة فرعون وأفعالهم: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّه سَيُبْطِلُهُ﴾ (يونس: ٨١)، وقال: ﴿وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرونَ﴾ (يونس: ٧٧)، وقال: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ﴾ (طه: ٦٦)، فالسِّحر في الإسلام هو مجرد تخيُّلات Phantasies، والتخيُّلات كما قلنا

خداعات بصرية وأوهام، والسحر وصفه القرآن فقال: ﴿سِحْرٌ مُفْتَرىً﴾ (القصص: ٣٦)، وقال: ﴿إِنَّ اللّه سَيُبْطِلُهُ﴾ (يونس: ٨١)؛ والعين من السحر وتدرج ضمن ما يسمى التأثير عن بُعد، وكذلك الحسد، ولا يعني التعوّذ من العين والحسد أن لهما مفعولاً مثل مفعول السحر، وكذلك الوقب في الغسق، والنفث في العقد، والوسوسة، فجميع ذلك مفعولها لا يفلح، فليس التعوّذ منها في القرآن لأن لها نتائج، وإنما التعوّذ من شِرّية النفس التي تفعل ذلك، لأنها نفس شريرة. ولو كان بالمستطاع التأثير في المصائر بأي من ذلك، أو الاستعانة بالجن، لكان الاعتقاد فيه من باب الشِرْك الخفيّ، وهو الإقرار بأن هؤلاء الأشرار لهم سلطات إستثنائية غير عادية ليست لأحد سوى اللّه، وحتى الجن قال اللّه في رئيسهم إبليس: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْس لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ (الحجر: ٤٢)؛ والاعتقاد بأيّ من ذلك هو إذن من باب الأخذ بالتفكير الخرافي الذي لا يجوز لأيٍّ منا، غير أن منا من يغلب عليه الاتجاه الغيبي فيؤمن بالسحر، ومنا من يغلب عليه الاتجاه النقدي فيرفض السحر وإن كان مؤمناً بالدين. وفي عصر العلم الذي نعيشه فإن العلم قد حلّ محل السحر، ومع ذلك فإنه قد يحدث عندما يعجز العلم عن تفسير ظاهرة، أن نسكت إزاء المطروح، لتفسيرها بالخرافة ومنها السحر. وقد ننسب القدرة المطلقة والعلم بالغيب للّه وحده، ونقول مع القائلين إن السحرة وإن صدقوا أحياناً فإنما ذلك بمحض الصدفة. ونميل لذلك إلى ردّ الاعتقاد في السحر إلى التعلّم الإشراطي الإجزائي، فحينما يحدث بالصدفة أن تتحقق رغبة ونكون قد قلنا كلاماً أو أتينا بحركات، فقد نربط بين حدوث الاثنين معاً، ونميل إلى تكرار ذلك كلما أردنا النتيجة نفسها. وقد يحدث أن تتحقق النتيجة مرّة ومرّات فيكون لهذا التدعيم أثره في الاعتقاد في سحر الكلمات أو الحركات.

ومن قبيل السحر الاعتقاد بأن الاستحواذ على أجزاء من حيوان أو أكْلِها قد تقوي الأجزاء المماثلة لها في الانسان، إعتماداً على مفهوم التماثل بين الأجزاء، وذلك ما يسمونه السحر

بالتماثل .Homeopathic m، ويقوم على دعوى أن المماثلة أو المجاورة مُعدية، ومن ذلك أطلقوا على هذه الظاهرة أيضاً إسم السحر المُعدي .Contagious m.

(أنظر سيكولوجية الخرافة).

مراجع:
- Otto Rank: The Idea of the Holy.
- Levi Strauss: Structural Anthropology.
- Frazer: The Golden Bough.



- ٨ -
سيكولوجية خط اليد

الدلالات النفسية لخط اليد. الخط والشخصية. تحليل الخط ومحلل الخطوط. علم الخط. إختلاف الخط عند الإناث والذكور. مقاييس الخط. الهوامش في الخط. الأسلوب والتنقيط والتناسق. مورفولوجيا الخط. الشخصية الخطيّة. الخبير النفسي للخطوط. أنواع الخطوط وتزويرها. الخطوط والكلام والحالات الشعورية..

❖ ❖ ❖

لخط اليد Handwrinting دلالته النفسية، وهو سلوك نتعلمه، إلا أننا نكيّفه لمقتضى ما نكون عليه من تركيب بنيوي عظمي وعضلي، بحيث نكتب بالطريقة التي تيسرها الجلسة التي تريحنا، والتي عليها نملك ناصية القلم والورق. والخط يُظهر ما نكون عليه من صحة نفسية تشتمل على صحة البدن والنفس والعقل، فالصحيح البدن يأتي خطه مناسباً، بعكس الذي يعاني من اضطرابات صحية، فإن خطه يظهر فيه ما يعاني. والخط لذلك مظهر للشخصية. وسلوك تعبيري Expressive Behavior يسجل حركة الشخصية في الزمان والمكان، إلا أنه يجمّد هذه الحركة في الحروف والكلمات. وبرغم أن الخط يتطور تطور الشخصية، وله مراحل عُمرية في الطفولة والشباب والكهولة، إلا أن للخط شخصية يحتفظ بها دائماً.

وتقوم دراسة الخطوط Graphology على دعوى أن الحركات التعبيرية هي أهم ما يميّز الشخصية، لأنها تعكس قدرة الفرد على التجاوب الحركي السريع والتلقائي للتنبيه الداخلي والخارجي، في

محاولة للتكيّف مع مقتضيات المواقف والبيئة. وخط اليد في التعريف هو التجسيم الحرفي لرسائل المخ إلى اليد عبر الأعصاب، والأصابع هي الأجزاء الطرفية الأخيرة من الجسم التي بها يتحقّق طرح رسائل المخ على الورق. والخط تسجيل للفكر وتعبير عن الذات. والصور النمطية الخطية مكانها المخ وليس اليد، ولذلك فإن قطع اليد واستبدال أصابع اليد بأصابع القدم لا يؤثّر بعد التدريب اللازم في شكل الخط، ويأتي توقيع الشخص بأصابع قدمه مطابقاً لتوقيعه الذي كان بأصابع يده. وخط اليد لذلك وسيلة تشخيص علمية لشخصية الكاتب وحالته النفسية وقت الكتابة، وهو وسيلة تشخيص تحاول أن تكشف عن مضمون الشخصية ككل وليس مجرد سمات معينة. وعلم الخط دعوى عريضة، وأما تحليل الخط Handwrinting analysis فهو بحق وسيلة علمية للتشخيص النفسي، ومحلل الخطوط Graphologist هو شخص مدرّب على استكناه السمات النفسية، وله دراية بالطب النفسي وعلم الأعصاب. وقد قيل إنه من المستحيل أن يتشابه اثنان في خط اليد. ومهمة محلل الخطوط أن يكتشف ما يعبّر عنه الخط، ووسيلته في ذلك مرآة مكبّرة، ومَسْطرة، ويعتمد على الحدس أو الإدراك فوق الحسي، أي قراءة المعنى الكلي الذي يتجاوز التفاصيل.

وفي تاريخ التحليل النفسي للخطوط كانت هناك دعوة تُعنَى بالتفاصيل، وتهتم بكل حرف والشكل الذي هو عليه، والطريقة التي يكتب بها، وسُمّيت مكوّنات الخط: عناصره Elements، أو إشاراته الثابتة Fixed signs (مدرسة الراهب ميكون Michon في فرنسا نحو سنة ١٨٣٠). وكانت هناك كذلك دعوة عكسية عند أحد تلاميذ ميكون ويُدعى كربيو جامن Crepieux Jamin تقرأ المظهر الكلي للخط وتستشف منه سمات الكاتب. وتُشبه هذه الطريقة الكلية Holistic طريقة الجشطلت Gestalt، في حين أن الطريقة الأولى التي تهتم بالحروف هي طرقة ذرية Atomistic.

وميكون هو الذي له فضل تسمية علم الخط، وكان غالبية الباحثين في الخطوط في القرن التاسع عشر من

الفرنسيين، بينما سيطر المفكرون الألمان على تحليل الخط في القرن العشرين، ومن هؤلاء فيهلم برييرPreyer، وهو الذي نبّه إلى أن الخط تعبير عن العمليات النفسية، وأنه ليس عملية بدنية وإنما هو جهد عقلي ويكشف عن تكوين العقل، ولذا أطلق على الخط سنة ١٨٩٥ إسم Brain-writing، أي خط العقل أو الذهن، بدلاً من خط اليد Hand-writing. واستخدم جورج ميير الخط للكشف عن الاضطرابات الانفعالية، بدعوى أن الانفعالات تعبّر عن نفسها من خلال الميكانيزمات النفسية الحركية، وأن هناك لذلك صلة قوية بين الخط والحركة والانفعال، وأن محلل الخط يحتاج إلى علم جديد، أو علم سمات خطية Physiognomy of handwriting كعلم السمات العامة، وذلك ما توفر عليه فعلاً لودفيج كلاجز Klages فهو الذي وضع أصول تحليل خط اليد، وجمع بين علم الخط Graphology وعلم السمات Chracterology. وأجرى كريبلين Kraepelin (١٨٥٦ - ١٩٢٦) وجماعة قياسات للضغط أثناء الكتابة، وللسرعة في الكتابة عند الأسوياء والمضطربين عقلياً، وقال إن تحليل خط اليد لا ينبغي أن يكون من عمل الأطباء ولكنه عمل النفسانيين، وقد تسبّب ما قاله في قطيعة بين البحث في الخطوط وعلم الخط، لولا أن عالم الأعصاب رودلف بوفال Pophal (نحو سنة ١٩٢٠) دعا إلى دراسة مظاهر التوتر في الخطوط، وصنّف أنماط الشخصية بحسب أنماط السلوك الحركي كما تنعكس في أنماط حركة اليد أثناء الكتابة. وقد تطورت بحوث تحليل خط اليد في العشرينات بفضل ماكس بولفر Pulver الذي نبّه إلى دلالة المسافات الخالية بين الكلمات، واستخدم في تفسيراته لها مفاهيم التحليل النفسي، وهو الذي قابل بين الطول والعرض والضغط Pressure الذي للحروف. واخترع جولدزيخر - رومان Goldzieher - Roman جهاز Graphodyne لرصد الضغط والسرعة لحركة الكتابة. وتتابعت بحوث دوني Downey، وله كتاب: «Graphology and the Psychology of Handwriting» (١٩١٩)، وأولبورت Allport، وفيرنون Vernon، وسوديك

Saudek، ولوينسون Lewinson، وزوبين Zupin، وولفسن Wolfson، بغاية الكشف عن العلاقة بين دينامية الشخصية ودينامية خط اليد. واختبارات خط اليد تكشف عن تنظيم الشخصية وانضباطها وإمكان ملاءمة بعض الأعمال أو المهن لها. ومن الممكن أن نكتشف توجهات الكاتب ونعلم عن مكوناته النفسية من الطريقة التي يكتب بها والتي تكون عليها حروف كتاباته. فالخط المائل بخلاف الخط الواقف، والميل في الخط إلى اليمين بعكس الميل إلى اليسار، وربما كان الميلان إلى اليمين يعني أن شخصية الكاتب من النوع المنبسط الودود، بينما قد يعني مَيَلان الخط إلى اليسار أن الكاتب يميل إلى أن تكون له أفكاره الخاصة وحياته التي تكون بمنأى عن الكثيرين، وربما كان هذا الشخص من النوع المنطوي. وأما الخط الواقف الذي لا يميل يميناً ولا يساراً، فهو دليل انضباط صاحبه عاطفياً وتحكّمه في انفعالاته، وربما كان يعني أن يغلّب تفكيره على مشاعره.

والبحوث في الخطوط مع أنها قديمة قدم التاريخ وفيها وجهات نظر فلسفية من أيام اليونان والرومان ومصر القديمة وسومر، ووجهات نظر صينية ويابانية، إلا أن التجريب في ميدان الخط وارتباطه بعلم النفس والتحليل النفسي كان حديثاً. ومع انه قد ورد عن الخطوط وعلاقتها بالشخصية عند الإغريقي أرسطو Aristotle (٣٨٤ - ٣٢٢ق.م)، والروماني سويتونيوس Suetonius (٦٩ - ١٤٠م)، فإن أول مؤلّف فيها كان كتاب Ideographia، كتبه في بولونيا من إيطاليا كاميليو بالدو Baldo في القرن السابع عشر، وبدأ الاهتمام بالخط يقوى، واهتم به وبتحليله شعراء وكتّاب وفنانون، مثل: جوته، وبلزاك، وديكنز. وتكثر البحوث في خطوط المرضى بالاضطرابات النفسية والعقلية والجانحين، وفي الفروق بين خطوط الذكور وخطوط الإناث، ومدى تأثير الاتجاهات الذكورية أو الأنثوية، أو ما يسمى بتقمّص الدور الجنسي Gendre على توجيه الخط. وقيل إنه في الخطوط تتمايز عدّة عوامل، منها بخلاف الميلان Slope الذي سبق ذكره، الشكل من حيث أن الخط يمكن أن يأتي على شكل تقليدي

لا تجديد فيه، أو يكون خطاً مَدرسياً، والأول يعكس شخصية تقليدية تابعة للكاتب، والثاني هو تعبير عن اتجاه إنضباطي عند الكاتب يكون فيه تابعاً أيضاً ومقلداً، إلا أنه يقلد أفضل ما عند الآخرين. وهناك أيضاً الشكل الزخرفي للخط فيرسمه صاحبه رسماً ويفخّم شكل الحروف، وأمثاله يميلون إلى المبالغة، ودعاواهم كثيرة، وخيالهم خصب، بخلاف الخط البدائي المتخلف الذي لا جمال فيه ولا أصالة ولا تقليد، فتتنافر حروفه من النوع الواحد كالألف مثلاً، فمرّة تكون قصيرة، ومرّة طويلة، ومرّة مستقيمة، ومرّة ملتوية على نفسها، وتختلط الحروف المتشابهة كالتاء والثاء. وبخلاف الشكل هناك من الحروف ما له ذيل كالميم أو الياء في نهاية الكلام، أو ما ينتهي بقفلة كالتاء المربوطة أو الهاء. ولكل من هذه الحروف بأشكالها تلك دلالات نفسية من حيث أن تطويل الألف مثلاً قد يعني اتجاهات مثالية عند الكاتب، وقد تعني القفلات الكبيرة للهاء أو التاء المربوطة أن الكاتب له شطحات خيالية، فإذا كان يكتب الهاء في وسط الكلام بحيث تكون مدببة وتنزل كثيراً عن السطر فقد يكون ذلك لأنه يميل إلى التأمل وله طبيعة رومنسيَّة.

ومقاييس الخط الأخرى هي الضغط Pressure الذي يأتيه الكاتب على الحروف وهو يكتب. ومن الناس من يميلون إلى أن يضغطوا بقوّة على القلم وكأنهم يعتدون على الورق، أو يتخيلون أنفسهم بصدد سلوك عدواني، ومنهم من تأتي كتابته كاللمس الرفيق فلا يكاد يبين، وهؤلاء يفصحون عن طبيعة رقيقة.

وحجم الكتابة من مقاييس الخط، فهناك خطوط منمنمة حتى لا تكاد تُقرأ، وأصحابها من النوع المذعور الذي يخاف النساء وأن يُظهر ما بنفسه، وله حياته الخاصة التي لا يحب أن يشاركه فيها أحد، ومن الصعب التواصل معه. وهناك خطوط كبيرة تكون عادة لأناس منبسطين يحبون الوضوح، وكما نقول ما في قلوبهم على ألسنتهم، وفي حالتنا هذه من دراستنا للخطوط فإن ما تنطوي عليه قلوبهم تسرع أسنّة أقلامهم إلى الإعلان عنه، وذلك نوع سطحي من الناس يجب أن يكون له الأصدقاء يجمعهم حوله

ويسعد بهم. وأما الخط الذي يتوسط الطريقين فصاحبه متوسط أيضاً في كل شيء، ويحب من الأمور أوسطها، وهو عملي ومادي، ويمكن مصادقته، ولكننا لا نتوقع منه الكثير.

والخطوط تتمايز كذلك بالهوامش، فإذا كان الكاتب ينحو إلى الكتابة في وسط الصفحة تاركاً هوامش كثيرة من الجانبين فهو غالباً فنان له ميول جمالية، ويحب الاتساع والانطلاق، وأن يظهر ما يكتب على خلفية واضحة بحيث تصنع ألوان الأحبار تضاداً مع بياض الورق، وتعطي المساحة الخالية شعوراً بالارتياح. وأما إذا كان الكاتب يكتب دون أن يترك هوامش ويستغل مساحة الورقة استغلالاً كاملاً، فإن ذلك قد يعني أنه اقتصادي، أو قد يدل على شحّ وبُخل، وأنه يخلو من الذوق ولا يميل إلى النظام والتناسق، ولا بدّ أن تكون كتابته هذه متمشية مع أسلوبه في الحياة، وتعكس الاضطراب في ملبسه، وبُعْده عن الذوق، وتقتيره الشديد.

وتقاس الخطوط أيضاً بإمكانية قراءتها، فالبعض متعذر قراءته، ويتميّز برداءة مسرفة، وربما كان ذلك لسرعة الكاتب نتيجة التفجّر العنيف لأفكاره، وسيولة هذه الأفكار، ودفقها السريع حتى أنه لا يستطيع أن يلاحقها بقلمه، وربما تشابكت الكلمات لهذا السبب، وربما جاء خطه رديئاً لأنه لا يتمهل عند الحروف ليعطيها حقها، وإنما ينساب بها قلمه انسياباً فلا تبين لهذا السبب. وقد تكون رداءة الخط نتيجة إهمال وكسل من شأنهما ألا يجعلا الكاتب يحسن الخط، ويكتب كيفما اتفق، لأن أفكاره أيضاً تأتي كيفما اتفق. وأما الخط المقروء الواضح فصاحبه غالباً مفكّر منضبط، دقيق في تعبيراته، وفي حروفه أيضاً، ويحب أن يكون واضحاً في كليهما، وأن يفهمه الناس.

والتنقيط Punctuation من مقاييس الخط. ويهمل بعض الناس أو يتكاسلون عن وضع النقط فوق أو تحت الحروف. وذلك دليل على عزوف عن التفاصيل، وربما لم يكن بصاحب الخط الذي ينقصه التنقيط ميل إلى التفكير المنظم، فينجو إلى أن يخلص إلى النتائج بسرعة، ويقوم بما يناط به من

أعمال في تعجّل وعدم اتقان. وربما يكون هذا الشخص بحيث لا يُعتمد عليه كثيراً، ولا يؤتمن بالمهام الكبيرة التي تتطلب دقّة وحُسن أداء. وعلى عكس ذلك تماماً الشخص الذي يحفل كثيراً بكتابة النقط، وتوضيح الفروق بين النقطة والنقطتين والثلاث نقاط التي تتطلبها بعض الحروف، وذلك دليل على عناية بالتدقيق، واهتمام بتحديد المطلوبات، وقُدرة على القيام بها وأدائها على ما هو مشروط لها أو متفق عليه بشأنها.

والتناسق مطلوب في الخط، وهناك حروف تتشابه في الشكل والحجم، وحروف مفتوحة، وحروف مغلقة، وحروف تكون عليها شَرْطة أو تتصالب الشرطة عليها، أو تميل يميناً. والشخص المنظم تتناسق حروفه المتشابهة بحيث يكون خطه في الورقة كلها متميزاً بهذا النظام الذي يريح العين ويعكس تنظيماً نفسياً لصاحب الخط. وبعض الخطوط تبدأ كبيرة وتنتهي صغيرة، فتكون بداية الكلمة ذات حجم لا يتناسق مع حروف النهاية، وصاحب هذا الخط يميل إلى الغموض، ولا يبوح بما في نفسه، ويُقبل على ما يكتب برغبة وقلب مفتوح، ولكنه يصدمك لأنك لن تخرج مما كتب بما يرضي فضولك أو طموحك. وعلى عكس ذلك الشخص الذي يبدأ الكلمة بحروف صغيرة ولكنها تنتهي بحروف كبيرة، فإن ما يطرحه عليك من أفكار يوضحه دائماً ما يأتي من عبارات بعد كل عبارة سبقت، وهو عادة إنسان لديه ما يقوله ولا يضن به على الناس، ويحب أن يفسّر نفسه وأن يفهمه الآخرون.

والأسلوب في الخط يُقصَد به أن تكون الحروف مستديرة أو أن تكون قائمة وحادة، فحتى الألف يمكن أن تكتب مستديرة، والكتابة المستديرة تعني أن الكاتب له طبيعة سهلة، وغير مدقق، ويحب أن يعيد نفسه، وأن يسهب في الشرح، وأن يصدقه الناس. وأما إن كانت الحروف قائمة وحادة، فذلك قد يدل على نشاط الكاتب، وهمّته، وطموحه، وقدرته على إنهاء الأعمال وتشطيبها.

وما بين الكلمات من مسافات هو من مقاييس الخط، وله دلالته النفسية ويفصح عن اتجاهات الكاتب الذهنية، فإذا كان يميل إلى الكتابة بحيث يترك

مسافات منتظمة بين الكلمات، فإنه إنسان منطقي له بصيرة وأحكامه سليمة، وإن كانت المسافات غير منتظمة فهو غير منطقي، وأحكامه متهافتة، وإن كانت كتابته مضطربة بحيث قد تتقارب الكلمات بشدّة حتى ليركب بعضها البعض، فذلك يعكس اضطراب التفكير. وإن كانت الصفحة تزدحم بالكلمات فذلك لأن الكاتب لديه زَخَم من الأفكار غير المرتبة، والتي لم يمحّصها، فينعكس دفقها المتلاحق على خطٍّ يعكس هذا التلاحق حتى لتكاد تنعدم الفواصل بين الكلمات.

والسرعة من الدلالات النفسية للخط، وهي صدى للسمات الشخصية للكاتب، والخط المتسرّع دليل على سطحية في التفكير. فإن كانت السرعة في الكتابة مع وضوح في الخط فإن ذلك يعني أن الكاتب لا تهمه التفاصيل، ولا يتوقف عندها، ويحرص على الكليات، وأن يجمّل نفسه في عدّة عبارات متعجلة، وإن ترافقت السرعة مع ترك النقط والشُّرَط، وعدم إعطاء الحروف حقّها من الكمال، فربما كان ذلك دليل الإهمال، وربما كان ذلك لأن صاحب الخط خيالي، تتطلب قراءة خطه أن يفكر القارئ كثيراً ليتبين صواب الكلمات، فهو يكتب عن اعتقاد منه بأن الناس تستطيع أن تعرف ما يقصد إليه حتى وإن لم يُفصح. وربما كان تركه للنُّقَط والشُّرَط، وتداخل الحروف، لأن الكاتب واثق من نفسه ويطلب من الآخرين أن يجهدوا ليقرأوه، والبعض قد يُغرَم بالغموض إذا تحدث ليقال إنه غير مفهوم، أو ليبدو أنه أكبر عقلاً وفكراً من سامعيه، وكذلك عندما يكتب فإنه يفعل الشيء نفسه.

والكتابة على السطر من أصول الخط، فإذا التزم الكاتب بالسطور فإنه إنسان ملتزم ومستقيم في عمله وصادق في قوله، وإنْ مال أن يصعد فوق السطر كلما توغل في الكتابة، فهو غالباً لا يحب الانضباط، ويميل إلى الخيال، وله طموحات، وقد تتجاوز به طموحاته أن يتغاضى عن القوانين أحياناً. وأما إن كان يكتب بحيث يميل إلى النزول عن السطر، فذلك لأن به ميولاً إلى أن ينفذ إلى قلب الأشياء، وأن يحلل ما يقال له، وهو متشكّك ولذلك يسأل كثيراً ويتحرّى،

وغالباً ما يصل إلى نتائج لا تسرّه، وهو يتوقع السوء لهذا السبب، ويكتب وهو غير مطمئن، وتفضح كتابته النازلة ميوله. وبعض الناس يستهويهم الجدل النازل، ويبدأون بالتعليمات وينتهون إلى التفاصيل، وبعضهم إتجاههم في التفكير نحو الجدل الصاعد، فيبدأون بالتفاصيل ويخلصون منها إلى التعميمات، والأولون دأبهم غالباً أن تنحو كتابتهم إلى النزول عن السطور، بينما الآخرون يميلون إلى الصعود على السطور.

ومن كل ما سبق فقد يمكن اعتبار تحليل الخطوط Graphic analysis إختباراً كاختبار رورشاخ مثلاً، يمكن به تحليل الشخصيات ومعرفة اتجاهاتها، مثله في ذلك مثل تحليل الأحلام، وإن كان ذلك على نطاق أضيق. والبعض يقول بأنه من الممكن الاحتفاظ بملف لخط التلميذ أو المريض، لبيان تدرجه نحو النضج أو نحو الشفاء (Graphopathology)، والتنبؤ مقدماً بأي انحراف قد يستمر أو يستفحل إن لم يعالَج في الوقت المناسب. ولكل شخص فرديته الخطية Graphic individuality، وربما قد تفيدنا كثيراً الدراسات على خطوط العظماء، وعلى توقيعاتهم، فنعلم مدى تأثير سمات الشخصية في رسوم الخط، وكأن هذه الرسوم تشابه رسوم الاختبارات التي تعتمد على الرسوم أيضاً وإن اختلفت في الموضوع.

وفحص الخطوط لتحقيق تزويرها أو صدقها تعهد به المحاكم لخبير نفسي في الخطوط، وذلك من مجالات علم النفس القانوني والطب الشرعي، ويتضمن فحصاً ظاهراً ميكانيكياً للخط (مورفولوجي) ينصب على شكل الكتابة، وتعارج الحروف، والوصلات بينها، واحتمالات التعديل فيها أو كشطها، وفحصاً خطياً نفسياً (جرافولوجي) لاستيضاح الصلة النفسية بين الحركة الخطية وطباع صاحبها، وحالته الانفعالية وقت الكتابة. وهذا الفحص يتبين منه جنس الكاتب إن كان أنثى أم ذكراً، وعمره إن كان طفلاً، أم شاباً، أم شيخاً طاعناً في السن، وخصائصه الانفعالية والعاطفية، وهذه المميزات قد تكشف عن صاحب الخط، وترشد كذلك إلى بعض خصائص الموجّه إليه هذا

الخط إن كان رسالة مثلاً. والفحص الثالث والأخير هو الفحص النفسي الخالص، الذي يتعدّى ظاهر الكتابة إلى مضمونها النفسي ومحتواها الفكري Graphopsychology، لجلاء طبائع وميول وعادات وعواطف وأفكار صاحب الخط، والتوصّل فيما بعد إلى البتّ فيما إذا كان هذا الخط هو خطّه أم لا، بمضاهاة ما نخلص إليه من الخط من تصور لشخصية صاحبه بما نعرفه من خصائص الشخص نفسه.

والشخصية الخطية حقيقة ثابتة يقرّرها العلم، وقد تأكّد مثلاً أن الشخص الذي تُبتر ذراعاه ويُضطر أن يتدرب ليكتب بفمه أو بإحدى قدميه فإنه بنهاية التدريب يأتي خطه على الطريقة نفسها والشكل اللذين كانا له من قبل أن تُبتر ذراعاه.

وكذلك أجرى ثلاثة من العلماء عدّة تجارب على الخطوط تحت تأثير التنويم، فكانوا يطلبون من الأشخاص موضوع التجربة أن يتصوّروا أنفسهم في شخصيات معيّنة وأن يكتبوا من ثمّ رسالة أو أمراً ما، فكان كل شخص يكتب بخط مختلف بحسب الشخصية التي يتقمّصها. إذن فالخطوط تتباين تباين الشخصيات، وهي مرآة للشخصية وتعكس خصائصها.

ويذهب عمل الخبير النفسي للخطوط إلى فحص المستند الخطي لملاحظة ما يتواتر فيه من خصائص حركية، كأن تكون هناك جرّات معينة طويلة أو قصيرة، وحروف ضخمة أو صغيرة، لأن ذلك يأتيه كل منا بالعادة ويألفه ويصبح منهجاً له. ونحن نضخّم الحروف أو نصغّرها بحسب الحالة النفسية التي نكون عليها، وبحسب خصائص الشخصية، ومن ثم فقد يكون الشخص منطلقاً فتكون حروفه كبيرة، وقد يكون مدققاً موسوساً فتكون حروفه كالمنمنمة.

ويذهب بعض العلماء إلى تقسيم الخطوط بحسب نوعية الشعور، ونوعية الفكر، ونوعية الإرادة: فمن جهة نوعية الشعور فالعاطفي الذي له مشاعر رقيقة يكتب بميل؛ والانفعالي يكتب على عدّة أوضاع ولا وحدة بينها؛ والهادئ لكتابته وضع واحد؛ والحزين المنقبض وضع

خطّه نازل؛ والمبتهج المنشرح المتفائل وضعه صاعد؛ والرقيق وضعه دائري؛ والقاسي الجاف يكتب بوضع له زاوية؛ وكتابة البارد عديم الإحساس بوضع رأسي؛ والحسّاس المرهف بوضع مدبَّب؛ والبخيل بوضع متقارب متزاحم؛ والكريم بوضع رحب متسع؛ والشكّاك، وكذلك المتصنّع، بوضع مرتدّ على نفسه؛ والمزهوّ بوضع مرتفع؛ ومن جهة نوعية الفكر: تتميز كتابة المثقف بالبساطة؛ وكتابة متوسط الذكاء بانطلاقات غير متحفظة وغير أنيقة؛ وكتابة الخيالي بانطلاقات واسعة الشُقّة؛ وكتابة المفكر المتأنّي بتدقيق وعناية بالحروف؛ وكتابة الإنسان الواضح التفكير بخطوط منضبطة؛ ومن جهة نوعية الإرادة: تتميز كتابة قوى الإرادة بجرأتها الثابتة التي تتجلى في استقامة عصا الألف واللام والكاف إلخ؛ وكتابة ضعيف الإرادة بجرّات ضعيفة لها نهايات مدببة؛ وكتابة المهمل أو الغافل بإسقاط أجزاء من الحروف وإغفال النقط والهمزات.

وهناك اختلافات كثيرة في مجال تفسير الخطوط وتحليل الشخصية من خلالها، غير أنه برغم هذه الاختلافات فإنه كان هناك اتفاق فيما يخصّ خط البخيل، حيث انعقد الإجماع على خصائص لهذا الخط تعكس خصائص الشخصية. وكتابة البخيل تتلاصق كلماتها ويكثر عدد الكلمات في السطر الواحد، وربما لأن البخيل حريص على أن لا يستهلك ورقاً وحبراً، في حين أن الكريم يفخّم الكلمات ويكبّر الحروف حتى لتمتلئ الصفحة بعدد قليل من الكلمات، وتشير نهايات الحروف على سعة كمن يبسط يده بالعطاء والبذل.

ومن المسائل التي اختلف العلماء حولها أن بعضهم ذكر أن العبقري خارق الذكاء: كتابته جميلة واضحة، وحروفه فيه قوّة وبساطة، وخطوطه لها خصائصها المتميزة التي لا تتكرر مع غيره. واستشهد هذا الصنف من العلماء بكتابات للموسيقيين المبدعين كفاجنر وبيتهوفن. وقال بعض العلماء إن العبقري على العكس لا يحرص على الخط الجيد ولكنه يتعجل الكتابة، لأنه يريد أن يطرح أفكاره المتلاحقة. ولأنه يفكّر بسرعة فإن الكتابة تواكب انطلاقة التفكير، فلا يحفل

إن كانت رسومها رديئة أو متقنة طالما أنها ترصد أفكاره، ولذلك تأتي كتابته كالاختزال صعبة القراءة. وكان خط نابليون رديئاً، وكذلك العالم لمبروزو، والفيلسوف سارتر، والكاتب المسرحي برنارد شو، والكاتب أنيس منصور، علاوة على أنه لا يضع النقط إطلاقاً.

وعلى أي الأحوال فإن الخط يعكس فعلاً طريقة التفكير، ومن ذلك أن يكون تفكيراً مضطرباً مهوشاً كما عند المرضى بهوس الكتابة Graphomania، والمعروف أن كتابة المجانين مضطربة كاضطراب كلامهم، ويمكن أن يكتبوا الصفحات والصفحات يومياً، وهذا هو الإسهال الكتابي Graphorrea، وفي مثل هذه الأحوال يسوء الخط جداً ويعكس الاضطراب في الفكر وهو من أعراض المرض. وقد يأتي الخط يعكس تفكيراً منضبطاً منظماً كما عند العقلاء. وحتى العباقرة قد يأتي تفكيرهم فيه الانضباط أو الاضطراب وإن كانوا شديدي الذكاء، والتمايز في الخط موجود بين العباقرة وجوده بين غير العباقرة.

وتزوير الخطوط كالتزوير في الرسم والتحف الأثرية، عمل قد يتقنه البعض، إلا أن اكتشافه يسير على الخبير النفسي في الخطوط. والخطّاط المقلّد أو المزوِّر قد يستخدم الشفّ ثم التحبير، وقد يستخدم الملاحظة المدقّقة وقدرة ذاكرته على رصد الصورة الخطية ومميزاتها، ثم استحضارها وقت الكتابة فتطاوعها أصابعه وتنساب بها في سهولة. ويُكشف أمره كمقلّد ومزوّر أن يكون المستند المطلوب تقليده أو تزويره طويلاً فعندئذ لا يقوى المقلّد أو المزوّر على أن يستمر في انتحال الخط، لأن خصائصه هو تغلبه على نفسه في النهاية، وتفضحه كمقلد أو مزور. وربما كان لعنصر التعب النفسي دخل في تخلّيه عن حذره وحرصه، فتنطلق أصابعه بحكم العادة تكتب حرفاً هنا أو هناك لا يمت بصلة للحرف المماثل في المستند الأصلي، وخاصة في الحركات الانسيابية النهائية التي ختم بها، والتي يكون بها التوقيع، وهو عادة يأتي بلا تكلّف من جانب صاحب الخط الأصلي غير المشتغل ذهنه بتقليد غيره، فالحرص على التقليد وانشغال الذهن به يمنع انسياب التوقيع

ويفضح المزور. ومهما كانت مهارة المقلد وحرصه على انسيابية التوقيع، وانسيابية الخط عموماً، فإن تقليده يكون آلياً لا انسيابياً، ولا بد أن يُخطئ عَرَضاً وبغير وعي منه، لنهجِه هو في الكتابة وليس لنهج صاحب الخط الأصلي، فيكون خطؤه بمثابة الثغرة التي يمكن من خلالها اكتشاف التقليد.

ومن الممكن تحديد العمر من الخط، فالتغيرات التي تطرأ على الجسم تظهر في الخط، والتلاميذ مثلاً في الصف الواحد قد تتشابه خطوطهم بالنظر إلى عدم نضجهم، وبالتالي عدم نضج خطوطهم، وأيضاً قد تتشابه خطوطهم لأنهم في بداية سِني الدراسة يلتزمون البطء في الكتابة، وتتعثر بها أقلامهم، ومع الزمن والنضج تنطلق أيديهم بسرعة، وتنضج خصائصهم الكتابية، ويفترقون عن بعضهم البعض. ولقد لوحظ أن الكاتب الذي تستلزم مهنته الكتابة تكون له انسيابية خط لا يتمتع بها من لا تستلزم مهنته الكتابة، ومع التدريب والكتابة المستمرة عند الكاتب تنعكس خصائص شخصيته على خطه، أما من لا تستلزم مهنته الكتابة فإنه يتوقف عند حدود ما تعلمه منها، وتظهر كتابته على الصورة التي تعلمها، وتكون خطوطه كُتبية، أي مأخوذة من تعاليم الخط والكُتُب التي تعلمها. ومن ثم نجد تلاميذ مدرسة الخطوط تتشابه خطوطهم لأنهم ما يزالون في مرحلة التقليد، ويتخرجون من المدرسة وخطوطهم متشابهة لالتزامهم بحرفية ما تعلموا، بل إن خطوطهم لتتشابه وخطوط من سبقوهم وتخرجوا قبلهم ومن سيتخرجون بعدهم. وأما إذا أتيح لأحدهم التمرّس العملي بالكتابة واستمرار ذلك، فإن خطّه يكتسب ذاتية مميّزة لم تكن له من قبل.

ونلاحظ أن الأميين الذين لم يتعلموا الكتابة ولا يعرفون سوى رسم التوقيع بأسمائهم فإن توقيعهم يأتي مقلقلاً لم يصقل ككتابة الأطفال، ولا يمكن أن نحلل منه شخصية صاحبه. وكتابة الأميّ كالنبش، أو توصف بأنها كنبش الفراخ، بالنظر إلى أن الحروف تكون صغيرة ولا تأخذ حقّها في الرسم، ولا تتسم بالاتساق وتملأ الصفحة في

فوضى. وأما الإنسان البالغ فشكل الحروف عنده أكثر انتظاماً وثباتاً وترتيباً. وبعد سن الخمسين يظهر التعب على الكاتب وهو يكتب، وينعكس هذا التعب على الكتابة، ويظهر في صورة إغفال لبعض الحروف أو للتنقيط، أو تخلٍّ عن طريقته في الكتابة التي هي خصيصته ومرآة شخصيته. وأما بعد الستين فإن رعشة اليد تتجلى في اهتزاز الحروف، فلا تكون الألف مثلاً مستقيمة، ويحاول الشيخ الطاعن في السن أن يتغلب على رعشة يده فيضغط بسن القلم، ويتمهل ويعود إلى بطء حركة الطفولة، فنستطيع أن نحكم مباشرة بأن هذا الخط هو خط إنسان قد أوغل في العمر كثيراً أو قليلاً.

ومن الممكن أن ينكشف جنس الكاتب من كتابته، فكتابة الذكور أكبر من كتابة الإناث، والصورة التي تأتي عليها خطوط الإناث أرق، فالأصابع أصغر وأدق، والقوة العضلية المحركة لها أضعف. وعندما تجلس الأنثى لتكتب لا تميل على طاولة الكتابة حتى تحتويها كما يفعل الرجل بصدره الضخم وطوله الذي يمكّنه من أن ينكب على الطاولة، وإنما تجلس الأنثى فلا تكاد تملك الطاولة لقصرها نسبياً، ولا تكاد يدها ترتاح وهي تكتب، ولا ذراعها الذي تسند عليه، ولذلك فإن القلم في يدها يمس الورق مسًّا رفيقاً. والأنثى بها ميول فنية أقوى، وأحب الفنون إليها الوشي والنمنمة، وكتابتها وشي ونمنمة، والخط يأتي لذلك أصغر، ويعوزه بساطة خط الرجل وانطلاقته. والمثقفات من الإناث تنزع خطوطهن إلى التعامد مع السطر. وتكثر الأخطاء الهجائية في كتابات الإناث، وهذه ميزة أخرى في خطوطهن، بالإضافة إلى أنهن لا يملن كثيراً إلى وضع النقط والفاصلات، وتنساب كتابتهن حتى لتحتاج إلى أن تتريث كثيراً لتعرف نهاية الجملة. وربما ذلك لانفعالات الأنثى ورغبتها في طرح أفكارها، ويبدو من خصائصها أن الأفكار لا تكون مرتبة، ولذلك تحتاج في رسائلها أن تكتب ملحوظات كثيرة كحاشية، وربما لهذا أيضاً تنسى أن تضع النقط والفواصل والشُّرَط كما في شَرطة الكاف مثلاً، وتميل أن تقلد في عباراتها، وأن تحاكي

المقربين منها وأحباءها في خطوطهم.

وكثيراً ما تبين مهنة الكاتب من كتابته، ومن المفردات التي يستخدمها، فالمثقف قد يستخدم للمعنى الواحد أكثر من كلمة، ولا يميل إلى أن يكرّر نفسه بالكلمات نفسها، وتسعفه ثقافته وتعطيه زاداً من المفردات، على حين يميل نصف المثقف إلى استخدام العامية، فهي أسهل له، وفيها يحاول أن يكون مرحاً خفيف الظل إذا كان يكتب رسالة مثلاً. وتُعرف كتابة الطبيب أو المحامي مما يقول، ومن الحكايات التي يرويها، واتجاهاته مع الناس، كما تبين مما يقصه عنهم.

ويبدو أن الخطوط تعكس طريقة الأشخاص في الحديث، فكما تتحدث يكون خطك، فالذين يلجأون إلى الصوت العالي وتأكيد العبارات بالضغط على الحروف نطقاً، يفعلون ذلك في كتاباتهم، وتظهر العصبية في الخط ظهورها في الكلام. والإنسان وافر النشاط جمّ الحركة، المحب للكلام، يكتب بهذه الخصائص نفسها، ويهتم أن يضع النقط والفواصل والشُّرَط. وإذا حدث أن تخلى إنسان عن طريقته التي هي خاصته في الكتابة لظروف معيّنة، فإنه أيضاً إذا عبّر عن نفسه بالكلام يتخلى عن طريقته في التعبير، فإذا كان منطلقاً خفّف من سرعته، وإن كان عصبياً تريّث نوعاً ما، وكذلك في الكتابة فلربما يتوقف هنا وهناك ليضع علامة استفهام، أو يضع عدداً من النقط، ويخفف ضغطه على القلم عند نهاية العبارات، ويبدأ العبارة الجديدة عليه بالضغط على القلم وعلى الحروف وهو يكتبها، والبدايات تكون كبيرة، بينما النهايات صغيرة، ويميل بها إلى أسفل السطر. وفي الانفعالات الحادة مثلما يكون الكلام حاداً عالياً، فإن الخط ينطلق سريعاً لا يكاد يلمس القلم الورق، ولا تكاد تكتمل الحروف وتأخذ حقها.

وقد يبدأ الشخص الكتابة بحالة نفسية معيّنة، ثم ينفعل وهو يكتب، وقد يهدأ من بعد. وهذه الحالات النفسية المتضاربة تظهر في الخط فلا يتساوق. والخط نتاج الجهاز الحركي الذي يحرّكه الشخص، وتبعاً لنشاط المخ تكون حركة اليد، فإذا كان الشخص مبتهجاً إتجه بالحروف صعوداً أعلى السطر، وإذا كان مبتئساً إتّجه بها نزولاً أسفل السطر،

والغاضب تتميز حروفه بالحدّة في الحركة والشكل، ومن ثم فمع الانفعالات المختلفة تتشكل الحروف هنا وهناك.

وينعكس التعب على الخط ويميل الخط نزولاً إلى أسفل الورقة. وقد يبدأ الكاتب الكتابة ثم يتعب فيجد أن خطه يسوء، وأنه يخطئ في الهجاء ويغفل النقط، فيترك الكتابة ويستأنفها من بعد، ونستطيع أن نحدّد متى توقف، ومتى بدأ من جديد، من شكل الحروف والهيئة التي تكون عليها من حيث النقط وغيرها. ومن المسلم به في حالات التعب أن لا يكون هناك اتساق في الخط ولا ترتيب ولا انتظام.

وقد يُظهر الخط الحالة الشعورية للكاتب تجاه المكتوب له الرسالة، فمثلما يتأثر الخط بالمضمون فكذلك يتأثر بالحالة الشعورية، وأمكن في حالة شخص واحد أن نرصد تغيّراً في الخط في كتاباته لكل من أمه، وأبيه، وأخته، وأخيه، وصديقه، وأستاذه، ومدير البنك الذي يعمل فيه، من حيث الحرارة التي تكون عليها التعبيرات وظهورها في انسيابية الخط، ومن حيث الخوف وما يستحدثه من قمع وكفّ فيرتعش الخط وتضطرب العبارة. ومن حيث الاحترام وما يفرضه من تعبيرات وما ينبغي له من خط يُصطنع إصطناعاً... وهكذا.

وكذلك فإن الرغبات والانفعالات اللاشعورية قد تظهر في الكتابة وفي الخط، ويروى مثلاً أن المكتوب له كان يدعى «الأستاذ جاد عفيفي»، ولم يكن الكاتب يحبّه، فكان يخطئ التنقيط فيكتب «الأستاذ جاز»، وذلك من زلات القلم التي ذكرها فرويد ضمن سيكولوجية الحياة اليومية. ويروي جونز صديق فرويد أن سيدة كان يكاتبها أرسلت إليه رسالة قالت له فيها «وأرجو أن تكون على خير حال وأن تكون تعيساً في حياتك»، وكانت هذه السقطة منها كاشفة لحقيقة مشاعرها نحوه، فقد كان ينوي الزواج منها ولكنه عدل. وزلات القلم على الورق تشبه زلات اللسان في الكلام، ويعلق عليها فرويد أهمية بالغة، بالنظر إلى أنها تكشف صاحبها وتفضح مشاعره ونواياه الحقيقة، ولعلنا نلحظ أن الكثير من الناس لا يحبّون أن يردّوا على الرسائل التي تأتيهم، ويسوّفون في الردّ،

وإذا ردّوا كانوا مقتضبين، وأمثال هؤلاء يعانون من صراعات معيّنة نتيجة كفّ هائل يمارسونه مع أنفسهم، ويحول بينهم وأن يُظهروا مشاعرهم فيما يكتبون، والكتابة بالنسبة لهم مؤلمة، لأنها توقظ هذه الصراعات، وكتاباتهم فيها الكثير من التردّد حتى إنك لتلمس في الكلمة الواحدة المشحونة شحناً نفسياً عالياً إختلافاً في النسق لا يجعلها على وتيرة واحدة. ويذكر أن فتاة كانت قد خطبت لشخص لا تحبه، وكان يكثر من مراسلاته لها، ويشكو من عدم ردّها، وكانت كلما تهيأت للرد توقفت عند كلمة «عزيزي» فلا تستطيع أن تكتبها، فإذا كتبتها جاءت العين صغيرة جداً لا تكاد تبين، ثم تكون هناك مسافة بين عزيز والياء، وتنسى أن تضع النقط، ومن ثم كانت شكوى الخطيب أنها تبدأ الخطاب في كل مرة إذا كتبته هكذا «عزيز-ي».

مراجع

- Pokorny: Psychologie der Handschrift.



- ٩ -
سيكولوجية الدِّين

التفكير الديني ليس تفكيراً خرافياً... الدين كاعتقاد وتجربة. أدب الغريزة الدينية. سيكولوجية المتدين والواعظ الدينية. الارتقاء الديني والارتقاء في مراحل الحياة. سيكولوجية التحريم والدعوة التبشيرية. الاصطلاحات الدينية وأبعادها النفسية.



التجربة الدينية تجربة إنسانية عالمية، فلم يوجد شعب يخلو تراثه من الأدب الديني. والاعتقاد الديني، والعاطفة الدينية، من المسائل التي يتعامل معها الغالبية من الناس كمسلّمات، حتى أن البعض يقول بغريزة دينية Religious inistinct، قيل هي الغريزة الفيصل بين المستويين من الوجود الإنساني والحيواني، وأنه كلما ارتقى الإنسان وجدانياً كلما كانت له إشراقات أو فيوضات صوفية كونية، قد

تعبّر عن نفسها تعبيراً دينياً صريحاً، أو تكون اهتماماً أو «همًّا» بالوجود وبقضايا الإنسان الوجودية.

وعلم النفس الديني أو سيكولوجية الدين، باعتبارها مجالاً حديثاً من مجالات الدراسات النفسية، تبحث في التجربة الدينية وسيكولوجية الإنسان المتدين أو العابد أو المؤمن، وشخصيته، وسلوكه، ودوافع الإيمان عنده. ومن أولى الدراسات النفسية في مجال الدين كتاب ڤُنْت Wundt سيكولوجية العامة Volkerpsychologie»، الذي يذهب فيه إلى ربط ارتقاء الإيمان في الدين بالارتقاء في مراحل النمو، ويقول بمراحل دينية تتواكب مع ارتقاء الوعي الإنساني وتساير النمو عند الطفل، فهناك أولاً الطور الأوّلي Primitive stage، والإيمان فيه إيمان بدائي بسيط قد يتوجّه لقوى الطبيعة المؤثّرة في حياة الناس، والتي تكون لها في حياتهم الواعية ردود فعل نفسية مدارها الخوف والرهبة والإجلال والتوقير. وليست عبادة النار مثلاً، أو عبادة الكواكب، إلا لأن العابد بتمثلها يستدمج في نفسه قوة ما يعبد، فلا يصيبه منها مكروه، وتكون له عوناً على غيره. وهناك الطور التوتمي Totemism، بانتساب الأفراد إلى توتم واحد يكون لهم سلفاً، ويجعل منهم أخوة يستشعرون في أخوّتهم أماناً يوفّره لهم التضامن والتماسك والانتماء. وهناك أخيراً الديانة الإنسانية التي بها يكون الوعي بالمسؤولية الاجتماعية والتكافل العائلي والوطني والإنساني، والتي تقوم على المحبة وليس العداوة، والتعاون دون التصارع أو البغضاء. وسيكولوجية ڤُنت الدينية أساسها أنثروبولوجي نفسي، وأما السيكولوجية الدينية المحدثة فتوجهاتها إختبارية Empirical، وتجريبية Experimental، وتفيد في مناهجها من كلٍ من التحليل النفسي، وعلم نفس النمو، وعلم النفس الاجتماعي، وسيكولوجية الشخصية. وكان لمدرسة ڤيرتسبورج Wuszburg دور قيادي في تأصيل المنهج التجريبي كمنهج أساسي لدراسة التجربة الدينية. واستخدمت هذه المدرسة طريقة عقد اللقاءات مع المتدينين، والاستبيانات، ودراسة الظواهر الدينية كالرِدّة، والتحوّل من ديانة إلى أخرى، أو

من مذهب إلى مذهب، أو التحوّل من الكفر إلى الإيمان أو العكس.

وتهتم سيكولوجية الدين إهتماماً خاصة بدراسة التجربة الصوفية Mysticism في مختلف الديانات. وهناك كثير من البحوث في الاتجاهات الدينية عند الكبار والأطفال، وتستخدم في قياس هذه الاتجاهات مقاييس الميول والاتجاهات كمقياس أولبورت وڤيرنون. والوعي الديني قد يكون بمعناه الضيّق الذي قوامه الشريعة أو جوانبها المعرفية والتطبيقية، أو التقبُّل الكامل للغيب والإيمان باللامعقول وهو المسمّى بالهوس الصوفي والحكايات الدينية الغيبية Mythomania، وقد يكون بمعنى أوسع هو انفتاح عقلي ووجداني على الحياة بكاملها والكون كله، ومن ذلك ميول البعض لعبادة الأبطال Hero-worship، وتوقير الأسلاف وكبار السن، والمحافظة على التقاليد ومسايرة العرف واحترامه، وطاعة الأبوين وأولي الأمر.

وهناك الكثير من المجالات يمارس فيها تسييس الدين أو تديين السياسة، وتُستَغل فيها المشاعر الدينية استغلالاً لصالح الأفراد أو الجماعات. وقد يمارس العنف باسم الدين. ويذكر التاريخ الكثير من الاغتيالات الدينية والحروب المقدّسة كالحروب الصليبية، وسيذكر التاريخ حرب الخليج، وحروب البوسنة، كحروب دينية، ويردّ البعض الكثير من صور الاضطهاد النفسي والتعصُّب العرقي إلى الصراعات الدينية.

وتقوم الدعوة التبشيرية الدينية حديثاً على الكثير من مقولات علم النفس والطب النفسي. وتشمل الدراسات النفسية في الدين البحث في المحرّمات Taboos، والميكانيزمات الدفاعية الدينية في مواجهة الخوف والقلق والتعصب. ومن المجالات الأساسية التي تبحث فيها سيكولوجية الدين: التسامي Sublimation بالغرائز والدوافع والحاجات، والتَّصوّف Sufism والرهبنة Monkhood، والاعتقاد في المشايخ والأولياء، وزيارة الأضرحة والقبور، والتداوي بالرُّقَى والتعاويذ، وطهارة الأولاد والبنات، والجهاد الديني والاستشهاد، والنبوءات والرؤى، والإيمان بالظواهر الخارقة والمعجزات وقصص

الخَلْق غير الطبيعية، كخلق آدم وحواء، والحكايات عن الأنبياء والبعث والحساب، والتباين بين الديانات، والوظيفة النفسية التي يخدمها هذا التباين عند أفراد المؤمنين وجماعاتهم، والحياة النفسية لكبار الفقهاء من أصحاب المذاهب والنحل الدينية، ومردودها على فقههم أو تشريعاتهم أو العكس، ومعنى الطاعة الدينية، وما تنصرف إليه، والدلالات النفسية للأوضاع الاجتماعية للمرأة والرجل والطفل والشيخ في الديانة، والمعنى النفسي للصوم، والراحة النفسية التي تستحدثها الصلاة عند العابد، ودلالات الوضوء والاغتسال، والعلاقات النفسية الجنسية بين الذكور والإناث، والعلاقات العائلية، ومعاني الضمير والأخلاق والجنة والنار والثواب والعقاب، والدين كيوتوبيا، والتجارب الأدبية والفنية الدينية، والنصوص المقدّسة، والكتابات الشعرية والنثرية في الدين، وفن الأيقونات والخطوط والزخارف الدينية، والدلالات النفسية للزي الديني ولباس الرأس الديني واللحية والمسبحة والسجادة، والوظائف النفسية لمناصب المفتي وشيخ الطريقة، والمقرئ والكاهن، والقسيس والحبر والراهب والفقيه، والبطريرك والبابا الإمام، وأمثال هذه الشخصيات الأبوية، ومعنى أن يُنَادَى أيهم بألقاب مولانا أو الشيخ أو الأب أو الأم أو الأخت أو صاحب الفضيلة، ودلالة الاختلافات في أن يكون الإله ذكراً أو أنثى. ويدرس علم النفس الديني وظيفة الرموز في الديانات، والطقوس التعبدية. وهناك الكثير من المصطلحات الدينية ذات الأبعاد النفسية مثل: التعالي Transcendence، والإيمان، والمحبة، والأخوة، والفداء، والوجد، والوجدان، والوصال، والوله، والنجوى، والنفس، والمشاهدة، والتجلّي، والفيوض والفتوح والإشراقات، والشواهد والمطالعات، والكمال والجلال، والقُرب والوصول، والقُدرة، والفراسة، والغضب، والغشية، والغيرة، والغرور والكِبْر، والعشق، والعزلة، والشوق، والشرود، والسكينة، والسلوك، والشُّكر، والسرّ، والرياضة، والرياء، والرهبة، والرؤيا، إلخ.

والاعتقادات الدينية تحدّد سلوك الناس، وهي طرقهم الخاصة في التعامل مع الصراعات.

وتتباين التجارب الدينية إلا أن طبيعتها السيكولوجية واحدة. ولا تختص التجربة الدينية بناحية نفسية واحدة عند الإنسان ولكنها تستغرقه كله. ومن شأن الصلاة مثلاً أنها ترتقي بالإنسان العابد من التعبّد الموضوعي إلى التُّقَى الذاتي، وهي تثري شخصيته وتتسامى بغرائزه ودوافعه وتجعل له أهدافاً ومعان لحياته تتجاوز الأهداف المادية التي لعامة الناس. وتقوم التجارب الدينية على التأمل الذي ينتزع العابد من الماديات ويكون به إنسانياً. والمقارنة بين الأديان علمٌ يقوم في بعض جوانبه على البحث في سيكولوجية الدين عموماً عند الشعوب، وعند الأطفال خصوصاً. وقد تناول بعض علماء النفس بالدراسة تكوين فكرة الله عند الأطفال خصوصاً. وقيل إن الطفل بين السادسة والسابعة يميل إلى التشبيه المادي، وفي السن بين الثامنة إلى الحادية عشرة تكون ميوله خليطاً من التشبيه والتعيين والتجريد، وفي السن من الثانية عشرة تكون له تصوراته المجرّدة عن الله. ويذهب البعض إلى القول بأن فكرة الله عند الأطفال حتى سن السابعة أو الثامنة حدسية، ثم تتحول إلى العينية من السابعة أو الثامنة إلى الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، وبعد ذلك تكون فكرتهم عنه هي الفكرة الرسمية نفسها، أي فكرة الدين الرسمي. وقيل إن الطفل في نحو التاسعة أو العاشرة تكون معرفته بالله توصيفية أي معرفة بصفاته، ثم تبدأ مرحلة التشخيص في نحو الثانية عشرة، وبعد الخامسة عشرة تكون مرحلة استدخال أو استدماج الديانة الرسمية واعتناقها. وقد أجرى «مركز لوڤان للبحوث النفسية في الدين» بعض الدراسات حول صورة الله عند الطفل ومقارنتها بصورة الأبوين عنده، وتبين أن خصوصية صورة الأبوين تقابلها عمومية صورة الله. وكذلك أجريت بهذا المركز بحوث حول علاقة الارتقاء الأخلاقي بالإيمان الديني، وأنماط السلوك الديني وأبنية الشخصية (Vergote: Psychologie Religieuse).

ولقد نبهت القضايا الكثيرة في

التربية الدينية لما يمكن أن يكون مجالات جديدة للبحوث النفسية، ومن ذلك إمكانية عدم المصادمة بين المنهج العلمي والتعاليم الدينية، وعدم التعارض بين الأخلاقية الدينية ونتائج البحوث النفسية في المجالات التربوية والاجتماعية والسياسية والأدبية والفنية. وفي مجال الدعوة الدينية كان السؤال المطروح دائماً هو إمكانية الاستفادة من بحوث علم النفس في الحِجاج، وطرح المشاكل، والخلوص إلى النتائج، وقيادة الجماعة أو إمامتها. غير أن البعض قد يرى في علم النفس إيديولوجية تنافس الإيديولوجية الدينية وتعارضها، من حيث أن الإيديولوجيتين تتناولان كل نواحي السلوك والحياة، وأن كليهما يشكل نظرة كونية شاملة Weltanschaung، غير أن علم النفس علم عقلاني، بينما الدين غيبي وله سلطة آمرة، والأخذ به يقوم على الخوف من المجهول. ويختلف الناس في التدين، ويتبين من مختلف الدراسات أن النساء أكثر من الرجال التزاماً بالأوامر والنواهي والزواجر الدينية، وأن الرجال أكثر تطرّفاً من النساء في حالة الإذعان للدين أو الخروج عليه، وأن التدين يرتبط بالمستوى الثقافي، وأنه أكثر عند أبناء الطبقة المتوسطة، وأن مستوى ذكاء المتدينين عموماً هو المستوى المتوسط، وأن الدين أقرب إلى أصحاب الشخصية المتسلطة والميول المتعصبة. ويميّز وليام جيمس William James (١٨٤٢ - ١٩١٠) بين ما يسميه ديانة الأصحاء عقلياً ونفسياً وديانة المرضى. ويفرق آخرون بين التعبّد الموضوعي الذي يسلك بمقتضاه المتدين سلوكاً ليس عن اقتناع بأهدافه ولكن لأن الدين يأمره به، والتعبّد الذاتي الذي غاية العابد منه أن يصنع ذاته، وتكون التعاليم الدينية جزءاً من كمالاته الشخصية، وتطبعها بطابعها. والعابد يهمه في المقام الأول حقيقته هو، وأن يكون الصورة المثالية المتحقّقة لكل الأخلاقيات الدينية. ويفرّق علماء النفس بين الخبرة الباطنة الصادقة والسلوك الديني الروتيني والذي مجاله مظهر الشخصية وليس مخبرها. وأطلق بعضهم على هذا التمايز إسم الباطن

والظاهر Internal-external و Intrinsic-extrinsic في شخصية الإنسان المتدين، أو الأوّلي والثانوي Primary-secondary فيها، ومن ثم يتمايز في التجربة الدينية أن يكون الإيمان والالتزام ذاتياً أو مفروضاً وفوقياً، ويصنع هذا التمايز الفرق بين الدين Religion والتديّن Religiosity.

وقد نبّهت كتابات فرويد عن الدين إلى الكثير من أوجه الشبه بين الأشكال التي قد تكون عليها التجربة الدينية وبين الأعراض الوسواسية القهرية. ويكشف القصص الديني عن الكثير من الرمزية الجنسية، كالرمزية القضيبية Phallic التي للحيّة في الجنة وفي كثير من الديانات. ومن رأي فرويد أنه في التجربة الدينية تتميز التربية الاعتمادية للدين والتي يكون فيها الإله بالنسبة للعابد ما تكونه الأم بالنسبة للطفل، فالأم يعتمد عليها الطفل في طعامه وشرابه وإخراجه ونومه وصحوه وأمنه وسلامته، والإله يعتمد عليه العبد في الرزق والأمن والصحة والنجاح وفي كل شيء. وينبّه فرويد أيضاً إلى الجانب الآمر في الدين، والدوافع النفسية للتعصب، ودور الأب، باعتبار أن الحياة الدينية هي طرح درامي على المستوى الكوني للمواقف والمخاوف والأشواق التي تفجّرها علاقات الأفراد في طفولتهم بالأبوين.

ولقد تنبّه الكثيرون إلى هذا التقابل الذي يقوم عليه الدين بين التوبة والرحمة والعفو وبين القصاص الواجب، وأخذ المذنب بالشدّة، وتطبيق النص. وقد يستميل البعض في الدين هذا الجانب الأول أو ذاك الجانب الثاني الذي يمكن أن تكون عليه شخصية المتدين. والكثيرون يرون أن الأنبياء أُرسِلوا رحمةً للناس، وأن الكتب السماوية فيها الشفاء للنفوس. والكثيرون أيضاً يُبدههم في الدين جوانب التحذير والتنذير. وربما تكون غلبة أيّ من الجانبين بسبب الأحوال الاجتماعية والظروف المادية للمجتمع، وربما يكون الإيمان الديني بأي وجه من الوجوه بمثابة الإسقاط للصراعات بين الوالدين والأبناء، أو بين الأبناء بعضهم البعض.

مراجع:
- Freud: Obsessive Acts and Religious Practices.
- Freud: Totem and Taboo.
- Freud: Moses and Monotheism.
- موسى والتوحيد - ترجمة ودراسة دكتور عبد المنعم الحفني.
- William James: The Varieties of Religious Experience.

❖ ❖ ❖

- ١٠ -
سيكولوجية الزمن

الوجود والعيش في الزمان، والاعتقاد في الحياة خارج الزمان. الوجود النفسي للزمن. الزمن الذاتي واختلاف الإحساس به عند الشعوب وعند الذكور والإناث. والزمن والانتظار والسأم. الإدراك المرضي للزمن. الوعي بالزمن. التوجه الزمني. الزمن الميقاتي. تحليل السلوك الزمني. الساعة الفسيولوجية. الأفق الزمني.

❖ ❖ ❖

نحن نخبّر أو نُحسّ الزمن Time sense بتمثّله في الوعي، وأقصر مدّة زمنيّة يمكن أن نخبرها ويعيها الإنسان هي اللحظة The moment. والزمن ظاهرة سيكولوجية كما هو ظاهرة فيزيائية. وللزمن وجود مادي أو موضوعي يُقاس بمقاييس الزمن، كما ان له وجوداً نفسياً أو سيكولوجياً أو ذاتياً - الزمن السيكولوجي Psychological time، يختلف بإزائه الأفراد كما تختلف الأمم والشعوب. وبعض الشعوب إحساسها وتقديرها، وإدراكها للزمن Time-perception، قاصر، ويتمثّل ذلك في لغاتها، من حيث تعبيراتها عن الأزمان في تعاقبها أو تتابعها أو تواليها أو ديمومتها. والطفل الصغير لا يبدأ يعي أن للزمن وحدة يمكن أن يحسب بها إلا في نحو سن الثامنة. وهو في نحو هذه السن يبدأ إدراكه للزمن كمنظور Time field، فهو يكون ماضياً، أو حاضراً، أو مستقبلاً. والزمن الذاتي Subjective time يتمثّل عند كبار السن أكثر من تمثّله عند الشباب، فقد يتعجل الشاب الزمن ومن ثم يستشعر لجريانه وطأة ويحس

للانتظار ألماً. والشيخ الطاعن قد يستثقل الزمن في بطئه عندما تقصر أمانيه ولا يستشرف مستقبلاً. وقد يزيد إحساسه بالزمن الماضي ويكون تفكيره فيه، وتتناوبه المشاعر لخبرات يأسف لها أو يفرح، ويعاود التفكير فيها ويعيشها بكل انفعالاتها. والرجال عموماً أكثر إدراكاً للزمن وتقديراً للوقت من النساء. والمرأة قد تتقلب مشاعرها وتضطرب وجدانياً أكثر من الرجل إزاء الزمن متمثلاً في التواريخ وما تعنيه لها - أي للمرأة، أو ترمز إليه، وهي أحفظ لها من الرجل. والمرضى العقليون لا يستشعرون الزمن، ولديهم ما يُسمى العمه الزمني Time-agnosia وهو عجز عن تفهم معنى الوقت أو إدراكه. وانقضاء الزمن أو استنفاده يكون أسرع كلما كان العمل أو النشاط الذي ينصرف الإنسان فيه أحب إلى النفس، أو كلما كانت هناك دوافع للقيام به. ولا نحسّ بالسأم ويطول بنا الوقت ذاتياً، إلا إذا كرهنا ما نقوم أو نُشغَل به في الزمن. والشيوخ أكثر معاناة للسأم الذي يكون مع الزمن، والشباب يخبرون الانتظار في الزمن أكثر من الشيوخ.

وتتسبب بعض العقاقير في اضطراب الإحساس بالزمن وتقديره، فعقار الهلوسة مثلاً، والمسكالين، والبيلوسيبين، والكافيين والثيروكسين، يكون بها التقدير المُغالي فيه للوقت، فالساعة قد تنقضي كساعتين، بينما قد يتسبب عن تعاطي المهدئات أو الكينين، أو استنشاق الغاز الضاحك أن يستشعر المتعاطي أن الساعة قد مرّت كنصف الساعة أو نحو ذلك. ومن ظواهر الإدراك المرضي للزمن Pathological perception of time زيادة أو تناقص إدراك الزمن، أو فقدان الحسّ الزمني، أو غياب الوعي بالمتصل الزمن Time-continum ، أو اضطراب النسبة للماضي والحاضر والمستقبل، وقد لا نتذكر الماضي أو يتشوّش الإدراك بالحاضر، أو يتوه عنّا معنى المستقبل.

ويتغيّر إدراكنا للزمن بعوامل خارجية كما يتغيّر بعوامل ذاتية، ومن العوامل الأولى ما يكون مصدره الجسم، ومع ارتفاع أو انخفاض درجة حرارة الجسم قد يتشوّش الإدراك بالواقع. وبعض الأفراد يتميّزون بتقلبات حرارة

أجسامهم، ومن ثم يزيد عندهم الاضطراب في إدراك الزمن من غيرهم.

والزمن متمثلاً في الوعي يرتبط بأحداث، والوعي بالزمن Awareness of time هو وعي بالتاريخ. والزمن أزمان في علاقاته بالأحداث، أو أن الأحداث ترتبط بالتواريخ، أو نتذكرها، أو نتحدث عنها، في علاقاتها بالزمن Relation to time، أو بموضوعها في المنظور الزمني Time perspective للفرد. وبعض الناس والشعوب مرتبطون أكثر من غيرهم بالزمن Time-bound. وتتشكل الأحداث زمنياً باعتبار علاقاتها البعدية أو القبلية ببعضها البعض. ونحن نفكّر في الأحداث من حيث معناها للمستقبل وتنبؤاتها عنه، أو من حيث ارتباطها بالحاضر وما يمكن أن نقوم به فيه من أنشطة وانجازات، أو ما قد نعي لها من دروسٍ نحفظها في الذاكرة ونستعيد ذكرياتها من الماضي. وكل حَدَث عندما يقع فإنه يقع لمرة واحد، وليس من الممكن أن نستعيد حدوثه هو نفسه. ولكل حدث فترة زمنية Time-span أو Duration يستغرقها، وقد تقصر أو تطول. والحدث قد يتزامن Simultaneous مع أحداث أخرى، وقد يسبقها ويقدّم لها ويكون إرهاصاً بها، وقد يتلوها Successive ويتراتب عليها. والأحداث قد تكون مفردة، وقد تترابط في سلسلة، ترابطاً إجتماعياً وثقافياً يصنع ما يسمى التوجه الزمني Temporal orientation في التاريخ والمجتمع والعالم بأسره.

وتذكر كتب الفلسفة أن كنط Kant (١٧٢٤ - ١٨٠٤) كان أول من تناول الزمن كموضوع للإدراك، ومن ثم جعله بالتالي من الموضوعات الرئيسية لعلم النفس A time-study. وتقوم سيكولوجية الزمن على المقابلة والمقارنة بين الزمن الموضوعي الميقاتي Objective clock time والزمن الذاتي Subjective time، أو الزمن الباطن Internal time المشعور داخلياً ونفسياً، ولكل من الزمانين إيقاعه Tempo؛ ولكل منهما ساعته، فالزمن الفيزيائي أداته الساعة الزمنية Temporal clock، والزمن النفسي أداته الساعة الباطنة Internal clock. ويتحصّل الوعي بالزمن من تخالف الأوقات والتغييرات التي يستوعبها في الإنسان

نفسه والأشياء من حوله، ومنها ندرك أن الزمن في تتابع، وأن له مدّة أو مدداً هي الفترات التي يستغرقها التغيير، أو التي تستقر فيها الأحوال إلى حين، ومن ذلك تعاقب الفصول، وتخالف الليل والنهار، وأزمان الحياة، والأوقات لمتباين الأنشطة.

والزمن ظاهرة ميتافيزيقية عندما يكون تفكيراً في الآخرة وفيما بعد الموت، ومن المنطقي أن لا يكون الموت هو نهاية الحياة والوجود، وأن لا يكون هناك حساب وعقاب وثواب، والأولى الاعتقاد في الآخرة لا نَفْيها والإعتقاد فيها إيجاب ونفيها سلب. ومجال التفكير في الوجود خارج الزمان هو الدين، مثلما مجال التفكير في الوجود في الزمان هو الفلسفة والعلم وعلم النفس بالذات. وكان هايدجر وسارتر، وعبد الرحمن بدوي: يقولون بالوجود في الزمان لا غير، فلا وجود إلا هذا الوجود، بينما تسعون في المائة من الفلاسفة وأهل العلم يجزمون بوجود خارج الزمان.

والزمان أو الزمن ظاهرة فيزيائية ونفسية، وهو بهذا الاعتبار ظاهرة للتأمل، والإحساس بالزمن Sense of time أو الزمن. كظاهرة محسوسة، يقوم عليها ما يسمى الفيزياء النفسية للزمن، وكان هنري بيرون Piron سنة ١٩٢٣ أول من تناول سيكولوجية الزمن في إطار سلوكي من خلال دراسة السلوك في علاقته بالزمن، وواصل بيير جانيه Janet (١٩٢٨) هذه الدراسة بالتركيز على أوجه التكيف التي يلجأ إليها الإنسان في تواؤمه مع الزمن، ودرس جان بياجيه Piaget (١٩٤٦) تطور فكرة الزمن عند الأطفال، وتوفر بولس فريس Fraisse (١٩٥٧) على تحليل السلوك الزمني Temporal behaviour، وقال إنه مجموعة التهايؤات للتغيّرات في الفرد أو البيئة من حوله، ومنها تهايؤات نتعلمها أو نكتسبها، ونخترع الرموز من أجل التعبير عن الزمن وأوقاته وفصوله وتواريخه، ونعلّمها للأجيال لكي يكون التفاهم بها حول وقائع وحقائق الزمن، ومن خلالها يكون إدراكنا للوقت، وللمدّة، وإحساسنا بالزمن وانقضائه أو ما يسمّى إيقاع الزمن Temporal rhythm، ونحن نوقّت الزمن من خلال إيقاعه المرحلي أو

الفصلي أو اليومي المتعاقب Nychthemeral rhythm، ويتحول الإيقاع الخارجي إلى إيقاع داخلي ينظم حياة الأفراد في نومهم وصحوهم وسعيهم وتناولهم للطعام، وينتظم به معاشهم وهضمهم وحرارة أبدانهم خلال ٢٤ ساعة هي مدة اليوم بليله ونهاره. وهذا النشاط المنتظم هو الذي يصنع من الكائنات الحيّة جميعها أشباه ساعات، وهو أيضاً الانتظام الذي نرتّب عليه أنشطتنا وصلواتنا. ولقد قام أحدهم بتجربة حبس فيها نفسه داخل كهف، لا يدري بداخله عن أمر الليل والنهار، وليس لديه ساعة يعرف بها الوقت، وكان ينام كلما احتاج إلى النوم، وظل في الكهف ٥٨ يوماً، نام خلالها ٥٧ مرة، ولكنه قَدَّر عدد الأيام التي قضاها فيه بثلاثة وثلاثين يوماً، الأمر الذي يقطع بأن ساعته الفسيولوجية Physiological clock (عدد مرات نومه) كانت أصدق وأدق من تقديراته للوقت (Siffre, Michel: Hors du Temps). وهذا التحول للإيقاع الخارجي إلى إيقاع داخلي حقيقة علمية نجد لها تفسيراً في إشراط باڤلوف Pavlov (١٨٤٩ - ١٩٣٦)، فعندما نقوم بإطعام الكلب كل ثلاثين دقيقة فإننا نجد لعابه لا يبدأ يسيل إلا قرب انقضاء الدقائق الثلاثين، وليس قبل ذلك أو بعد ذلك. ونحن أيضاً نبرمج أنفسنا على الإيقاع أو النبض الحضاري الذي يكتنف حياتنا من حيث مواعيد العمل والنوم والأكل وغيرها. وحتى الذين يعانون نقصاً عقلياً يشمل حياتهم تنظيم من نوع ما، ولا يتناولون طعامهم إلا على فترات منتظمة. ولكننا بالإضافة إلى ذلك نتعلم أن نوجّه أنفسنا بحيث نتواءم مع ما يطرأ من تغيرات مرحلية أو دورية، من أهمها التغيرات أو التقلبات في الطبيعة، ونتعلم أن نستخدم أجهزة لقياس الزمن وحسابه كالتقويم Calendar، والساعة Clock، أو الكرونومتر Chronometer، ونعيش الزمن كدورات Cycles، أو أن لكل منا أفقاً زمنياً Temporal horizon. والأفق الزمني الذي يمكن أن يدركه العامل المياوم بخلاف الأفق الزمني لأستاذ الجامعة، وكذلك الأفق الزمني للطفل الصغير وللراشد. وكلما تقدمنا في العمر إتّسع هذا الأفق واستوعب أزماناً، وصارت للأزمان دلالات

نفسية لم تكن لها، وتعكس اللغة ذلك، ولا يقتصر الأفق الزمني للطفل على تجاربه الشخصية، ولكنه يستطيع من خلاله وفي إطاره أن يتصور المستقبل ويتذكر الماضي، ويعيش أحداث أسرته والمجتمع من حوله وتاريخ أمته. وليس بوسع الطفل أن يتصور نفسه في دورة حياته كزوج، ولكن المراهق يستطيع ذلك، والجدّ يفكّر في دورات حياة سابقة كانت له. ويتميّز الإنسان عن سائر الكائنات في اتساع دوائره أو آفاقه الزمنية، وكل حرفة أو مهنة. وكل شعب. له وجهة نظره في الزمن. ويتحدث بعض علماء النفس عن تعدد الأزمان الاجتماعية. وقيل إن بعض القبائل البدائية في جزر المحيط الهادي لا تعرف الزمن المنقضي ولا الآتي، ولذلك تخلو لغتها من الأفعال الزمنية الماضية والمستقبلية. وقيل أيضاً إن أولاد الفلاحين يحكون عن قصصٍ، الزمن فيها بسيط، بينما أولاد المدينة تحفل قصصهم بالزمن المركّب، وإنه لذلك يختلف الزمن في القرية عنه في المدينة. ولكل فرد منظوره الزمني، وأحياناً يكون للفرد الواحد عدد من المناظير الزمنية بحسب تعدد انتماءاته الطبقية أو الاجتماعية، ومن ثم فقد يختلف إيقاع الزمن العائلي عنده عن إيقاع الزمن الوظيفي. ومع اتساع الدوائر الزمنية والنضج والتثاقف المستمر نتعلم أن نصبر على الزمن، وأن نحتمل تأجيل إشباع حاجاتنا، وأن نطلب الأهداف البعيدة ذات القيمة الأكبر والإشباع الأطول عن الأهداف القريبة زمنياً والأقل قيمة وإشباعاً، غير أننا في كل الأحوال نستشعر للزمن ضغوطاً Pressions temporelles، ونستخدم بسببها الساعة في المدينة أكثر من استخدامها في الريف. وأحياناً نتغلب على حقيقة انقضاء الزمن بأن نستحضر الماضي والمستقبل في الحاضر ونقيم لهما المتاحف، أو نرصدهما في السجلات، أو نصنع لأنفسنا التواريخ التي تكتب لنا الخلود عبر الأزمان.

مراجع:

- Fraisse: The Psychology of Time.



- ١١ -
سيكولوجية القيم

معنى القيمة ونسق القيم. تأثير القيم في الإدراك. القيمة النفعية وقيمة اللذة. القيم والثقافة والتربية. الاختلافات في القيم بين الشعوب، وبين الذكور والإناث. القيم الإيجابية والسلبية.



تُمثل القيم Values ما نؤثره ونفضله ونختاره من موضوعات تتّجه إليها رغباتنا وتمليها علينا حاجاتنا. وهل يمكن أن نوجد ونكون بلا قيم؟ وكيف نتعامل إذن إن لم تكن هناك قيم كما يزعم العولميون والليبراليون؟ وكيف نطالب بالعدالة والحق، وندعو الآخرين أن يعاملونا بالخير؟ والقيم لذلك من المحدِّدات الهامة للسلوك Determinants of behavior، لأنها أشمل من كل رغبة وحاجة واتجاه ودافع، وهي التي تستولد الحاجات والرغبات، وهي جزء من نسق الدوافع ولكنها هي نفسها ليست دوافع، وليست معايير للسلوك لأنها عامة ولا ترتبط بمواقف كالمعايير. والقيمة يمكن أن تكون مصدراً للكثير من المعايير، فمثلاً المساواة كقيمة، هي معيار لأكثر من إنسان في مواقف مختلفة وعلاقات متباينة. وعندما ترسخ الاتجاهات وتقوى فإنها تصنع قيمة. وتنتظم القيم في الشخص الواحد لتكوّن ما يُسمّى بنسق القيم Value system عنده، وربما يبدو أن نسق القيم هو ما نعنيه بالإيديولوجية الشخصية للفرد، فكل إيديولوجية ليست شخصية، ونسق القيم وحده هو الذي يمكن أن يكون شخصياً وجماعياً. والقيمة ضرب من الاتجاه الأمثل Super-attitude، وإذا كان الاتجاه هو استعداد نفسي أو تهيؤ عقلي متعلَّم للاستجابة الموجبة أو السالبة نحو الأشخاص أو الواقف أو الموضوعات المختلفة، فالقيم أبعد من ذلك لأنها مفهوم مجرد يتصل بالذات، ومن نسق القيم يتكون مفهوم الذات Self-conception، وتقدير الشخص لنفسه واحترامه لها. وما يجعل نسق القيم يستمر ويثبت عند الشخص هو مفهومه

عن ذاته، وبدرجة ما تنعكس صورة الشخص عن نفسه في قيمه بقدر ما تكون ردود فعله العاطفية على محاولات تغيير قيمه أو اتجاهاته التي تقوم عليها القيم. وتخدم كل الاتجاهات النفسية القيم. وكل نسق القيم يدعم فكرة الشخص عن نفسه واحترامه لها. وكل وظائف الاتجاهات النفسية أن تكون معبّرة عن القيم. ومفهوم القيمة من المفاهيم الكبرى سواء في الفلسفة أو في علم الاجتماع أو في العلوم السياسية والاقتصادية. والتعبير عن القيم هو المصدر الرئيسي لتحقيق الذات.

وتؤثر القيم في الإدراك، فما نضفي عليه قيمة أكثر من غيره هو ما ندركه ونتعرف عليه بسهولة، وما نسعى إليه ويهدي سلوكنا. ويتعلم الطفل من لحظة أن يولد ويطعم ثدي أمه، أن لفمه، ومن ثم لأعضائه، ولكل شيء في بيئته، ولكل أحد، قيمة نفعية Utility v.، وقيمة لذة Pleasure v.. وخلال عملية النمو ينتقل الطفل من أنماط السلوك المفروضة عليه إلى نوع من ضبط النفس تتحكم فيه قيمه الشخصية. وتشكّل الأسرة والجماعات المرجعية قيم الطفل. وحتى عندما يتمرد المراهق على قيم الوالدين فإن المشاهَد أن كل الأولاد ينتهون إلى أن تكون لهم قيم الأبوين. وقد يبدو أن تنكُّر المراهقين لقيم الأبوين هو لإثبات استقلاليتهم، غير أن ما يحدث أن هذا التنكُّر يؤكّد هذه القيم ولا يلغيها، إلا أنه يصنع بالمراهقين كما لو أن ما أخذوا به أنفسهم من قيم هو من إبداعهم هم أنفسهم وليس نقلاً أو تقليداً للوالدين.

ويختلف عالم اليوم عن عالم الأمس الذي كان ينبض بالقيم والمُثُل والأمثال والحِكَم، ويضطرب تمثّل الأولاد للقيم نتيجة المفارقة بين التربية ومقتضيات العصر. ورغم أن أطفالنا يتمثّلون القيم التي تهيؤها لهم الثقافة، إلا أنهم يصيبهم الاضطراب نتيجة اكتشافهم الفارق بين ما تذهب إليه قيم المجتمع أو الأسرة والممارسات السلوكية في هذا المجتمع أو تلك الأسرة.

وهناك اختلاف بين الذكور والإناث فيما يتعلق بتمثّل القيم والالتزام بها. وينحو البنات في المراهقة إلى عدم الإذعان لقيم الوالدين ولكنهن ينتهين

بقبولها والتعيّن بها، ويظهر الصبيان عنفاً أكبر تجاه القيم العائلية والاجتماعية. وقيل إن مرحلة التمرد على القيم عند البنات هي التي تقع بين سن إحدى عشرة وسن الثالثة عشرة، وتُسمى لذلك المرحلة أو الطور السلبي Negative phase، ويتوجه معظم الرفض للأم خاصة.

والقيم إيجابية Positive أو سلبية Negative، والأولى ما كانت الإثابة على الأخذ به، بينما الثانية ما لحق الفرد من جرّائه العقاب. ومن القيم الإيجابية التي يتمثلها المراهقون: الأمانة، وأدب السلوك، والتعاطف، والتعاون، والصداقة. ويُلام الأولاد على خيانة الأمانة، أو التنكّر للصداقة أو الإهمال. وفي عصرنا المادي قد تسود القيم المادية Material values، إلا أنه في المراهقة والفتوة قد يكون الاتجاه للقيم الدينية Religious values بخاصة، وهو ما يظهر جلياً لدى شبابنا هذه الأيام، كردّ فعلٍ لسيادة القيم المادية بعامة.

ويتصل بالقيم المادية ما يُسمى بنظرية قيمة العمل Theory of labour value، وهي نظرية مادية أصلاً ترى أن قيمة الأشياء فيما يدخلها أو يُبذَل فيها من عمل إنساني، وأن لها قيمة تبادلية Exchange value بما يمكن أن يُستبدَل بها من أشياء مختلفة. وتحفل وجهة النظر النفسية بما يمكن أن تستثيره الأشياء من رغبة فيها أو عزوف عنها، وكل عمل بمقتضى وجهة النظر هذه هو قيمة في حدّ ذاته بما هو مرغوب فيه أو معزوف عنه، والقيمة هي ما يستثيره الاهتمام بالشيء. وكل قيمة تدخلها عناصر عقلية ووجدانية واجتماعية وبيولوجية، وتصنّف القيم على ذلك بحسب ما فيها من عناصر، فالقيم الوجدانية Affective Vs. هي ما يجعلنا نرغب في الأشياء أو نعزف عنها؛ والقيم العقلية Conative Vs. هي التي يكون بها إقبالنا على التحصيل العقلي ومن ثم نحقّق به النجاح ونتجنّب الفشل أو الإحباط؛ والقيم الشخصية Personal Vs. هي التي يعبّر عنها اهتمام الفرد بنفسه ومتطلباته، والقيم الاجتماعية Social Vs. يعبّر عنها اهتمام الفرد وميله إلى غيره من الناس، والقيم البيولوجية

.Biological Vs هي ما يكون به التعبير عن الاهتمام بأوجه الإعاشة والإعالة الاقتصادية بما فيها من منافع للفرد. وتدخل القيم في كل الانساق التي يندرج تحتها الإنسان، فهي جزء من نسقه ككائن حي، ومن نسقه كشخصية، ومن نسقه الاجتماعي، وتتأثر القيم على ذلك بكل خبراته، وتتعرض للتأثير من قِبَل أية تغيّرات تطرأ على بنية السكان أو المجتمع، أو تطرأ على التكنولوجيا أو الانتاج الاقتصادي أو التنظيم السياسي، فإذا ثبتت واستقرت فإنها تفعل فعلها مستقلة كموجّه للسلوك.

وللقيم الخلقية .Moral Vs تأثيرها في تشكيل الفرد وتنشئته وفي ضبط سلوكه. ويكشف التحليل النفسي عن صراعات تقوم بالنفس بين القيم، فهناك القيم الاجتماعية التي نتمثلها ونذعن ونعمل بإحيائها، وهناك القيم الشخصية أي ما نفضله ونختاره ونهتم به أو له، وقد نكبته إلا أنه يظل يعمل داخلنا لاشعورياً. ويهدف العلاج النفسي إلى تقوية نسق القيم ودعم بعض القيم وإضعاف بعضها. وهناك دائماً هوة لا تُجتاز بين القيم الشخصية والقيم الاجتماعية. ويتوقف التوافق النفسي والاجتماعي على حلّ الصراعات بين القيم، أو التوفيق بينها، وخلق حالة من التوازن بين القيم الشخصية والقيم الاجتماعية والقيم البيولوجية.

والقيم تتلاحم مع بعضها ولا تنفصل عن بعضها، وتتأثر ببعضها البعض وبالتغيرات التي تطرأ على البعض. وتتميز المجتمعات المتغيرة بتصارع القيم. ومن النادر أن تسيطر قيمة واحدة ولمدة طويلة على سلوك الشخص، فمثل هذه القيمة تكون تفضيلاً مطلقاً Absolute preference، والعكس هو الذي يحدث غالباً، فالقيم تعمل معاً في شكل زُملة قيم V. cluster، ونسق أو نظام القيم V.-system هو مجموع القيم التي تسود جماعة أو مجتمعاً بحيث تتسق بها استجابات أفراده للمواقف المتشابهة. وقد يغلب على هذا النسق أن يكون دينياً كما في المجتمعات المسلمة، أو مادياً كما في أوروبا أو أميركا. ومن الممكن أن نستخلص هذا النسق من أقوال الناس وما يفضلونه ويؤثرونه ويرغبون فيه

ويحتاجون إليه، وما يدفع سلوكهم ويوجهه، وما يثابون عليه ويعاقبون بفعله.

مراجع:

- White, R.: Value Analysis.
- Allport et al.: A Study of Values.

❖ ❖ ❖

- ١٢ -
سيكولوجية الحسد

الحسد والثورات الاجتماعية. أخلاق العبيد وأخلاق السادة والحسد. الخرافة في الحسد. الدين والحسد. الاضطرابات النفسية والاعتقاد في الحسد. حسد القضيب عند الإناث. حسد الثدي عند الذكور.

❖ ❖ ❖

الحسد Envy تفكير راغب يتمنى به الحاسد أن تزول النعمة عن الغير وتكون له. ويعيش الحاسد في همّ نتيجة حسده، ويستبد به القلق كلما قارن حاله بأحوال الناس الأفضل منه. وحسده يولّد فيه غضباً، وقد يدفع إلى صراعات يميزها أنها تصدر عن حسد أو منافسة حسد Envious rivalry.

وللحسد زخم إجتماعي ونفسي، وقد يشحن المجتمع بالكراهية العلاقات بين طبقاته المالكة والمعدمة، ويدفع إلى ما يُسمى بالصراع الطبقي Class-conflict، وقد يكون وراء الكثير من الثورات. ويذهب الكثير من العلماء إلى اعتبار الحسد من أخلاق العبيد، وأنه لا يليق بالسادة، وأن خُلُقية الحسد خُلُقية هابطة. ويسلك المحسود سلوكاً يضاد به تفكير الحاسد، ومن ذلك لبس التمائم والأحجبة وقراءة التعاويذ. ويشتهر في درء الحسد لبس الخرزة الزرقاء لشبهها بعين الحاسد، إذ يقال إن وسيلة الحسد هي العين، وإن العين الزرقاء هي عين حاسدة غالباً. وقيل إن عين الحاسد ترسل موجات كهرومغنطيسية من شأنها التأثير في المحسود أو فيما يملك من نعمة. والحسد نوع من التفكير المؤثر عن بعد، إلا أنه لا يؤثر فعلاً، ويأخذ به بعض

المرضى النفسيين عندما يشكون من هُذاءات اضطهاد، بدعوى أن الحاسد يزعجهم بحسده فكرياً، أو يؤرقهم ويسلبهم النوم. والحسد يصدر عن شعور بالنقص وعدم الكفاية، والدين ينهي عنه لأنه من الخصال غير الطيبة، مثل النميمة واللمز والغمز، وفي القرآن سورة يتعوّذ بها المسلمون من الحاسد، يعني من نفسيته الحاقدة الشريرة، وإلا لو اعتقدنا في الحسد لكان ذلك من باب الشِرْك الخفي، لأن الحاسد في هذه الحالة يكون له سلطان يغيّر به ما قسم الله، فكأنه إله. وكان فرويد يقول بحسد القضيب Penis envy، يتحصّل للإناث في الطفولة، إذ يكتشفن أن للذكور عضواً هو عضو الذكورة يميزهم ويكون علامة تفوقهم، فيزكّي ذلك فيهن الحسد ويدفع بهن إلى مغالبة الذكور، وأن يتخلقن بأخلاقهم. وقد تهوى البنت أباها تعويضاً لنفسها عن نقص تركيبها، بأن يكون لها الأب الذكر ملكاً خالصاً تستأثر به وتغار عليه من أمها، وقد تكبر فتطلب الزواج من رجل يشبه أباها، وتتمنى أن تنجب ولداً تستعيض بذكورته عن الذكورة التي حُرِمت منها. ومن ذلك أيضاً حسد الثدي Breast envy، يكون بالطفل الرضيع لاشعورياً، إذ يلمس سيطرة أمه عليه بثدييها، فهي ترضعه وقتما تشاء، وقد تنزعهما عنه دون أن يشبع، وقد يتثبّت هذا الحسد للثدي عند الطفل، فلو كان بنتاً فإنها مع البلوغ وبعده قد تهتم كثيراً بثدييها، وتحفل بهما، وتتيه فخراً بكبرهما، وتُبرزهما، ويكون إشباق منطقة الصدر على حساب بقية المناطق الشهوية، ويكون إتيانها من ثدييها أكثر من أي من أعضائها الأنثوية الأخرى. ولو كان الطفل صبياً فسيظل به الحسد للجنس الآخر، إذ يكتشف أن الثدي ميزة الإناث دون الذكور، وقد يهوَى الثدي في النساء بعد البلوغ، وقد يشبق تفكيره في ثدييه هذه المنطقة عنده، فيكون إحساسه الجنسي فيهما أكبر، وقد يطلب من شريكته في الفعل الجنسي أن تمص ثدييه أو تلوكهما، تحقيقاً لرغباته اللاشعورية في امتلاك ثدي كثدي أمه، يمكنه أن يمنحه أو يمنعه من يحب.

(أنظر أيضاً سيكولوجية الخرافة).

مراجع:
- Klein, M.: Envy and Gratitude.
- Russell, B.: Dictionary of the Mind.
- Freud: Introductory Lectures an Psychoanalysis.



- ١٣ -
سيكولوجية المعايير

السلوك المعياري. معايير الذكور والإناث. أنواع المعايير وصحة المعيار. المعايير الدينية والمعايير المتعارف عليها والصراعات النفسية. المعايير والحرية. نشأة المعايير والمدارس في ذلك.



المعيار Norm في اللغة هو كل ما تقدّر به الأشياء من كيل أو وزن، وما اتخذ أساساً للمقارنة، وهو أيضاً النموذج المتحقّق أو المتصوّر لما ينبغي أن يكون عليه الشيء. والمعايير في علم النفس هي قواعد السلوك العام التي يقاس إليها سلوك الأفراد، فيُقضي فيه بالاستحسان أو الاستهجان أو الانحراف، ومن ذلك أن نصف السلوك بأنه سويّ Normal لو وافق المعايير العامة، أو نصفه بأنه شاذ Abnormal عندما يخالف ما اصطلح عليه الناس، وقد نصف السلوك كذلك بأنه مضطرب Disordered behavior.

وليس المعيار في السلوك هو المتوسط الإحصائي للسلوكيات السائدة، ولكنه إطار مرجعي Frame of reference للاتجاهات المرغوب فيها للسلوك، والمعيار لذلك سلوك نموذجي أو مثالي Ideal behavior يأخذ به الناس أنفسهم ويقيسون تصرفاتهم إليه. وتتكون المعايير من خلال التفاعلات الشخصية للأفراد بعضهم ببعض، فيتعرفون على أدوارهم وحدود تصرفاتهم ليسهل بذلك تعاملهم. والوعي بالمعايير في السلوك ييسر توقعاتنا لما يمكن أن يكون عليه في مختلف المواقف، وتنكُّب المعايير يوقع الفرد في صراعات مع الأفراد الآخرين ويعرّضه للعقاب الاجتماعي. وكلما التزم

الفرد بهذه المعايير كان ذلك دليل صحة نفسيه Mental hygiene وتوافق نفسي واجتماعي Social and psychic adjustment. وللمعايير ضغوط نفسية واجتماعية لأنها تُقنِّن السلوك وتجعل الأفراد يكثرون من قمع أو كبت رغباتهم. وبينما نجد أن الكثير من الرغبات الشعورية التي مصدرها الأنا واحتياجاته تساير المعايير، فإن الرغبات اللاشعورية لا تتماشى مع هذه المعايير. و«الأنا Ego» واقعي غالباً بينما «الهو Id» يسعى إلى اللذة ولا يعترف بالحدود. ومعايير السلوك التي تصدر عن إطار مرجعي واحد غالباً لا تتصادم وتعمل زُملة Norm cluster، وتصادمها لا يقع إلا إذا كان تعارضها بسبب صدورها من أُطُر مرجعية متعدّدة أو ثقافات متباينة، وإذا تضاربت المعايير فإن سلوك الفرد لا بد أن تظهر عليه أعراض الصراعات أو التوترات النفسية. والإجماع على أن المعايير داخل الجماعة أو المجتمع تحول دون الميول المنحرفة للأفراد. ونحن نتعلم المعايير خلال التنشئة الاجتماعية Social upbringing. والمعيار بحكم تعريفه مقياس يتفق عليه أكثر من شخص، وربما اتفق عليه زوجان، أو ربما كان الاتفاق عليه من قِبَل جماعة صغيرة كجماعة الأصدقاء، وبعض المعايير تأخذ بها طوائف دون طوائف، وبعضها اختصاصه الذكور دون الإناث. والمعايير إلى حد ما قواعد معممة، وقد تصلح لكل الناس في كل زمان ومكان، وقد يرجع إليها شخص واحد في موقف محدّد في زمان بعينه. والمعيار هو الذي ينبّه إلى السلوك الصحي، وصحة المعيار تستمد من القيمة التي يصدر عنها، والتي يكون بها تطبيق القيمة، فالأمانة مثلاً قيمة، والمعايير المرتبطة بها هي قواعد السلوك التي يمكن تطبيق الأمانة من خلالها في مختلف المواقف والثقافات والمجتمعات. والمعايير تعبير عن حاجات ورغبات الأشخاص الذين يأخذون بها. وكل نشاط إنساني له أهميته ونتائجه يمكن أن يخلق فوراً المعايير الخاصة به، ومن ثم فهناك معايير للإدراك، وللشعو، وللتفكير، وللحكم، وللتقويم، وللعلم. وتصنّف المعايير لذلك إلى معايير عقلية منطقية

مجالها البحوث العلمية، ومعايير جمالية للحكم بها إذا كان المجال فنياً، كأن يكون موسيقى، أو نحتاً، أو تصويراً، أو تمثيلاً، أو غناءً، أو رقصاً، ومعايير نحوية للكلام ولأنواع الكتابة. والمتدين يرجع إلى المعايير الدينية. وتنتظم المعايير كافة المجالات في التقاليد، والعادات، والعرف، والتقاضي، والموضة. وبعض المعايير مشهور ومقبول ومعمول به، وبعضها قبوله محدود غير أنه معمول به، وبعضها غير مقبول ونذعن له، وبعضها نتعلمه من الطفولة وبالتعيين بالوالدين وغيرهما من الرموز الاجتماعية، وبعضها لا ندركه إلا كلما توغلنا في العمر وبالتدريج، وكلما زاد تفاعلنا الاجتماعي مع الآخرين. والمعايير التي نستدخلها ونستدمجها في الضمير، ومن ثم نعمل بوحي منها ونسايرها تلقائياً دون انتظار لثواب على الأخذ بها، أو تجنباً لعقاب لو تنكبناها، هي المعايير التي تكون معنا منذ الطفولة، وهي المعايير المتعارف عليها Institutional Ns. والشائعة. وما لا نستدمجه من المعايير قد نسايره طمعاً في ثواب أو هرباً من عقاب. وكلما زاد توافق الشخص مع بيئته وجماعته كان أخذه بالمعايير، ولو طمعاً في ثوابها، كالثروة أو المركز الاجتماعي، أو حتى طمعاً في استحسان الجماعة له.

فما الذي يجعلنا نأخذ بالمعايير وقد تتصادم أحياناً مع مصالحنا؟ والجواب أن المعايير هي قواعد السلوك التي تواتر نجاح الأخذ بها على المدى البعيد، ولذلك فربما تكون مسايرتها في غير صالح المذعن لها حالياً، إلا أنها قد تكون في صالحه من بعد. وكثيراً ما لا نكون على ثقة من السلوك الذي نفكّر في الأخذ به، ومن ثم فربما يكون من الأسلم والأوفق أن نأخذ أنفسنا بما يأخذ الناس به أنفسهم وجرّبوه وكان صحيحاً. والتنكب للمعايير قد يستولد في نفسه صراعات وعذابات ضمير نتيجة لمخالفته للجماعة. والضغوط النفسية Psychic pressures التي جرّبها مرة قد تجعله ينأى بنفسه عن أن يجرّبها مرّة أخرى. كما ان الشخص المخالف قد يواجَه من جماعته بضغوط نفسية، كالتهديد بالعقاب البدني، أو العزل، أو

إنقاص القدر الاجتماعي وقد تتحصل له صورة لنفسه بخلاف ما يتصوره عنها. وعلى العكس قد يشعر الفرد بالراحة النفسية إذ يجد أنه متوافق ومنتمٍ للجماعة، وأنه يأخذ بمعاييرها، ومن ثم يجد لما اختار من سلوك أو ذهب إليه من رأي سنداً له في الواقع الاجتماعي من حوله.

وقد تبدو مسايرة المعايير غير متماشية مع الحرية، خاصة إذا كانت معايير الجماعة من النوع المفروض على الأفراد، والتي يؤخذ الفرد من جرّاء تنكبها بالعقاب أياً كان. ومن الصعب مراقبة سلوك الأفراد، ناهيك عن مراقبة تفكيرهم، أو مراقبة ضمائرهم فيما يتعلق بهذه المعايير وتطبيقها. ويدفع إلى مغايرة الأفراد لمعايير جماعتهم غموض هذه المعايير، والتعرض لها بالنقد الكثير، وعدم جاذبية الجماعة بالنسبة للقدر، وعدم أهمية ما تقوم به الجماعة والذي به تتقوم معاييرها. ويتفاوت الأفراد في إحساسهم بالضغوط النفسية للمعايير. والحرية شعور نفسي، وكل إنسان حر نفسياً، بمعنى أنه يستطيع أن يفعل ما يريد ويرغب فيه، فإذا كانت رغباته أقل من الإمكانات المتاحة له فإنه يستشعر هذه الحرية كاملة، وله أن يمارس هذه الحرية الذاتية، وقد يرى المراقب الخبير أنها مع ذلك حرية محدودة جداً. وقد تكون الحرية من مقومات المجتمع نفسه وفي تكوين مؤسّساته، وهذا النوع من الحرية البنيوية Structural freedom لا يتوافر إلا إذا شارك أفراد الجماعة في صياغته وتشكيل معاييرهم، وعندئذ تكون أمام كل فرد خيارات كثيرة من المعايير ينتقي منها ويسايرها ويشايع الآخرين عليها. وهذه العلاقة بين الحرية الفردية والمعايير قد تجرّ إلى مناقشة نشأة المعايير، وهناك مدرستان في ذلك، إحداهما المدرسة الوظيفية التي تقول بأن المعايير قامت لتلبّي حاجات نفسية واجتماعية إليها، فمثلاً زنا المحارم لم يصبح له معيار إلا لأنه كانت هناك حاجة إلى مثل هذا المعيار عندما تبين للناس أن الكثير من الآباء يستغلون بناتهم إستغلالاً جنسياً. والمدرسة الأخرى تقول بالصراع Conflict school، وتردّ المعايير

إلى الصراع على القوة والسلطة والحكم، وتنسب نشأتها إلى الأفراد والطبقات الأقوى التي تشرّع المعايير لتُحكِم بها سيطرتها ونفوذها وتحمي بها نفسها، والماركسيون من هذه المدرسة. ويبدو أن التجارب حول المعايير تثبت أن بعض الأفراد قد يستقلون برأيهم عن رأي الجماعة، وقد يذهبون في مخالفتها حدّ الصدام معها، وأن البعض قد يرى الخطأ في رأي الجماعة، وأن البعض أيضاً قد لا يذهب في الفعل والقول إلا إلى ما تذهب إليه الجماعة ويتابعها عليه، وقد يبلغ بهم ذلك حدّ الصدام مع غيرهم دفاعاً عن رأي الجماعة.

مراجع :

- Sherif, M.: The Psychology of Social Norms.
- Stouffer, S.: Communism, Conformity and Civil Liberties.



الباب الثاني

علم النفس والطب النفسي
في خدمة الحياة المدنية

- ١ -
دورة الحياة Life Cycle

أطوار الحياة وتحليلها. الأطوار النفسية الجنسية. عند بيلر وإريكسون وفرويد وسوليڤان. الطفولة والمراهقة والنطق والرشد والشيخوخة.



تشتمل دورة الحياة على الأطوار التي يمر فيها الإنسان أو الكائن الحيّ منذ لحظة تخليقه واستحالته نطفة، إلى أن يكتمل الجنين ويولد وينمو كطفل، من المهد إلى المراهقة، ثم الشباب والنضوج، فالرجولة، ثم الشيخوخة والكهولة، وأخيراً الموت. ودورة الحياة التطورية Evolutionary l.c. تتضمن تاريخ حياة الكائن Life history، أو الانسان، والمجرى الذي تسير فيه هذه الحياة Life course. وقد يتخذ تحليل دورة الحياة Life-cycle analysis، منحىً سيكولوجياً أو إجتماعياً أو سلوكياً أو إنسانياً، يصنع ما يسمى أسلوب الحياة Life style، ويستهدي هدفاً هو: هدف حياة Life goal كل شخص خلال عمره الحياتي Age life. ويُذكَر أن تشارلوت بيلر (١٩٣٣) كانت أول من درس دورة الحياة وتعرّضت للأطوار التي يمكن أن يمر بها الفرد (Bühler & Massarik: The Course of Human Life)، وميّزت في هذه الدراسة بين السلوك والأحداث المؤدّية إليه، والخبرات الداخلية ونتائجها على مجرى الحياة، وتناولت أثناء ذلك التفاعلات بين كل ما سبق وعلاقتها بعمليتي النمو والنضج الفيزيائيتين. وقد ذهبت بيلر Bühler (١٩٦٨) إلى تقسيم دورة الحياة إلى خمسة أطوار أو مراحل تشغل أحداثها مدّة الحياة Life span، وذهب فرويد إلى تقسيمها إلى سبعة أطوار، وقسّمها إريكسون Erikson (١٩٥٩) إلى ثمانية أطوار، وسوليڤان Sullivan (١٩٤٥) إلى ستة أطوار، إلخ. ويحكم هذه الأطوار قصدية Intentionality، أو غائية Teleology، تجعل لها تنظيم حياة Life organization، أو طُرز تنظيم حياة l.-o. petterns، وخط سير إرتقائي. والبعض يقول إن دراسة دورة الحياة هي بمثابة

علم للنشأة والتطور Originology. وقد ميّز فرويد في تاريخ أو دورة الحياة للإنسان ما يسميه الأطوار النفسية الجنسية Psycho-sexual stages، ففي المهد يكون الطور الفموي Oral stage الذي تتركز فيه اللذة في الفم، حيث الفم هو وسيلة الطفل لإشباع اتصاله بالناس والأم، ثم تبدأ الأسنان في الظهور ويمارس العَضّ والقضم، بعد أن كان نشاطه قاصراً على المص والبلع والرضاعة، وتنغرس في الطفل من هذه المرحلة عادات سلوكية مدارها الأخذ والرغبة في الاستحواذ، والاتحاد مع ما يحصل عليه. ومن العادات السلوكية التي تتحصّل له فيما بعد وتترتب على اللذة التي يستشعرها بالفم، القُبلة والتدخين وتعاطي المخدرات والكحوليات. وفي الطور الشرجي Anal stage في نحو السنة الثانية من العمر تزيد اللذة بمنطقة الإست والمستقيم إلى جانب اللذة بالفم، ويكون الإخراج عند الطفل من العمليات التي يكون بها شعوره بالرضا مع ما يؤدّي إليه استخدامه لعضلات هذه المنطقة من سيطرة على التبرز، وتحكم فيه على هوى الأم أو على غير هواها، ويكون بذلك بدء شعوره بذاته. ولما كانت الثقافات المختلفة تولي عملية التدريب على الإخراج أهمية خاصة، فإن الطفل يستخدم أنماط السلوك المصاحبة والمتعلمة للتعامل مع الغير، فالتبرز يعني التخلص من شيء يخصّ الطفل، وقد يستشعر لذلك أثناء التبرز أنه يفقد جزءاً من ذاته، ويجمد على هذا الشعور ويترتب على ذلك أن عطاءه يعزّ ويتعلم البخل ويتثبت عنده. وقد ينكص الطفل إلى المرحلة الفموية إذا نال تدريباً على التبرز ينفّره منه، وقد يلجأ في هذه السن إلى مص الأصابع، أو قضم الأظافر، أو تكثر مطالبه، أو يتحول إلى طفل عدواني يستغل لهفة الوالدين على تبرزه بالشكل الصحيح وفي المواعيد ليغيظهما وليثبت ذاته. وفي نحو سن الثالثة ينتقل الطفل إلى المرحلة القضيبية Phallic stage من المراحل أو الأطوار النفسية الجنسية لنموه أو من دورة حياته، ويصبح مركز اللذة هو القضيب Penis عند الصَّبي، والبظر Clitoris عند البنت، وتكون لذته في انتصاب القضيب ولهوه بتناوله، أو

تضع البنت إصبعها في فرجها، ويبدأ عمل عقدة أوديب Oedipus complex، ويهوى الولد أمه ويغار من أبيه، كما تهوى البنت أباها وتغار من أمها، ولكن تهديد الأب أو الأم بقطع يده أو بتر قضيبه كلما تناوله بها يجعله يخاف، وذلك ما يسميه فرويد عقدة الخصاء Castration complex، ومن ثم ينتهي اهتمامه بالقضيب وتنتهي بذلك المرحلة القضيبية بالنسبة له. وأما البنت فتطول معها المرحلة القضيبية بالنظر إلى أنها لا تخشى من الإخصاء، وإنما الذي تدركه في نفسها أنها أقل تكويناً من الولد، حيث تفتقر القضيب ويترتب على ذلك شعورها بالنقص Inferiority feeling، وقد تحاول أن تعوّض عن ذلك بأن تكون عدوانية كالصبيان وتدخل معهم في منافسات. وفي السن من السادسة أو السابعة وحتى المراهقة تكون مرحلة الكمون Latency period، ومعنى تسميتها بالكمون أن الدوافع الجنسية تقل حدتها، أو أنها تخمد فلا يظهر في سلوك الطفل ما ينبئ عنها، ويميل الأولاد لذلك إلى اللعب مع الأولاد مثلهم، بينما تميل البنات إلى اللعب مع البنات. ومرحلة المراهقة Adolescence stage هي مرحلة النضوج الجنسي وبروز الدافع الجنسي، والمرحلة التناسلية Genital stage هي المرحلة التي يكون فيها نضوج الرجولة والأنوثة بشكل كامل، والحاجة إلى شريك من الجنس الآخر ليكون للشاب أو الشابة. وهذه النظرية الجنسية في دورة الحياة وما يصاحبها من نضوج هي نظرية بيولوجية كما قيل في نقدها، وقد أعطت للنمو ولمختلف المراحل معانٍ جنسية ونفسية وسلوكية تصاحبها. وقد ذهب إريكسون إلى شيء من قبيل التقسيم السابق على أساس فرويدي، إلا أنه جعل الأهمية لعامل التنشئة. والمقابل عنده للمرحلة الفموية: مرحلة الثقة التي نقيضها عدم الثقة Basic trust versus basic mistrust stage، حيث أن حنان الأم أثناء الرضاعة يُشعر الطفل بالأمان، ومن ثم يغرس في نفسه الثقة بالأم ويعمم ذلك على الناس. على عكس ما يتحصل له لو لم يستشعر الحنان في الرضاعة ولم يشبع منها، فينمو فيه الشك في الأم والناس من بعد. والمرحلة الثانية المقابلة للمرحلة

الشرجية عند فرويد: هي التي يكون فيها تدريب الطفل على الإطعام والإخراج، فإذا تمّ له ذلك بسهولة وفي جو عائلي متّسم بالسماحة والتقبُّل نشأ يشعر بذاته وكان سمحاً بدوره مع الناس، فإذا أسيئت معاملته بالتدريب القاسي والمتشدّد إستشعر النقص، وتولدت به حساسية للنقد والشك في قدراته وكفاءته. ويطلق إريكسون على تلك المرحلة لهذا السبب إسم مرحلة الاستقلال الذاتي مقابل الخجل والشك Autonomy versus shame and doubt stage. والمرحلة الثالث: هي التي تكون في الثالثة وحتى الخامسة تقريباً، وهي مرحلة المبادأة مقابل الشعور بالذنب Initiative versus guilt stage، وفيها يتعلم الطفل التعاون مع الآخرين وأن يكون زعيماً أو تابعاً، ويكتشف البيئة المحيطة، ويتعلم السيطرة على حركة أعضائه وتتكون له مهارات مختلفة، فإذا وجد التشجيع من أهله فإنه ينشأ وبه صفات المبادأة والمبادرة، وإلا فإنه كلما أخطأ عوقب فينكص أن يقوم بفعل أي شيء من نفسه، وتقل ثقته في نفسه، ويشعر بالذنب كلما أخطأ، ويلاحقه هذا الشعور مستقبلاً ويكون أساس الشعور بالذنب لكل ما لم يقم به أو يخطئ فيه. والمرحلة الرابعة هي: مرحلة الجِدّ مقابل النقص Industry versus inferiority stage وتكون في سن دخول المدرسة، ويتعلم الطفل أن يجِدّ ويحقّق التحصيل لأنه به ينال الاستحسان والتقدير والإعجاب، وعقاب الطفل على أخطائه يشعره بالنقص ويقصر به عن الاجتهاد، وفي سن المراهقة تكون المرحلة الخامسة: مرحلة الهوية مقابل الاختلاط Indentity versus confusion stage، بمعنى أن التنشئة تهدف إلى إعداد الطفل لدوره كصبي أو كبنت، ومن بعد لدور الرجل أو المرأة. وترسيخ الهوية والإحاطة بأبعادها لا يتيسر إلا إذا تعيّن الطفل براشد ذكر أو أنثى يتعلم من خلاله القيام بالدور الذكوري أو الأنثوي بحسب هوية الطفل. واختلاط الأدوار نتيجة فساد التنشئة وغياب القدوة يترتب عليه أن تتشوش لدى الطفل فكرته عن هويته، وبالتالي يعجز عن إدراك توقعات الناس منه والسلوك المناسب له. والمرحلة السادسة: هي مرحلة النضج

Maturity stage وتتلو المراهقة، وهي مرحلة الانسجام مقابل الانعزال Isolation versus intimacy stage، بمعنى أن المراهق الناضج يطلب العلاقات الحميمة في الصداقات والحب، وهي علاقات تؤكّد له هويته ويمارس فيها دوره، فإذا لم يكن نضجه صحيحاً، أو إذا عجز عن إدراك هويته، وأن يلعب الدور المتوقع منه، فإن فشله وعجزه يعلنان عن نفسيهما بأن يطلب الانعزال، ويؤثر ألا يكون له بالآخرين علاقات يتفاعل بها معهم ويعطي لهم ويأخذ منهم. والمرحلة السابعة: هي مرحلة الإنجاب مقابل العقم Generativity versus stagnation stage، فمعنى النضج الجنسي أن يكون الفرد قادراً على اختيار شريك من الجنس الآخر، وأن يرتبط معه بعلاقة منتجة، وأن يتناسل وينجب منه، ويتحمل مسؤولية هذه الشركة وما يترتب عليها، وأن يعول أسرته ويحوطها بالرعاية، وإلا فهو العاجز عن ذلك كله، وعن تكوين الأسرة والإنجاب وتحمل مسؤولية الزواج وتكاليف الأبوة، أي أن حياته لن تكون الحياة الولود ولكنها الحياة العقيم والبتراء. ومرحلة النضج هذه هي ظهيرة الحياة Noon of life، والخط الفاصل بين نصفي حياة الفرد: ما قبل النضج، وما بعد النضج. والمرحلة الثامنة والأخيرة: هي مرحلة الشيخوخة Old age stage، أو مرحلة الحكمة Wisdom stage التي سَمتها الرويّة، واكتمال القدرات، وتحصيل المعرفة، والحُكم الصائب، والفهم السديد، أي أن الخبرات فيها تتكامل، وتكتمل بها الذات، برغم أن القوى البدنية تكون في انحسار وانحدار. واكتمال الحكمة لا يصنعه فرد وحده ولكنه الجيل بأسره، وينقله إلى الجيل اللاحق عن الجيل السابق، ويتماشى مع فكرة كل جيل عن الجيل السابق واللاحق والتوقعات المرتهنة بكل جيل. وفقدان أو نقص هذا التكامل يتسبب فيه الخوف من الموت، وأن تنتهي الحياة ولمّا ننجز فيها ما أردناه، وقد تتحصّل لنا بسبب ذلك إحباطات ويأس واكتئاب وتجتمع لنا فلسفة حياة وكأن كل شيء قَبض الريح، ولذلك سميت هذه المرحلة باسم مرحلة التكامل مقابل اليأس Integrity versus despair stage، واليأس عنصر سلب في

الحياة، وتكامل الذات بالحكمة الجامعة عنصر إيجاب، والحكمة تعني: المسؤولية، والاختيار، والاستقلال، والحرية، والإخلاص، والهدفية، وإرادة القوة، والانتصار، وهي أمور يقوى بها الأنا، وتنتقل عبر الأجيال، وتسري من الشيوخ أو حكماء المجتمع إلى مؤسساته التي يسيطرون عليها ويحكمونها أو يديرونها. وقوة الأفراد من قوة هذه المؤسسات، وهي قوة نفسية واجتماعية، أو قوة حياة Life force، قوامها كل عمليات دورة الحياة التي تشل الفرد والمجتمع والأجيال. وليس العلم والتكنولوجيا إلا متغيّرات تتماشى مع متغيّرات دورة الحياة. ودراسة دورة الحياة لها مردودها على علم نفس النمو، وعلم الارتقاء الإنساني بالمؤسسات، وعلم الطب النفسي بالتقويم التشخيصي والتنبؤي للاضطرابات خلال مراحل النمو، وعلم النفس القانوني بالتشريعات التي تناسب أطوار الحياة والسلوك الواجب داخل الأطر الاجتماعية والذي مصدره الحاجات النفسية والفيزيائية المتغايرة.

مراجع:

- Erikson: Insight and Responsibility.
- Erikson: Childhood and Society.



- ٢ -
سيكولوجية التوازن

نظرية التوازن، وتوازن الشخصية، والتوازن النفسي. واصطلاح الهوميوستاز الفسيولوجي والستاتيكي، والسلوكي، والديناميي. والتوازن المتغاير. والتوازن والانطباع. وخلل التوازن، ومصادر الاضطراب فيه.



التوازن Equilibrium أو الهوميوستاز Homeostasis هو الحالة المتجانسة أو المستقرة، أو هو توازن البيئة داخلياً وخارجياً، باعتبار هذا التوازن مطلوب في الكائن الحيّ على المستوى الفسيولوجي العصبي والنفسي، وفي البيئة الخارجية

التي يمكن أن تؤثّر على حالة التوازن في الجسم أو في التوازن النفسي بشكل عام. والتوازن - التوازن الاجتماعي - مطلوب أيضاً للأفراد وللجماعات في علاقاتها التفاعلية بعضها ببعض.

واصطلاح الهوميوستاز بمعنى التوازن إغريقي الأصل لغوياً، قال به الأمريكي والتر كانون (Cannon, W.: The Wisdom of the Body) سنة ١٩٣٢ في مجال الفسيولوجيا، إلا أنه استخدمه كذلك في علم النفس وفي السبرنطيقا Cybernetics، ويعني به تلك الحالة المستقرة التي ينبغي أن يكون عليها الكائن الحيّ، من حيث أن الجسم مثلاً يتوجب أن يكون على درجة حرارة معينة، وهي في الإنسان نحو ٣٧ درجة مئوية، وقد تزيد قليلاً أو تقل قليلاً ولا بأس في ذلك، فإذا ارتفعت عن ذلك فإن الجسم يلجأ إلى ميكانيزمات من داخله تهدف إلى استعادة الوضع السابق، كأن يعرق مثلاً ليعمل العرق على ترطيب الجسم، وقد يكون الغرض من العرق تخفيف شدّة الحرارة من خارج الجسم، وقد يقوم الفرد بعرض نفسه على الطبيب ليعطيه دواءً يخفف من حرارة جسمه، وذلك نشاط يأتيه بإرادته، على عكس العرق الذي يكون انعكاساً داخلياً ولاإرادياً. واشتداد حرارة الجو قد يجعلنا نلجأ إلى أخذ حمام بارد أو استخدام المكيّفات. وفي كل الأحوال فإن تغيّر الأوضاع المستقرة يستحثنا داخلياً بميكانيزمات من داخلنا، أو يستحثنا خارجياً بأن نأتي السلوك الذي نستعيد به ما تغير من أحوالنا. والميكانيزمات الداخلية أو الأفعال المنعكسة Reflex actions هي التي يدور عليها اهتمام علماء الفسيولوجيا، بينما ينصب اهتمام علماء النفس على الأنشطة التوازنية والهوميوستاتية التي يمكن أن نلجأ إليها كسلوك متعلَّم. ويتميّز الإنسان بأنه يبذل قصارى جهده ليكون في أفضل حالاته، وليحافظ على هذه الحالات، ولذلك فقد يقوم إذا ما اضطربت أحواله أو شملها الفساد أو الخلل بنشاط من شأنه استعادة حالة التوازن التي كانت له Restorative action، كأن يُشعل ناراً إذا أحس البرد مثلاً، أو يقوم بنشاط أساسه التنبؤ بظروف مستقبلة يكون بها اختلال

التوازن Forestalling action، فيسبق الظروف، كأن يرتحل مثلاً مع بداية سقوط الأمطار إلى حيث المرعى والكلأ وينأى بنفسه عن مواقع الجدب المتوقعة.

ومن العلماء من يطلق على ردود الفعل الانعكاسية التي هدفها استعادة التوازن إسم الهوميوستاز الفسيولوجي Physiological h.، أو الهوميوستاز الستاتيكي Static h. أو الساكن، بينما يطلقون على استجابات السلوك المتعلم إسم الهوميوستاز السلوكي Behavioral h.، أو الدينامي Dynamic h.

ومن شأن الدفاعات الكيميائية الحيوية والانعكاسية أن تحمي الأحوال المستقرة والمتجانسة في الجسم، فعندما يزيد تركيز الڤيتامين مثلاً، فإن ميكانيزمات الكُليتين تعمل على تصحيح هذا الوضع. وفي الحالات التي تتدنى فيها ردود الفعل الانعكاسية فإن السلوك المتعلّم يُستَحث لهذه الغاية. وإذن فهناك نظامان، أحدهما للاستجابة الانعكاسية، والثاني للنشاط الإرادي، فإذا تعطلت الميكانيزمات الانعكاسية، أو لم تكن على مستوى الحالة من اضطراب التوازن، فإن الاعتماد يكون على نظام الدفاع المتعلّم، أو أن هذا الاعتماد يزيد. ويبدو أن المتحكم في ذلك هو اللحاء المخي Cerebral cortex، باعتباره أعلى مستويات الميكانيزمات الهوميوستاتية الواقية. وقد يكون نشاط نظام من الأنظمة لاستعادة التوازن الارتشاحي في الدم ويتسبب عنه العطش، ويُطلَق على هذه الظاهرة إسم التوازن المتغاير Heterostasis، بمعنى أن الأنظمة المختلفة تتراتب هرمياً من حيث قيمة التوازن، ويستحدث الاضطراب في توازن النظام الأكثر أهمية إضطراباً في توازن النظام الأقل أهمية في ترتيب الأهميات، وهكذا دواليك، علماً بأن الأقل أهمية لا يتسبب إختلال التوازن فيه في اختلال توازن النظام الأكثر أهمية، فمثلاً يأتي العطش في الأهمية قبل الجوع، كما أن الحاجة إلى الأوكسيجين أهم من الحاجة إلى الماء والطعام معاً، ومن الممكن للفرد أن يحتمل نقص الأوكسيجين لمدة دقائق فقط، بينما يمكنه احتمال نقص الماء لمدة يوم أو اثنين، والطعام لمدة أيام.

ويعتمد استبقاء التوازن أو استعادته

على عمليات التغذية الرجعية السالبة Negative feed-back، فالخلل في الحالة المستقرة يستحث بعض الأحاسيس التي تستثير استجابات من شأنها استعادة الحالة السابقة. وكلما قارب المدخل الحسي من تحقيق أقصى قيمة له فإن شدّة النشاط التصحيحي تتضاءل. ولا بد أن يدخل في الجهاز الضابط لكل حالة مستقرة ما يمكن أن يمثّل الحدّ المحتمل من القيم والعتبات الأعلى والأقل في شكل عصبي أو كيميائي حيوي، وتتصل كلٌّ من هذه الأجهزة بميكانيزم الهوميوستاتية الدينامية. والتوتر إذن: متغير وسيط لا بد منه في نظرية التوازن.

ولبعض المنبهات الصفة الذاتية لاستحداث اختلال التوازن أو استعادته، فمثلاً تعمل المذاقات الحلوة على خفض الجوع، ومن ثم فلها قيمة من حيث أنها تعمل على خفض التوتر، بينما الألم يفسد التوازن بزيادته للتوتر. وأيضاً فإن الملامسة الرقيقة المدفئة قد تكون من عوامل خفض التوتر عند الثدييات. ولا يعني ذلك أن كل ما يدخل السرور وتكون له لذّة تكون له قيمة هوميوستاتية، وكذلك فإن التعلّم قد يجعلنا نُعلي من قيمة أشياء رمزية خالصة وليست لها في ذاتها خاصية إفساد التوازن أو استعادته.

وفي الانطباع Imprinting فإن صغار البط بمجرد أن يخرج من البيض قد يتبع أول موضوع يراه يتحرك أمامه، وتكون له عندها قيمة توجيهية موجبة، ويسلك كما لو أن هذا الموضوع يفسد توازنه إذا اختفى.

وتتعامل الضوابط الحسيّة الهوميوستاتية باختلاف مستويات التكيّف، وهناك خط أساسي Baseline قيمته هي الأعلى، وقد ينتقل من مكانه نتيجة الدخول في خبرات متفاوتة، فالطفل مثلاً يتكيف مع مواعيد التغذية إذا جعلناها كل ساعتين، فإذا زدناها إلى ثلاثة، ثم أربع ساعات فإنه يتكيف أيضاً مع المواعيد الجديدة ويشعر بالجوع بعدها. وإذا تعرّض لضوضاء الراديو أو التليفزيون فإنه ينزعج في أول الأمر، ولكنه من بعد ذلك يبدأ يألفها ويُسَرّ لها على المستوى الذي هي عليه. وكذلك فإن المصريين يجدون أن درجة الحرارة في الصيف إذا بلغت خمساً وثلاثين درجة

مئوية فإنها تكون حرارة مثالية، في الوقت الذي لا يطيق الإنجليزي مثلاً هذه الدرجة إذا كان الطقس في بلده على هذه الحرارة في الصيف.

وتتباين عمليات الاستجابة لخلل التوازن من أبسط أشكال التغيرات في تركيب الدم مثلاً أو في الانعكاسات العصبية الأوتونومية إلى أعقد أشكال السلوك المتعلم. ولا يلجأ الكائن الحيّ، أو الإنسان بالذات، إلى الأشكال المعقّدة من السلوك، إلا إذا كان المنبّه مزعجاً، كالحر الشديد فإنه لتلافيه قد نلجأ إلى الانتقال إلى الظل، أو نستحدث بالنشاط توازن البيئة الخارجية باستخدام المكيفات مثلاً، أو قد تكون به المحافظة على الظروف الرمزية التي بها يتحقّق التوازن، كفتح الحساب في البنك فإنه أمان للشخص يدعمه مالياً واقتصادياً ونفسياً.

وقيل في تقويم نظرية التوازن إنها نظرية شديدة الرجعية لأنها تهدف إلى تكريس الأوضاع القائمة، وتستبقي الأمور على ما هي عليه، وإن الدوافع فيها تتوجه لاستعادة الظروف السابقة على التوتر والاضطراب. وذلك نقد صحيح إلى حد ما، لأنه بدون أن تستعاد الأحوال العادية المستقرة السابقة نصاب بالموت. إلا أن نظرية التوازن لا تقول باستعادة التوازن بالظروف السابقة نفسها وإنما بشكل مجدّد، فالثياب مثلاً المقصود بها حماية الجسم أو ستره، إلا أن شكل هذه الثياب أو ألوانها أو نسجها يمكن التجديد فيه باستمرار. والتوازن والمحافظة عليه أو استعادته باب من أبواب دراسة الدافعية. وقد ذهب البعض إلى تفسير الظواهر السلوكية في ضوء التوازن باعتبار أن الجهاز العصبي المركزي له مستوى تنبيه معين لا يقل عنه ولا يزيد عليه، ومن ثم فإن أي تنبيه حسّي يقل أو يزيد عن هذا المستوى هو بمثابة خلل في التوازن يتطلب تصحيحه، تماماً مثلما أن الجسم لديه مستوى معين من الجلوكوز أو فيتامين ب، واضطراب هذا المستوى هو دافع للجسم لتصحيحه. وأيضاً فإن للطموح مستوى، وتحقيق هذا الطموح يكون في حدود هذا المستوى، والحافز على السلوك إذا قل عن قدرة الفرد على الإنجاز فإنه يُهمله، وإذا زاد عن هذه

القدرة فإنه يهمله أيضاً باعتباره مستحيلاً، ومن ثم فالحافز الفعّال ينبغي أن يقع في الحدود العادية لمستوى الطموح. ويؤدّي النجاح المتكرر إلى رفع مستوى الطموح، وكذلك فإن الفشل المتكرر يهبط بمستوى الطموح.

ويتضمن المفهوم الهوميوستاتي للشخصية وصف الشخصية بالتراتب الهرمي للحالات التي ينبغي الدفاع عنها، والمنبهات التي يمكن أن تضطرب بها هذه الحالات، والتقنيات المستخدمة للوقاية من الاضطرابات ولاستعادة التوازن.

وبعض حالات التوازن تُفضل البعض الآخر، ويتباين الناس في إضفاء القيمة على الراحة البدنية، والبعض يفضّل عليها الحياة العائلية الهادئة، والبعض قد يؤثر أن يعيش حياة صاخبة حافلة بالنشاط والحركة. وقد تتحول الموضوعات التي ترمز للتوازن الداخلي كالأم أو المنزل أو الرصيد المصرفي إلى قيم نحميها في ذاتها. وقد تتحول صورة الذات ومفهوم الشخص عن نفسه إلى موضوع لقيمة، وتهديد صورة الذات بالفشل أو بالتسخيف الاجتماعي أو فقدان المكانة قد يرفع ضغط الدم ويستحدث تغيرات غدّية ويستوجب نشاطاً جاداً لاستعادة تكامل الأنا.

وتختلف مصادر الاضطراب للتوازن، والبعض قد تكون اضطراباته عصابية ومصدرها القلق، ومن ذلك الوساوس والفوبيا، والبعض قد تكون اضطراباته حقيقية وليست متوهمة وتصدر عن تهديدات واقعية للثوابت الفيزيائية أو القيم المكتسبة.

وقد يعتمد الفرد لاستعادة التوازن على الحركة العضلية الصريح لحماية واستعادة القيم الثابتة، أو قد يستخدم الرموز والتخيل. ويختلف الناس في المدى الذي يمكن أن تبلغه الاستجابات الدفاعية لديهم للمحافظة على الحالات المستقرة وصيانتها.

وكان فرويد سبّاقاً إلى القول بنظرية التوازن منبهاً إلى ميكانيزمات الكبت والإسقاط والأحلام والتبرير وغير ذلك من الوسائل التي توفّر الحماية للفرد من تهديدات الاضطرابات أو التي يستعيد بها التوازن. وعندما يستثار القلق والتوتر

فإن الفرد قد يلجأ إلى وسائل بدائية لخفض التوتر، ومن ذلك الإقبال على الأكل أو الشرب أو الجنس، إلا أن هذه الوسائل قد لا يكون بها التخلص من التوتر والقلق بشكل دائم، والسلوك العصابي بالاصطلاح الهوميوستاتي هو سلوك يقلل من التوتر بدون تصحيح هذا اللاتوازن الأساسي. ويذهب بعض علماء النفس صراحة إلى تصور الشخصية باصطلاحات هوميوستاتية، ومن رأي أولبورت Allport (١٨٩٧ - ١٩٦٧) أن الإنسان يمكن فهمه أكثر بما يسعى إليه مستقبلاً أكثر مما يسعى إلى استعادته من الماضي.

مراجع:

- Fletcher, J.: Homeostasis as Explanatory Principle in Psychology.
- Ashby, W.R.: Design for a Brain.
- Apter, M.J.: Cebernetics and Development.
- Allport, G.: Personality: A Psychological Interpretation.



- ٣ -

البيئة Environment

البيئة النفسية والبيئة السلوكية، ومطالب البيئة وأنواع البيئات، ومحددات البيئة والحتمية البيئية...



يُقصد بالبيئة في علم النفس مجموع الظروف المحيطة بالفرد والتي يمكن أن تكون ذات أثر في تشكيل شخصيته وتوجيه سلوكه. والبيئة السلوكية Behavioral e. هي الوسط الذي يتمثله الفرد سلوكياً، ويسهم في تحديد أنماط سلوكه أو أساليبه في مواجهة مختلف المواقف. ومطالب البيئة Environmental demands هي المقتضيات التي يفرضها نوع الحياة فيها، وهي مطالب أو مهام Tasks حيوية واجتماعية وثقافية وحضارية. والعوامل البيئية Environmental factors هي كافة الظروف والعوامل المؤثّرة في الكائن الحيّ من خارجه. وعلم النفس البيئي

Environmental psychology هو فرع علم النفس الذي يدرس العلاقات التفاعلية بين الأفراد أو الجماعات والبيئة التي يتواجدون فيها أو يعيشون عليها، وتجتمع فيه الكثير من مجالات علم النفس الاجتماعي، وعلم الاجتماع، والأنثروبولوجيا، وعلم السياسة، وعلم العمارة، والإيتولوجيا ethology أو علم الطباع الخُلقية. ويقسم بعضهم البيئة إلى بيئة مادية إجتماعية Physico-social e. وهي كل ماديات المجتمع التي لها وظائفها وفوائدها للإنسان، كأدوات الإنتاج والزينة ووسائل المواصلات والاتصال، إلخ، وبيئة حيوية إجتماعية Bio-social e. وتشتمل على السكان من البشر والحيوان والنبات، وبيئة نفسية إجتماعية Psycho-social e. تضم العادات والعرف والتقاليد والمعايير والقيم والمعتقدات واللغة وأنماط السلوك، والعلاقات بين الجنسين وبين الطوائف والطبقات، والعلاقات الدينية والسياسية والأخلاقية والاقتصادية. ومجموع كل ما سبق هو البيئة الكلية Total e.؛ وما يكون من كل ما سبق له تأثير مباشر أو غير مباشر على الفرد هو البيئة الفاعلة Operant e.؛ وما يدركه الفرد من البيئة سواء في معناها المحدّد أو المتّسع هو البيئة المدرَكة Perceived، والبيئة المتصوّرة Conceived e. هي ما يكون لدى الفرد من تصورات أو أفكار عن البيئة، كأن يرى مثلاً أنها تحتوي على عفاريت أو جان، ويتصرف بناء على ذلك وعن اعتقاد في وجودها.

والبيئة الإنسانية بخلاف بيئة أي كائن حي آخر، ويستطيع الأفراد أن يتحكموا فيها وأن يتناولوها بالتغيير والتعديل، وبالزرع والاستصلاح والتعمير. والبيئة المصنوعة Biome هي التي يتغير نسقها البيئي Ecosystem، ويكون لتغييره تأثيراته على سلوك الأفراد. والبيئة المحايدة Neutral e. هي البيئة الفيزيقية والاجتماعية التي لا تفرض قيوداً على الناس، ويسمونها أيضاً بيئة سمحة Permissive e.

والمذهب البيئي Environmentalism هو قول المتطرفين الذين ذهبوا إلى تفسير السلوك والشخصية بتأثيرات البيئة والتفاعلات بينها وبين الأفراد،

ويردّون هذه التأثيرات إلى ما قبل الولادة، ومن رأيهم أن مفهوم البيئة يشمل كذلك البيئة الرحمية .Uterine or prenatal e منذ أن يتم إخصاب البويضة وحدوث الحمل. والمحددات البيئية Environmental determinants هي مؤثراتها الحاسمة والتي تطبع السلوك والشخصية بطابعها، وتصنع سماتها Environmental-mold traits - أي سمات البيئة تصنعها على الشخصية، ومؤثراتها مصدرها البيئة الداخلية Internal e.، ومحدداتها فسيولوجية أو بنيوية أو وراثية؛ والبيئة الخارجية External e. ومحدداتها مناخية أو جغرافية، أو سياسية، أو إجتماعية، أو عرقية، أو ثقافية، أو حضارية. والقول بالحتمية البيئية Environmental determinism يقابله من ناحية أخرى القول بالحتمية الوراثية Hereditary d.، وهو اتجاه متطرف آخر تؤيده كنقيضه دراسات مستفيضة إشتهرت في تاريخ علم النفس باسم جدل الوراثة - البيئة Heredity-environment controversy or debate، أو مشكلة الطبيعة - التطبع Nature-nurture problem. وربما كانت الوراثة هي العنصر الأظهر في نمط سلوك الحيوان، إلا أنه في الإنسان فإن مشكلة أثر الوراثة والبيئة يحسمها دائماً أن الإنسان كائن حيّ منفعل وفاعل في الوقت نفسه، وأنه يتأثر ويؤثر، ويطبع وينطبع، وتجتمع فيه خصائص وراثية خالصة، وأخرى بيئية خالصة، كما أن به من السمات ما تتضافر عليه تأثيرات الوراثة والبيئة معاً، وهي استعدادت وراثية تعتمد على البيئة في نضجها وتتأثر بها، ومن ذلك مثلاً الذكاء والتحصيل.

مراجع:

- Anastasi, A: Differential Psychology.



- ٤ -
الوراثة Heredity

نظرية الوراثة وداروين. وعلم الخصائص الموروثة والاستعداد الوراثي. والخلل في الوراثة. وجدل

الوراثة - البيئة. ودراسات الصفات الوراثية للشعوب، والمجمع الجيني.



الوراثة إنتقال للصفات الوراثية من الأبوين والجدود إلى الأبناء، عن طريق ما يُسمى بالكروموسومات Chromosomes أو الصبغيات، وهي حاملات المورثات أو الجينات Genes. ويهتم علم النفس بالوراثة من حيث تأثيرها في الأفراد، بأن تكون لهم صفات لم يختاروها لأنفسهم وتتحدد بها أنماطهم السلوكية وأساليب تعاملهم مع الناس ومع مختلف المواقف في الحياة. ونظرية الوراثة Theory of heredity أو Hereditarianism هي افتراض داروين Darwin (١٨٠٩ - ١٨٨٢) الذي طرحه في كتابه «أصل الأنواع Origin of Species» (١٨٥٩)، بأن الكائنات الحية قد تخلّقت بعضها من بعض، وأن الصفات الموروثة من السلف تتطور مع الخلف باستمرار - نظرية التطور Evolutionary. وعلم الخصائص الموروثة Hereditary charecterology هو أحد العلوم التي قامت على نظرية الوراثة في القرن التاسع عشر، بدعوى أن هناك خصائص وراثية Hereditary predisposition، أي تكون الوراثة فيها بالإمكان ثم يُظهرها التعرض لمؤثرات البيئة، والمثال على ذلك الفصام والصَرَع. وبعض الأمراض تحصل نتيجة خلل في الوراثة، فعندما يحدث التزاوج بين الذكر والأنثى فإن الخلية الملقحة تحتوي على ٤٤ كروموسوم، نصفها من الأب والنصف الثاني من الأم، يُضاف إليها زوجان من كروموسومات الجنس، إما XX في الأنثى، أو XY في الذكر، فيكون المجموع ٤٨ كروموسوم، ومعنى ذلك أن الصفات الوراثية يتشارك فيها الأم والأب مناصفة. وقد يحدث انحراف عن هذا النمط في تزاوج الكروموسومات الجنسية أو غير الجنسية، فمثلاً في الضعف العقلي المنغولي المسمى بمرض أو متزاملة داون Down's syndrome يكون عدد الكروموسومات ٤٧ بدلاً من ٤٨، وهي حالة نادرة تحدث مرة من كل ٦٠٠ حالة ولادة، وترتبط بأماكن معينة، مما يجعل القول بتأثير البيئة محتملاً. وتعمل

عوامل البيئة مع عوامل الوراثة منذ اللحظة التي يتم فيها الإخصاب ويحدث الحمل. وتتواجد الخلية الملقحة في بيئة رحمية توثر في تطورها، كما أن الجينات أو الموروثات التي تحملها الكروموسومات تعمل عملها أيضاً داخل بيئة الخلية الملقحة وفي تفاعل مع الجينات الأخرى، وتتأثر بالبيئة الخارجية وقد تستحدث بها تغيرات نتيجة مؤثرات كيميائية أو إشعاعية. والخلاف حول دور البيئة ودور الوراثة قديم واشتهر في تاريخ علم النفس باسم جدل الوراثة - البيئة Heredity - Environment controversy، أو إشكال الطبيعة - التطبُّع - Nature nurture problem، وهناك حالات يظهر فيها دور البيئة على دور الوراثة وبالعكس. وقد تبين مثلاً من دراسة التوائم المتماثلة Identical twins، وهي التي تأتي من بويضة واحدة وحيوان منوي واحد، أنه من شأن الوراثة الواحدة والبيئة الواحدة التي ينشئآن منها ويتربيان فيها، أن تأتي سمات الشخصية لكل منهما متقاربة، في حين أن اختلاف البيئة لكل منهما يباعد بين سمات شخصيتيهما. وعموماً فإن البيئة غير المؤاتية والمعوقة لنمو الطفل تكون لها آثار ضارة على شخصيته ونموه وسلوكه مهما كانت الصفات الوراثية التي تؤول إليه من الأبوين.

وتُسمّى الكروموسومات أحياناً باسم «خيوط الحياة»، وذلك لأنها تشبه الخيوط، وعليها يتوقف نمو الخلايا ونشاطها. والكروموسومات كما ذكرنا تحمل الجينات أو الموروثات، وأي صفة من الأب أو الأم ترجع في أصلها إلى واحدة من هذه الجينات أو إلى مجموعة منها. وتحتوي الكروموسومات والجينات على الحامض النووي DNA، وتركيبه بسيط وقد أمكن إعداده إصطناعياً، إلا أن الترتيب الفريد الذي عليه جزئياته هو الذي يقرّر خصائص النوع، والأفراد الذين يحملون هذه الخصائص، كما أنه ليوجه النشاطات المباشرة داخل الخلية يقوم بصنع أنواع مختلفة من حامض آخر هو RNA، مهمتها تخزين المعلومات الوراثية وتحويلها لشفرة وراثية تُستَدعى بها الأحماض الأمينية المطلوبة وتُرتّب بطريقة خاصة يكون بها تكوينها كبروتينات وتحليقها في أماكنها، ومن

البروتينات أنزيمات تستحث التفاعلات الكيميائية الوراثية في الخلية بدقّة وسرعة، وعند حدوث أي خطأ فإن شذوذ الخلقة يترتب عليه ويتحصل بسببه المرض النفسي أو العقلي نتيجة عجز الحامض النووي عن تكوين البروتين المطلوب.

والإمكانات الوراثية التي تنتقل من الأبوين والجدود على هيئة صفات سائدة Dominant أو متنحية Recessive، أي غير ظاهرة، تصنع ما يُسمى النمط الجيني Genotype للفرد، ويقابله النمط الظاهر Phenotype وهو ما يبدو عليه الفرد من خصائص جسمية وغير جسمية تشابه خصائص الأبوين ويمكن التعرف عليها فيه ومقارنتهما بها. ولكل مرحلة من العمر نمطها الظاهر. والنمط الظاهر هو الذي يبدو فيه أيضاً تأثير البيئة، فلون الجلد مثلاً له نمطه الجيني، وإنما النمط الظاهر له يتّضح فيه أثر البيئة بأن تزيد سمرته قليلاً أو كثيراً بتأثير الشمس والحرارة. وعلم الوراثة الظاهرة Phenogenetics هو دراسة التغيرات الوراثية الظاهرة عبر مراحل النمو، ولذلك فقد سُمّي أيضاً علم الوراثة الارتقائية Developmental genetics، ويبدو من هذه الدراسة أن القول بالنمط الجيني كالقول بالحتمية العضوية أو البيولوجية، إلا أن تأثير البيئة بما عليه النمط الظاهر يؤكّد أن الإنسان ليس مشروطاً بالوراثة فسيولوجياً وعضوياً وعقلياً ونفسياً. والقول بالنمط الجيني أو الإشراط الوراثي قد يعني أن الإنسان محكوم مسبقاً بصفات وراثية، وقد يكون ذلك صحيحاً من الناحية النظرية، إلا أنه عملياً فإن الإشراط الوراثي يتغيّر بالبيئة بما تكون عليه التربية التي ينشأ عليها الفرد وما تتيحه له من عناية صحية واجتماعية وثقافية وحضارية، وكلها من وسائل البيئة التي يمكن أن نسيطر بها على نموه. ويقوم علم تحسين السلالات Eugenics منذ أن قدّمه جالتون Galton (١٨٢٢ - ١٩١١) على هذه الفرضية من حيث التدخل لتعديل تأثير الوراثة واختيار الأفراد ذوي الصفات الجيّدة لإنجاب سلالات ذات مواصفات أفضل. وقد يبدو أن الغاية التي تتوخاها الوراثة هي المحافظة على الأنواع واستبقاء صفاتها،

إلا أن الوراثة بهذا التحديد تكون عنصر جمود. ومن شأن الطفرات Mutations الخروج عن إطار الخصائص المتوارثة الجامدة وتجربة صفات جديدة، والطفرات الشاذة تضرّ بالنوع ويجري عليها ما يسمى بالموت أو الإعدام الوراثي Hereditary death. ولقد قيل إن الطفرة ربما لا تتناسب مع بيئة معينة ولكنها قد تناسب بيئة أخرى، وذلك شأن الطفرات الخفيفة والتي يوصف الأفراد الذين تجري عليهم بالضعف البنيوي أو رهافة الخلقة والصحة. والطفرات الخفيفة أكثر شيوعاً من الطفرات الشاذة، وتكثر الطفرات الشاذة في البيئات التي يصدق عليها التلوث الكيميائي أو الإشعاعي الشديد.

ودراسة الصفات الوراثية لجماعة أو لشعب Population genetics تميل بالبعض إلى أن يقول بما يسمونه المستودع أو المجمع الجيني Gene pool للجماعة، وهو مجموع صفاتهم الوراثية المميزة لأفرادهم والتي تجعل منهم وحدة عرقية تختلف في صفاتها عن صفات غيرهم من الأعراق المتباينة عنهم. والمجمع الجيني ليس اجتماعاً وقتياً من هذه الصفات ولكنه جُماع الصفات على طول الزمن، وهو افتراض سليم طالما أن الجيل الحالي يرث صفات الجيل السابق عليه ويسلمها للجيل اللاحق له، وطالما أن الجماعة أو الشعب تضمه بيئة محدّدة يكون التقاء أفراده على أرضها متاحاً والتزاوج بينهم ميسراً ومغلقاً عليهم دون أفراد غيرهم من الجماعات أو الشعوب. وتضيع الصفات العرقية لشعب ما بانتشار أفراده في المعمورة وتباعد المسافات بينهم وتزاوجهم من الآخرين. ومثلما هناك مجمع جيني عرقي فهناك أيضاً المجمع الجيني العام للإنسانية كلها، فلم يُعرف أن الإنسان تزاوج وكائن آخر غير إنساني، وأيضاً فإن الفرد من الإسكيمو وإن بدا أنه من المستحيل أن يتزاوج من عربية مثلاً، إلا أنه من الممكن أن يتزوج من فرد من سلالة مغايرة وقريبة مكانياً، بحيث تتصل الحلقات بين الإسكيمو وغير الإسكيمو وإن بعدت المسافة، فتجتمع الإنسانية على صفات وراثية خاصة

بها. والمفروض أن الوراثة يكون بها تكيف الفرد مع بيئته، وتنوع البيئات يستلزم صفات وراثية متعددة ومتباينة، ولذلك فإن الاحتمالات لاتحاد الجينات حاملات الصفات الوراثية تزيد باستمرار. وكثيراً ما يشار إلى مقولات داروين في الوراثة بأنها انتخاب طبيعي يكون البقاء به للأصلح. ولا يعني البقاء للأصلح وجود صراع بين الأفراد والأنواع، وإنما أن المعول عليه في الوجود انتقاء الصفات التي يكون بها تكاثر النوع، والتي بها تكون صلاحية الأفراد لمواكبة الحياة والظروف والملابسات. والصلاحية التي يقول بها داروين هي صلاحية وراثية، أي نرثها من الآباء ونورثها للأبناء. ومن دأب الحياة أن كل فرد يحمل معه صفات طفرة تخرج به عن التشابه المتطابق مع الآباء، ولهذه الصفات عبؤها غير المنكور الذي ليس الأصل فيه تماماً لمكدرات الحضارة، ولا بد أن تُقابَل الطفرة السيئة بمبدأ يوازنها، وهذا المبدأ هو الانتخاب الطبيعي Natural selection، وأيضاً فإن الموت الوراثي مبدأ آخر يحول بين النوع وأن يكون تطوره للأسوأ. ويميل التطوريون أو القائلون بالتطور Evolutionists إلى تأكيد أن الإنسان يتطور للأفضل، وأن الوراثة في إجمالها تؤكّد على الصفات الأفضل وتعمّمها، ولربما يكون هناك ما يُسمى توازناً وراثياً Genetic equilibrium يقابَل فيه بين السيئ والجيّد من الصفات الموروثة. ولربما في الإنسان الواحد نفسه قد لا تكون الغلبة لمورثة على غيرها، فالمورثات تعمل جميعها في تفاعل مع بعضها، إلا أن الإنسان يستطيع أن يتحكم في تزاوجه وفي مواصفات البيئة بما يرجّح تحسين سلالاته، وهو ما أمكن التحكم فيه فعلاً بطريقة ظاهرة في الحيوان والنبات، حيث يسهل التجريب في مجاليهما دون تثريب ولا مسؤولية.

(أنظر أيضاً البيئة).

مراجع:

- Stern: Principles of Human Genetics.



- ٥ -
التطور Evolution

معنى التطور على مدار العمر، وتأثير البيئة فيه. السلوك صناعة الوراثة والبيئة. الانتخاب الطبيعي والبقاء للأصلح. القدرة على التعلّم من الثوابت الجينية. التطور البيولوجي والتطور الثقافي. التطور والأخلاق. التطور وتحسين السلالات.



التطور هو سُنّة الحياة، والصيرورة هي ناموس الوجود. وكل الكائنات الحيّة تتطور، ومنها الإنسان، والإنسانية لها بدايات تثبته الحفريات والآثار، وكل فرد له مراحل نمو تتطور به نحو النضوج، وبعده يتحصّل التنكّس Degeneration أو الشيخوخة Senescence، ولكل فرد نمطه الجيني Genotype الفريد داخل الإطار الجيني العام للنوع. ورغم أننا نورث الأبناء الجينات التي نرثها عن الآباء، إلا أن ما نتناقله ليس هو الميراث نفسه، وإنما يجري عليه التغيير والتعديل، ويساعد على التغيير والتزاوج بين أفراد أو أجناس متخالفين. ويهدف التطور إلى أن يرتقي بالنوع، والتكاثر وسيلة الأنواع لاستمرار البقاء، والمحافظة على النوع هي غاية الوراثة، والتغييرات أو التعديلات التي يستحدثها التطور تزيد بها كفاءة أفراد النوع على التكيف مع ظروف البيئة والتوافق مع متطلباتها. والبيئة كعنصر مؤثر في التطور لا تستحدث التغييرات والتعديلات وإنما هي تحث الأفراد على أن يتجاوبوا معها، والاستجابة التي ينجح الأفراد في التوافق بها مع البيئة تتدعم وتتثبت، والجينات التي تؤهل لها هي التي يتناقها الخَلَف، لأنهم بها يكون استمرارهم في الحياة وتكاثرهم. والخلايا الجنسية من الذكر والأنثى هي التي تصل بين السلف والخلف، وهي لا تحمل أنماط السلوك، فالسلوك لا يورث، وإنما الذي يورث هي الاستعدادات له والإمكانات التي بها يتحقق، والسلوك نفسه نتعلمه من البيئة في حدود هذه الاستعدادات أو الإمكانات. والوراثة والبيئة Heredity and

environment يصنعان السلوك، والوراثة تنقل الصفات النوعية، فالإنسان مثلاً كائن له القدرة على الكلام، ولكن ما يتكلم به من موضوعات هو ميراث حضاري بيئي. والوراثة والبيئة كلاهما يصنع الشخصية ويطوّرها. والتطور الذي يلحق النوع تحدّده عوامل بعضها موروث وبعضها من البيئة. والإنسان له السمات الثابتة في حدود كونه إنساناً، وهي سمات لا تتغير بالمكان ولا بالزمان، وثبوتها الجيني هو الذي يحفظ على انسانيته، وله أيضاً سماته المرنة التي يتكيّف بها مع الظروف ويتواءم مع المكان والزمان. وهو يدخل تجارب مع البيئة الواحدة والبيئات المتعددة، ويتمرس بمختلف الأجواء والمناخات، والتطور يجعل له هذه القدرة التلائمية Adaptive ability، وكلما زادت به هذه القدرة كان أقدر على الحياة والاستمرار. والانتخاب الطبيعي Natural selection بين الأفراد هو الذي يجعل البقاء للأصلح Survival of the fittest. والثقافة Culture عنصر آخر من العناصر التي بها يتأهل الإنسان للانتخاب الطبيعي، فهو يتعلم ويتدرب في حدود الثقافة، وتزيد قدرته على التكيف مع البيئة والتطور نحو الأفضل. والثقافة لا تنتقل من جيل إلى جيل بالوراثة الجينية، ولكنها تُكتَسب دوماً بالتعلّم والتعليم بواسطة اللغة، والتعلّم Learning والقدرة عليه هما المحكان للقدرة على التطور، والقدرة على التعلّم من الثوابت البيولوجية التي تميّز الإنسان كإنسان، وكل فرد غير مؤهل جينياً للتعلّم يتخلف عن التطور ويستبعده الانتخاب الطبيعي.

والقدرة على التعلّم بالإضافة إلى المرونة الجينية تساعد على تطوير السلوك والإرتقاء بالشخصية إلى مستويات ثقافية أرقى. ومن الممكن أن يتعلم أي فرد أغلب المهن والحرف، ولا تتعارض المرونة الجينية مع التخصّص المهني أو الحِرَفي والنبوغ فيه. ويقوم التخصّص على التنوع الجيني للأفراد، وبذلك يتباين الأفراد جينياً، وأيضاً يتباينون من حيث الحِرَف والصناعات والمهن والأنشطة ويكون تمايزهم الثقافي. ويذهب دعاة العنصرية Racists إلى تأكيد التخصّص الجيني، ويبنون عليه تفوّق بعض الأجناس ثقافياً، كالتفوق

الجيني للجنس الآري Aryan race ، أو الجنس اليهودي، أو السامي Jewish or semitic race، أو الجنس الأصفر Yellow race، وهم يقولون إنه كما أنه في نوع الكلاب مثلاً هناك أجناس يتميز كل منها بميزة عرقية أو جينية، فكذلك النوع البشري هناك أجناس وشعوب تتمايز عرقياً وتتفوق على غيرها، والجنس الآري مثلاً كان تفوقه في الموسيقى الكلاسيكية والفلسفة. والمغالطة في الدعوى السابقة أن التطور في الحيوان هو تطور بيولوجي، في حين أن التطور في الإنسان هو تطور بيولوجي وثقافي بالدرجة الأولى، والتطور البيولوجي عند الإنسان يبدو وكأنه قد توقف باكتمال العقل البشري، وما يزال الإنسان يتطور ثقافياً ويوجّه نفسه وجهة إرتقائية بحسب ميول كل شعب وكل جنس. ويثور الجدل حول ما إذا كانت أجناس الإنسان كانت كذلك دوماً، أم أنها تنوعت بتأثير البيئة. والغالب أن الثوابت الجينية عند الإنسان هي نفسها عند كل الأجناس، وأما السمات الأخرى من لون وخلافه فهي من خصائص تكوينه الجيني المرن والمتجاوب مع متطلبات المكان والزمان. والدليل على ذلك أنه ما إن تغير أجناس الإنسان بيئاتها كما في الهجرة إلا ويكون اشتراكها الكامل في الأنشطة الثقافية المرتبطة بهذه البيئات، وقد صار اليهود وهم من الجنس السامي - الذي قيل إنه لا يتفلسف وليست له موسيقى - فلاسفة كباراً وموسيقيين ورسّامين وعلماء بعد أن سكنوا ألمانيا وفرنسا وانجلترا وغيرها من بلاد الآريين والأوروبيين. والقدرة الأنسب للإنسان هي قدرته على التعلّم والتعليم، والتمايز بين الأجناس هو في دعم هذه القدرة عبر التاريخ. والتعلّم في الإنسان ليس كالتعلّم عند الحيوان. ولم تكن المرونة الارتقائية في الإنسان محض صدفة تحصّلت له، ولكنها على العكس محصّلة تكيّف تطوري أساسي يميّزه عن بقية الكائنات. ولقد ثار الجدل حول دور التطور في تأسيس الأخلاق Ethics وتأصيلها عند الإنسان. ومن الممكن تطبيق مبدأ الانتخاب الطبيعي على مجال الأخلاق كما في أي مجال آخر، فمن خلال التطور كانت المفاضلة بين أفراد جيناتهم غيرية Altruistic وأفراد جيناتهم أنانية

Egoïstic، والأولون إتجاهاتهم نحو الناس والتضحية حتى بأنفسهم من أجل الآخرين، على عكس الأنانيين الذين يحاربهم الناس ويعادونهم ويعتزلونهم، ومن ثم يكون استبعادهم تطورياً بمقتضى مبدأ الانتخاب الطبيعي. والأخلاق تعني السلوك الجمعي المتحضر وانتصار الغيرية، والتطور يؤكّد الوراثة الغيرية على الوراثة الأنانية. والتطور مع الأخلاق. والانتخاب الطبيعي يجعل من الإنسان كائناً أخلاقياً Ethical being، ومتلقياً للأخلاق يجيد التلقّي، ومتقبّلاً للسلطة الأخلاقية، لأنها تؤكّد وجوده، وتدعّم بقاءه في الحياة، وترقّي سلوكه. والإنسان في كل مراحل حياته وتطوره، وخاصةً في طفولته كفرد أو كنوع، كان تواقاً لمعرفة الخير والشر والصواب والخطأ والحق والباطل. ويشغف الإنسان بالتعلّم من أبويه والمحيطين به. وقد لا تكون الغيرية والأنانية من التكوينات الجينية في الإنسان، وإنما هي من مكتسبات الثقافة التي نتحصلها بالتعلم وليس بالجينات، إلا أن التطور، والانتخاب الطبيعي، والبقاء للأصلح، في صالح الغيرية، والمجتمع بمصالحه مجتمعة، وثقافة وقوانينه، والديانات فيه، ضد الأنانية. ويُولد الإنسان ولديه الاستعداد الجيني ليسلك السلوك الفاضل أو السلوك الإجرامي، وهو يتعلم الأخلاق من الثقافة، ويتحصّل له الوعي بأبعاد الأخلاق، ويختارها لنفسه سلوكاً، لأنه بها يكون أصلح للاجتماع، وأقدر على التوافق والارتقاء تطورياً. ومن الصعب التكهن بما يمكن أن يؤول إليه الإنسان بالتطور. والتطور الثقافي للإنسان أسرع من تطوره البيولوجي، ويجعله تقدُّمه الثقافي على قدر كبير من اللياقة البيولوجية للبقاء والتطور، ولكن هذه اللياقة لا بد أن تواكب الطموحات الثقافية إذا أريد لها الاستمرار، وذلك ما يجعل علماء تحسين السلالات Eugenics يسعون إلى تحسين السلالة الإنسانية جينياً، بتعقيم غير الصالحين، وتعميم الدعوة للتلقيح الاصطناعي من سلالات مختارة، وقد روّج لهذه الدعوة العنصريون في بداية القرن العشرين، الأمر الذي جعل الجمهور يتشكك في نوايا علم تحسين السلالات، ويطالب

بقصر بحوثه على مجال الحيوانات دون الإنسان.

مراجع:

- Dobzhansky: The Evolution of the Human Species.



- ٥ -
سيكولوجية المرور

حوادث السيارات ومسبباتها، وديناميات شخصية السائقين، والشروط الواجب توافرها في السائق، والقيادة وسيكولوجيتها، والعلاقة بين السائق والمركبة، والتأثيرات النفسية لألوان إشارات المرور الكهربية، والتحليل النفسي لحوادث المرور...



سيكولوجية المرور Traffic psychology من المجالات التي يهتم بها علم النفس التطبيقي Practical psychology، والتي صارت تحتمها التطورات الهائلة في المدن، والمواصلات والزحام المروري الذي صارت تعاني منه، والتجارة الضخمة التي تبلغ مليارات الدولارات سنوياً، بيعاً وشراءً للمركبات أيّاً كانت، سواء الطائرات أم السفن أم القاطرات أم السيارات، والأرقام المذهلة للوفيات بسبب حوادث المرور، وما يترتب عليها من خسائر مادية وخسائر نفسية واجتماعية أكبر من ذلك بكثير.

والبحوث في سيكولوجية المرور ينصرف أكثرها لحوادث السيارات ومسبباتها النفسية، والشروط الواجب توافرها في السائق المسؤول، وديناميات شخصية السائق، والاضطرابات النفسية التي قد يعاني منها، وخاصة الطيارين. وأقل البحوث تتناول مشاة وركاب وسائل المواصلات، والأسباب النفسية لتفضيلهم وسيلة على أخرى، وسيكولوجية السلوك القيادي، وسلوك المشاة والركاب. ويتعرّض علماء التحليل النفسي كثيراً لتفسير رعونة الشباب في قيادة السيارات، وقد يُرجعون ذلك إلى مشابهة فعل القيادة للممارسة الجنسية،

والتعويض بالقيادة عن الجنس، وقد تعطي القيادة إشباعاً بالسيطرة والضبط والتحكم. ويعاني الطيارون مثلاً من عُصاب الطيارين Aviators' neurosis، وهو خواف يتحصل لهم ويمنعهم من الطيران، وقد يعانون بسببه من العمى الليلي، أو من خواف الأضواء الذي يحول بينهم وبين قيادة الطائرات في أوقات دون أوقات. ويدرس علماء النفس العلاقة بين السائق والمركبة ضمن ما يُسمى نسق الإنسان الآلة Man-machine system (MMS)، ويتبعون لذلك عدّة وسائل، منها رصد حركات السائقين وآرائهم، وردود فعل المشاة والركاب. وهناك طرق لتسجيل معدلات الزحام، وتصوير متعلقات المرور جميعها ولكافة الأطراف على الطبيعة، وبالصوت أيضاً، وقد تُصطنع المواقف كما في المختبرات لرصد جوانب معيّنة، وإجراء البحوث فيها والدراسة عليها والتجريب بصددها، سواء من حيث السلوك، أو التعديلات في تصميم المركبات لتلافي عيوب معيّنة، أو إجراء تحسينات فيها. وتأتي التحسينات السنوية نتيجة البحوث النفسية التطبيقية، سواء على الشارع وتصميمه، أو إشارات المرور وتأثيرها وأشكالها وألوانها، أو العِدَد المُشَغِّلة للمركبة، وتواؤمها مع القدرة الحركية والإدراكية للإنسان.

ويهتم الأخصائيون النفسيون بالسلوك القيادي Driving behaviour ومكوناته الحركية، والإدراك البصري والسمعي للمجال القيادي، والتأثيرات النفسية للزحام، وللتجاوز، ولأعطال السيارات. والزحام يستحدث أحوالاً من التوتر، وتوقف سيولة السير بسببه يستحدث الإحباط، وهناك تجارب على الحيوانات ترصد ما يتحصّل لها فسيولوجياً نتيجة إحباط الزحام. ومن أسباب القرحة الهضمية Peptic ulcer عند بعض السائقين الزحام الذي عليه المدن الكبيرة، وكذلك قد يُردّ الصداع النفسي المنشأ Psychogenic headache إلى الزحام والإحباط، وإلى التوترات الدائمة خلال القيادة، ومعاناة القلق نتيجة التأخير. والقيادة بشكل عام لها ضغوطها النفسية. ويميل السائقون في المؤخرة إلى متابعة سيارات المقدمة

والاقتداء بها في السرعة والتهدئة والتوقف. وهناك علاقة بين نوع السيارة وسلوك جندي المرور مع السائق الذي يقودها، وقد تفسر المعاملة الطيبة لجندي المرور مع سائقي السيارات الفارهة بأنه من تأثير ما يسمى «أثر الطلعة Halo effect»، والانحياز أو الاحترام الطبقي عند الجندي لسائق أو مالك السيارة الفارهة، بالنظر إلى ما تمثّله عنده كرمز طبقي له استجاباته النفسية. والكثير من الرعونة عند الشباب من أصحاب هذه السيارات مغفور عند جنود المرور، بينما هو غير مغفور عند سائقي الأجرة أو السيارات الصغيرة. وقد قيل في أسباب استخدام اللون الأحمر للتوقف الفوري، إنه لون يلفت النظر ومنبّه للذهن ومثير انفعالياً، بينما اللون الأخضر له تأثيرات هادئة ومخفّض للانفعالية، واللون البرتقالي تأثيراته بين اللونين، وهو لون محذّر يجعل القائد يتمهّل في السرعة ويلتفت يمنةً ويسرةً يحذر الحوادث. وتُستخدم هذه الألوان الثلاثة في إشارات المرور بالنظر إلى تأثيراتها النفسية، كما يستخدم اللونان الأحمر والبرتقالي في أنوار السيارة الخلفية للأسباب نفسها، ولضمان استحداث التأثيرات نفسها عند السائق الآخر للمركبة التالية فيتوقف أو يهدئ. ومن شروط القيادة القدرة على استيعاب المجال البصري، وعلى التثبيت الإدراكي البصري على أشياء بعينها فيه، بعيدة أو قريبة. واتخاذ القرار. وكذلك المخاطرة، من أهم الوظائف التي يمكن أن يأتيها السائق، زِد عليه في بعض الأحيان أن يقرّر بسرعة مذهلة، أو يخاطر، إنقاذاً لنفسه ولغيره من حوادث مؤكّدة، ويستلزم ذلك سرعة في الحركة، قيل إنها أهم من السرعة الإدراكية. وتشكّل إشارات المرور وإرشاداته، ودلالاتها، والشكل الذي عليه الطريق، وعدد السيارات به، وانتظام المشاة، وانفعالات جندي المرور، ضغوطاً على السائق، وعبئاً ذهنياً Mental load يتطلب في السائق مستوى معيناً من الذكاء، والانتباه، والتوازن النفسي، والقدرة على الحركة، وعلى التصرّف واتخاذ القرار. ولم يدرس أحد حتى الآن سيكولوجية الحركة التلقائية التي تتحصّل بالمران

والتدريب على القيادة، وتأتي بعفوية ودون قصد ولا انتباه. والسائق يتحدث مع غيره، وأحياناً يقرأ أو يأكل أو يستمع تماماً لبرنامج إذاعي، أو يفكّر تفكيراً عويصاً في أمر من الأمور، أو يتحدث في الهاتف مع غيره. والقيادة كلها مخاطرة، والتعامل معها يتوقف على نمط شخصية السائق. وقد ثبت بالدراسة إرتباط وقوع الحوادث وشخصية السائق. ويبدو أن هناك ما يسمى بالشخصية القابلة لإتيان الحوادث، ومنها حوادث المرور، والقابلية أو الاستعداد للحوادث Accident proneness يكون بالبعض نحيزة Diathesis نفسية وبيولوجية، أي تجعله ينحاز إلى عمل الحوادث. وقد تبين بالدراسة أيضاً أن أشخاصاً بعينهم يميلون إلى تكرار الحوادث وينسبونها فيهم إلى الغفلة أحياناً، أو النسيان أحياناً أخرى، أو التفكير المشتت. وهناك ارتباط أكيد بين تدنّي الذكاء وإتيان الحوادث، وترتفع معدلات الحوادث - وحوادث المرور بالذات - عند أصحاب الذكاء المنخفض، بنسبة تزيد إلى نحو خمسة أضعاف عن معدلاتها عند أصحاب الذكاء المرتفع. وهناك من أهل العلم من يحدّد سمات معيّنة للشخصية القابلة لإتيان الحوادث، مثلما توجد سمات معيّنة للشخصية العدوانية مثلاً أو الشخصية السيكوباتية، إلخ. ومن سمات هذه الشخصية الاندفاع، والرعونة، وسطحية التفكير، والآنية، والنرجسية. ومثل هذه الشخصية يستوي عند صاحبها إتيان الهفوة المرورية الصغيرة واستحداث الخطأ الجسيم. وبعض حوادث المرور تقع بالصدفة ولا ذنب للسائق فيها، كأن يعبر الطريق أحد المشاة فجأة والسيارة منطلقة. والبعض ممن تقع لهم الحوادث بالصدفة قد يأتي الحوادث من بعد ذلك بتأثير الخوف، والحرص، والحذر، ونقص الثقة في النفس، فيتأخر اتخاذ القرار في اللحظة المناسبة، ويتسبّب ذلك في وقوع الحادث. وتهيّىء حوادث الصدفة السائق لحوادث مستقبلة وتجعله مؤهلاً لإتيانها. ويذهب بعض الباحثين النفسيين إلى القول بأن الأهلية لارتكاب الحوادث، ومنها حوادث المرور، تكون فينا جميعاً وإنما بفروق

فردية، وتتوزع علينا توزيعاً على بُعد واحد فيما يُسمى بالمتّصل. وتقع حوادث المرور لأسباب خارجية وأسباب ذاتية من السائق نفسه. والأسباب الخارجية منها عدم صلاحية السيارة، وتخلّفها عن مواكبة التحسينات، وصعوبات الطريق، وضعف الرؤية أو انعدامها، ورعونة الآخرين، وتدنّي الوعي المروري بتأثير ضحالة الثقافة أو انتشار الأمية، وتأثير الظروف المناخية كارتفاع الحرارة، وكلها ظروف بيئية لها مردودها النفسي الضخم على السائقين. ولا شك أن الارتفاع لأثمان السيارات يستوجب الاهتمام باختيار السائق عليها وتهيئة الظروف الميسرة للقيادة الخالية من الحوادث. ولكل سائق أسلوبه الذي يتكيف به مع السيارة بحسب سماته الجسمية والحركية والإدراكية. وللتعب تأثيره على سائقي السيارات العامة والشاحنات والأجرة، والتعب يولد السأم، كما ان السأم يولد التعب، ويُفتَعل السأم بتأثير القيادة لمسافات طويلة عبر طرق لا تتغير مناظرها والأحداث فيها. وللسن والجنس والخبرة تأثيرها أيضاً، وذلك لأن قلة الخبرة ترتبط بالسن، ويزيد بطء الحركة والتفكير مع تقدم السن. والنساء عموماً أكثر إتياناً لحوادث المرور وخاصة في الفترة السابقة على الحيض وخلاله، والمرأة تكون أثناء ذلك عصبية وكثيرة الغفلة والنسيان والشرود الذهني، كما أن النساء عموماً يُعانين من نقص في الاتزان النفسي والفسيولوجي يجعلهن أكثر تعرضاً للتعب والسأم، وأقل انتباهاً وتركيزاً، وأميل للعصبية والإصابة بالتوتر والقلق، بالإضافة إلى أن نمط الحياة الاجتماعية الذي تعيشه المرأة التي تقود سيارة، أي المرأة العاملة غالباً، يجعلها أكثر تعرضاً للتعب عن الرجل بحكم مسؤولياتها المنزلية والعائلية والوظيفية. وأثبتت الدراسات النفسية أن الإناث أكثر تعرضاً لعُصاب القيادة Driving neurosis من الذكور.

وتؤثّر الحالة المزاجية في القيادة، وتبين الدراسة أن أغلب الحوادث المرورية لأفراد في حالات مزاجية متدنية أو منتشية، كالحزن الشديد، أو

الفرح البالغ، أو الغضب، أو الخوف، فيقل الانتباه ويسوء التوجّه والحكم. ويميل علماء التحليل النفسي إلى ردّ السلوك الجامح في القيادة أو الإهمال فيها، إلى رغبة في الانتحار أو إيقاع الأذى أو العقاب بالنفس، أو بالغير، لميول عدوانية تتوجه إلى الذات أو الغير، أو ربما لمشاعر ذنب وصراعات ودوافع لاشعورية. والأخطاء في القيادة مثلها مثل الأخطاء في أي عمل، يمكن أن يكون لها سببٌ نفسي شعوري أو لاشعوري، وليس من الصواب ردّها لمجرد الطيش أو السهو، إلخ، فحتى الطيش والسهو لهما أسبابهما النفسية. ولم يكن فرويد يؤمن بالصدفة النفسية تترتب عليها الحادثة وتستحدث الإصابة للفرد أو الغير، وإنما لكل حادث حتميته السيكولوجية.

مراجع

- J. O'Day: Driver Behavior: Cause and Effect.



– ٧ –
سيكولوجية الموضة

معنى الموضة. الموضة وروح العصر. الموضة والحضارة. النساء والأزياء وأدوات التجميل. التطور ومواكبة الموضة. لذة تجربة الجديد واكتشاف الذات وتأكيد الشخصية. الموضة والبدعة والذوق العام...



للموضة Fahion أو Mode أسباب نفسية تقتضي تغيير الأشكال والقوالب الفنية أو الأدبية أو النظرية السائدة. وتشمل الموضة كافة المجالات والأنشطة، فهي تكون في العلوم، والفنون، والآداب، والهندسة، والترفيه، والأزياء، والمآكل، والمشارب، إلخ. وتتحكم في الموضة روح العصر Zeitgeist، وأغلب ما يُستخدم إصطلاح الموضة في الأزياء وخصوصاً الأزياء النسائية، أو أنه يُستخدم بكثرة في كل ما يتعلق بفن التجميل عند المرأة، كتسريحة الشعر، وأنواع العطور، والألوان

والخطوط، وأشكال الأحذية، وأدوات الزينة، والحليّ، وكل ما يتّصل بالحضارة بسبب من الأسباب. وتأخذ بأساليب الموضة المجتمعات المرفهة، والطبقات الموسرة، والأفراد الذين يطلبون التغيير في حياتهم وينشدون المغايرة عن الناس والخروج عن المألوف والروتيني ويسعون للتجديد. والمرأة أحق بذلك من الرجل لأسباب نفسية، يذكر منها علماء التحليل النفسي أن المرأة تميل إلى الاستعراضية Exhibitionism، في حين أن الرجل يميل إلى التطلّع Voyeurism، والموضة ترضي الطرفين من حيث انها تهيئ للمرأة أن ترتدي من الأزياء والأدوات ما يظهر جوانب شخصيتها، بحسب المواقف المتباينة التي تريد أن تظهر فيها بمظهر معيّن يلفت إليها الأنظار ويحبّب فيها «الجنس الآخر The other sex». وملاحقة المرأة للموضة تعني أنها تريد لنفسها ملاحقة التطور، وأن توصف بأنها امرأة عصرية، والمجتمعات التي تأخذ بالموضة هي مجتمعات تموج بالمتغيرات. ولا تعرف الموضة المجتمعات الساكنة أو المحافظة من بدو وأرياف. وتقضي الموضة أن تكون هناك أذواق عدّة يفاضل الناس بينها ويختارون منها، وأن تكون الأوضاع الاجتماعية متطورة، تحتاج باستمرار إلى أشكال فنية وأدبية ونظريات وفلسفات تواكبها. ولا بد أيضاً من وجود شخصيات إجتماعية ذات مكانة تكون قدوة للآخرين وتأخذ بالجديد. وقد تُفسَّر الموضة سيكولوجياً بأنها ميل للتحرر من التقاليد والأطر الفكرية والمعيشية التي تسود لفترة ثم تجمد. وقد تكون الموضة بسبب شعور بالملل والسأم، وقد تستدعيها الرغبة الدائمة في إضفاء لمسات جمالية على الأوضاع القائمة وتحصيل لذّة تجربة الجديد. وقد تكون الموضة وسيلة من وسائل اكتشاف الذات، وقد تكون أيضاً إثباتاً للذات بممارسة الاختيار وتجربة الجديد الذي لم يسبق إليه أحد، وتحمّل مسؤولية الأخذ به وانتقاد الناس له. والموضة في الأزياء يستهدف بها المتزيّي أن يجد فيها التعبير عن جوانب من شخصيته لم يتعرف إليها الناس. وتعدّد الأزياء يتيح للمتزيّي أن يظهر بشخصيات متعدّدة، أو أن يخفي أشياء ويظهر أشياء

من جسمه ورسمه بحسب ما يريد أن يؤكّده للناظرين، وأن تتحقّق له بها وحدة جمالية، أو انتظام يعطي عنه انطباعاً جمالياً أو إدراكياً معيناً. واختلاف الموضة فيه تكثير للشخصية بحسب المواقف المتباينة التي تستدعيها. والمرأة بالموضة لا تكون بها امرأة واحدة ولكنها تكون أكثر من إمرأة، أو أنها تكون بها حواء الخالدة Eternal Eve ذات المائة وجه، أو المائة حضور، والمائة شخصية. ومهمة الموضة أن تحقّق هذا التباين وتضفي على المتزيّي هذا الثراء. وتتميّز في الموضة مرحلتان، الأولى: مرحلة الطرح للجديد؛ والثانية: مرحلة الاختيار. والموضة Mode تختلف عن البدعة Fad، ذلك لأن الموضة، ولو أنها تغيير، إلا أنه تغيير موصول بموضات قديمة، في حين أن البدعة تأتي فجأة وتنتهي فجأة وليست لها استمرارية تاريخية. والموضة يمكن وصفها بأنها معايشة للزمان والمكان، أو أنها معاصرة Modern، في حين أن البدعة تكون غريبة، وقد تنتشر ولكنها غالباً ما تقاوَم وتقابَل بالاستهجان. والموضة فيها خيال وإبداع، والبدعة غالباً شطحات. واتباع الموضة ومشايعتها يخلّص من استعباد العادة، ويتيح للأنا الفرصة أن يستعرض نفسه، كما أنها فرصة لإرضاء النزعات والميول الجنسية. وتشكّل الموضة الذوق العام General taste، أو الذوق الجمعي Collective taste، وهو عنصر إيجابي، يستقبل ويطوّر ويتقبّل ويرفض، ويشكّل عالم من الجماليات للأفراد والجماعة، ويتشكل هو نفسه من خلال تفاعل الأفراد وتجاوبهم مع الخبرات نفسها. وعملية تكوين الموضة هي عملية تكوين ذوق جمعي. والذوق الجمعي دائماً في حالة تشكّل، ومن خلال الموديلات الجديدة New models والاقتراحات يصمّم واضعو الموضة الخطوط والسكتشات المحتملة للتغيرات المتوقعة، وبعضهم يتميز بالإبداع الحقيقي والخلق باستمرار، وبعضهم شاذ Eccentric يخرج عن المألوف ويقدم الغريب. وكثيراً ما يكون مصممو الموضة من الرجال وبهم تشبُّه بالنساء ويحبّون أن يسلكوا مثلهن، وأن يلبسوا على نمطهن. وذلك داء التشبُّه Transvetism. والفيصل في الذوق هو

تقبُّل الجمهور، وأن تتوافق الموضة والذوق العام، وهو قوّة ناشطة في عملية اختيار الجديد، وهو أثناء ذلك ومن خلال الممارسة يزداد رهافة بارتباطه بأشكال أو موضات معيّنة يتجسّد فيها.

مراجع:

- Flugel: The Psychology of Clothes.
- Bergler: Fashion and The Unconscious.
- Hurlock: The Psychology of Dress.



– ٨ –
سيكولوجية البغاء

معنى البغاء عند النساء والرجال وشخصية البغي. دور القوّاد أو الديوث وغواية البغي. تمايز شخصية البغايا واضطرابات الشخصية عند البغي، وارتباطات البغاء بالجريمة. البغاء والأخلاق والدين. وأسباب لاأخلاقية البغاء...

❖ ❖ ❖

البغاء Prostitution من بَغَى أي عدل عن الحق، والبغاء هو العدل عن الاستقامة، وهو عَمَلُ البغيّ وهي الفاجرة بائعة الهوى؛ ويأتي عن البغاء في القرآن مرة واحدة، يقول: ﴿وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ (النور - ٣٤)، وهو في القرآن الزنا (والزنَى أيضاً) وقد نُهي عنه، قال: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ (الإسراء - ٣٢)، وجزاؤه الجلد، قال: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ (النور - ٢). والبغاء إنحراف جنسي تُؤْجَر فيه البغي وتقتضي أجرها عيناً، ومنه بغاء مثلي الجنسية Homo-sexual p.، أي من امرأة لامرأة، وقد يحترف الرجال البغاء غيري الجنسية Hetero-sexual p.، أي من الرجال للنساء، والرجل البغي يضاجع النساء ويعتمد ألا يُمنِي. ومن بغاء الذكور Male p. ما يكون مثلي الجنسية، وعادة ما يكون بالمواخير Brothels، فيلحق بها عدد من الأولاد تحت الطلب Call boys، وقد يكون للبغي المأبون Catamite رفيق يهوى إليه، كما قد يكون للبغي الأنثى رفيق Comrade.

والبغي اللوطي Homo-sexual male prostitute لا يمني عادة، ويسلك مع الزبون الذي يقوم أساساً ليواقع رجلاً غيري الجنسية. وبغاء النساء المساحقات Lesbian prostitution نادر، وقد تفعله البغي إرضاء لزبونة مفاحشة. والبغايا يتفاضلن، فالعاهرة Whore هي البغي المرخصة في بيوت الدعارة، والمومس Strumpet هي الفاجرة جهاراً، من ماست أي تبخترت واختالت، وتعمل غالباً لدى قواد Procurer يتولى تسويقها، وقد تؤم الحانات وتسامر السكارى ولها عمولة على ما تغريهم به من شرب الخمر، وإسمها في مصطلحهم لعوب الخمارة Bar girl، وقد تتصيد زبائنها من الشوارع وتسمى السكّاكة Streetwalker، وهي أقل البغايا شأناً، ولا تختار زبائنها ولا تدقق في السعر، وسلوكها ترصده شرطة الآداب. والبغي أعلاهن أجراً. وقد تتخصص بعض البغايا في المصابين بالأمراض النفسية كالسادية والماسوشية، وتتجنب بعضهن المباشرة، وقد تقتصر لعوب الخمارة على القول الفاحش، وقد تُمني الزبون بيدها، أو تستعري أمام الزبائن، وقد تستعرض الجماع مع أحدهم بشهادة الحضور.

وامتهان البغاء قد يحدث من خلال ديوث، من داث أي سهّل البغاء، فهو الديوث أي المسهّل للبغاء، ويقابلها Gigolo (فرنسية) وهو حامي البغي؛ والجلاّب Procurer وهو الذي يغوي البنات لاحتراف البغاء، من Procure أي يجلب بالاحتيال؛ والمرأة يقال لها الجلاّبة Procuress؛ وهو الوسيط Pander من الإغريقية Pandaros، لأنه يتوسط لدى المرأة ويغويها، ويتوسط بين البغي والزبون؛ والمَعَرّس Luckold لأنه الذي يرتضي أن يصنع من نفسه خيال مآتة، وزوجاً أو عريساً بالاسم، ويشهد زنا امرأته ويحرّض عليه ويرضى به، وقد يجري امتهان البغاء بتأثير غواية بغي Procuress، وعند ذلك قد تستغرق إحاطتها بثقافة البغايا Prostitus' culture بضعة شهور فتكوّن لها عن نفسها صورة مختلفة تماماً عن صورتها القديمة، وتغيّر إسمها وعاداتها ولغتها، وتتوثق معرفتها بفنون البغايا وتقاليدهن وأفكارهن.

والبغي تهفو للحب، وإلى أن تكون محبوبة، ويزيد شوقها لذلك كلما زاد تورطها في دنياها الجديدة، وانبتّت صلتها بحياتها القديمة، وحذقت أن تتباعد عن زبائنها. وقد تجد الحب عند عشيق Gigolo هو نفسه قوّادها، ويُشبع عندها الحاجة إلى الحبّ، ويدفع عنها الأذى ويضفي عليها حمايته. وبوسع البغي ألا تستجيب في الجماع، ومن الممكن أن تبلغ الهِزّة في الجماع مع عشيقها، وقد تكون أسرع في التجاوب معه من كثير من النساء السويّات مع أزواجهن.

وعلى العموم فإن البغي تشكو العُنّة Impotence، وربما لذلك تحترف البغاء لأنها لا تنفعل جنسياً على الحقيقة، فهي باردة جنسياً Frigid وتعاني البرود الجنسي Sexual frigidity، ومن أجل ذلك تطلب معاودة الرجل لها، ومن الممكن أن تباشر أكثر من عشرين رجلاً تباعاً.

وتتمايز البغايا في الشخصية والدوافع والخلفية الاجتماعية، وبعضهن لانحرافه أسباب عضوية، والكثيرات منهن مصابات بالفُصام واضطرابات الشخصية، وبعضهن يندفعن للبغاء لإدمانهن الخمر والمخدرات، ولأنهن بالبغاء يحصلن على المال اللازم لشراء الكيف. وربما كانت للبغاء أسبابه الاجتماعية والاقتصادية أكثر من أسبابه النفسية، ولكن الأسباب النفسية مع ذلك تظل هي الغالبة، ولولا استعداد البغي نفسياً للبغاء لما غلبتها الأسباب الاقتصادية أو الاجتماعية على نفسها. وتتفاوت حظوظ البغايا بحسب ذكاء كل واحدة، ودوافعها، وقدراتها، ومستواها الثقافي وصراعاتها. وتقرّ البغي بمغايرتها لبقية النساء، وتردّ ذلك إلى نمط المجتمع الذي يجعل للبغاء قيمة مادية أكبر من قيمة الكثير من المهن الشريفة. ولا ترفض البغي القيم الاجتماعية ولكنها لا تعمل بها، وتعلل انحرافها بتأثير ظروفها الاجتماعية أو الاقتصادية، وقد تكون نشأتها في البغاء أصلاً.

ويبدو من نتائج الاستقصاءات على البغاء أن جميع البغايا كانت لهن حياة عائلية مضطربة في طفولتهن ومشحونة بالكراهية، غير أن العامل الحاسم في الانحراف إلى البغاء هو الاضطرابات

النفسية الجنسية عند البغي، لدرجة أن الغالبية منهن يعانين من كراهية لجنس الرجال Misandria؛ وكراهية للزواج Misogamy؛ وكراهية لجنس الأولاد Misopaedia؛ بل والكراهية للناس جميعاً Misanthropy؛ والكراهية للحياة Misopsychia. والبغاء في هذه الحالة نوع من التنفيس عن هذه الكراهيات باستغلال الرجال جنسياً. وقد يتّصل البغاء بالتخلّف العقلي، وضعف المقاومات النفسية، وتهافت الأنا الأعلى، وسوء التربية، والافتقار إلى إطار مرجعي من القيم الاجتماعية والأخلاقية والدينية. وكثيراً ما يرتبط البغاء بالجريمة، بحكم المجتمع المعزول للبغي، والثقافة الخاصة التي لهذا المجتمع، واعتماد البغايا على السماسرة والقوّادين في حياتهن، وعلى تجارة الجنس والمخدرات. والبغي الملتزمة تفيد من البغاء المنظم، وتلتزم بما يُفرَض عليها من إتاوات، ولا تسرق عادة حتى لا يشكوها الزبون، إلا إذا كانت سكّاكة، وإن كانت تعرف أن الزبون غالباً لن يشكوها اتقاءً للفضيحة. وهي كمحترفة لا تريد لتجارتها البوار، وترجو من الزبون أن يعاود زيارتها. وقد تتورط كشريكة في الجرائم التي قد يرتكبها السماسرة والقوادون، وكثيراً ما تكون المواخير المكان المفضل لعتاة المجرمين بعد ارتكابهم لجرائمهم، وتعرف الشرطة ذلك، وتستخدم البغايا للإبلاغ عنهم.

وربما كان إقبال الرجال، أو نوعية خاصة منهم، على البغاء بقصد التنويع الجنسي. وغالباً ما يكون زبون البغايا هو المعاق، أو كبير السن الذي لا تسمح ظروفه بأن تكون له علاقة سوية شرعية بنساء محترمات، وقد يندفع الشباب للبغايا نتيجة القيود والشروط على الزواج، أو بسبب الاضطرابات النفسية التي تلحقهم من جراء تواجدهم في مجتمعات تملؤها الصراعات ومشحونة بالكراهية، وفي عصر يوسم بأنه عصر القلق Age of anxiety، والثورة الجنسية Sex revolution، وما يترتب على ذلك من عجز الكثيرين والكثيرات أن تكون لهم علاقات جنسية سويّة لها صفة الاستمرارية.

مراجع:
- Jackman & O'toole & Geis: The Self-image of The Prostitute.



- ٩ -
سيكولوجية القمار

أنواع المقامرين، وسيكولوجية المقامر القهري، واضطراب سمات الشخصية عنده، والمقامر السيكوباتي...



يُنشد المقامر المال السهل، ويلجأ للخداع ويدأب على إتيانه في الليل خصوصاً، وكانوا قديماً يسهرون للقمار في الليالي القمرية تحصيلاً للضوء، ومعنى القمار مِن يقمر، أي يأرق في الليلة القمرية، ويتعهد غرّة الآخرين للإيقاع بهم. وهو أيضاً الميسر من اليُسر بمعنى الرخاء، أو بمعنى أن ينفس على أحدهم في المطالبة، أو يصير ذا مال. وليست لفظة القمار من ألفاظ القرآن، وإنما في القرآن لفظة الميسر، وتُذكر فيه ثلاث مرات، وفيها أن الميسر إثم كبير، ورجسٌ من عمل الشيطان، أي أن من يأتيه ويدمنه فلا بد أن يكون مريضاً نفسياً. والقمار Gambling أنواع، كما أن المقامرين Gamblers أصناف. والمقامر الاجتماعي Social gambler هو الذي يلعب بقصد التسلية، وقد يخسر أو يكسب بعض المال ولكنه القليل الذي لا يذكر، ومن ذلك أن البعض قد يلعب للفوز، أو لإظهار مهارته الفكرية، أو لأنه يجيد الحدس ومراوغة الخصم نفسياً، وقد تأخذه الحمية إلا أنه دائماً يستطيع أن يكبح جماح نفسه ويمتنع عندما يريد. والمقامر القهري Compulsive gambler على عكس ذلك، فهو يُقبِل على القمار بدوافع نفسية لا تقاوم، ويشغل به عن كل نشاط آخر، ويصرف فيه وقته وماله، وتتعطل به مصالحه، ويفقد وظيفته، ويهمل واجباته الاجتماعية والعائلية، وتفسد به علاقاته الزوجية. وتزيده هذه المشاكل إنصرافاً إلى القمار ينفث فيه مشاعر الإحباط والعدوان، فيكون

اعتماده النفسي الكامل على إتيانه، وتلاحقه فكرته باستمرار وكأنه الحواز، ولا يكون له نشاط إلا ما يتصل به. والقمار من هذا النوع إضطراب نفسي.

والمقامر القهري وإن كان يعاني نفسياً إلا أنه من النادر أن تكون له أعراض مرضية نفسية، طالما أنه لا يعاني من صراعات داخلية، وليس مصاباً بالقلق الذي يجعله عاجزاً عن الفعل، وإنما هو إنسان مدفوع بغرائزه يصرفها في القمار دون نظر في العواقب. وتعتبر بعض المصنفات العلمية القمار القهري من اضطرابات سمة الشخصية، أو أنه اضطراب تسيطر فيه على الشخصية سمة واحدة، أو تكون لها به استجابة خاصة واحدة تظهر بمظهر العَرَض، أو أن القمار إدمان Gambling addiction، ولكنه ليس إدماناً فسيولوجياً كما في المخدرات أو الخمر، وإنما إدمانه إدمان نفسي كإدمان العادة السريّة مثلاً. وعموماً فإن شخصية المقامر تكون عادةً شخصية غير ناضجة تكره المسؤولية والأصول والقواعد، ولا تبالي بالأخلاقيات والتقاليد والعرف، وصاحبها يبدو سطحياً كالاجتماعي، ولكنه في الواقع ليست له بالآخرين علاقات حقيقية، وهو بالأحرى يستخدم الآخرين لمصلحته، فإذا رفضوا إقراضه مثلاً إنقلب عليهم جهاراً، أو أسقطهم من حسابه، ويحاول مع آخرين. والإثارة التي عليها فعل المقامرة تشبعه نفسياً، وهو ينشد تلك الإثارة Gambling excitation ويعيش عليها ويطلبها، ومبدؤه في الحياة أن يعيش في خطر To live in danger، واتجاهاته كثيراً ما لا تكون واقعية ولا منطقية، ويقاوم تغييرها. وصورته عن نفسه لذلك لا تنسجم مع مؤهلاته واستعداداته، وهو يحسب أنه أفضل من غيره، وتفكيره سحري Magical thinking أو غيبي Superstitious، ويؤمن بتأثير الكلمات والأرقام والأشكال والعلاقات، ويتشاءم ويتطيّر ويتفاءل، ويركز عينيه وعقله على الورق وكأنه يستنطقه أو يستلهمه. ويعتبر البعض المقامر صاحب شخصية سلبية اعتمادية Passive-independent personality بحكم تربيته، حيث تكون نشأته في أسرة مسيطرة. ويعتبره البعض صاحب شخصية وسواسية قهرية

Obsessive-compulsive personality، تستشعر الرضا بتكرار الأفعال والأفكار نفسها، ومن ثم يكون القمار مجموعة من الطقوس السيكولوجية التي يأتيها المقامر. وربما كان المقامر سيكوباتي Psychopath، طالما أنه متمرد وأناني ومعادٍ للآخرين، ولا تهمه عائلته أو عائلات الآخرين التي يمكن أن تتأثر معيشتها بالخسارة التي يُلحقها بعائلهم. ويرى بعض المحللين في المقامر شخصاً ماسوشياً Masochist، تتملكه رغبة لاشعورية لأن يخسر بدلاً من أن يكسب، ويسيطر عليه دافع لأن يخسر ويستمر في الخسارة كنوع من العقاب ينزله بنفسه، ربما لسلوك آثم أتاه، أو لرغبات أو دوافع آثمة إستقرت في نفسه من الطفولة ولا يرضى عنها، ويرى أنه يستحق من أجلها أن يُعاقَب، وهو لا يعي هذه الرغبات أو الدوافع ولا مصدرها، ويحاول لذلك أن يكفّر عن أحساسه بالذنب باستمرار ودون كلل، بأن يخسر أمواله، وعلاقاته، ومكانته الاجتماعية، وأصدقاءه، ويشدّ عائلاتهم معه إلى الحضيض.

مراجع:

- Bergler, E.: The Psychology of .gnilbmaG
- .semaG dna yalP ,naM :.R,siolliaC
- ehT .gnilbmaG dna ksiR :.J ,nehoC .ytilibaborP evitcejbuS fo ydutS

❖ ❖ ❖

الباب الثالث

علم النفس والطب النفسي
في خدمة التعليم والتربية

- ١ -

سيكولوجية الاستعدادات والميول والاتجاهات

الاستعداد العام والخاص والاستعدادات الفارقة والمهنية. الميول ومقاييسها عند سترونج وغيره. الاتجاهات النفسية واكتسابها بالخبرة والتعلّم. الاتجاهات الموجبة والسالبة. زملة الاتجاهات. مقاييس الاتجاهات. الاتجاهات الجامدة وتغيير الاتجاهات.



الاستعداد Attitude هو قدرة كامنة أو صلاحية تكون بالبعض فتؤهلهم للتعلّم وتصبح قدرة بهم على الأداء العضلي أو العقلي. والاستعداد العام .General a هو قدرة كامنة عامة أو تأهيل فطري أو أوّلي، أو هو الذكاء العام General intelligence الذي يلزم للتعلم واكتساب الخبرة، وتوظيف القدرات العقلية والبدنية التوظيف الذي يخدم مصلحة الفرد، على عكس الاستعداد الخاص .Special a، كأن يكون استعداداً فنياً .Artistic a، أو استعداداً لغوياً .Language a، أو ميكانيكياً .Mechanical a يؤهّل صاحبه للتعلّم والتفوق في أي من المجالات السابقة. وتكشف إختبارات الاستعداد a. tests عمّا إذا كان الشخص لديه هذه الصلاحية على الأداء الخاص، ومن ذلك الاختبارات التي تُجرَى للكشف عن الاستعداد المدرسي Scholastic a. tests، أو الاستعداد الأكاديمي .Academic a، للتنبؤ بقدرات الأفراد على التعلم أو صلاحيتهم للالتحاق بالمدارس أو الجامعات، وهي اختبارات من نوع اختبارات الذكاء الجمعي Collective intelligence. وتقيس اختبارات الاستعدادات الفارقة (DAT) differential a. tests الاستعداد لفهم العلاقات العددية، وإدراك العلاقات بين الكلمات، وفهم مدلولاتها، واستخداماتها، والعلاقات الميكانيكية، والاستدلال الميكانيكي، وسرعة ودقّة القيام بمختلف الأعمال الكتابية. وتفيد اختبارات الاستعدادات المهنية Vocational a. tests في التوجيه

والإرشاد المهني. وفي اختبارات قياس الاستعدادات الآلية اليدوية مثلاً تُعرَض على المفحوص لوحة بها ثقوب يحاول أن يَشْغلها على وجه السرعة باسطوانات معدنية، بهدف قياس إستعداده على استخدام ذراعيه ويديه وأصابعه، وقد نجعل ثقوب اللوحة صغيرة كما نجعل الاسطوانات دقيقة وكأنها المسامير، حتى ليستعين في رفعها بملقاط يمسكها به. وتُحسب السرعة بالوقت الذي يستغرقه المفحوص، وتقاس دقة الأداء بجهاز كهربي يُحصي الخطأ في وضع القطع المعدنية. وقياس مثل هذا الاستعداد يجعل من الممكن التنبؤ بإمكان تعلّم المفحوص للمهارات المشابهة التي تتطلب إستخدام الأيدي والأذرع والأصابع والتنسيق بين حركاتها جميعاً. وهناك من المهارات ما يتطلب إستعدادات متباينة يتوجب معها أن يؤدّي المفحوص عدداً من اختبارات الاستعدادات المتكاملة، ونطلق عليها إسم الاختبارات المتعددة، وقد يقتضي الكشف عن استعداد فني مثلاً أن يُجرى القياس لاستعدادات الفرد العقلية على إدراك المسافات والمساحات وإصدار الأحكام الجمالية.

والميل Interest نزعة سلوكية نحو موضوع، أو نشاط يستهوي صاحب الميل، حتى ليشغل انتباهه، ويستأثر باهتمامه، ويستحوذ بوقته. والميول إهتمامات مستقرة وممتدة، تسفر عن نفسها كسمات للشخص في فترات مبكرة من حياته، ويبدأ صقلها ورعايتها وبلورتها فيما بين سن العاشرة والرابعة عشرة.

والميول تعكس تفضيلات الشحن الشخصية، وربما المهنية، وقد تكون تفضيلات لها طبيعة تخصصية. وقد يكون من المناسب أن نسأل الشخص صاحب الميول عن ميوله مباشرة، إلا أن ما يقدمه من معلومات بشأنها قد تعوزه التعبيرات السليمة نتيجة قصورٍ لغوي، وقد لا يأتي حديثه عنها علمياً، ولا يمت للواقع، ويتسم بالكثير من الدعاوى، فقد نسمع من أناس أن لهم ميولاً فنية أو رياضية ثم يتبين كذبهم، أو قد يحسبون توجهاتهم الطارئة من باب الميول وهي ليست كذلك. والأولى أن تكون إختبارات الميول i. tests موضوعية تقوم على

ملاحظة السلوك ورصد نزعاته التي لها صفة الاستمرارية، مما يكشف عن إهتمامات بنواحي معينة وتفضيلات لنواح أساسها الميول. ومعظم مقاييس الميول i. measurements تعتمد على اللغة في صياغتها، وقد تكون اللغة من معوقات فهم أسئلة هذه المقاييس، وتختلف المقاييس في لغاتها وصعوبة هذه اللغات، وبعض المقاييس يتحرى اللغة السهلة بحسب المستوى اللغوي للمفحوص، والبعض قد تكون لغته عالية، ومطالبه دقيقة تستلزم مستوى أعلى من المفحوصين، والبعض قد يتنكّب الوسيلة اللغوية في الاختبار، ويلجأ إلى الصور التي تعطي لمحات عن بعض الموضوعات أو الأنشطة أو الأشخاص، ثم تقاس ميول المفحوصين تجاهها، بسؤالهم عمّا وعوه من المعلومات عنها، وما احتفظت به ذاكرتهم مما قيل حولها مصاحباً للصور، أو قد يُطلَب من المفحوصين أن يقولوا ما يعرفونه من معلومات حول الحِرَف أو المهن التي تمثّلها الصور، باعتبار أن مَن له ميولاً معينة لا بد أن تكون لديه المعرفة بأشياء حولها، وبمدى معرفته وحرارة حديثه فيها يمكن أن نحذر ميوله نحوها.

ولقد تقدمت دراسات الميول وخاصة في مجال التفضيلات المهنية Professional preferences، وتتعدد اختباراتها ومقاييسها، وتختلف باعتبار اتِّساع ما تغطيه، والأسس التي تقوم عليها، وبعض هذه المقاييس تقوم على تجانس بنودها التي يتم اختيارها بحسب صدق مضمونها، فيختار مصمم الاختبار أو المقياس البنود الصادقة في تعبيرها عن الاهتمامات المهنية المعينة والمرتبطة مع بعضها بحكم التجانس الشديد الذي بينها، بينما يكون ارتباطها بمجموعات أخرى من البنود التي تقيس اهتمامات مهنية أخرى منخفضاً. ومن المقاييس التي صمّمت وفق هذا المحك: مقياس كودر للاهتمامات والتفضيلات Kuder Preference Record. وقد تعتمد بعض المقاييس الأخرى على محكات أخرى كالصدق الواقعي، بأن تُستبقَى البنود الخاصة باهتمامات كل فئة مهنية، وتُقارَن باهتمامات وتفضيلات مجموعات مهنية مرجعية يعمل أفرادها في المهن نفسها وقد حقّقوا فيها نجاحاً. ومن

الاختبارات أو المقاييس التي صمّمت على هذا المحك: إختبار الاهتمامات المهنية لسترونج Strong Vocational Interest Blank. وقد تصمم الاختبارات بمحك منطقي بحيث تدرس مكونات الاهتمامات المهنية والخصائص المتوافرة في الأشخاص الذين يبدون نجاحاً في هذه المهن، ثم تصمّم بنود الاختبار لتعكس السلوك والاهتمامات التي يُظَن أنها تعكس الخصائص المطلوبة في الشخص المناسب. ومن الاختبارات أو المقاييس التي صُممت بحسب هذا المحك: إستبيان لي ثورب للاهتمامات المهنية Lee Thorb Vocational Interest Inventory.

والاتجاه النفسي Psychological attitude توجُّه خاص يكون بالشخص حيال فكرة أو فرد أو جماعة أو موضوع أو موقف، فيميل به إلى أن يسلك بطريقة معيّنة تَلزمه دائماً بشكل أو بآخر، وتُعرَف عنه، وربما قد لا يكون لاتجاه صريحاً فيخفيه صاحبه، أو ربما يكون الاتجاه به اتجاهاً يَلزمه ويَلزم غيره، كالاتجاهات التي تكون بالجماعة تعصباً أو انحيازاً.

والاتجاهات النفسية لا نولد بها ولكننا نكتسبها بالخبرة أو نتعلمها، وتتحصل لنا من خلال ما نتعلمه أو نخبره من نتائج، نسلك بإزائها السلوك الخاص الذي قد يتثبت أو يتعزّز، فنعممه على كل التجارب أو المواقف المماثلة أو المشابهة.

ويتصل تكوين الاتجاهات إذن بعملية التعلّم والتنشئة الاجتماعية وبنظريات الشخصية. وللتعيّن بالوالدين أو بالرموز الاجتماعية في محيط الطفل أو المراهق أثره في تكوين الاتجاه. والاتجاهات طريقة يحلّ بها الشخص صراعاته في الطفولة، فيكون له هذا السلوك أو تلك الفكرة، فيسهل عليه أن يرجع إليها في مختلف المواقف، فتكون كوسيلة للدفاع عنه، يدفع بها ما يتهدد أناه أو ذاته. وللجماعات المرجعية، والأطر المرجعية، تأثيرها على تكوين الاتجاهات باعتبارها من محدّدات السلوك، ولعله لهذا السبب فإن نظرية التحليل النفسي تهتم غاية الاهتمام بالاتجاهات وتكوينها وتعديلها. ويقوم العلاج النفسي على إمكان تعديل الاتجاهات واكتساب أو تعلم إتجاهات

جديدة تحلّ محل القديمة التي تعتبر من أعراض الاضطرابات النفسية.

وتدخل في تكوين الاتجاهات عناصر عقلية وانفعالية وسلوكية، وأقوى أنواع الاتجاهات ما يُشحَن منها نفسياً ويكتسب حِدّة انفعالية، وأفعلها ما يطبع السلوك بطابعه. وكان يونج Jung (١٨٧٥ - ١٩٦١) يقسّم الشخصية بحسب اتجاهها للانطواء أو للانبساط. والاتجاه المنبسط Extravert هو الذي ينفتح بالشخصية على الناس والبيئة والمجتمع، بينما الاتجاه المنطوي Introvert يكون توجّه صاحبه داخلياً وذاتياً ويميل إلى العزوف عن التفاعل الاجتماعي ويبدو عليه الاكتئاب، ومن ثم تنقسم الاتجاهات بحكم تأثيرها على الشخصية والسلوك إلى اتجاهات موجبة Positive as. تدفع بالشخص نحو موضوعات هذه الاتجاهات، فيكون تعامله معها تعاملاً بناءً مفيداً، واتجاهات سالبة Negative as. تنأى بالشخص عن موضوعاتها وتطبع سلوكه حيالها بالسلبية، والوطنية من هذه الاتجاهات الموجبة، بينما التعصّب من الاتجاهات السلبية.

ويتفاوت الناس في الاتجاه الواحد كما في التعصّب، فالبعض يغالي في التعصّب حتى ليستغرقه، والبعض قد يكون به شيء من التعصّب. وكذلك فإن الاتجاهات تتعدد بتعدد موضوعاتها التي ترتبط بها. ومن الصعب تعديل الاتجاه إلا بشروط خاصة إذا تكوّن وترسّخ، ومن ذلك الاتجاهات التي تبدأ معنا من الطفولة والتي تتحصل لنا بالتقليد الاجتماعي والتي نكتسبها نتيجة خبرات مؤثرة ربما ندخلها في الطفولة أو من بعد، كحالة طفل يمر بتجربة جنسية يكون فيها اعتداء أحد البالغين عليه جنسياً، ومن ثم يشبّ وهو يعاف الجنس ويخشاه ويكون به ذلك اتجاهاً يطبع شخصيته وتصرفاته كلها.

وللاتجاهات فوائد فهي تصنع للشخصية أسلوباً يكون به تعاملها سهلاً ميسراً في المواقف المختلفة، ولا يتأتى هذا الأسلوب إلا عندما تجتمع الاتجاهات فتتكامل لدى الشخصية وتكوّن ما يسمى زُملة الاتجاهات a. cluster، فتعمل جميعها في غير تصادم، ويجعل إجتماعها هذا، والأسلوب الذي تسلك به،

من اليسير التنبؤ بتصرفات الفرد بمجرد الإحاطة باتجاهاته أو بزملة اتجاهاته، أو بأسلوب هذه الزملة. ومن الممكن أن نعلم عن هذه الاتجاهات بما يسمى مقاييس الاتجاهات a. scales، وهي كأية مقاييس نفسية يمكن بها أن نتعرف إلى اتجاهات الشخص أو الجماعة بأن نرصد ما نلحظه عنه أو عنها من العبارات المعبّرة عن هذه الاتجاهات، وخاصة أكثر العبارات شيوعاً وألصقها بهذه الاتجاهات، ثم نختبر الأفراد من حيث موافقتهم عليها أو معارضتهم لها. وتصلح هذه المقاييس خصوصاً مع الاتجاهات البارزة والعلنية والجماعية، والاتجاهات الجامدة .Stereotyped as أي المتأصّلة في الشخصية والمتمكّنة منها، والداخلة في صميم تكوينها، والتي تطبع الشخصية بطابعها.

ومن أهم مقاييس الاتجاهات مقياس ثيرستون Thurston Attitude Scale، ومقياس ليكرت Likert Scale، ومقياس جوتمان Guttman Scale، ويتكون الأول من عدد من العبارات يجمعها الباحث ويرى أنها تمثّل أو تعارض هذا الاتجاه أو ذاك، ثم يعرضها على عدد من المحكّمين، يختارون منها وينقّونها ليكون بعضها ممثلاً لأقصى اليمين أو الموافقة، وبعضها ممثلاً لأقصى اليسار أو الرفض، والبعض يتوسط بين الاثنين، وتكون لكل عبارة درجة أو قيمة على المقياس Scale value، وتُجمَع الدرجة الموجبة والسالبة لتعطي الدرجة الكلية للاتجاه عند الشخص. وفي الطريقة الثانية - طريقة ليكرت - يُستَغنى عن المحكمين، ويتدرج المقياس من موافق جداً، فمحايد، ثم غير موافق، وأخيراً غير موافق بالمرة، وبذلك فإن المقياس يعطينا صورة دقيقة عن قوة الاتجاه من حيث الموافقة أو الرفض. ويقوم مقياس مينيسوتا Minnesota Scale المشهور على هذه الطريقة الأخيرة، وهو يقيس اتجاهات الرجال نحو موضوعات مثل «على العموم كل المحامين أمناء» أو «التعليم لا يصنع منا إلا أشخاصاً ساخطين»، ومنه نوع يقيس إتجاهات المدرسين حيال الطلبة.

وأما مقياس جوتمان، أو بالأحرى طريقته في القياس، فهي أشبه باختبار الإبصار من حيث أن الباحث يجمع

العبارات التي يرى أنها تمثل الموافقة على الاتجاه أو رفضه ويرتبها بالتدريج، بحيث أن الموافقة على عبارة منها تعني بالتبعية أن كل العبارات التي تليها تتدرج عليها الموافقة السابقة، بينما العبارات التي تسبقها تكون مرفوضة، والشيء نفسه في اختبار الإبصار، فتمييز سطر من سطور الاختبار يعني أن المفحوص يستطيع أن تميز عينه السطور الأعلى على هذا السطر بينما لا يستطيع أن يميّز السطور الأدنى.

ولربما يكون بهذه المقاييس قصور، وهو أن المفحوص قد يوافق أو يرفض حينما تكون المسألة مجرد إدلاء برأي، فإذا كانت المسألة مسألة مواقف فقد يكون سلوكه مختلفاً فيها عن إجاباته اللفظية، ولذلك قد تستكمل مقاييس الاتجاهات بالاختبارات الإسقاطية بالصورة أو العبارات التي تحتاج إلى إكمال، كأن تعرض على المفحوص صور لزنوج في مواقف مختلفة ليعلن موافقته عليها أو رفضه لها حينما يكون الاختبار بصدد معرفة إتجاه المفحوص حيال موضوع الزنوج مثلاً.

وتغيير الاتجاهات a. change عملية يتوخى بها الفاحص أهدافاً، ربما علاجية، وربما إجتماعية أو سياسية، ويستفاد منها في الدعاية والإعلام والحرب النفسية والإعلان، وتعبّأ لها الجهود وتُحشد الطاقات وتوظّف الأموال. وتغيير الاتجاه قد يكون بالمنافسة والإقناع، وقد يكون بالوعظ، وقد تشترك فيه كل المؤسسات الاجتماعية كالأسرة والمدرسة والجامع والنادي، وقد تنهض عليه وسائل الإعلام السمعية والبصرية. ويساعد على استحداث التغيير أن يكون الاتجاه المطلوب تغييره فعلاً في غير صالح الأفراد، أو أن يكون إتجاهاً ضعيفاً، أو أن يكون إتجاهاً فيه مخاطر على ذوات هؤلاء الأفراد، وذلك لأنه لا جدوى من محاولة استحداث تغيير بالأفراد، بينما التأثير الاجتماعي موجود دائماً ويعارض هذا التغيير ويقاومه. وتعزيز الاتجاهات الجديدة ومكافأة السلوك عليها يرسّخ هذه الاتجاهات ويجعل من الممكن على الأفراد أن يطرحوا عنهم الاتجاهات القديمة، وأن يأخذوا بالجديد. ولعل التغيير الذي يشمل تغيير المواقف أو

البيئة أو الجماعة المرجعية أو الأطر المرجعية هو التغيير الذي يمكن أن ينجح. والمناقشة المفتوحة من أهم وسائل نجاح التغيير، ويقوم عليها العلاج النفسي الجماعي. والدعاية الزائدة عن الحدّ التي تُستَغل لاستحداث التغيير قد تأتي بنتائج عكسية أو تأثير عكسي Boomerang effect، وبدلاً من تعديل الاتجاه أو تغييره، فإنه قد يُعمِّق ويترسّخ أكثر، ويكون تناميه في الاتجاه العكسي للمطلوب، وهو ما نسميه التغيير السلبي للاتجاه Negative change. (أنظر أيضاً التنشئة الاجتماعية والتحليل النفسي والعلاج النفسي والقياس النفسي).

مراجع:

- Allport: Attitudes.

- Sherif & Hadley: Psychology of Ego-involvements, Social Attitudes and Identifications.

- Sherif & Sherif: Attitude and Attitude Change.

❖ ❖ ❖

- ٢ -

سيكولوجية التحصيل والإنجاز

مستوى التحصيل، والتحصيل الأكاديمي وعلامة التحصيل. الاختبارات التحصيلية ودوافع التحصيل. الرفاهية والأزمات الاقتصادية والتحصيل. الفارق بين الإناث والذكور في التحصيل. أثر المناخ في التحصيل.



التحصيل Achievement هو أن يحقّق المرء لنفسه مستويات أعلى من العلم أو المعرفة، ولذا يُقرَن التحصيل عادة بالدراسة فنقول: مستوى التحصيل Achievement level، ونعني به الدرجة التي يتحصل عليها المرء في امتحان مقنن. والتحصيل المدرسي أو الأكاديمي Academic a. هو نوع التحصيل المتعلق بدرساة مختلف العلوم والمواد الدراسية، وعلامة التحصيل a. mark، هي الدرجة التي يحصل عليها الطالب في امتحان

مقنن، والرقم القياسي في التحصيل .a record هو أعلى علامة يحقّقها طالب لنفسه، وسجل التحصيل .record a يُرصَد به ما يحقّقه الطالب من الدرجات التحصيلية خلال فترة معينة، وبطارية الاختبارات التحصيلية a. battery هي مجموعة من الاختبارات التحصيلية حول موضوع معين، تُطبّق على عيّنة واحدة لتحليلها من بعد، ونسبة التحصيل .a quotient (AQ) هي خارج قسمة العمر التحصيلي على العمر الزمني مضروباً في مائة، فأما العمر التحصيلي a. age (AA) فهو سن نفترض أن الشخص المعني قد بلغها بخلاف عمره الزمني، بمقتضى ما يحقق لنفسه من تحصيل علمي أو معرفي يكون على مستوى معيّن، نعرفه من الدرجة التي يحصل عليها في اختبارات مقننة وُضعت لتناسب أعماراً معينة، فإذا أجاب عليها بنجاح كان عمره التحصيلي هو العمر المحدّد للاختبار، والهدف من ذلك أن نحدّد مستوى التحصيل بالنسبة للعمر الزمني. وتقيس الاختبارات التحصيلية a. tests قدرة الفرد على أداء عمل معيّن، ومدى ما استفاد من التعلّم، وما حقّق من خبرات بالنسبة لآخرين من زملائه، ولا نهدف من الاختبارات التحصيلية قياس استعدادات الفرد للأداء أو الإنجاز أو التحصيل فذلك من عمل اختبارات الاستعدادات aptitude tests، والاستعداد بخلاف ما يحصّل الفرد من معرفة أو مهارة، ويتوقف التحصيل على الاستعداد، إلا أن الاستعداد قد يوجد ومع ذلك فإن التحصيل لا يكون متناسباً معه بالنظر إلى تدنّي الدافع إلى التحصيل. وهناك أنواع من اختبارات التحصيل، ولربما بوسعنا أن نقسمها إلى مجموعتين، إحداهما تقيس التحصيل الدراسي scholastic or academic a. في مجال من المجالات، وعادة ما تكون هناك بطارية إختبارات من هذا النوع، والأخرى إختبارات لقياس التحصيل من نوع آخر كالتحصيل المهني .Vocational a.

والدافع إلى التحصيل a. motive هو حافز إلى الجِدّ، وبمقتضاه يثابر الشخص على التحصيل بتصميم وعزم ليحقّق غاية معيّنة يوليها عنايته

الشديدة. والدوافع تختلف من فرد لآخر، ومن شعب لآخر، ويمكن قياسها في الأفراد بالطرق الإسقاطية مثلاً، بإعطاء الفرد أربع صور، كأن تكون الصورة الأولى لرجلين يعملان على آلة، والصورة الثانية لصبي يجلس إلى مكتب وأمامه كتاب، والصورة الثالثة لأب مع ابنه، والصورة الرابعة لصبي يبدو مستغرقاً في التأمل. ونطلب من الفرد المراد قياس الدوافع عنده أن يقصّ علينا قصة لكل صورة، مع ملاحظة أن كل صورة تقيس ناحية من نواحي الدافع، لا تقيسها الصورة الأخرى، ويكشفها تحليل القصص، فنحيط علماً باتجاهات هذا الشخص نحو تحقيق ما قد يناط به من عمل، ورغبته في أن ينجح فيه، وأن يؤدّيه على صورة طيبة. وعادة ما يكون الشخص الذي يحصل على درجة عالية في هذا الاختبار صاحب أداء عالٍ إذا نيط به عمل ما.

ولقد ثبت من مختلف الدراسات أن التشجيع دائماً والحفز على التحصيل يرفعان من شأن الدافع إلى التحصيل، حتى وإن ووجه التشجيع بالمقاومة من الشخص المطلوب رفع مستوى دوافعه للتحصيل. وهناك دائماً حاجة للتحصيل a. need بكل منا، هي ميل قوي ونزوع شديد لأن نحوز المعرفة أو المهارة التي بها نحقّق النجاح، أو ننجز شيئاً أو نؤدّيه، إثباتاً لكفاءتنا.

وتذهب الدراسات الأنثروبولوجية إلى أنه في المجتمعات البدائية التي يُترَك فيها الأطفال بحيث ينشأون نشأة إستقلالية، تكون دوافعهم للتحصيل عالية عن غيرهم من أطفال المجتمعات الأخرى التي يُدلَّل فيها الأطفال، وتُضفى عليهم رعاية وحماية من الوالدين، بحيث لا تكون بهم حاجات ماسة للتحصيل، ومن ثم تتدنّى دوافعهم له.

وتؤكّد الدراسات أيضاً أن الرفاهية لا تجعل للذين يحيون في ظلها دوافع قوية للتحصيل، وكذلك الظروف المتدنية والأحوال المعيشية السيئة، فإن الدافع إلى التحصيل يتدنّى بتدنّيها. ويقوَى هذا الدافع في الأوساط التي تهيئ للأفراد المناخ النفسي الصحي للتحصيل وتُحفزهم عليه a. societies. وهناك فارق هام بين الإناث والذكور فيما يتعلق

بالدافع إلى التحصيل، وذلك أن الإناث بشكل عام يقوى عندهن هذا الدافع إلى التحصيل فإن غير الموهوب لزومه لغير الموهوب، والموهبة إن لم يشحذها الدافع إلى التحصيل فإن غير الموهوب قد يتفوق على الموهوب. وثبت أن الدافع إلى التحصيل يشحذ الهمة ويحفز الفهم، ويسرع بصاحبه إلى حلّ المسائل أو صقل المهارة في وقت أقل مما يستغرقه الفهم والتدريب عند من لا يكون لديه دافع إلى التحصيل. ويقترن الدافع إلى التحصيل بمستوى الطموح، فكلما زاد الطموح بالشخص كلما كان هذا الدافع قوياً فيه، يعجّل له بأشياء، ويعينه على أشياء، ويحقّق له فهم أشياء ما كانت تتسنّى له لولا هذا الدافع القوي فيه الذي يستحقه الطموح الشديد.

ويبدو أن الظروف الاقتصادية وما يواجه الأمم من تحدّيات يرفع من مستوى طموحات الأفراد ويلهب الخيال ويستحث التحصيل، ونستدل على ذلك من دراسة أدب الطفل، والأدب عموماً عند الشعوب المختلفة، حيث تتبين كثرة الموضوعات عن التحصيل في أوقات التوسّعات الاقتصادية في إنجلترا، والفتوحات الحربية في اليونان القديمة، والانتقال من الزراعة إلى الصناعة في الروسيا.

وكذلك تبين أن هناك علاقة بين التحصيل والمناخ، ويقع معظم تاريخ العالم وأحداثه المهمة في المنطقة المعتدلة منه، بينما يكون التخلف شديداً في المناطق الحارّة والاستوائية خصوصاً، وتذهب أغلب الطاقة لمقاومة البرد في المناطق الباردة، ومن ثم يتدنّى فيها الدافع إلى التحصيل.

مراجع:

- McCelland, D.C. & Atkinson, J.W. & Clark, R.A. & Lowell, E.L.: The Acievement Motive.
- McClelland, D.C.: The Achieving Society.



- ٣ -

سيكولوجية الجنس
Sex Psychology

الجنس في الإنسان، وعند الرجل والمرأة والطفل، والعادة السرية، وخيانة الأزواج، وسيكولوجية الجنس عموماً والزواج، والشباب، والشيخوخة.



العلاقة الجنسية خلاف أي علاقة إنسانية، وفي العلاقة الجنسية يتوحّد الأنا والأنت، ويتغير كل من الرجل والمرأة نحو التكامل، وتتحول علاقتهما إلى علاقة «نحن». وفي الجنس ينصهر الإنسان بكامله ويتورط جميعه: نفسه، وعقله وبدنه، وروحه، وماضيه، وحاضره، ومستقبله، فكل درجات الوجود كائنة في الجنس، وأعلى صوره هو الجنس في الزواج، لأنه ينشد الاستمرار والدوام، وينفر من الوقتية، وينأى عن الانفصال. والدافع الجنسي: غريزة، أو حاجة، تشبه الجوع والعطش، وتتطلب الإشباع مثلهما.

ومثلما تبعث رؤيانا للأطعمة الرغبة في الأكل، فإن المثيرات الجنسية تعمل فينا عمل المشهيات للأطعمة، فتطلب الجنس بإلحاح. والجنس نشاط كالأكل، ومثل ضربات القلب، إلا أننا في الأكل وفي الجنس لدينا الإرادة، وفي ضربات القلب لا إرادة لنا، والنشاط الذي تدفع إليه الإرادة هو النشاط اللذيذ، والأكل يشبع المعدة، ولكن الجنس يشبع كل الإنسان، ولذا كان النشاط الجنسي هو أرقى، وأجمع، وألذّ، وأرفع نشاط يقوم به الإنسان. وبعض الفلاسفة السخفاء يقولون إن الحياة لها إرادة، وإرادة الحياة تستعين بالجنس ليستمر النوع، فالجنس حيلة وخداع، ونقول نحن: إن الجنس كنشاط لا بد له من غاية، اللذّة لمجرد اللذّة شيء عقيم وعبثي كقولنا الفن للفن، فهل الفن للفن، وهل الجنس للذّة؟ إنما الفن والأدب فيهما الرقي والسمو، وهما عمليتان منظمتان لقوّة الإنسان ولدواخله النفسية والبيولوجية، وتصنعان الشخصية وتوجهانها، وكذلك الجنس فإنه يرقى بالإنسان ويهذّب غرائزه، ويناسقه مع نفسه ومع الوجود، ويجعله

متفائلاً ومحباً للخير، ولقد قيل إن المنية بدأت لمّا أمسك الصياد فريسته ولم يأكلها فوراً وادّخرها ليشويها في البيت ويقدّمها لأهله، فأجّل استمتاعه وجعله لغرض أكبر، وفصل بين اللذّة والحاجة، وتسامى باللذّة، وهذه هي روح المدنية أو الحضارة، وهذا الفصل للذّة عن الحاجة لم يجعل اللذّة مطلوبة لذاتها ولكنها لقيم أعلى، والجنس هو طريق الكمال للعلو، والطريق الواقعي والذي تجتمع فيه الفلسفة والحكمة والمعرفة في شخص الإنسان المحب المحبوب.

ومن غاية الجنس توليد النوع، ولكن أي نوع؟ إنه النوع الأفضل. ولو تأملنا قضيب الرجل في ذاته سنجده قبيحاً، وكذلك فرج المرأة، ولكنهما لِما هُيّئا له من أجمل ما يكون، كفرشاة الرسّام، شكلُها وهي ملقاة شكلٌ غبيٌّ، ولكنها وهي ترسم وتلوّن عظيمة بكل المقاييس. وكل ما في جسم المرأة إنما خُلق لغرض الإنجاب أصلاً، وإن لم تحب المرأة وتلد وترضع فإنها ستذبل، ولأن كل ما فيها مخلوقٌ للإنجاب، فإن لم نستخدمه كما ينبغي فإنه سيضمحل، كالقمر يصغر إلى أن يصير كأن لم يكن. وامرأةٌ بلا أطفال لا وجود لها، ورجلٌ بلا امرأة كأنه ضائع. فالجنس عظيم وله رسالة، وقد تقص عليك امرأة أنها لم تعرف الشبق أو الإنعاظ في حياتها إلا مرتين، وفيهما حملت وَلَديْها، وأما بقية عمرها حيث كان الجنس يؤدَّي بموانع الحمل، فلم تعرف أبداً طعماً للشبق ولا الإنعاظ، والمرأة أحرص أن يكون لها الولد، فلهذا خُلقت، والرجل إن لم يكن لديه ما يورثه الولد فلا حاجة به للأولاد، والنبيّ زكريا طلب الولد ليرثه ويرث آل يعقوب، ووراثته يعني أن يخلفه على ماله، ووراثة آل يعقوب يعني أن تؤول إليه عنها الحكمة التي اختُصت بها والنبوة. والمرأة لهذا ترى نفسها في الولد، وإذا حدّثْتَها عن نفسها حدّثتك هي عن إبنها. والرجل لا ينشد الولد إلا إذا كان عنده ما يعطيه للحياة ويحمله ابنه من بعده، وإذا تحدّث الرجل فإنه لا يتحدث إلا عن نفسه أولاً وأخيراً أو عمّا لديه، ولهذا يطلب الولد ليعهد إليه به وينمّيه، فالرجل خالق قيم، والمرأة منجبة الأولاد حَفَظة القيم، ولهذا كان الولد أقيم عن البنت، لأن الحفيظ بعد

الأب هو الولد وليس البنت، والولد حفيظٌ على تراث وميراث الأسرة - أسرته وأسرة أبيه وأجداده، والبنت تعطي أسرة زوجها وتُربّى لأغراب عن أسرتها. وأعرف رجالاً أنجبوا عدداً من الأولاد، ولكن عيونهم كانت فقط على من يحمل الرسالة بعدهم، والرجل غنيٌّ بأولاده الذكور. وأما المرأة فأولادها الجميع: الذكور والإناث، وهم زهورٌ في حديقة حياتها، فإذا لم تكن بها كثرة من الزهور إعتبرت حديقتها مجدبة. وأعرف نساء أجرين عمليات لم يعدن بعدها يصلحن كأمهات، ولم يعُد بوسعهن أن يحملن، فأصبن بالبرود الجنسي Frigidity، وعافت نفوسهن الجنس. وكأن منطقهن: لماذا الجنس إن لم يكن لإنجاب الأولاد؟

وأعلى ما في المرأة غريزة الأمومة Maternal instinct، ولا يوجد عند الرجل مثيلٌ لها، وليس عنده غريزة أبوة، وغريزة الأمومة هي التي تتسبب عندها في إدرار اللبن بعد الولادة لإطعام طفلها.

والرجل به غريزة جنسية ويشتهي، والإيقاع الجنسي عنده محصور بين الرغبة والإشباع، والمرأة غريزتها الجنسية غير موقوتة وكما يقولون Circadian أي مستمرة ودؤوبة، وإفرازها حبٌّ مستمر، وعطف، وحَدْب، ورأفة، ورحمة، وأُنس، ولهذا السبب كانت أعضاء المرأة التناسلية داخلها، لأنها لا تنفتح لأي رجل، وإنما فقط للرجل الذي ترى أنه يصلح أباً لابنها. بينما في الرجل يكون عضو الذكورة خارجه، لأن الحب عنده ليس أصيلاً في شخصيته، والحب أرقى من الجنس، وغالبية النساء يطلبن الحب، وأكثرية الرجال من الرجال ينشدون الجنس، والمرأة تبحث عن الحب، والرجل يريد الجنس، ولذا كانت المرأة في الحب شاعرة، بينما الرجل فيه طالبٌ للجنس ومغوار، وفاتح جَسور ومغتصب. فهل سمعنا عن امرأة تغتصب رجلاً؟ بل إن في الأزواج من يغتصب زوجته ويضاجعها قسراً، والحب سيكولوجي، والجنس بيولوجي، والدافع الجنسي يشبع الرغبات الفردية، والحب يتخطى الرغبات ويدفع بالمرأة إلى الرجل الذي تهواه. والغريزة الجنسية لو أُشبعت كفّت، بينما الحب ميل مستمر. وفي علم النفس فإن الحب انفعال، ولا

شك أنه انفعال قوي، إلا أن جوهر الحب أنه فعل يقوم على الفناء في الآخر، وهو اتحاد أجساد، وانسجام أرواح، والتقاء نفوس، والحب بدون أخلاق فاشل، وجوهر الرجولة هو الأخلاق، والرجل الذي بلا أخلاق لا يستطيع أن يضاجع المرأة مضاجعة موفقة، لأنه رجل غير كامل، وبدون الأخلاق يتدنّى الدافع الجنسي بين سائر الدوافع في حياة الإنسان.

وكان فرويد يظن خطأ أن كل فرد بوسعه أن يستغني عن الجنس بالتسامي بالدافع الجنسي، وهذا غير صحيح، لأن الحياة إذا خلت من التجربة الجنسية تظل ناقصة مهما كانت نظرتنا إلى هذه الحياة. والجنس روح الحب ومهما بذل الرجل في مجال مُتسامٍ مثل الفن أو العلم أو فِعل الخير، ولم يحب ويمارس الجنس بالأخلاق، فكأنه ما فعل في حياته شيئاً جميلاً، وما عرف الخير، ولا الحق ولذلك كان من الخطأ البيّن ترك الناس يتعلمون الجنس من الطبيعة، ففي الطبيعة أنماط من السلوك الجنسي لو مارسناه لحوكمنا كمجرمين، وكذلك من الخطأ تدريس الجنس في المدارس من خلال علم الأحياء، لأن هذا العلم يشيع الاضطراب في سلوك الأولاد والبنات، فأنثى العنكبوت تتغذى بالذكر بعد الممارسة الجنسية، وذكور النحل يُطرَدون من الخلية بعد تلقيح الملكة، وهناك حيوانات تأكل صغارها، وحيوانات تأكل بيضها، فلا يمكن إذن تعليم الجنس من خلال دروس في هذا العلم عند الإنسان، والتربية الجنسية إذن لا بد أن تكون من خلال تدريس الدين، وإذا تعلم الطفل الجنس في المدرسة بلا دين وأخلاق، فهل يتحمل فكرة أن والديه يفعلان ذلك الشيء، أي الجنس، كغيرهما من الناس؟

ويبدو أن تعليم الجنس Science of sex لا بد أن يتوخى التعريف بأن الجنس ضروري، ليس للإنجاب وحفظ النوع فقط، وليس لأنه مصاهرة بين العائلات تقوى به الأواصر بينها، ويكون به الأساس لمجتمع متكافل ومتحاب ومتعاون، ولكنه ضروري لكمال الحياة، وكمال الشخصية الإنسانية ولتحقيق رغبته في الخلود.

ولا تبدأ الحياة الجنسية عند الأطفال في البلوغ Puberty وإنما تكون

بدايتها في الطفولة الباكرة Infantile sexuality، وفيها يكثر أن يلعب الأطفال بأعضائهم الجنسية للتسلية وربما تتولد لديهم مشاعر لذيذة تشجّعهم على الاستمرار في ذلك ومعاودته، والعادة السرية Masturbation سواء كانت إستمناء بالعادة Habitual m.، أو قهرياً Compulsive m، أو عادياً Normal m.، أو نفسياً Psychic m.، تبدأ من هذه السن، والصبي أو البنت تستغرقه التجربة، ولا يقبل على العادة السرية إلا الأطفال المهمَلون عند ذويهم، أو الذين لا يجدون ما يشغلهم، فإذا كانت هذه العادة عند الطفل كافية له، فذلك هو الشذوذ، وإذا لم يجدها كافية ومشبعة فإنه يكون سوياً، وتنمو هذه العادة إلى حب لمن يكونون على صلة وشيجة بالطفل، وهو حب خالٍ من الشهوة في صورة تعلّق بالشخص. وإذا ما انتهت المرحلة الأولى من النمو الجنسي، غاب الاهتمام الجنسي بضع سنوات وهذه هي فترة الكمون Latency period، تنشغل فيها قوى الطفل واهتماماته بالعمل في نمو جوانب أخرى من الشخصية بخلاف الجنس، إلى أن يبلغ سن المراهقة Adolescence، فتستيقظ عنده الناحية الجنسية. والمراهقة أخطر مراحل النمو النفسي الجنسي Psycho-genital development، وبدايتها تختلف باختلاف البلاد والأجناس والثقافات والمناخات Sex-differentiation، وعادة ما تكون في نحو الثانية عشرة من العمر. وكل إنسان يمر بثلاث مراحل نفسية جنسية: الطفولة Infancy، والنضج Maturity، ثم الكهولة Senility، ويتخللها المراهقة وسن اليأس Menopause. والطفل في المراهقة يكتشف ذاته، ويكتشف أن أمامه مستقبلاً فيعرف الزمن لأول مرة، والدليل على ذلك كتابته لليوميات، ويكتشف أن هناك عالماً يعلو على الواقع، وهو عالم الأفكار والقيم، ويتعلق اكتشافه بالأخلاق، ويعرف معاني الشرف والحق والصدق، ويبدأ يلبي نداء الواجب، ويتنامى شعوره بالمسؤولية. وربما في المراهقة يدمن العادة السرية m. addiction، والإحصاءات تؤكّد أن ٨٥٪ من المراهقين يمارسون العادة السرية، وسمعتها سيئة عندهم، وينفّرهم منها

إسمها Masturbation – أي التدليك باليد، والبعض يفضلون إسم Onanism – نسبة إلى عونان بن يهوذا Onan في قصة التوراة (تكوين ٣٨/٤,٤٦/١٢) الذي كان يستمني بيده، وآخرون يفضلون إسم Auto-erotism أي الاشتهاء الذاتي، وتنتشر بين الذكور عن الإناث، وقلما تفعلها أنثى وقد يجرّب الأولاد مع بعضهم ممارسة العادة السرية، كل اثنين مع بعضهما. وقد يجرّب الحب بعض الأولاد على الطريقة المعروفة باسم الحب الأفلاطوني Platonic love، وهو ليس جنساً بالمرة، ولكنه خبرة عاطفية يعرفها الأولاد في سن المراهقة، وقد يتورطون في علاقة لواطية Homo-sexual، فيأتي الذّكُران الذّكْران، وينتشر ذلك خصوصاً في المجتمعات المغلقة التي يُترك فيها الأولاد الذكور بلا رعاية، وعادة ما يستغل الولد القوي من هو أضعف منه، أو يوفّر له القوي الحماية نظير أن يسمح له بمضاجعته في الدُّبر. وهنا يبدو أن التربية الجنسية Sexual education مطلوبة لأنها تحول دون ذلك، وتعطي للأولاد من المعارف ما يوفّر لهم إدراك خطورة مثل هذه العلاقات الشاذة.

والتربية الجنسية ضرورية في المدارس وفي البيت، ويقسّمونها قسمين، الأول التعليم الجنسي العام General-s. education، بنظرياته ومعانيه ومدلولاته، والثاني الخبرة الجنسية s. experience وتوسعة مدارك الأولاد والبنات وتوعيتهم. وكلما كان بالأولاد حياء Sex-flush كلما أفادتهم التربية الجنسية، والمطلوب دائماً ترسيخ هذا الحياء لأنه يحمي الشخصية ويضفي على التعليم جدية.

وفي سن المراهقة يعرف الطفل معنى الله، فطالما أن كل شيء مخلوق فلا بد له من خالق، ووجود كائن أعلى قوي يضمن للأطفال الحماية، ويؤدّي نمو الشعور الديني إلى يقظة الوعي الديني، ويُدرّس للأولاد ضمن برامج التربية الدينية موادٌ كالدعارة Prostitution، وتنتشر الدعارة الآن بشكل هائل كلما اتجهت البلاد المعنية نحو التحرّر الأخلاقي، وكلما تعثّرت جهود الشباب أن يكون لهم الزواج الصالح. والمومس Prostitute إمرأة تمارس الجنس لقاء أجر، وتعتبر السيدة التي تفعل ذلك نظير هدايا أو خدمات من

نوع البغايا، والسمة الغالبة على البغي هي النقص العقلي والأخلاقي، وتعوزها القيم الأخلاقية، والوعي بقيمة العمل، وقيمة الحياة الاجتماعية. وزبائن المومسات إما مراهقون من الطلبة، أو عُصابيون يخشون العلاقات الجنسية المحترمة، أو عُمّال من الطبقة الدنيا وسواد الناس من السفلة. وهناك فرق بين البغي والعشيقة Mistress، لأن الثانية لا تعمل بأجر ولكنها مولهة بالحب، والعشق خطوة إلى الزواج، وعلاقة الشاب بالعشيقة هي آخر علاقة جنسية تكون له قبل الزواج Pre-marital sex، وأية علاقة بعشيقة لها مدّة معيّنة، ولا يسعى العاشقان إلى الارتقاء بعلاقتهما إلى الزواج غالباً، والجماع Intercourse في العشق غاية في ذاته، وليس الهدف منه استحداث الحمل وإنجاب طفل، والنساء عادة يتورطن في هذه العلاقة بنسب كبيرة، وتذكر الإحصائيات أنه من بين كل عشر نساء هناك امرأة لها علاقة جنسية خارج الزواج، وأما الحب Love، فهو تجربة فريدة، لأنه نقيض القلق، فالحب يعمل على استقرار الإنسان بثبات واطمئنان.

والحب ليس شهوة، ولغته هي لغة القلب، وهو اندفاع نحو الكمال، وكلما كان لا يخضع للعقل كان صحيحاً، والمثل يقول الحب أعمى Love is blind، يعني أنه أعمى عن كل ما هو خارج مملكة الحب. ويحتاج الحب إلى الحياة الجنسية كي يستمر، وبدون الجنس يذبل سريعاً، وغالباً ما لا يدوم الحب، وهو ليس كل التجربة الإنسانية، ولا يحقّق جميع ما في العلاقات الجنسية من ثراء، ولا يسهلكها جميعاً، لأن الحب ليس سوى شرط للزواج، والزواج هو العلاقة الجنسية الكلية التي يجب على الحب فيها أن يستمر ليستقر للأبد. والفرق الأساسي بين الجنسين Sex-differentiation هو الاختلاف بين وظائفهما الجنسية أو بالأحرى أدوارهما الجنسية Sex-roles، غير أن المرأة تتميز عن الرجل، بأن لها عقلاً وقلباً وبينهما دائماً نزاعٌ ما، وأما الرجل فله عقل، وأيضاً فإن الوظيفة الجنسية أساسية للمرأة، وهي عَرَض بالنسبة للرجل، والمرأة أيضاً تنجب طفلاً، أي تخلقه، وهذه الوظيفة هي أصل الطابع الأنثوي Feminine type وهو طابع

الأمومة Maternal type. والحياة الجنسية عند المرأة تظل خاملة إلى أن يوقظها مُحب، بينما الحياة الجنسية عند الرجل جاهزة دائماً ويمكن استثارتها تلقائياً، ولذلك فالعادة السرية عفوية عند الرجال ولكنها لا لزوم لها عن النساء، والمرأة في الجنس تنشد الكمال Consummation وليس أنصاف الحلول، ولذلك فالجنس عندها تجربة مثيرة، وليس أي رجل يمكن أن يجعله هكذا معها. والحب يبدأ دائماً بشكل فجائي، وهو ليس الحب الذي يتولد من أول نظرة، ولكنه ينمو بالتدريج دون أن تُعرف له بداية، وربما كان أدوم الحب لذلك هو ما كان بين اثنين يعرفان بعضهما من زمن بعيد، إلا أنهما يدركان فجأة أنهما متحابان، وأنه لا غناء لأحدهما عن الآخر، وأنهما لم يَعِيا من قبل ما عليه كلٌّ منهما من فضائل ومحاسن، وكل قصص الحب المشهورة كانت هكذا، مثل قصة قيس وليلى، وكُثيّر وعزّة، وأما قصص الحب التي تتولد فجأة فمصيرها كذلك إلى الموت فجأة كقصة روميو جولييت. والحب الصادق هو الذي لا يقضي على شخصية المحب أو المحبوب، ولا يستعبد أيهما الآخر، بل أن كلاً منهما يستحيل مصدر ثراء لشخصية الآخر. والحب فيه العشق، ويرتقي فيصبح هياماً، ثم شغفاً، ثم وجداً، إلخ. وكلمة «حب» لها مدلولها الثقافي والأنثروبولوجي عند مختلف الشعوب، فالألمان يسمون الحب Liebe، والإنجليز Love، والفرنسيون Amour، والإيطاليون Amore، إلخ، وكل لفظة لها جَرسُها ومدلولها النفسي، واللفظة العربية «حُبّ» هي أبسطها وأقلها في عدد الحروف، وذلك دليل على أن الجنس ليس له عند العرب هذه الاحتفالية التي له عند غيرهم، غير أن اللغة العربية غنية بالألفاظ عن أحوال الحب، فلكل حالة لفظتها، فالهوى مثلاً: هو إرادة النفس إلى ما تستلذ سواء كان خيراً أو شراً، والهُيام: هو العشق بجنون، أي الحب الذي يستلب عقل صاحبه، ولهذا يقال والهُيّام للعشّاق الموسوسون: الهُيّام؛ والجَوَى: هو شدّة العشق لدرجة أن يصاب العاشق بالاكتئاب، ويرين عليه الحزن والسُقام، وكلمة «حب» هي التي تجمع كل ذلك وتختصره، غير أن الحب قد يكون

للأشياء، أو يكون حب امتلاك، أو حب الله، وكذلك قد يكون حباً للجنس.

والحب لا يقاس وليس له مقياس، وهو شعور، فأنت تستطيع أن تشعر بأنك تحب حباً عظيماً، أو حباً ضئيلاً. ولا يخطئ الحب، وإنما الخطأ مرجعه المحبون، وكما تكون شخصيتك يكون حُبّك، فالشخص التافه حبُّه تافه مثله، والشخص العظيم حبُّه عظيم. وكلُّ حب مهما كان تافهاً أو عظيماً فهو خلاّق، ويتراوح بين السعادة والشقاء، وبين اللذّة والألم. وتُنمّي التعاسة في الحب الرهافة، والحساسية الروحية، وتثري الشخصية. وقد يتعارض الواجب مع الحب، كما قد تتعارض الفردية مع الحب. ولا يستغني الحب عن الجنس كما قلنا، والجماع هو قمة الوصال. والحب يريد أن يكون خالداً، ولهذا يتنازع المحبون لأن الجماع في الحب وقتي، ومهما كان الحب صادقاً فمآله إلى الموت، ووداع الحب أشد ألوان الوداع مرارة، ولولا الإيمان بوجود الله لمات المحبّون من شدّة حزنهم.

وفي وقتنا هذا يدور الحب حول المساواة المطلقة بين المرأة والرجل في كل شيء، والعقل يقضي بأن يكون معنى المساواة أن يكون للمرأة ما يناسبها من واجبات وحقوق، وللرجل ما يناسبه منها، فمن العدل أن لا يوكل عمل لإنسان ليس مؤهلاً له، وليست لديه الاستعدادات والقدرات والإمكانات لأدائه، وكلما انخرطت المرأة في سلك العمل طالبت أكثر بالمزيد من الحقوق، ولم نسمع أبداً أنهن يتحدثن في الواجبات، وكلهن يؤكّدن أن المرأة كالرجل، ولا فرق بينهما إلا ما يتوهمه الرجل أنه فرقٌ بينه وبين المرأة، وكل النساء المتحررات ينفين بشدّة أن يكن مختلفات عن الرجال، وأن إصرار الرجال على أنهن مختلفات إنما تدفع إليه أسباب إقتصادية وعقدة نقص، والرأي في علم النفس، وفي الطب النفسي: أن الرجال مختلفون عن النساء، ولكنه اختلاف التكامل Completion، وكان الشيخ الشعراوي يذهب إلى الرأي نفسه، فمهما كان الاختلاف بينهما فإن عليهما القيام بمهمة واحدة، وكل منهما يعين الآخر عليها بحسب ما عنده، ولا يكلّف الله نفساً إلا وسعها، ويتشابه الاثنان في التركيب النفسي الأساسي، ولكل منهما

صفات الشخصية الإنسانية نفسها، إلا أن الظروف التاريخية والاجتماعية أثّرت في نمو الفروق بين الجنسين، وكانت لكل منهما صفات إنفرد بها نتيجة النجاح أو الفشل في الملاءمة بينه وبين المجتمع، إلا أنه لا مفر من الاعتراف بأن مزاج الذكر Male temperament يختلف اختلافاً أساسياً عن مزاج الأنثى. وهناك مفهوم للأنوثة والذكورة يشتمل على عدد من المميزات النفسية المحدّدة، ولم يكن عبثاً أن هناك تصوراً عاماً لمفهوم «الأنوثة الخالدة Eternal femininity» أي الأنوثة في اعتباراتها الأساسية، ويقوم الفرق الأساسي بين الجنسين على الاختلاف بين وظائفهما الجنسية، وقد يقال إنه ليس في عالم النساء عباقرة كما عند الرجال، وأنه حتى العظمة عندهن فإنها عظمة أنثوية، أي عظمة من نوع خاص، هي في صميمها «أنوثة». ومن الصعب اتهام النساء بأنهن يفتقرن للمنطق، إلا أن ما يميّز المنطق الأنثوي أنه منطق مادي، والنساء عموماً لا يتعمقن الأشياء ولكنهن يعشنها، ولا يتعاطفن مع الألم وإنما المرأة تحسّه، والمرأة لها كرامة، والرجل له شرف، ولا شك أن المرأة سلبية في الجنس، ويقتصر دورها على الألم، والرجل إيجابي فعّال ونشيط في الجنس، وهو الذي يغازل المرأة، ومعظم النساء ينجحن بالغزيرة الجنسية وليس بالذكاء، ومن الصعب عليهن أن يضعن حاجزاً بين عقولهن وقلوبهن، ومن المستحيل قيام صداقة صرفة بينهن وبين الرجال، والنساء ينغمسن بعمق في الجنس وهو ما يميزهن عن الرجال، والجنس عند الرجال ممارسة متفرّقة، ولذا كان إحساسهم بالجنس أقل من إحساس النساء عموماً. والمرأة تطلب الزواج وتسعى إليه، لا لتأمين حياتها المادية، بل لوجودها نفسه الذي هو شرط لكيانها، ولتحقيق هذا الكيان، لأنها تنشد استمرار الحياة. وأما الرجال فكلمة «ذَكَر» تدل على الوظيفة البيولوجية مقابل كلمة «أنثى»، والصفة «رجولي» تدل على الشدّة والقوّة والمبادرة، بينما «أنثوي» تدل على الرقّة والليونة، والحب، والتسامح، والعفو، والرحمة. ومن الغريب أن الجنين يكون في بدايته أنثى، ثم يتحول إلى

الذكورة لو كان مقدراً له أن يكن ذكراً، وكأنما الذكر يتولد عن الأنثى وليس كما تقول الأسطورة في التوراة: إن حواء تخلّفت من آدم، غير أن نزعة التاريخ مع الرجل ضد المرأة، ومع ذلك فالنساء كنّ أول من مارسن الزراعة والأشغال اليدوية، غير أن ذات المرأة تتحقق في قيامها بوظيفتها الجنسية، وأما الرجل فذاته تتحقق بالعمل، ولا يوجد في عالَم الرجال «ذكورة خالدة»، بينما عند النساء توجد «أنوثة خالدة»، والرجل يبزّ المرأة حتى فيما ترتدي كما ذكرنا أي في التفصيل والخياطة، وفي أخصّ وظائفها وهو الطهو.

والعلاقة الجنسية عند الرجل تختلف عنها عند المرأة، وهي عنده مجرد لون من النشاط كسائر العلاقات، وتسمّى القدرة على إتمام العلاقة الجنسية بالقوّة الجنسية Sexual potency، والرجل القادر جنسياً هو الذي ينتصب ويولج، ويظل منتصباً فترة كافية حتى تنعظ امرأته، ومن لا تنعظ امرأته فليس بقادر جنسياً، وما تحتاجه العملية الجنسية حتى ترضى المرأة هو الوقت اللازم ليبقى منتصباً، ويحب بعض الرجال أن لا يقرب المرأة إلا إذا بذل جهداً، ويسمى ذلك غزواً وفتحاً، ولا يعجز الرجل جنسياً إلا نتيجة اضطراب نفسي عصبي، والبرود الجنسي Sexual frigidity عند المرأة وسيلة عُصابية في معظم الأحيان لتحقير الرجل والحطّ من شأنه، عندما يعجز عن إتيان إمرأته. ولا شك أن الحب الجنسي الصحيح هو المتوافق مع الأخلاق الجنسية Sexual ethics عند الرجل والمرأة على السواء، والمطلوب دائماً أن تكون المرأة عفيفة وبكراً، وليس كذلك الرجل، والأخلاق الجنسية ضد الإباحية Libertinism، والإباحي Libertine هو الذي يهين الخفر والحياء. والمرأة العفيفة Chaste بها طمأنينة وثقة في نفسها لا يُخطئها إنسان. ولا يتطلب مراعاة الأخلاق الجنسية أن نلغي مطالبنا الجنسية، أو نكبتها، وإنما أن نشبعها بطريقة مشروعة Ligitimate، والطهارة الجنسية Sexual purity عنصر أساسي في أخلاق المرأة الجنسية. والزواج أمرٌ مفروض بحسب هذه الأخلاق، وبنات هذه الأيام ضد الزواج

نتيجة آراء فاسدة لا تصمد للنقاش. والزواج إتحاد بيولوجي واجتماعي ونفسي وثقافي وعقلي بين رجل وامرأة، وبدون الزواج لا تنمو الحياة الإنسانية. ومن السهل التدليل نفسياً على أن فكرة الزواج المتعدّد Polygamy هي الفكرة السليمة، وكذلك من السهل التدليل بيولوجياً على أن الزواج من واحدة هو الزواج الأمثل Monogamous، وأخرى متعدّدة الزواج Polygamous، والغالب في العالم عند الإنسان هو الزواج من واحدة. وقد يكون الاختيار في زواج الواحدة فاسداً، وبذلك يكون الإصرار على استمرار هذا الزواج خطأً كبيراً ومفسدة عظيمة. وعادة لا يكون الحب جوهر الزواج، وتتوثق أواصر الحب بين الزوجين بما يصادفان من مشاكل ومصاعب، وبالعيش معاً تتولّد الإلفة وتتنامى المعرفة الكاملة بالآخر. وتتّحد بالزواج حياتي الزوج والزوجة، ويتّحد جسداهما في جسد واحد، ولا يفصل بينهما حياء ولا خجل، وليس أهم في الحياة الزوجية من أن ينام الزوجان معاً على سرير واحد، والزوجان اللذان لا ينامان معاً لم يرتبطا برباط الزوجية الحقيقي: رباط الوحدة. والإخلاص Loyalty، والوفاء Fidelity بينهما واجب أخلاقي، وهما تعبيران عن الأخلاق الجوهرية، وبهما يتقاسم الزوجان كل نواحي الحياة، وتقضي الخيانة الزوجية Marital infidelity على الزواج نهائياً. والأطفال عامل جوهري في الزواج، والمرأة تحتاج إلى إنجاب الأطفال لتحقق به الضرورة الجوهرية في طبيعتها، فإذا حُرمت من ذلك فقد الزواج بالنسبة لها جزءاً كبيراً من مغزاه. وتزداد الآن النزعة إلى الطلاق حتى باتت كالوباء، ولا شك أن قوانين الطلاق في كل العالم ناقصة وتحتاج إلى التهذيب، والزواج في علم النفس علاقة دائمة، وكل زواج لا يدوم غير سوي. وتهدّد الزواج فترة اليأس Climacteric في الخمسين من عمر المرأة، وتستمر حوالى ستة أشهر أو ثمانية عشر شهراً، وترجع هذه الحالة إلى ضمور في المبيض، وترهُّل في الرحم، وضعف عام، ثم انقطاع للطمث، وارتفاع في درجة الحرارة، وهشاشة العظام، إلخ، وتفقد المرأة غالباً رغبتها الجنسية، والبعض يحتفظن بهذه الرغبة، ويختلف

فـي ذلك أمـر الـرجـل، لأن خصـيـتـيـه تستمران في العمل، إلا أنهما تهرمان، وليست عند الرجل مرحلة يأس كما عند المرأة، وهذه السن تمثل عند الاثنين عتبة الشيخوخة ونهاية النضال.

مراجع:

- الموسوعة النفسية الجنسية: دكتور عبد المنعم الحفني.
- The Physiology of Reproduction: Marshall, H. A.
- Sexual Life of a Child: Moll, A.
- Analysis of the Sexual Impulse: Ellis, H.
- Ideal Marriage: Van de Velde.
- The History of Human Marriage: Westermarck.
- Sex in Man and Animals: Baker, J. R.
- Nudism in Modern Life: Parmelee, M.
- Man and Woman. Studies in the Psychology of: Ellis, H.
- Love in Children: Pfister, O.
- The Eation of Love Between the Sexes: Bell, S.

❖ ❖ ❖

– ٤ –
سيكولوجية الثواب والعقاب

الثواب والعقاب في التربية والإنتاج الصناعي. مدارج الثواب والعقاب. أنواع المكافآت والحوافز. موقف العقاب ومتضمناته. أنواع العقاب...



يُستخدَم مبدأ الثواب والعقاب Reward and punishment principle في التربية، وفي الإنتاج الصناعي، وفي المعاملات اليومية، فما نُثاب عليه نميل إلى تكراره ويكون أخذُنا به والتعويل عليه، وما نُعاقَب عليه، أو يكون التهديد بالمعاقبة عليه، ننفر منه ونتجنبه. ويرتبط تطبيق مبدأ الثواب والعقاب بمفهومنا عما هو صحيح أو خطأ. وللثواب مدرج، كما للعقاب مدرج يكون بهما تراتب أنماط السلوك التي يُثاب أو يُعاقَب عليها. ويختلف تقويمنا للسلوك أو للنشاط بحسب الأحوال والظروف، وقد

يكون السلوك مُثاباً عليه في ثقافة، بينما يُعاقب عليه في ثقافة أخرى.

ويرتبط مبدأ الثواب والعقاب في مجال علم النفس أكثر ما يرتبط بقانون ثورانديك Thorandike المسمّى بقانون الأثر Law of effect، من حيث أن المثاب أو المعاقب يشعر بالرضا والارتياح أو بالضيق والسخط والألم، فيسعى الأول للارتباط بالمثير المريح، بينما ينفر الثاني من المثير المزعج أو الذي لحقه بسببه الفشل. وهذا المبدأ هو الذي تطوّر حديثاً في شكل مبدأ التعزيز Reinforcement principle، ومنه التعزيز الإيجابي Positive r. بالمكافآت (كالمكافأة بالطعام مثلاً)، على إتيان الاستجابة الصحيحة أو السلوك المرغوب فيه، والتعزيز السلبي Negative r. بالعقاب على صدور الاستجابة الخاطئة أو السلوك غير المرغوب فيه. ومن الطبيعي أن تكون المكافأة أو الإثابة دافعاً للتعلّم ولكل سلوك مستحسن إجتماعياً، وليس شرطاً أن تكون المكافأة مادية (بالنقود مثلاً) دائماً، فهناك مكافآت معنوية (كالتشجيع بالكلام وإظهار الاستحسان)، والمكافأة سواء كانت هذه أو تلك فمن شأن ارتباط موقف المكافأة Reward situation بالمكافأة، أو ارتباط الاستجابة بالمكافأة عليها، أن تتعزّز الاستجابة الناجحة ويقوى السلوك المرغوب. والمكافأة الأولية Primary reward هي التي يكون بها إشباع حاجة أولية كالطعام بالنسبة للجوعان، وليس من المناسب أن نقدم للجوعان مكافأة على شكل ماء، والمكافأة الثانوية Secondary r. كأن تكون بالمال الذي هو وسيلة إشباع لأية حاجات، والمال هنا أيضاً مكافأة رمزية Token r. من حيث أنه لا يشبع مباشرة الحاجات الإنسانية، وليس له قيمة في حدّ ذاته، وإنما قيمته بما يمكن أن يتيحه من إشباع لهذه الحاجات. وفي التجارب على القرود تعلموا أن يحتفظوا بالفيشات ليقايضوا بها على الطعام. وعندما تكون الإثابة على العمل من خارج هذا العمل ولا تتعلق به فإنها تسمى مكافأة خارجية Extraneous r.، فإذا كانت من صميم الأداء فهي مكافأة ذاتية Intrinsic r.. والمكافأة المالية، والجوائز والميداليات،

والدرجات والتقديرات المدرسية، والترتيب في التفوق، والمدح بالألفاظ، من قبيل المكافأة الخارجية، بينما حالة الرضا التي يستشعرها الناجح، أو زوال التوتر عنه، أو تحقيقه لذاته بالنجاح، أو النجاح نفسه كإنجاز، هو من نوع المكافأة الذاتية. وعندما تتكرر المكافأة على استجابة معيّنة أو سلوك بعينه فإن من شأن ذلك أن يستحدث لدينا أو عند الكائن الحيّ عموماً ما يسمى بتوقع المكافأة r. expectancy، فإذا كانت كل الظروف مهيّأة للمكافأة ومع ذلك لم تتحقق، فالملاحظ أنه تتولد حالة من التوتر يكون معها سلوك البحث والسعي.

والمكافأة المرجأة Delayed r. هي التي يتأخر تحصيلها بعض الوقت، وفي التعلم الشرطي الإجرائي فإن الاستجابة قد يأتيها المفحوص ولكنه لا يحصل على المكافأة إلا بعد فترة، وهو ما يسمى بالتعزيز بالفترة Interval reinforcement، وكلما تأخرت المكافأة كلما قلّ الارتباط بينها وبين الاستجابة. ويبدو أن التعجيل بالمكافأة وأن تكون خارجية أليق بالأطفال منه بالكبار، وبالمتأخرين عقلياً منه بالأذكياء، وبنمط الشخصية من حيث الاندفاع، وإيثار العاجل على الآجل، والمادي على المعنوي. ويميل أصحاب المبادئ والاتجاهات الدينية والمثالية إلى المكافأة الذاتية والآجلة على المكافأة الخارجية والعاجلة.

والمكافأة الموجبة Positive r. هي التي تصاحب التعزيز الموجب Positive reinforcement، أي الذي تتأصل به الاستجابة وتثبت. والمفروض أن المكافأة من حيث هي كذلك إيجابية، غير أن التعزيز السلبي Negative reinforcement بالعقاب أو بالحرمان من المكافأة يقال له أيضاً المكافأة السلبية Negative reward أو المكافأة بالسلب. ونلاحظ أن لفظ مكافأة من الفعل يكافئ أو يعادل، والمعنى الدلالي إذن للفظة هو ما يُعطَى كمقابل، وما يُعطى - أي الإثابة أو المكافأة - ينبغي أن يُعادل العمل، فإن يكن العمل خيراً كان المقابل المعادل خيراً يساويه، وإن يكن شراً يكن هذا المقابل المعادل بقدره، وذلك ما يسمونه قيمة المكافأة Value r.. وفي البحوث على القيمة للمكافأة في المجال الصناعي

يتبين أن العمال يؤثرون المكافآت ذات القيمة الآجلة والتي لها مردودها على حياتهم عند التقاعد. ومن الطبيعي أن تختلف القيم للمكافآت الواحدة بحسب المجتمعات والأفراد والمستويات الاقتصادية والحضارية، ففي مجتمع محروم لا بد أن تعلو القيمة المادية على أية قيم أخرى، بينما في مجتمعات الوفرة يكون التطلّع للمكافآت المشبعة للدوافع الثانوية. وهناك الكثير من البحوث فيما إذا كانت المكافأة أفضل على مستوى الأفراد أو على مستوى الجماعة، ومن النظم ما يأخذ بالمستوى الأول على أساس من الزيادة الملحوظة في الإنتاج وفي نوعه، ومنها ما يأخذ بالمستوى الثاني بالنظر إلى المردود الاجتماعي الذي للمكافأة في هذه الحالة. والبعض يجعل المكافأة مادية في صورة أجر زائد، والبعض يجعلها في شكل خدمات صحية تعليمية وترفيهية.

ومن شأن المكافأة أو الإثابة أن تكون لها نتائج وجدانية ومعرفية سارة، من حيث أنها تقوّي من الدوافع، وتشجّع على التعلّم، وتنشطهما، والمكافأة المشجعة Stimulating r. هي من قبيل ذلك، وينبغي التمييز بينها وبين المكافأة المُسكِّنة Sedative r.، والأولى لا تثيب على التشاط على قَدْره، والثانية يُقصَد بها أن يستمر النشاط ولو لم يُكافأ صاحبه المكافأة التي لها قيمتها. والمكافأة عموماً تستحث على الاستفادة مما نتعلم، وكذلك فإن من شأن التمايز بين المكافآت أو ما يسمى الإثابة الفارقة Differential r. أن تتمايز الدوافع عند المتعلم أو العامل، وتقوى بعض الدوافع بتعزيزها بالمكافآت الفارقة، وتزيد المكافآت الثقة في النفس، وتشجّع على المغامرة والابتكار، وعلى المثابرة، وتزيد من جاذبية ما يأتينا منه الثواب، فضلاً عن المترتبات المعرفية من حيث أن المكافأة تعطينا العلم بمدى ملاءمة استجاباتنا وسلوكنا، وتجعل للتعلّم معنى بالربط بين الاستجابات والأهداف. ومن شأن المكافأة بالتغذية الراجعة المدعمة أن تجعلنا نركز على استجابات دون استجابات، فيكون السلوك الانتقائي، ومن ثم تكون أيضاً إمكانية توجيه السلوك. غير أنه من جهة أخرى فإن

المكافأة عندما تكون من مصدر خارجي قد ترتبط بالأداء إرتباطاً زائفاً يُفرض عليه فرضاً، وقد تكون لها آثار سلبية من حيث توجيهها للسلوك فيصبح المستجيب للمكافأة مُسَيّراً وليس مُخيّراً، فيعمل أو يتعلم ما يطلبه منه الآخرون، وينقاد لهم، ويرضخ للشروط التي يكون بها أداؤه لما يطلبونه منه، وتقل بذلك ابتكاريته أو تتحدد تحديداً في منصرفات بعينها. وربما يرتبط المؤدِّي بالمكافأة إرتباطاً نفسياً دائماً، فيكون أسلوبه في التعامل بحيث لا ينهض بالمطلوب إلا إذا كوفئ عليه، وربما يدفعه ذلك إلى منافسة قد تجرّه إلى القيام بأي فعل من شأنه أن يبلغ به إلى المكافأة من أي طريق ومهما كانت السبل، فيتحرّر من الالتزامات الأخلاقية ويجيز كل شيء مهما تعارض مع القوانين، وخاصة إذا كانت المكافأة محدودة بينما المتنافسون عليها كُثر، وتتحقّق للفائز بها متحصلات نفسيّة بالإضافة إلى المكسب المادي، إلا أن ذلك قد يتسبّب عند غير الفائز الملتزم أن يناله الإحباط. ولنا أن نقارن بين آثار إيجابية عند واحد أو اثنين من الفائزين ونتائج سلبية عند الأغلبية. وقد يترتّب على الإحباط شعور دائم بالفشل، ومشاعر نقص قد تتعزّز عند هؤلاء وتظهر نتائجها في سلوكهم وتطبع شخصياتهم.

ويتوخى العقاب نتائج بخلاف ما يقصد إليها الثواب. ويتضمن موقف العقاب Punishment situation طرفين، أحدهما يعاقِب (بكسر القاف)، والآخر واقع عليه العقاب لقيامه بفعل من شأنه الإضرار بالأول. والعقاب إما بموقف يستحدث الألم، أو أنه يشتمل على خبرة غير سارة، أو قد يكون بفرض عمل لا يريده الآخر أو لا يحب أن يؤدّيه، أو ربما بحرمانه من شيء أو فعل يريده أو يحب أن يقوم به. والعقاب منه الرسمي Formal الذي تصدر به أحكام وتنهض على تنفيذها جهات رسمية، ومنه العقاب غير الرسمي Informal p. وهو كل ممارسات العقاب بين الأفراد بعضهم البعض في معاملاتهم اليومية. والعقاب منه البدني Corporeal p. الذي يتوجّه للجسم وأعضائه كعقوبة الجَلْد أو الإعدام، ومنه المعنوي Incorporeal p.، وأوجاعه تكون

لها وطأة عقلية ونفسية، فنظرة عدم الرضا التي يواجه بها الأب إبنه قد تفوق في نتائجها الضرب الموجع. والعقاب البدني غالباً ما يكون خارجي المصدر Extrinsic p. غالباً، بينما في كثير من الأحوال يكون العقاب المعنوي داخلي المصدر Intrinsic p. ومن رأي علماء التحليل النفسي أن مشاعر الذنب وما تجرّه على صاحبها من اضطرابات نفسية هي بمثابة العقاب الذاتي Self-p. الذي ينزله المرء بنفسه بدوافع داخلية منه دون الدوافع الخارجية. ويذهب فرويد وأتباعه إلى أنه بالإنسان دون الحيوان حاجة إلى العقاب Need for punishment، بتأثير تكوينه النفسي، حيث ينفرد الإنسان بالضمير Conscience أو الأنا الأعلى Super-ego، وهو الذي يجعله دائماً حسّاساً تجاه ما يفعل ويشعر ويفكّر، فإذا خالف النواهي والزواجر والأخلاق والعرف والشرائع والقوانين إنتابته من ذلك مشاعر ذنب، فيميل بسلوكه لاشعورياً إلى أن يكفّر عن رغباته أو مشاعره أو أفعاله Unconscious need for p.، بأن يُنزل بنفسه العقاب التكفيري Expiatory p.، كأن يعوّض الآخرين عمّا شعر تجاههم أو لحقهم منه من أذى، وقد يغالي في التعويض أو يتطرّف في التكفير حتى لقد يحاول الانتحار أو ينتحر فعلاً. ولربما يطبّق البعض العقاب بالمِثل p. by reciprocity، وهو مقولة دينية من باب السن بالسن والعين بالعين كقوله تعالى: ﴿وإنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ (النحل - ١٢٦)، وأحياناً يُمارس هذا العقاب على نطاق رسمي، وقد يُعمل به أيضاً على نطاق غير رسمي كمقولة أخلاقية. والعقاب الذي ينزله الله بالناس - العقاب الإلهي Divine p. - هو من نوع العقاب التكفيري عمّا ارتكبوا، كما حدث لليهود الذين عبدوا العجل فأُمروا أن يكفّروا عن فعلهم، بأن يقتلوا أنفسهم عقاباً لما فعلوا، كقوله تعالى: ﴿وإذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُم باتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ (البقرة - ٥٤)، وكما تقول التوراة فإنهم قتلوا من أنفسهم عدّة آلاف. ومثل ذلك عقاب ميداس Midas p.، فقد كان يمارس الاستمناء فعاقبته الآلهة على فجوره.

والعقاب الطبيعي Natural p. هو من نوع العقاب في الآية: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾ (النساء - ١٢٣)، والآية: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ (الشورى - ٤٠).

ومن أهداف التربية أن تجعل العقاب ذاتياً من داخل الأفراد، أي عقاباً نفسياً، بحيث يكون الرادع عن الفعل اللاأخلاقي بوازع من الضمير أو الأنا الأعلى وليس الخوف من العقاب الرسمي أو البدني أو العقاب الاجتماعي. ومن رأي دوركايم أن المقصود بالعقاب ليس التمثيل بالمجرم، ولا جعله أمثولة لغيره، ولا إصلاحه بالعقاب، ولكنه لإذكاء الفضيلة عند الناس، وبيان الحدود بينها وبين الرذيلة، أي بيان المسموح به اجتماعياً وغير المسموح به، والفواصل بينهما. ولربما تكون بنا حاجة دائماً للعقاب حينما لا تكون هذه الحدود واضحة، ويذهب البعض منا إلى حدّ اختبار الحدود، وخاصة الأطفال. وفي التربية قد يجدي الحزم عن القسوة، وأن يكون العقاب فورياً وبدون انفعال ولا تناقض. والمبالغة في استخدام العقاب في التربية كستراتيجية دائمة قد يولّد القلق عند الطفل، ويؤثّر على تكوين شخصيته واتجاهاته المعرفية، وقد ينفّره من موضوع التعلّم، ويعمّم الطفل هذا النفور على كل التعلم ويكون سبباً في فشله. وقد تزيد المبالغة في استخدام العقاب من مستوى الطموح لدى الطفل بشكل إصطناعي لا يناسب قدراته، ويدفعه إلى مواقف حرجة، وربما يؤدّي إلى المزيد من الإحساس بالفشل، حتى ليلازمه الفشل كبُعد من أبعاد شخصيته، ولعله من هذا الطريق تتكون الشخصية غير الكفوء Inadquate personality. غير أنه من جهة أخرى فإن العقاب يدفع إلى تركيز الانتباه، والدأب على العمل ومحاولة التعويض. ويُستَخدم العقاب بالتنفير Aversive p. كعلاج، ويسمّى أيضاً العلاج بالتنفير، وهو طريقة من طرق العلاج السلوكي بالتنفير من الاستجابات غير المرغوبة بالمعاقبة عليها، على أن يُدرّب المريض على الأخذ باستجابة بديلة مرغوبة ويُكافأ على إتيانها. والعيب في العقاب أنه لا يخبر عمّا ينبغي فعله، بعكس الثواب، ولذلك

يُتبع دائماً العلاج بالعقاب بعلاج آخر بالثواب.

وقد تستهوي البعض أنواع من العقاب يكون بها شعورهم بالألم، ولكنه الألم المطلوب الذي يتوافق مع طبيعتهم الماسوشية والذي ترضَى به نوازعهم. وقد يدأبون لذلك على ارتكاب الأخطاء لتوجَّه إليهم الإهانات، أو لينالوا العقاب البدني كما في حالات الميل لارتكاب الحوادث Accident-proneness، فقد ثبت أنه في ثمانين في المائة من هذه الحالات فإن ما يدفع إلى ارتكاب الحوادث هو الرغبة اللاشعورية في إنزال العقاب بالنفس أو البدن، وكأن مرتكب الحوادث يسعى قصداً لينال العقاب. ومن ذلك ما يعانيه البعض من تحقير الذات Self-abasement، بحيث يناسبهم أن يؤكّد لهم الناس ذلك فيهم كلما ارتكبوا ذنباً أو حادثاً، وأن يؤكّدوه هم أيضاً كذلك بسلوكهم. وينهي علماء التحليل النفسي عن العقاب البدني بالنسبة للأطفال، والعقاب الذي من شأنه تحقير الطفل، ويرجعون الكثير من الشذوذ الجنسي للضرب على المقعدة وزيادة الحساسية بها، وكذلك يرجعون ما يسمى بمحو الذات Self-effacement إلى خبرات العقاب الصادمة التي يترتب عليها أن ينسحب الطفل على نفسه، وأن يتوقف نمو شخصيته بالشكل الصحيح، ويسمّي علماء الطب النفسي ذلك بتر الشخصية Amputation of personality أو قتلها، وقد يتوجّه الطفل في حالات كهذه للتعيّن بشخصية الذي يُنزل به العقاب ويذوب فيها، وتنمحي ذاته إلى جوار ذات الآخر. ولربما تتعقّد صورة العقاب بحيث أن ما نعتبره عقاباً للطفل قد يكون مصدر سرور له، أو قد يفاخر به كعلامة على شدّة مراسه وقوّة تحمله. وقد يتوهم بعض الأطفال عقاباً نزل بهم وهو ما لم يحدث، إلا أن البعض يفسّر ذلك بالذاتية Autism، وتتميز بمثل هذه الهواجس التي يكون معها التخيّل بأن الطفل موضع عقاب من الآخرين - هاجس العقاب p. phantasy، بالتآمر عليه أو بحرمانه أو باغتيابه، من نوع التفكير الاجترار ي الذي يتميّز به الفصاميون.

ومن المفارقات التي للعقاب أنه يحدث به تعزيز الاستجابة غير

المرغوبة، فمثلاً لو عوقب حيوان في موقف هرب فإنه بدلاً من أن ينتهي عن الهرب، قد تزيد استجابة الهرب عنده. وكذلك فإنه في المواقف المشتّتة قد يرتبط العقاب بمثير غير المثير الذي ينبغي أن يرتبط العقاب به، وذلك من تأثير غموض الكثير من المواقف التي يمارس فيها العقاب. وبعض العقاب يكون غير متناسب مع شخصية المعاقَب، نتيجة عدم دراسة المعاقَب ودراسة تراتب العقاب والثواب عنده. وفي بعض الأحيان قد يكون العقاب بالحرمان p. by deprivation مثلاً غير مجدٍ لعدم حاجة المعاقَب لما يُحرَم منه، وقد لا يُنتج العقاب أثره إذا لم يرتبط مباشرة بالاستجابة. والعقاب الموزّع Distributed p.، أي العقاب كلما كان هناك الفعل غير المرغوب فيه - هذا العقاب أفضل من العقاب بالجملة Wholesale p.. والعقاب الرادع Preventive p. له تأثيره الناجز إلا أنه يؤثّر على الأداء.

مراجع:

- Thorndike, E.L.: An Experimental Study of Rewards.
- Levin, K.: The Psychological Situations of Reward and Punishment. In «A Dynamic Theory of Personality».
- Banduara, A.: Principles of Behaviour Modification.
- Skinner, B.F.: Science and Human Behavior.



- ٥ -
سيكولوجية التعزيز

نظرية التعزيز وقوانينه وأنواعه. التعزيز الشرطي والثانوي والأولي والذاتي. جداول التعزيز. التعزيز بالنسبة، والمتقطّع، والمتغيّر، والفارق، والمتغاير، والاتفاقي، والخرافي، والعارض، والمُنتِج، والمرجَأ، واللاّدوري، والمتناسب، والتسلسلي، والنهائي...

❖ ❖ ❖

التعزيز Reinforcement أو التدعيم هو التقوية. تقول التعزيز الاجتماعي Social r. وتقصد مجريات الأحداث الاجتماعية التي يمكن أن تدعِّم سلوكاً كان قائماً قبلها ولكنه بها يتأكّد ويرسخ. والتعزيز أكثر ما يستخدم في مجال التعلم. ونظريات التعزيز r. theories مجال بحثي من مجالات السلوكيين من أتباع سكينر Skinner (١٩٤٤) وكلارك هل Hull (١٩٣٠)، الذين يفسّرون تعلّم السلوك واستمراره بالتعزيز. وقانون التعزيز Law for r. عند «هل» يقضي بأنه في حالة تكرار ظهور عملية الاستجابة زمنياً مع عملية الاستثارة، أو مع الأثر الذي تنتجه هذه العملية، وترافق هذا الاقتران، وتناقص الحاجة لدى الكائن الحي، فإن ذلك من شأنه أن تزيد به احتمالات استدعاء هذه الاستجابة في الحالات اللاحقة. كما أن الزيادة في التعزيز وتواليه يؤديان إلى قوّة العادة Habit strength (SHR)، ويُطلَق على قانون التعزيز إسم فرض التعزيز r. Hypothesis أيضاً، أو أن فرض التعزيز هو ما كان مطروحاً للبرهنة عليه في تجارب الإشراط الكلاسيكي، ومؤدّاه أن تَقارُن ظهور المثير الشرطي والمثير الطبيعي يقوّي من احتمال أن تكون للمثير الشرطي الاستجابة نفسها التي للمثير الطبيعي. وفرض التعزيز هو أيضاً ما يذهب إليه البعض من أن كل تعلُّم لا بد فيه من التعزيز. أو أن التعلُّم يتم دائماً بالمكافأة عليه.

والتعزيز في اللغة الاصطلاحية يعني تعلم إستجابة معيّنة أو مرغوبة بتقوية الرابطة بينها وبين المثير الذي يؤدِّي إليها، بحيث كلما كان المثير كلما زاد احتمال صدور الاستجابة. وفي التعلُّم الشرطي يكون ذلك بتقوية الاستجابة الشرطية، بأن يتكرر ظهور المثير الشرطي أو غير الطبيعي ثم المثير الطبيعي، أو غير الشرطي، لتتم الرابطة بين المثير الشرطي والاستجابة، ويسمى ذلك تعزيزاً شرطياً Conditioned r. وأما التعزيز في التعلُّم الشرطي الإجرائي، فيكون بتقوية احتمال صدور الاستجابة عن طريق مُعزِّز يقوم بدور مثير جديد، فالحيوان الجائع يستجيب لوجود الرافعة في

صندوق سكينر Skinner box بالضغط عليها، وهذه الاستجابة هي سلوك إجرائي Operant behavior يلجأ إليه الحيوان، أو هو وسيلة الحيوان لظهور الطعام الذي يطلق عليه سكينر إسم المُعزِّز Reinforcer، ويقوم بدور مثير جديد يؤدّي إلى صدور إستجابة إفراز اللعاب. وفي ضوء التعلم الشرطي فإن أي مثير يمكن أن يصبح معزِّزاً عندما يقترن بالمثير المعزِّز الأصلي. فحينما يتعلم الحيوان الضغط على الرافعة فيظهر ضوء ثم يتبعه ظهور الطعام، فإنه إذا حدث وضغط على الرافعة فظهر الضوء دون الطعام فإن استجابة إفراز اللعاب ستصدر أيضاً، ونقول حينئذ إن الضوء إكتسب خصائص التعزيز، إلا أنها خصائص ثانوية وليست أولية، ومن ثم نطلق على هذه العملية إسم التعزيز الثانوي Secondary r.، في مقابل التعزيز الأولي Primary r. المعمول به في الإشراط الكلاسيكي، والذي يكون بتقوية الرابطة بين المثير الطبيعي (الطعام) واستجابة إفراز اللعاب. ونطلق أيضاً على الطعام إسم المعزز الأولي Primary reinforcer، بينما نطلق على الضوء إسم المعزز الثانوي Secondary reinforcer.

والتعزيز ذاتي المنشأ Autogenic r. هو نوع التعزيز عندما تكون الإثابة فيه ذاتية، بمثابة رضا الشخص عن نفسه كلما حقّق إنجازاً، وهو تعزيز خارجي External r. إذا كان الحافز إليه إجتماعياً كأن يكون مكافأة تُكتسب أو نجاحاً مادياً يتحقق.

والتعزيز له نظم قد يتم بها، أو أنه يمكن أن يتحقّق طبقاً لجداول يطلق عليها إسم نظم أو جداول التعزيز r. Schedules، ومن ذلك أن يكون التعزيز متصلاً Continuous r. كما في التعزيز الشرطي، فتثاب كل استجابة ويكافأ المتعلّم عليها، أو أن يكون تعزيزاً متقطعاً Intermittent r. فلا تثاب كل استجابة وإنما بعضها دون البعض، ولذلك فقد يقال له أيضاً التعزيز الجزئي Partial r.. وقد يكون تعزيزاً بالنسبة Ratio r.، أي بنسبة ما يصدر من إستجابات، كأن يقوم المتعلم بعدد معيّن من الاستجابات، قبل أن يحدث التعزيز، وفي هذه الحالة نقول إنه تعزيز بالنسبة الثابتة Fixed ratio r.،

وقد تتغيّر النسبة فيكون التعزيز عشوائياً Random r.، وبعد أي عدد من الاستجابات كيفما اتفق بشرط أن يكون متوسط الاستجابات عدداً ثابتاً أيضاً، وذلك هو ما نقصد إليه بالتعزيز بالنسبة المتغيّرة Variable ratio r.. وقد يكون التعزيز على فترات Interval r.، كأن يكون كل أربع دقائق، فنقول إنه تعزيز بالفترات الثابتة Fixed interval r.، أو يكون على فترات غير منتظمة إلا أن متوسطها أيضاً ثابت وذلك هو التعزيز بالفترات المتغيّرة Variable interval r.. وقد يكون النظام المتّبع في التعزيز خليطاً من نظامين أو أكثر من النظم السابقة، كأن يتوفّر به شرط النسبة الثابتة والفترة الثابتة معاً قبل أن يقوم التعزيز (Mixed schedule).

وتؤكّد نتائج تجارب سكينر وتلاميذه أن التعزيز بنظام الجدول المتقطع أكثر كفاية في التعلّم من التعزيز بنظام الجدول المستمر، وأن جداول التعزيز المتغيّر بالنسبة أو بالفترة أكثر كفاية من جداول التعزيز الثابت بالنسبة أو بالفترة، وأن جداول تعزيز النسبة الثابتة أو المتغيرة أكثر كفاية من جداول تعزيز الفترة الثابتة أو المتغيرة، ومن ثم فمن الممكن ترتيب هذه الجداول أو النظم بحسب كفايتها كالتالي: النسبة المتغيرة فالفترة المتغيرة، والنسبة الثابتة فالفترة الثابتة، وأخيراً التعزيز المستمر.

وقيمة التعزيز r. value هي مقدار ما للموقف من تأثير على احتمال صدور استجابة، لها به إرتباط تعزيز هذا الارتباط أو مكافأته. وإذا كان المعزِّز من شأنه أن يؤدّي إلى زيادة احتمال وقوع الاستجابة أو صدورها، قلنا إن التعزيز موجب Positive r.، والمعزِّز موجب أيضاً، وأما التعزيز السالب Negative r. فهو الذي من شأنه التنفير من إتيان الاستجابة غير المرغوبة بالعقاب عليها مثلاً. والانطفاء Extinction هو الصورة المقابلة للتعزيز (واختصاره الاصطلاحي EXT)، وهو أن لا يكون هناك تعزيز بالمرّة فتتوقف الاستجابة.

ومن النظم أو جداول التعزيز البسيطة نظام التعزيز الفارق Differential r. فتثاب استجابة لمثير معيّن ولا تثاب الاستجابة نفسها من مثيرات

أخرى، أو تثاب إستجابة بعينها ضمن استجابات عدّة لمثير معيّن. وفي التعزيز الشرطي الكلاسيكي Classic conditioned r. نجد أن الطعام والضوء عندما يقترنان تكون لهما الاستجابة نفسها إذا ظهر أيهما وحده كمثير، والتعزيز بهذه الطريقة يقال له التعزيز المتجانس Homogeneous r.، وأما التعزيز المتغاير Heterogeneous r. فكما في التعزيز الشرطي الإجرائي Operant conditioned r.، فالرافعة في صندوق سكينر مثير يستجيب لها الحيوان بالضغط عليها، فيظهر الطعام الذي هو مثير معزِّز يستجيب له الحيوان بأن يسيل لعابه، ونلاحظ أن المثير الأول ليس له استجابة المثير الثاني نفسها بل تغايرها. والتعزيز المشروط Contingent r. هو الذي يتوقف على صدور الاستجابة ويكون ممكناً فقط لو صدرت أو وقعت هذه الاستجابة، أما التعزيز الاتفاقي Noncontingent r. فهو الذي لا يستلزم استجابة بعينها ولكنها أي استجابة، ففي تجارب سكينر فإن نظام التعزيز قد يكون عشوائياً، فإذا صفقت الحمامة مثلاً بجناحيها وحدث أن حبّة قمح نزلت، فإنّ من المحتمل أن تأتي الحمامة هذا التصفيق مرّة ثانية لعلها تنال حبّة قمح أخرى، فلو حدث وتحقق ذلك فإن هذا السلوك يتعزّز وتقوى تلك الاستجابة في الحمامة، ويصفها سكينر بأنها استجابة خرافية، أي انها غير منطقية ولا صلة سببية حقيقيّة بينها وبين المثير، وذلك نفسه يحدث على الصعيد الإنساني، فالبدائي الذي يتصادف نزول المطر إذا رقص، قد يعقد ارتباطاً بين نزول المطر والرقص، ومن ثم فكلما أعوزه المطر قد يرقص ثانية وثالثة، وكلما تحقّق نزول المطر بالصدفة مع الرقص أو بعده، تعزّز فيه هذا السلوك الخرافي Superstitious behaviour، فكأن التعزيز الاتفاقي هذا هو أصل كل سلوك خرافي سواء عند الإنسان أو غير الإنسان، ويُسمَّى أيضاً التعزيز العارض Adventitious r.، لأنه يأتي عَرَضاً وليس قصداً.

والتعزيز المُنتج Reproductive r. هو الذي تزيد به احتمالات صدور استجابة معيّنة بحكم ارتباط هذه الاستجابة بمستدعيات كثيرة، فتكون النتيجة أياً من

هذه المستدعيات يمكن أن يثير الاستجابة. والتعزيز المرجأ Delayed r. في التعلُّم الشرطي الإجرائي يكون بتأخير المكافأة على صدور الاستجابة لبعض الوقت. وقد يقال أيضاً للتعزيز بالفترة المتغيّرة إنه تعزيز لا دوري Aperiodic r. والتعزيز غير المتناسب Irrelevant r. هو ألا تكون للمثير علاقة بالحالة الحافزة، كما لو قدمنا الماء لحيوان جائع كمكافأة. والتعزيز التسلسلي Serial r. هو المكافأة أو ردّ الفعل المدعِّم الذي يواجه به أداء فعل يتم على حلقات أو في تسلسل بحيث تكون المكافأة على كل جزئية من أجزاء الفعل. والتعزيز النهائي Terminal r. هو مكافأة الفعل عند تمام أدائه بعد القيام بكل جزئياته شريطة أن يكون الأداء بالتسلسل المفترض فيه.

(أنظر أيضاً سيكولوجية الثواب والعقاب).

مراجع:

- Hull, C.L.: Principles of Behaviour.
- Thorndike: Animal Intelligence.



- ٦ -

سيكولوجية التنشئة الاجتماعية

التنشئة للأطفال والتطبيع للكبار. التنشئة الأولية. تكوين الضمير أو الأنا الأعلى. دور الثقافة والمؤسسات التربوية والإعلامية. الانضباط الداخلي وتعديل السلوك. دور الإثابة والقدوة...



التنشئة الاجتماعية Social upbringing، أو التطبيع الاجتماعي Socialization، إكتساب الفرد للصفات التي يكون بها عضواً نافعاً في الهيئة الاجتماعية، فيكون له السلوك والمعايير والاتجاهات التي يساير بها مجتمعه ويتوافق من خلالها، فيندمج اجتماعياً فيه وينضج إجتماعياً Social maturity، ويشارك في العقل الاجتماعي s. mind وتكون له العقلية الاجتماعية s. mindedness. والتنشئة الاجتماعية تكون للأطفال عملية تشكيل لسلوكهم، وبها

يتحوّلون من كائنات بيولوجية إلى كائنات إجتماعية Social being، لـهـا ذوات إجتماعية s. selves. والتنشئة الاجتماعية تكون أيضاً للراشدين وكبار السن، فهي عملية مستمرة مع دورة حياتنا، ونسميها بالنسبة للراشدين تطبيعاً اجتماعياً. وفي التطبيع الاجتماعي يكون تعلمنا للأدوار المهنية الاجتماعية، والأدوار التي تتوافق مع مراحل أعمارنا حيث نكون آباء ومواطنين وموظفين أو مهنيين. والتنشئة الاجتماعية سواء للأطفال أو للراشدين هي عملية تعلّم إجتماعي Social learning ، يتعلّم فيها الفرد - من خلال التفاعل الاجتماعي Social interaction - أدواره الاجتماعية Social roles وما يناسبها من معايير. وهي عملية نمو مطرد، ففي الطفولة يكون تعلمنا للغة، ومن خلالها يتنامى فينا فهمنا لذواتنا، ثم يبدأ استدخالنا للمعايير الاجتماعية s. norms وتعلمنا للأدوار من خلال الجماعة الأولية، وهي الأسرة، والصِّحاب Peer group، ثم في المراهقة تكون لنا جماعات مرجعية جديدة، وتتغير فينا باستمرار مفاهيم الذات، وننطبع بالطابع الاجتماعي s. Character من خلال مؤسسات إجتماعية s. institutions كالمدرسة والجامع، وعن طريق وسائل الإعلام كالتليفزيون والصحيفة. ويطلق البعض على التنشئة الاجتماعية في الطفولة إسم التنشئة الأولية Primary s.، في مقابل التطبيع الاجتماعي للراشدين Adult socialization. وفي الطفولة نتعلم المتطلبات الأساسية للسلوك والمهارات التي بها يمكن أن نتعامل بذكاء مع مختلف المواقف التي تتغير بتغير الأيام، ونتعلم من اللغة الكلمات التي نستطيع بها أن نؤثّر في سلوك الآخرين وأن نتأثر بها لنعدّل أو نغيّر من سلوكنا، ونفهم أن هذا النمط من السلوك موافق عليه بينما ذاك مستهجن، ونستدخل ذلك فتكون لنا القيم والمعايير الاجتماعية التي تشكّل فينا الأنا الأعلى The super-ego، وتكون لنا بمثابة الضمير Conscience والكابح للرغبات غير المشروعة أو غير المرغوب فيها. والهدف من عملية التنشئة الاجتماعية في الطفولة أن نستبدل السيطرة التي تُفرَض علينا من خارجنا بسيطرة داخلية تضبط سلوكنا وتوجهنا

من داخلنا. وهذا الاستدخال للقيم والمعايير الاجتماعية هو الذي يستحدث فينا التنظيم وتنطبع به الذات. ونحن نستدخل الاتجاهات الاجتماعية s. attitudes ونتصرف بناءً عليها، أو قد تغيّر من سلوكنا فتكون لنا اتجاهات تتوافق مع هذا التغيير. وتغيير السلوك أو استدخال الاتجاهات والتشكُّل الاجتماعي Sociomorphism يتم بناءً على نظرية التعلّم الاجتماعي، وهي التي تقضي بأن يكون الاستدخال بحسب ما نتوقع من ثواب أو مكافأة على أي سلوك متوقع في المستقبل وتدفع إليه تلك الاتجاهات المستدخلة، ومن ثم فإن الرغبة في تحصيل الثواب أو المكافأة وتجنّب العقاب تجعل من التصرف الممكن الذي زمانه المستقبل واقعاً حاضراً نحققه بما نستدخل. ولا ينضبط سلوكنا ذاتياً إلا عندما يكون تجاوبنا مع المواقف المختلفة تجاوباً ليس توقعاً لثواب أو تجنباً لعقاب خارجيين، ولكنه من داخلنا. ونحن نعيش بهذا الانضباط الداخلي في أزمات نفسية حقيقية إذا فعلنا عكس ما تعلمنا إجتماعياً. ولا تزول الأزمة النفسية إلا بتعديل السلوك بما يناسب المعايير الاجتماعية. وينضبط السلوك ذاتياً عندما تكون لنا الاتجاهات النفسية الاجتماعية التي تجعلنا نختار من الصحاب من يعزز فينا السلوك المثيب. والشخصية السوسيوباتية Sociopathic هي المعتلة إجتماعياً كما في أحوال السلوك المضاد للمجتمع، والتنشئة الاجتماعية ليست دائماً إنطباعاً إجتماعياً ولكنها أيضاً مشاركة إجتماعية s. participation، ومع أن السلوك ينضبط ذاتياً بتأثير المجتمع إلا أن من شأن هذا الانضباط أن يجعل المنضبط بجهاز طابع بعد أن كان بجهاز مطبوع، ومن ثم فانطباعه التأثري يتحول إلى طابع تأثيري ويتقلد من الأدوار الاجتماعية الفاعل النشيط الذي من دأبه التأثير في البيئة. ونحن في الطفولة خلال التنشئة الاجتماعية الأولية قد نتبادل مع الأبوين التأثر والتأثير، ونَعلَم جميعاً بالخبرة أن الأطفال يؤثّرون بشدّة في ذويهم ويغيّرون من الكثير من اتجاهاتهم وسلوكياتهم. وحبّ الاجتماع Sociophile هو سمة الشخصية التي لا تستغني عن الاجتماع

بالناس. ويطلق على الكائن المشارك في العلاقات الاجتماعية إسم «الاجتماعي socius». ورهبة الاجتماع Sociophobia هي المقابل لحب الاجتماع، وتفرض على صاحبها العزلة.

وتنتقل الثقافة والأنماط الثقافية في الطفولة بخاصة، وهي فترة تحصيل التعلم، إلا أن التعلّم عملية مستمرة طوال العمر كما قلنا، والثقافة التي ينشأ الفرد في إطارها تؤثر في شخصيته، وتطبعها بطابعها، وتحدّد سلوكياته ومعاييره، ويتعلم منها أدواره الجنسية وأدواره الأخرى المتمشية مع مراحل عمره. وهناك ثقافات مفتوحة Open cultures، وثقافات منغلقة Closed cultures جامدة، والأخيرة تؤثّر بالسلب على نمو الشخصية وينعكس تعقيدها عليها. وللثقافة أجهزة ومؤسسات تربوية واجتماعية وثانوية ودينية بالإضافة إلى وسائل الإعلام، وتشارك جميعها في عملية تعليم الفرد ثقافياً بدرجات متفاوتة، إلا أن من الممكن أن تتعارض تأثيراتها فيه فتجعل له اتجاهات متصارعة.

وهناك من البحوث الكثيرة ما يثبت أن السلوك غالباً ما نحكم عليه بنتائجه، وأن النتائج الطيبة تجعلنا نكرّر السلوك المثيب الذي يستحسنه الناس وله مردوده الحسن على صاحبه، بينما ما نُعاقَب على فعله، أو ما يكون منه الوبال على صاحبه، فإن الأعم أن لا نأتيه مرة أخرى، ولذلك تلجأ المؤسسات التربوية والمعنية بأمور التنشئة الاجتماعية، كالأسرة والمدرسة وغيرهما، إلى هذه القاعدة فتتخذها أسلوباً لتعزيز ما تراه من أنماط سلوكية سوية فتثيب عليها، بينما تعاقب مادياً أو معنوياً على السلوك غير السوي لتطفئه. ويتعلم الناس وخصوصاً النشء من ملاحظة تطبيق هذا الأسلوب على الآخرين، فينضبط سلوكهم بالعدوى. ولو تُرِك الأمر في التنشئة إلى ملاحظة نتائج السلوك والتعلّم من المحاولة والخطأ وحدهما لكانت عملية شاقة بالنسبة للأفراد، ولكن المؤسسات الاجتماعية المختلفة تأخذ على عاتقها التوعية والتوجيه والوعظ والإرشاد. ولو أن ذلك ارتبط مع الإثابة على السلوك السوي وعقاب السلوك غير السوي، لكانت الفائدة أكبر ومردود التنشئة الاجتماعية

أعظم. وللقدوة دور في تعزيز الأنماط السلوكية والاتجاهات والمعايير المطلوب تعزيزها، وذلك لأن مشاهدة آثار ذلك على القدوة، بما ينال سلوكه من ثواب أو عقاب، يسرع بعملية التعلم الاجتماعي، ونقل ما تهدف المؤسسات الاجتماعية إلى نقله، أو تعديل ما تتوخّى تعديله، من خلال التأثير المشترك للقدرة والإرشاد والتعزيز المتمايز.

مراجع:

- Bandura, A.: Principles of Behaviour Modification.
- Goslin, A.: Handbook of Socialization, Theory and Research.



— ٧ —
سيكولوجية حلّ المشاكل

السلوك المُشْكل. للحيوان أفكاره العملية. سلوك إتخاذ القرار. التفكير الابتكاري. خطوات حلّ المشكلة. الأسلوب المعرفي وأثره في حلّ المشاكل. أساليب الحل المختلفة...



قد يبدو أننا نعايش التحديات باستمرار، وأن الوجود نفسه سلسلة متّصلة من المُشْكلة التي نواجهها ولا بد من أن نعثر على الحلول المناسبة لها، وقد يوفق بعضنا، وكثيراً ما نفشل ونحاول من جديد، وقد يترتب على ما نصادفه من إحباط أو فشل أننا نصاب بمختلف الأعراض العُصابية التي نحاول بها أن نتوافق مع عجزنا عن حلّ ما نتعثّر به من مشاكل وصعوبات. والسلوك المُشكل Problem behaviour هو السلوك المضطرب الذي يصدر عن اعتلال نفسي Psychopathy، والذي ينبئ عن سوء توافق Maladjustment، وقد يوصف لذلك بأنه سلوك غير متوافق Maladjusted، أو سلوك لاإجتماعي Non-social، أو مضاد للمجتمع Antisocial. والطفل المشكل Problem child هو الذي له مثل هذا السلوك المشكو منه مِن قِبَل

أبويه ومعلميه وزملائه. وسلوك حَلّ المشكلة Problem-solving behaviour يبدو لذلك من المجالات التي يتعرض لها علم النفس بالبحث، وقد بدأ الاهتمام به في نهاية القرن الماضي، ويذكر أنه كانت للويد مورجان Morgan (١٨٥٢ - ١٩٣٦) تجارب على الكلاب، خلص منها إلى أن الحيوانات تتبع في سلوك حلّ المشكلة طريقة «التعلّم بالمحاولة والخطأ trial-and-error learning» (١٨٩٤)، ثم أكّد ثورندايك Thorndike (١٨٧٤ - ١٩٤٩) هذه النتيجة (١٨٩٨). وذهب آخرون وجهة أبعد من ذلك باعتبار أن الحيوان له «أفكاره العملية»، كما أسماها هوبهاوس Hobhouse (١٩٠١)، ويعرّفها بأنها مجموعة من المجاهدات التي يحاولها الحيوان ليغيّر من مكونات الموقف لصالحه. ويبدو أنه بعد ثورندايك لم يلتفت أحد لدراسة عمليات حل المشكلة مثلما كان الاهتمام بالإدراك والتعلم والدافعية والشخصية، وبدأ مؤخراً في الخمسينات فقط التفكير في سلوك حلّ المشكلة والاهتمام به، وبما يمكن أن يتعلق به من مقولات مشابهة مثل عملية إتخاذ القرار Decision making process، وكذلك العمليات التي يتضمنها التفكير الابتكاري Creative thinking. وقد تبدو هذه المجالات الثلاثة ملتبسة باعتبار أن اتخاذ القرار هو نفسه التوصل إلى حلّ لمشكلة قائمة، وأنه في عملية الابتكار يستهدي المبتكر إلى ما يتوصل إليه كحلّ يتسم بالجِدّة لمشكلة ربما كان إحساسه بها أكثر من غيره. وكذلك قد ننبّه إلى أنه في المجالات الثالثة لا بدّ أن يتواجد الدافع، وأن يكون هناك تحديد للمشكلة، وأن نفترض الحلول لها، وأن نجرّب هذه الحلول. والوعي بالمشكلة وتحديدها ييسِّر التفكير في الحلول المختلفة. وما لم يوجد الوعي بالمشكلة فليس ثمة مشكلة أصلاً. ومن رأي الجشطلتيين Gestalt psychologists أنه ما من سبيل لحل المشكلة إلا إذا كان هناك استبصار Insight بأبعادها، وتنظيم جديد لمكوناتها، وأن النظر إلى المشكلة كما هي بعد تنظيمها تنظيماً ييسر فهمها أهم من أن تكون لنا بها خبرة سابقة. والقرود في تجارب الجشطلتيين بإدراكها للمواقف والعلاقات بين أجزائها، تعيد

بهذا الإدراك صياغتها فيكون استبصارها للحل. وتختلف الطريقة الجشطلتية عن طريقة الترابطيين Associationists في التعامل مع المشاكل. وعند الترابطيين فإن حلّ المشكلة يستلزم الاستعانة بالخبرات السابقة وما تعلمناه من مفاهيم ومبادئ، ومخزون الاستجابات السابقة التي قد نختار منها ما نظن أنه يناسب الموقف أو المشكلة، ويحكمنا في ذلك ما يسمونه انتقال أثر التعلم، ويُقصَد به استخدام ما قد تعلّمناه، ربما في حجرات الدراسة أو في غيرها بحيث نفيد منه في الحياة بعامة. وربما استلزم لحلّ شكله أن يكون الشخص نفسه على مستواها، ذكاءً ومعرفةً. ولمكونات شخصيته كذلك تأثيرها على سلوك حلّها. ولكل منا أسلوبه المعرفي Cognitive way في التعامل مع المشاكل، فالبعض قد يكون جامداً، والبعض قد يكون مرناً، وقد تكون لنا العقلية المتفتحة أو المنغلقة، وقد نميل في تعاملنا مع المشاكل إلى استخدام الأسلوب التحليلي، وقد يستهوينا أكثر الأسلوب الشمولي، وقد نلجأ إلى ستراتيجية المسح Scanning، بينما قد يفضل آخرون ستراتيجية الجزئية. وبعضنا قد يكون تأملياً، أو مندفعاً، وقد نميل إلى المبالغة وتهويل الأمور، وأن نصنع من الحَبّة قُبَّة كما يقول المثل الجاري، أو قد نميل إلى تصغير المسائل والتخفيف من وقعها والتسامح مع مقتضياتها. وربما يمتدّ تقبّلنا للأمور حتى لنتغاضى عمّا يكون غامضاً، وبعضنا لا يتسامح مع الغموض ويسعى إلى الوضوح ويستجلي كل شيء، وقد نسمع أو نرى ما لا نوافق عليه أو ما يتعارض مع مبادئنا أو معارفنا فنسكت عنه، أو نرفضه ولا نوافق عليه. وافتراض الحلول Hypothesizing solution خطوة تالية وتترتب على استبصار المشكلة وتنظيمها بالشكل الذي ييسِّر التعامل معها. ويبدو أن عملية إفتراض الحلول لا تتهيأ إلا للأشخاص الذين يتدربون عليها ويأخذون بها أنفسهم منذ الصغر. ويقول علماء النفس بطرق كثيرة لافتراض الحلول، ومن ذلك الطريقة اللوغاريتمية Algorithmic method، وهي أن يأخذ صاحب المشكلة نفسه بحل وحيد لها

يتابعه على خطوات، والطريقة الكشفية أو التنقيبية Heuristic method فيما يسمى تحليل الوسيلة الغاية Means-end analysis، بأن نقارن بين ملابسات الموقف أو عناصر المشكلة بوضعها الحالي، وبين ما ينبغي أن يكون عليه الموقف أو أن تنتهي إليه المشكلة من حلول، وأن نحدّد الفروق والنواقص، ونجرّب إزالتها، ونسدّها الواحد تلو الآخر إلى أن نبلغ تمام حلّ المشكلة أو ما يقاربه. وهناك طريقة كشفية أو تنقيبية أخرى هي طريقة إيجاد خطة Make-a-plan، بأن نتخيّل مشكلة أخرى على منوال المشكلة الأولى، غير أنها أقل حجماً وأبسط، فنفكر في الحلّ لها، ثم نتابع الطريقة نفسها التي استخدمناها في حلّ المشكلة الأبسط لحلّ المشكلة الأعقد. وبديهي أن يأتي الحل للمشكلة نتيجة إدراك لأبعادها ومكوناتها، وتفيد في ذلك أية معلومات تضاف إلى معلوماتنا عنها وخبراتنا السابقة، غير أنه قد تعوق الخبرة السابقة حلّ المشكلة بالتزامنا لأفكار قد نرى أن لها علاقة بالمشكلة وهي ليست كذلك، والكثير من المشاكل لا نستطيع مواجهته بإيجابية نتيجة أخطاء في التقدير أو التزام أفكار نجمد عليها، أو نتيجة لعادات واتجاهات جامدة. وربما نعجز عن إيجاد الحلول للمشاكل نتيجة أن العناصر الداخلة في المشكلة قد اعتدنا على التعامل معها بطريقة معيّنة، أو فهمها على وضع معيّن، أو كما يقولون نتيجة تثبيتنا لها وظيفياً Functional fixation. وينبغي أن يأتي الافتراض للحل محدّداً بحيث يمكن تجربته بنجاح أو يثبت فشله، وأن تتوفر الحلول البديلة. والتفكير في الحل مرحلة من عملية إيجاد الحل للمشكلة، وربما تكون بمثابة مرحلة يكون فيها تجميع الانتباه والأفكار، «والتفكير بصوت عال Think aloud»، وتسبق لحظة التنوير أو استبصار الحل. وما من سبيل للجزم بجدوى أحد الحلول إلا بتجربته. وتتحصل مصداقية الحلّ من خلال التجربة وبما يكون لها من نتائج. واختبار فروض الحل عملية قد يطول أمرها، واستلزمت مثلاً من إديسون السنوات ليجد الحلّ لمشكلة احتراق المواد التي كان يستخدمها في الإضاءة بالكهرباء، وقد جرّب العشرات من

المواد، ومن ذلك الكربون، والبلاتين، والسليلوز، والفلين، والقش، والورق إلى أن اهتدى أخيراً إلى التنجستن.

مراجع:
- J. Dewey: How We Think.
- Van de Greer: A Psychological Study of Problem Solving.



- ٨ -
سيكولوجية الدوافع

لكل سلوك دافع، والدوافع تتنوع. مبحث دوافع السلوك والنظريات فيه عند فرويد ومكدوجال ويونج. نظرية الحوافز. الحافز والباعث والمكافأة والعقاب. مبدأ اللذة والألم. الإرادة والحالات الانفعالية والدافعية...



لكل سلوك غرضي دافع Motive يحضّ عليه ويعمل على استمرار نشاطه، ودوافع السلوك قد تكون شعورية Conscious ms. يعيها صاحب السلوك، وقد يصدر سلوكه عن غير وعي Unconscious ms. ببواعثه ودوافعه. وهناك دوافع شخصية Personal ms.، ودوافع إجتماعية Spcial ms.، ودوافع من الثقافة والبيئة Environmental or cultural ms.، ودوافع فسيولوجية Physiological ms. ومن الدوافع للسلوك ما قد يكون نوايا، أو مصالح، أو غايات، أو آمالاً وطموحات، أو إتجاهات نفسية، أو رغبات، أو معتقدات وأفكاراً، أو قيماً، أو عادات، أو إنفعالات، ويستثني البعض الحركات العشوائية، والسلوكيات المرضية، والأفعال غير الهادفة التي لا تخدم غرضاً وليست لها غاية، ومن رأيهم أن السلوك لا يكون كذلك إلا إذا كان له دافع Motivated.

ومبحث دوافع السلوك Motivation research: هو العلم الذي يبحث في الدوافع كمبحث من مجالات البحوث النفسية، مثل البحث في الإدراك أو الإحساس أو التفكير. وتهم الباحث فيه الناحية العلمية، فالمدرس يحتاج أن

يعرف دوافع إقبال تلاميذه أو عزوفهم عن دروسه، ومن التلاميذ من يكون دافعه للتحصيل التفوق، ومنهم من يكون مدفوعاً بأسباب مادية، كأن يكون طامعاً في مكافأة أو تكريم علمي. ويحتاج القاضي في أحكامه أن يتعرف إلى دوافع المجرم الذي ينظر قضيته، وشتّان بين متّهم يقتل عن عمد وسبق إصرار وترصُّد، ومتّهم قد صدر منه الجُرم بالصدفة أو في لحظة ضعف، وربما بعد أن استثير بشدّة، وقد يكون ارتكابه للجُرم دفاعاً عن النفس أو المال أو العرض. ومبحث الدافعية من المجالات التي يرتادها المتخصّصون في الإعلانات التجارية، والدعاية للمنتجات التجارية والصناعية، ويحتاجون بشأنها أن يتعرّفوا إلى دوافع الجمهور عند الشراء فيعملون على تلبية متطلباته في الذوق والتكلفة وأغراض إنتاج السلعة.

ويبحث المهتمون بالدافعية فيما يكون عليه النشاط وقت الاستثارة، والشكل المنتظم الذي يكون عليه هذا النشاط وقت صدوره وفي توجهه نحو هدفه. وقد يكون هذا الشكل المنتظم سلوكاً «بالسلب» أي ليس فيه إقدام، ويتسم بالإحجام Avoidance motive. وربما يكون سلوكاً «بالإيجاب»، أي فيه الإقدام Approach motive وليس الإحجام. والدافعية عملية نشيطة ومستمرة طوال الحياة Conjunctive motivation. ونحن دائماً وأبداً لنا دوافعنا التي تحدّد وتوجّه سلوكنا. وتتغير الدوافع أو تتبدل، ويحلّ بعضها محل بعض، ويريح بعضها البعض Affiliative motives، ولكنها موجودة دائماً وأبداً عبر مراحل العمر. وقد تتآلف الدوافع وتتآزر، أو تختلف وتتعارض وتتصارع، وتصنع معاً مدرجاً هرمياً Motivational hierarchy، في قاعدته توجد الدوافع الأولية ثم الدوافع الثانوية.

ودراسة الدوافع من الدراسات النفسية الحديثة نسبياً، ويُذكر أن أول دراسة علمية فيها كانت دراسة عالم النفس الأمريكي روبرت وودورث Woodworth سنة ١٩١٨ في كتابه «علم النفس الديناميكي Dynamic Psychology»، وهو يجعل الدافعية علماً يطلق عليه إسم علم الدافعية

Motivology. ومن الكتب الأولى التي تخصّصت في الدافعية كتاب يونج Jung «دافعية السلوك Motivation of Behaviour» (١٩٣٦).

وهناك نظريات كثيرة في الدافعية، فطبقاً لاسمها فإن الدافعية هي الحركة Motion باعتبارها سلوكاً، ومن وجهة النظر الفيزيقية هي عملية إستحداث الحركة وتنظيمها من خلال إطلاق الطاقة في الأنسجة، واستثارة السلوك نتيجة تنبيه معيّن هو عملية معقّدة من التحويل للطاقة، تتضمن سلسلة من العمليات الجسمية المتفاوتة في البساطة والتعقيد بحسب موضع الكائن الحي في سلسلة الترقّي. والدافعية من وجهة النظر الفسيولوجية هي عملية استثارة من المنبهات الخارجية والداخلية للأعصاب الحسّية، وصدور للسلوك كنتيجة لذلك. والدافعية من وجهة النظر الاجتماعية هي عملية تأثّر الفرد ببيئته الحضارية، فهي التي تقرّر طبيعة نشاطاته وصراعاته وتصنع سمات شخصيته. ولمحددات السلوك الحضارية والاجتماعية وجودها الموضوعي مثلما لها وجودها المادي.

وتشير مفاهيم مثل الاتجاهات Attitudes، والميول Tendencies، والعادات Habits، والعواطف Emotions، والرغبات Desires، والحوافز Incentives، والبواعث Drives، والاهتمامات Interests، والحاجات Needs، إلخ، وهي من المحددات البيئية، إلى نواحٍ مختلفة من الدافعية. والدافعية من وجهة النظر الدينامية عملية يتكون بها السلوك باعتباره محصلة تدافع قوى متعارضة تريد لنفسها الإشباع دون بعضها البعض، ويتوقف نمط السلوك على قدرة الكائن على التوفيق بين القوى المتدافعة التي تحفز إلى السلوك. والكثير من سيكولوجية الدوافع يقوم على مفاهيم علم النفس الدينامي Dynamic psychology، وعلى نتائج التحليل النفسي Psychanalysis التي قدّمها فرويد وأتباعه. وكان فرويد من القائلين بالغريزة Instinct، ويذهب الاتجاه الغريزي Instinctual attitude في الدافعية Motivation إلى تفسير السلوك باعتباره نتاجاً لعمليات من توليد الطاقة وتوجيهها وجهة معيّنة. وكان مكدوجال McDougall

(١٨٧١ - ١٩٣٨) يجعل الغرائز غرضية لها غاية وهدف، ومن ذلك غريزة الأبوة مثلاً، أو غريزة التناسل. والغريزة عند فرويد لها مصدر كما أن لها هدفاً وموضوعاً، ومصدر الغريزة هو حالة الاستثارة أو التوتر داخل الجسم، والهدف هو إزالة التوتر، والموضوع هو ما يكون به تحقيق الغريزة وإشباعها. ومعنى أن الغريزة تستهدف إزالة التوتر أنها تتوخى الإشباع الذي به يصل الجسم لحالة التوازن. ولو كانت الدافعية قد اقتصرت على الاتجاه الغريزي لتجمد البحث فيها، إلا أن السلوكيين Behaviourists إنتقدوا الاتجاه الغريزي، وذهبوا إلى تفسير السلوك مذاهب شتى. ومن ذلك أنهم قالوا بالأفعال المنعكسة Reflexes كأصل لكل سلوك، وبالحاجات والحوافز والبواعث، وذكروا في معرض هذه الدوافع مبادئ مثل مبدأ اللذة والألم Pleasure-pain principle باعتبار أن كل الكائنات الحيّة ينحو سلوكها إلى خفض توتراتها بتجنّب الألم وطلب اللذة. وغير ذلك ذهب إليه السلوكيون، ونلاحظ أن ما قالوا به جميعاً يستقي تقريباً من مصدر واحد، وهو وجود استعدادات فطرية موروثة تدفع إلى السلوك وتوجهه وتحدّده. ويتميّز في الجدل القائم حول الدافعية الاتجاه الإيتيولوجي Etiologic الذي يقوم على إرجاع السلوك الغريزي لآليات فسيولوجية تدفع إليه، وحتى إذا لم توجد الأهداف العادية أو المواقف التي تستثير هذا السلوك، فإن الكائنات الحيّة سوف تستمر في تفريغ سلسلة نشاطاتها وكأنها توجهها نحو موضوعات حقيقية أو مواقف بديلة غير مناسبة، بمعنى أن النشاط الذي لا يتم تفريغه يستحيل إلى نوع من الدوافع. وتقوم نظرية الحوافز Incentives في الدافعية على فكرة أن الحافز مصدر للطاقة، فالإفراز الهرموني الجنسي مثلاً عندما يزيد هو حافز جنسي يحفز الكائن الحيّ أن يحقّق لنفسه الإشباع الجنسي عن طريق شريك فيعود التوازن للجسم. ويفترض البعض أن كل صور الإثابة تقوم في النهاية على خفض حافز عدم التوازن، فمثلاً تعمل إثابة الطعام على خفض عدم التوازن الذي يسبّبه الجوع. ويتعلم الكائن الحيّ أن يأتي باستجابات

معيّنة كي يحصل على الإثابة. وقام حديثاً إتجاه يهتم بالمصادر الخارجية Extrinsic للدافعية اهتمامه بالمصادر الداخلية Intrinsic التي أهمها التوازن Equilibrium، فمثلاً الطعام وظيفته أنه إثابة، وهو في الوقت نفسه باعث Incentive، أي أنه يخدم أيضاً في إثارة الدافعية. والفرق بين الحافز والباعث أن الحافز طاقة فسيولوجية تحفز على الحركة، والباعث منبّه خارجي. والدوافع تصدر عن حاجات، والحاجة Need على ذلك لها دافعية، والحاجات منها الأولى أو الفسيولوجي، كالحاجة للطعام، ومنها حاجات اجتماعية أو نفسية يكون بها الانسان إجتماعياً أو يكون بها نفسه. وإشباع الحاجة باعث، فإذا كان الجوع دافعاً نفسياً فإن حركة البطن وتقلصاتها المترتبة على الجوع هي حافز، والشخص الجائع تكون به حاجة إلى الطعام، وأما الطعام نفسه فهو باعث للشخص على أن يسعى للطعام فيتناوله. وللطعام مثلاً شهوة Appetite، ويعني اشتهاء الطعام أن بالفرد رغبة Desire فيه، وللشهوات Appetites أو الاشتهاءات، وكذلك للرغبات، دافعية. ونقيض الشهوة النفور Aversion. والشهوة أو الاشتهاء يتطلبان سلوكاً إقبالياً Adient Behaviour، بينما النفور يوجب سلوكاً إحجامياً .Abient b. وللبحوث في دافعية البواعث نتائج مؤثّرة في توجيه التعليم. والبواعث قد تكون سلبية وقد تكون إيجابية، فوجود أسد في موقف قد يبعث على الهرب (سلب)، بينما كلمة تشجيع من مدرس قد تبعث على المذاكرة (إيجاب). ومن نتائج بحوث البواعث أن الهدف المحدّد يبعث أكثر على العمل، وكذلك الوعي بالنتائج المرجوة للعمل، فالذي له هدف يعمل بهمة أكثر ممن يعمل ولا يعرف لنفسه هدفاً، والذي يدرك نتائج عمله، ويستمع للمحاضرات فيه، ويشارك في المناقشات حوله، خير ممن يجهل مترتبات مما يعمل ولا يشارك في المناقشات. وكذلك فإن امتداح العمل والتشجيع عليه والنجاح فيه يؤكّد الثقة في النفس، فتسهُل الأمور على العامل، ويتيسر له التعلّم والأداء معاً، على عكس تثبيط الهمة وتوجيه اللوم والنقد والفشل.

والمكافأة والعقاب Reward and punishment دافعان للسلوك. وتعزّز المكافأة نمط السلوك الذي كانت به المكافأة، أما العقاب فله نتائج وخيمة، ومنه العقاب الخفيف الذي ينبّه إلى الخطأ، والعقاب المعتدل الذي يبعث على أن نتنكبه، والعقاب الشديد الذي يتسبّب في اضطراب نفسي وحالة من الهياج يطيش فيها التعلم ويضل الأداء، إلا أن شدّته تجعل من يقع عليه لا يكرر الخطأ الذي تسبب فيه. وكان فرويد يقول بمبدأ اللذّة الذي سبق التنويه عنه باعتباره موجهاً للسلوك، وعنده أن الإنسان يميل إلى تكرار وتأكيد السلوك الذي تتحصّل له به اللذّة، ويتجنّب كل ما من شأنه أن يعود عليه بالألم. وقديماً كان مذهب اللذّة Hedonism من المذاهب الكبرى في الفلسفة، بمعنى أن كل إنسان يميل إلى أن يأتي من السلوك ما يعطيه اللذّة ويكون به شعوره بالمتعة، وهو المذهب الذي حدا بفيلسوف مثل هيربرت سبنسر Spencer (١٨٢٠ - ١٩٠٣) إلى أن يقول بمبدأ اللذّة والألم Pleasure-pain principle، باعتبار أن اللذّة والألم يصدر عنهما كل سلوك.

ولعل ذلك أيضاً هو ما دعا ثورانديك Thorndike (١٨٧٤ - ١٩٤٩) إلى أن يقول بقانونه المسمّى قانون الأثر Law of effect، فأنماط السلوك التي تتعزّز بمقتضاه هي التي لها آثار مشبعة. ولو طبقنا وجهة نظر المجال عند ليفين Lewin (١٨٩٠ - ١٩٤٧) على قانون الأثر أو مبدأ اللذّة لقلنا إن كل سلوك مشبع له جاذبية Valence، وجاذبيته هي دافع لتكرار السلوك. وليفين عندما يؤكّد على الحاجة كدافع للسلوك يؤكّد على قيمتها النفسية، فالحاجة إلى الطعام مثلاً ليست حاجة أولية بل نفسية، لأن للطعام عند الجائع قيمة نفسية وليست مادية، ولذلك يرى ليفين أنه حتى الميول والرغبات هي شبه حاجات Quasineeds، ولها قيم نفسية كالحاجات، ومن ثم دوافعها السلوكية هي دوافع نفسية.

وقد تكون العادات Habits دوافعاً للسلوك، إلا أن العادة تختلف عن الدافع، فالعادة نمط من السلوك المكتسب والمختزن الذي يُستدعَى عند الحاجة، ورغم أن العادة موجودة دائماً وكامنة فإن استدعاءها يكون على فترات، وكمون

العادة واستثارتها ليس فيه توتر، بعكس الدافع فهو وإن كان كامناً أحياناً، فالكائن يظل متوتراً به إلى أن يتحقّق له الإشباع، فإذا أُشبع زال أثره وتوقّف عن التأثير، وأما العادة فممارستها لا تعني أنها قد زالت وانتهت.

وأما علاقة الإرادة Will بالدوافع، فالإرادة تعني التصميم والاتجاه نحو فعل، وبمقدار التصميم تكون قوّة الإرادة أو ضعفها. والإرادة هي أن يقرّ قرارك على شيء وتختاره دون أمور أخرى، ومعنى ذلك أنه في الإرادة تتراوح المريد دوافع كثيرة، وربما يقوم الصراع بينها، وعلى المريد أن يختار بينها، وأن يفاضل بين كل الدوافع. والاختيار والمفاضلة يعنيان التفكير، والتدبّر، والتعلم من المحاولة والخطأ، ومقارنة التوقعات لبلوغ قرار ما. غير أنه في القرارات الإنسانية لا تكون كل الدوافع ظاهرة، فهناك الدوافع الدفينة Internal ms. التي تعمل عملها في الإرادة والاختيار واتخاذ القرار، فإذا اخترنا وقرّ قرارنا فإننا نمهر في تبرير اختياراتنا. والتبرير Rationalization، والإسقاط Projection، والتعيّن Identification، والكبت Repression، والتسامي Sublimation والترميز Symbolization، إلخ، من الدوافع اللاشعورية التي يرجع فضل الكشف عنها لفرويد، وإن كانت لا ترجع لفرويد تماماً وإنما كان التوسع في استخدامها وتأكيد دورها من أهم إسهاماته في مجال الدافعية. وفرويد من القائلين بأن: كل سلوك لا بد له من دافع وإن خفي علينا، وحتى زلاّت اللسان، ونسيان الأشياء والمواعيد، والغفلة عن أشياء، والغفلة التي تتسبب في الحوادث، والحركات العفوية، والأحلام، وأحلام اليقظة، وشطحات الخيال؛ تصدر جميعها عن دوافع لاشعورية، ونحقق من خلالها ما لم نستطع تحقيقه بالوعي، وفي اليقظة والانتباه، فإذا كانت تأتينا أحياناً رغبات لا نرضى عنها، أو نخاف أن نعلنها، ومن ثم نكبتها، فإنّ كبتَنا لها لا يعني انتهاءها، بل تظل في اللاشعور وتؤثّر في السلوك، وقد تظهر كأعراض سلوكية مرضية، فيكون الخوف المرضي أحياناً من أشياء لا داعي للخوف منها إطلاقاً، أو قد تتملكنا بسببها أفكار تستحوذ على عقولنا

وتعوق تفكيرنا وتكيّفنا مع الواقع، وقد نعي الأعراض أو ينبهنا إليها آخرون، ولكننا لا نعي الدوافع التي خلفها والتي استثارتها وكانت السبب فيها. وليس التبرير إلا محاولة لإضفاء المعقولية على السلوك وإظهاره بمظهر التوافق. ويهدف التحليل النفسي إلى تبصير المريض بدوافعه المكبوتة وصراعاته، بأن يعايش من جديد خبراته الصادمة التي أظهرها التحليل، وبذلك ينفّس عن توتراته ويستعيد توافقه.

ويمكن أن تكون الحالات الانفعالية دوافع في بعض الأحيان، وقد تصاحب الدوافع، فالجوع مثلاً دافع، ومن الجوع يكون الضيق والعصبية. والجائع في سعيه إلى الطعام وفي توقعه له قد يستشعر إنفعالات معيّنة، وإذا اعترضته عوائق ربما ثار واحتدم غضبه، وإذا ما تجاوز العوائق فقد يسعد لذلك ويبتهج. والخوف إنفعال ودافع، وهو انفعال لأن الخائف يتوتر وقد يندفع إلى الهرب، وقد يكون خوفه من النوع الحاد المرضي كالخوف من الخلاء، أو من الأماكن العالية، أو الأماكن الضيقة. وتؤثّر المخاوف المرضية على السلوك وتكون دوافعاً قوية تطبع حياة الخائف بطابعها المرضي. والقلق كذلك دافع وإن اختلف عن الخوف، لأن الخوف يكون من موضوع بعينه، وأما القلق المرضي فهو من كل شيء ومن لا شيء، والقلق المرضي هو هذا القلق الهائم أو القلق النفسي، ويُرجعه أصحاب التحليل النفسي إلى خبرات الولادة والانفصال في الطفولة عن الأم، وحالة الإهمال والحرمان العاطفي للطفل. والغضب إنفعال مصاحب للدافع يستثير العدوان. ويتسبّب الفشل والإحباط في الغضب. وقد يتوجّه الغاضب بعدوانيته إلى نفسه. والانفعالات الحادة عموماً تقلل من كفاءة الفرد وقدرته على التعامل مع المواقف المختلفة وتعطّل التفكير وتفسد الأداء. ويتميز بعض الأفراد بانخفاض تحمُّلهم للإحباط، فإذا استثيروا فقد يلجأون إلى الانتحار على أن يستمروا في حياة فاشلة، وقد يصيبهم الاكتئاب الشديد. ويفسّر العلماء السلوك السيكوباتي بتأثير خبرات الطفولة الانفعالية الصادمة. ومن الواجب

إستشارة الأخصائيين النفسيين في أمثال هذه الحالات.

ومن الممكن تغيير الدوافع والاتجاهات، ونحن نغيرها فعلاً باستمرار خلال مراحل الحياة كما ذكرنا، إلا أن بعض الدوافع والاتجاهات المريضة لا يسهل تغييرها إلا بالعلاج النفسي. والدوافع التي يمكن تعديلها هي الدوافع الاجتماعية، لأن الدوافع الأخرى والمسماة بالفسيولوجية دوافع أساسية يكون بها بقاء الإنسان واستمراره في الحياة، وأما الدوافع الاجتماعية فهي دوافع مكتسبة وليست فطرية. والدافع الاجتماعي دافع يثيره ويشبعه أن يكون الشخص مع آخرين وأن يتفاعل معهم، ولذلك فالدوافع الاجتماعية معقّدة لأنها تنشأ وتنمو في ظل الظروف النفسية للشخص، مثل الحاجة إلى الانتماء إلى جماعة، والمشاركة الاجتماعية، والتقدير، بينما الحاجة إلى النجاح، أو إلى الاستقلال، أو التملك، دوافع ثانوية، في مقابل الدوافع الأولية، إلا أن الدوافع الذاتية هي أعلى الدوافع في ترتيب الدوافع Motivational hierarchy. وتأتي «تأكيدات الذات» كحاجة تُشتَق منها الحاجات وتصدر عنها كل أنواع الدوافع، والشخص لكي يؤكّد ذاته لا بد أن يعدّل باستمرار في سلوكه ليتوافق مع الظروف ويتكيّف معها، منفعلاً بها وفاعلاً فيها، وهو مضطر لإجراء هذا التعديل أو التغيير، وقد يطلب مساعدة العلاج النفسي أحياناً، والتغيير المطلوب في الذات بتعديل الدوافع ومساراتها يكون بالتدريج، أو بالتحوّل الحاد الذي قد تتزعزع به الذات ويصاب الشخص من جرّائه بالانهيار النفسي.

وقياس الدوافع يكون بقياس الظروف التي تؤدّي إليها وتستثيرها، وبقياس المظاهر التي تصاحب الدافع وتكون علامة عليه، فالجوع مثلاً كدافع يمكن قياسه بعدد الساعات التي لم يتناول فيها الشخص الطعام، وما يمكن أن يكون فقده من وزن بسببه، والسعرات الحرارية التي يمكن أن يكون قد استنفدها في فترة الجوع. وقد يقاس الدافع بقوّة السعي لتحصيل الطعام مثلاً، وسرعة الاستجابة له، وبترديد الشخص لكلمات نستشف منها تملك

الدافع لنشاطاته النفسية، كأن يلاحقه في منامه ويقظته على شكل الأحلام أو أحلام اليقظة.

مراجع:

- Lindzey: Assessment of Human Motives.
- Maslow: Motivation and Personality.
- Eysenck: Experiment in Motivation.
- Bolles: Theory of Motivation.
- Allport, G.W.: Function Autonomy of Motives.
- Atkinson, J.W.: An Introduction to Motivation.



– ٩ –
سيكولوجية العادات

العادة سلوك له قوَة دفع. العادات سمات للأفراد يُعرفون بها. العادات الخاصة والفكرية والانفعالية والحركية، والموجبة والسالبة. تكوين العادات وقوّة تأثيرها وتداخلها. تقادم العادات وتدهورها.



العادات أنماط معيّنة من السلوك المكتسب الذي نتعلمه أثناء الممارسة ووفقاً للتكوين النفسي والعضوي والحركي والذهني الذي لكل فرد، وبحسب المستوى الثقافي والأنماط السلوكية والمعرفية والوجدانية التي تنتقل إليه من مجتمعه. والعادة Habit سلوك يتكرر معنا فيثبت وتصبح له قوّة دفع توجّه الفرد وجهات معيّنة، وتطبع تصرفاته، ويُعرف بها، وتكون بمثابة السمة أو الدليل عليه. والعادات جزء من الشخصية، وكل فرد لا بد أن تكون له عاداته الخاصة في المأكل والملبس والمشي والنوم والقراءة والكتابة وقيادة السيارة، إلخ، كما لا بد أن تكون له عاداته الفكرية Intellectual hs.، وهي طرقه في التفكير وتناول الأمور ومواجهة المشاكل، وهو إذ يتحدث فهناك ألفاظ معيّنة تتكرر منه، وأساليب لغوية تكثر معه، وله أيضاً عاداته الانفعالية Emotional hs. وهي طرقه التي يُظهر بها انفعالاته في الغضب والسرور وغير ذلك، وعواطفه التي يعبّر بها عمّا يحب ويكره.

والعادات تتكون نتيجة وجود الفرد في عدد من المواقف المتشابهة ذات

الخبرات الواحدة التي تؤثر فيه، ويكون تكرارها معه بالطريقة نفسها أو بطرق مشابهة - طُرز العادة h. patterns، فينظمها بطريقة غير شعورية حول هذه الخبرة أو تلك h. training، وتتكون بها العادة، سواء كانت عادة إنفعالية أو معرفية أو حركية Motor h.. والعادات الانفعالية تتحكم في اختيارات المرء وعلاقاته التفاعلية، وقد تُسمَّى أحياناً باسم العواطف أو الميول السائدة، فالبخيل الذي لديه عادة اكتناز المال يوجّه سلوك هذا الميل السائد نحو جمع المال. والعادات منها الموجب أو السالب، والتدخين عادة سالبة Negative h.، بينما عادة القراءة قبل النوم قد تكون موجبة Positive h.. ولأهل المهنة الواحدة عادات فكرية متقاربة، وهي طريقتهم في التفكير التي اكتسبوها بالتعلّم على أيدي غيرهم من المشتغلين بالمهنة. وقد يكون للفرد الواحد أكثر من عادة فكرية، فالطبيب قد يفكّر بطريقة الأطباء في مجال الطب، ولكنه أيضاً قد يكون شاعراً فيفكّر بطريقة الشعراء إذا كان المجال هو مجال الشعر. والعادات الحركية Motor hs. مهارات حركية مكتسبة، فالعازف على البيانو يعتاد العزف بطريقة معيّنة تسهّل له أن يجلس وأن يحرّك أصابعه، ولاعب الكرة يكتسب مهارة اللعب بعادات سلوكية في اللعب من شأنها تحقيق أبسط الجهد مع الأداء المتميّز. والعادات عموماً لها هذه الخاصية، حيث أنها تساعد على التوافق بأقل الجهد، والقيام بأكبر قدر من الأفعال بطريقة آلية شبه تلقائية. وتحتل العادات عند الإنسان مكانة أنماط السلوك الفطري عند الحيوان. ومن العادات السالبة ما يسمى العادات العُصابية Neurotic habits، أو الهستيرية Hysterical، أو اللوازم tics، وهي أنماط سلوك خاطئة يتوافق بها العُصابي مع ظروفه. واضطرابات العادات h. disorders هي اضطرابات في السلوك، مثلما في العادة السرية، أو قضم الأظافر، أو مص الإبهام، إلخ. وتكوين العادات habit formation هو عملية اكتسابها بالتعلّم. ومن العقاقير ما يكون تعاطيه مُكسِباً لعادة التعاطي Drug habit-formation، أو اعتياد العقار Drug

habituation. وهـرمـيـة الـعـادات Habit hierarchy إصطلاح «هل» Hull (١٨٨٤ - ١٩٥٢) باعتبار أن للعادات قوّة تأثير Habit strength بحسب التعزيز الذي تناله h. forming وتتدعم به، ويكون به قوّة دفعها وتوجيهها للسلوك، أو أن العادات الأبسط ذات الموضوعات المتشابهة قد تجتمع وتتآلف وتكوّن عادات أكبر وأكثر تعقيداً، فعادة الكتابة مثلاً قد تتضمن عادة كتابة الحروف المفردة، وكذلك عادة إيصال ما بين الحروف لتكوين الكلمة، وأيضاً عادة التزام الخط المستقيم، أو أن يتّجه الخط إلى أعلى أو إلى أسفل، والطريقة التي تأتي بها نهايات الكلمات، أو تنقيط الحروف، إلخ. والعادات قد تتداخل Habit interference فيجُبّ بعضها البعض، أو يُضعف بعضها البعض، أو يختلط بعضها بالبعض. وتقادُم العادات Habit progression هو أن تَضعُف القديمة لتحلّ محلها العادات الجديدة. وتدهور العادات Habit deterioration هو ضعف تأثيرها كظاهرة من ظواهر تحلّل الشخصية، فالشيخ الطاعن مع انتكاس قواه العقلية لا يلتزم عاداته في النظافة والآداب الاجتماعية وضبط الإخراج، وتسوء ممارساته اليومية إلى أن تتدنّى وتصير ممارسات نمائية كما عند الحيوانات. وعلاج اضطراب العادات يتم بالعلاج التنفيري Aversive therapy، بالتنفير من العادات السيّئة، وإحلال عادات طيبة بديلة بدلاً منها.

مراجع:

- James W.: Princples of Psychlogy.
-Eysenck, H.J.: Behaviour Therapy and the Neuroses.



- ١٠ -

سيكولوجية الرشد Adult Psychology

سن الرشد. الذكاء فيه والبلوغ والنمو الوجداني. الرشد والموقف الأوديبي. منافسة الأشقاء. الهوية الجنسية. الرشد سن الفتوة والنقد. مجتمع الراشدين. الشباب صوت التغيير. سن

العواطف والتحديات والهوايات والتجارب الجنسية. أدوار الفتاة والفتى. الشباب سن الاكتئاب والعصاب النفسي. الرشد الناضج. معاناة التناقض. صراعات الأجيال...

❖ ❖ ❖

الرُّشْد Adulthood هو سن التعقّل والرشاد والهداية، ويبدأ في نحو العشرين، وبعض الشعوب تجعله شرعاً في الواحد والعشرين، وينتهي قبل الخمسين، غير أنهم يميّزون فيه بين الراشد الغر Young adult والراشد الناضج Mature adult، والأول هو الشاب بين العشرين والثلاثين، والثاني هو الراشد الذي يتجاوز الثلاثين إلى ما قبل الخمسين. ولا يبلغ الشاب الرجولة قبل الثلاثين أو نحوها، فإذا تجاوز الثلاثين إلى الأربعين، فالبعض يُسمي ذلك أواسط العمر Middle age، والبعض يجعل السن بعد الأربعين إلى الخمسين سن الكهولة Later adulthood، وقد يقال لهذه السن ما قبل الشيخوخة Presenility، وقد تمتد السن ما قبل الشيخوخة حتى الستين.

وقبل الرشد يكون المرء حَدَثاً أو قاصراً، ومعنى رَشُدَ أنه قد أصبح شرعاً أهلاً للمسؤولية، فيتزوج، ويتعاقد، وله كافة الحقوق المدنية، ما لم يكن مصاباً بنقص عقلي أو جنون.

والرشد لا يتساوق في كل النواحي باعتبار السن، فالذكاء ينضج قبل العشرين بكثير، وهو يبلغ غاية نموه Adult intelligence في السن بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة، والبلوغ الجنسي، يحدث قبل ذلك، وربما في السن بين العاشرة والخامسة عشرة، وربما قبل ذلك وربما بعد ذلك. «والنمو الوجداني» يكون في ذروته في السن بين الرابعة والعشرين إلى الثلاثين. «ونمو القامة» يتوقف في نحو الثامنة عشرة، وإن كان نمو الجسم في غير الطول يستمر إلى نحو الثلاثين. وقيل إن النضج يبلغه الدماغ بمقتضى الرسم الكهربي في نحو الواحدة والعشرين، وأما قبل ذلك فصورة الدماغ لا تنبئ عن نضوج. ويتأخر نضج العُصابيين، وربما تبقى

الصورة الكهربية للدماغ على شكلها الطفلي طوال الحياة.

ولسن الشباب سمات واتجاهات واهتمامات، وفي الشبوبية تكون «الشخصية» ما تزال في التكوين، وما تزال معالمها تتحدّد، وإن يكن الشاب في جاوز المراهقة، إلا أن آثار المراهقة ما تزال تعتمل فيه، وما تنفك خبراتها توجهه.

والراشد الشاب يحتاج لبعض الوقت لكي يزول عنه ما يعلق بشخصيته في المراهقة Adolescence، وربما تتثبت الشخصية على بعض السمات، أو يتمرّد الشاب على بعضها وينهج عكسها. ومن ذلك الخبرات الجنسية، وتتوجه جنسيتنا ونحن بعد أطفال للأبوين من الجنس الآخر The other sex، ويكون تعيُّننا من بعد بالأبوين من الجنس نفسه، ونميل في الصبا للأطفال من جنسنا، وفي المراهقة تتوجه ميولنا للجنس الآخر، فإذا أصبحنا شباباً تراوحتنا الميول بين الجنسين فلا نستغني عن الأصدقاء والأتراب، ونهفو كي نحب وتكون لنا علاقات جنسية غيرية. وفي سن الرجولة ترتقي دوافعنا الجنسية Sexual motives وتصبح دوافع تناسلية Genital ms.، فنتزوج كي نشبع فينا الرغبات الجنسية، ولكنها الرغبات المتسامية الهادفة الغَرضية التي يكون لنا بإشباعها الولد. والشبوبية هي سن الذروة الجنسية، وفي الرجولة تكون لنا السيطرة على شهواتنا، وندرك أبعاد قدراتنا، وتتحدد غاياتنا من الجنس، كما تتحدّد معالم شخصية الشريك الآخر الذي نأمل أن يقاسمنا الحياة، وصفاته وشكله، ثم تأتي الكهولة فيقف نشاطنا الجنسي. وقيل إن النساء يكن في الكهولة في قمة النشاط الجنسي، وفي هذه السن، أي بين الثلاثين والأربعين لا تعود المرأة مُحرَجة جنسياً، ويزول عنها خجلها، ولذلك فهي تستمتع في هذه السن بالجنس خيراً مما كانت تفعل في العشرينات.

وفي طور الشباب تظهر إيجابيات وسلبيات الطفولة والمراهقة، وذلك أننا نكون في صراعات ومجاهدات مع أبوينا وإخوتنا وأخواتنا، وليس منّا من لم يدخل «الموقف الأوديبي Oedipus situation» الذي يضم الأب والأم والطفل، وتكون

العلاقات بين الثلاثة في شدّ وجذب ويتأثر بهما الطفل - أي بالأب والأم - ويصنعان شخصيته، ويتوقف على حلّ الصراعات الأوديبية مستقبل الشخصية. وأيضاً فنحن ندخل فيما يسمى «منافسة الأشقاء Sibiling rivalry»، فنقترب من بعضهم، ونتعين ببعضهم، ونكره بعضهم، ثم نسقط من بعد ذلك نتائج هذه الخبرات على علاقاتنا بالأتراب والأصدقاء. فكأن الطفولة والمراهقة تحدّدان نمط الشخصية في الشباب، ونمط العلاقات التي يمكن أن تكون لنا بالناس، وتتدخلان في كل علاقاتنا التفاعلية المستقبلية. ومن شأن هذه الخبرات أن تتكون لنا من خلالها أنماط سلوكية نكررها وتلاحقنا في مراحل حياتنا كلها، وقد نعي أبعادها ونعرف بأمرها، وقد نتصرف بدون وعي باعتبار أن دوافع السلوك منها ما هو لاشعوري، وقد يطلب الشاب في سن الرشد أن يدرس الطب مثلاً لأنه أخذ عن أبيه حبّ هذه الدراسة بالتعيّن به وبأهدافه في الحياة، وربما لأن الأب أو الأم أو الاثنين معاً كانا دائماً يرفعان مستوى الطموح Level of aspiration عنده. ويُزكيان فيه أن يكون ما يريدانه، وذلك ما نسميه السلوك وفق مقتضى توقعات الأهل. وقد تكون لبعضنا شخصية عدوانية فتدفعنا ميولنا إلى دراسة الشُّرطة لنمارس هذه العدوانية فينا، ولكنها الممارسة التي يشجعنا عليها المجتمع ويثيبنا عليها. وربما تكون خبرات الطفولة والمراهقة فيها معاناة الحرمان من أحد الأبوين أو كليهما، من جرّاء طلاق يقع بينهما، أو انفصال بسبب الغُربة، أو السعي وراء الكسب في بلاد بعيدة، أو نتيجة مرض عضال، أو بسبب الحرب، إلى غير ذلك من الأسباب - كالموت والسجن، فينشأ الطفل يفتقد الحنان، وبه جوع للحب، أو ينمو مجدباً من العواطف متقزّم الوجدان، وفي الحالين يعجز في الشبوبية عن أن تكون له علاقات دافئة بالناس، وأن يتزوج كالآخرين، وأن تكون له أسرة يَعمُرها الحب، ويُدفئ أفرادها الحنان. ولربما ينشأ الطفل بين أبوين يحتدم بينهما الصراع والخلاف، أو تكون الأم نابذة والأب مستبداً أو العكس، فيضطرب تعيُّن الطفل بهما ويتوه عنه تفهُّم دور الأب

أو وظيفة الأم، وهو ما نعرفه باسم وعي الهوية الجنسية. وإذا لم يصادف الطفل من يعوّضه عن كل ذلك، كبديل للأب أو للأم، فإنه ينمو نمواً وجدانياً شائهاً، وربما يتأثر عقلياً بالعزلة النفسية التي يعيشها، ومن ثم فنحن في الشيبوبة غَرْسُ الطفولة والمراهقة.

والمراهقة هي «سن العواصف Age of storms»، وتتوقف شخصية الشاب من بعد على طريقة تعامل المحيطين به في المراهقة، وعلى الصورة التي تتحصّل له عن نفسه، وعن الناس، والحياة عموماً. ولربما لكل ما سبق يخرج بعضنا من الطفولة والمراهقة مثخناً بالجراح النفسية، ويقضي عمره كله يداوي هذه الجروح ويتردّد على العيادات النفسية يحاول أن يجد لها العلاج. ونحن نشبّ قساة القلوب لأننا ننشأ في بيئة عدوانية، وقد نكون مستبدين لأن الأب كان مستبداً، وقد نكون خانعين لأن الأم كانت متسلطة، وعكس ذلك الشاب المتوازن وجدانياً، والمنضبط سلوكياً، والمتحمّس للحياة، والمقبل عليها، فذلك لأنه قد تلقى تربية صحيحة ونَعِم بجو عائلي سليم.

وفي سن العشرين أو «سن الفتوة Youthfulness»، تتميّز عموماً إتجاهات واهتمامات، وتبرز سمات للشخصية، ومن ذلك أن هذه السن هي «سن التعقُّل Age of reason»، قياساً إلى سن العواصف في المراهقة، ولعله لهذا السبب يُطلق إسم الرُّشْد على هذه السن، والرشد في اللغة هو الهداية. وفي هذه السن تقوى الدوافع والنوازع، إلا أننا نميل أن نضبطها ونتحكم فيها، وتكون بنا أشواق روحانية تتعادل بها عندنا النزعات المادية. وسن الفتوة هو أيضاً «سن الاندفاع The age rashmess»، وقد يندفع الشاب بلا ضابط يشبع رغباته ويعيش لها، وقد يعاندها وتكون له تطلعات دينية، والغالبية العظمى من أعضاء الجمعيات الدينية هم من الشباب.

ولعل من مظاهر التعقل النقد، وسن الشباب هو «سن النقد The age of criticism» الشديد يلزم به الشاب نفسه والمجتمع الذي يعيش فيه، ونقده لنفسه إختبار لقدراته ولذكائه ولشخصيته عموماً، ويصدر عن الخوف من الفشل أحياناً، والرغبة في النجاح ولتأكيد ذاته.

وهو يقاوم رغباته الشهوية التي قد تستبد به يريد أن يضبط سلوكه، وانضباطه إنجاز لنفسه، ونقده لنفسه يقوّم به المعوج من توجهاته، ويعيد به تقويم أهدافه. وهو يختار من الأهداف ما يقرّه المجتمع فيحقّق بذلك نجاحين، نجاحاً ذاتياً وآخر إجتماعياً. ونقده المستمر لنفسه يجعله دائم المساءلة لنفسه ومعاودة التفكير في أهدافه، والانشغال بأن يجد الفرصة للنجاح. والنقد صورة من الصراع مع ذاته، وانعكاس للصدام بين ميوله الشعورية واللاشعورية. والنقد سلوك عدواني، والشباب في سن الرشد عدوانيون، غير أن عداءهم قد يتوجهون به إلى ذواتهم، وقد يوجهونه إلى مجتمعاتهم. ويصدر نقدهم عن محاولة لأن يقيسوا أنفسهم ومجتمعاتهم إلى ما يتصورونه لها، يريدون أن تتحقق هذه التصورات مستقبلاً. والشباب مستقبليون دائماً ويتحدثون بصيغة المستقبل. وفي الشباب تكثر أحلام اليقظة التي يجدون فيها الإشباع عن الحاضر القاصر والمستقبل الواعد. ونقدهم للمجتمع يصدر عن ميول فيهم من المراهقة لمقاومة السلطة. والسلطة قد يكون من رموزها الحكومة، أو المؤسسات الاجتماعية: كالأسرة، والجامع، والمدرسة. ويتوجّه نقد الشباب لهذه الرموز، وتستغل الأحزاب السياسية هذا الميل فتحاول أن تضم الشباب للمعارضة. وتتميز صحف الشباب الحزبية بلهجة عدوانية وأوجه للنقد لا حصر لها. وتقوم الجمعيات الثورية السريّة على الشباب، ويصوغ منشوراتها كتّاب ومفكّرون من الشباب، وتتوجه أساساً إلى الشباب. ويعي المشرفون على الأحزاب سيكولوجية الشباب ورغبتهم في التميُّز في اللباس والتعبير والمشية. ويصدر هذا التميّز عن رغبة في مقاومة الانتماء، وإظهار العناد للسلطة حتى في الزي، وتُهيئ الأحزاب للشباب أزياء خاصة، وكانت للشباب النازي، والشباب الفاشيستي، وشباب مصر الفتاة، وتركيا الفتاة، قمصان خاصة بألوان معيّنة وشارات مميّزة، وكانت لهم هتافات وشعارات يردّدونها وينفردون بها ويُعرَفون من خلالها.

ومن مظاهر سن الرشد أن يعمل الشباب من خلال التجمّعات، وإذا كان سن المراهقة هو «سن الفردية The age of individuality»، فإن سن الشباب هو «سن الجمعية Age of collectivity»، وتنصرف نشاطات الشباب وطاقاتهم وإبداعاتهم من خلال تجمعات الشباب. وفي التجمع يمارس الشاب المسؤولية عن نفسه والجماعة، ويستشعر الانتماء ويمارس الولاء الجمعي. وميول الانتماء والولاء الجمعي من أبرز الميول عند الشباب، والمسؤولية الجمعية التي يتطوع لها الشاب مختاراً تلزمه من هذه السن، وتمهّد لمسؤوليات إجتماعية أكبر سيضطلع بها مستقبلاً، ويهديه إليها تصوره للمستقبل، وهو تصور يتولّد به عند الشباب توهم أنهم يصنعون المستقبل من جديد. وسن الشباب هو سن هذه الأحلام: أن يكون للشاب مشروعه الخاص لنفسه، ومشروعه الجمعي لمجتمعه، والمشروعان يتوافقان، وغايتهما المجتمع الجديد أو مجتمع الغد، ومن ذلك مثلاً ما تعرضه «مسرحية الناس اللي تحت» لنعمان عاشور، وهي نموذج لكتابات الشباب، ودراسة لتطلعاتهم، وأبطال المسرحية من الشباب، ويدور حوارهم حول الغد وما يكون فيه، وأرض الأحلام التي ستكون، واليوتوبيا Utopia التي سيصنعونها من مصر الغد.

وأحلام الشباب ومشروعاتهم للغد قد تكون من دوافعهم لقلب نظام الحكم، والجدير بالذكر أن أغلب من قاموا بالانقلابات من الشباب، ولم يتجاوزوا الثلاثين إلا قليلاً، وهكذا كانت أعمار أعضاء مجلس قيادة الثورة في مصر، والضباط الأحرار في سوريا، والقذافي، وجلّود، وكاسترو، وماوتسي تونج، والنميري، وتيتو، ونكروما، ولومومبا، وبورقيبة، وبن بلا، وبومدين، إلخ. وقد تُهدى أحلام الشباب إلى مشروعات تخدم مجتمعاتهم والإنسانية كافة، وكذلك كانت أحلام أديسون، وماركوني، ونيوتن، وإينشتاين. «والشباب هم صوت التغيير في الأمم»، وبهم حساسية مفرطة لنواقصها وسلبياتها وعيوبها وأمراضها ومشاكلها، وكذلك يكون تعيّنهم بالمُصلحين والثوريين

والمُبدعين. ولو قرأنا تاريخ العنف السياسي لهالنا أن كل القائمين به من الشباب المتطرّف الذي سعى لتغيير الأوضاع وصُنع المستقبل.

وإذا كانت المراهقة هي «سن العواصف» فالشباب هو «سن العواطف». وعواطف الشباب وأشواقهم جيّاشة، والشاب في السن الصغيرة يقع في الحب لا لأنه يتمنى فتاة بالذات، ويعشق امرأة بعينها، ولكن لأنه يريد أن يقع في الحب نفسه، فتجربة الحب تستهويه، ويستميله منها أن يكتوي بنارها، وأن يعرف حرارة الشوق ويكابد عذابات الحب، على عكس الراشد فيما بعد الثلاثين، فالحب عنده يرتبط بإنسانة لها إسم وكيان وشكل ومواصفات معيّنة، ويريدها لنفسه زوجة، وأن يكون له منها الأولاد، وأما قبل ذلك فالحنين عند الشباب هو معاناة، ينصهرون بها، وتصقل تجاربهم، وتصنع شخصياتهم، وتثري خبراتهم، ولذلك كانت أكبر القصص الرومانسية بأقلام شباب، وأشخاصها من الشباب، وكانت أيضاً أكبر المآسي في الحب، فهكذا كانت مجدولين، وروميو وجولييت، وهكذا كان شعراء مثل مجنون ليلى، وجميل بثينة، وكُثيّر عزّة.

وتواجه الشاب تحدّيات، ولعل أبرزها توقعاته لنفسه، وهي التوقعات التي تستهدي بصورته عن نفسه. وتوقعاته لها «حضور نفسي»، وتشتملها أحلام يقظته، وتختلط بها توقعات أهله له، وتوقعات أصدقائه وأحبابه ومدرّسيه. والشاب في باله هذه التوقعات جميعها، وهي دوافع له توجّه سلوكه، وتتَّحد بها أهدافه، ويعمل من أجلها، وتكوّن ما يُسمَّى شَبكَة التوقعات، وبسببها يكون حضور أهله وأصدقائه وأحبابه ومدرّسيه في ذهنه وفي نفسه، هذا الحضور الذي يربطه بهم ويجعل للعمل معهم قيمة خاصة، ويكون به التزامه، وبسببه قد يقبل المخاطرة، وقد يخطّط لأهداف بعيدة قد تستغرق منه السنوات، وقد تستنفد الكثير من الجهد ويضحّي في سبيلها بالعاجل من أجل الآجل. ورغم أن الشباب متعجلون إلا أنهم أيضاً يتعلمون الصبر ويمارسون «الانتظار»، والتوقعات تلزمهم بالانتظار ولا بد لهم منه، غير أن الانتظار عندما يطول يولد التوتر

ويستجلب القلق. ويتعلم الشاب أن يحتمل حتى لا يعاق عمله ويتهدّد مستقبله، وهذا «الاحتمال» بمثابة تحدٍّ يومي لطاقاته وقدراته ومقومات شخصيته، ولسوف يتعلم أن تكون له «هواياته» لهذا السبب، ويسعى جاهداً ليعرف أي الهوايات تناسبه في هذه السن المبكرة من الرشد، كما يجهد أن يعرف أي المهن يمتهن، وأي الأعمال يتقلد، وسيعرف ما يناسب ميوله واتجاهاته وقدراته فيما بعد عندما يصل إلى «سن الرجولة»، أي بعد الثلاثين. وقبل هذه السن سيمارس كل الهوايات، ويشترك في كل الرياضات، ويتعلم من أسرار كل مهنة سراً، ومن فنون كل حرفة فناً. والهوايات ضرورة من مقتضيات الشبوبية. وسنجد الشباب يلتحقون بالأندية الرياضية، ويشاركون في الأنشطة الاجتماعية، وينضمون للجمعيات الخيرية، وتشملهم قوائم الأحزاب السياسية والتنظيمات المختلفة، وهي ضرورة لأن فيها وفي اهتماماتها يكون صرفهم للتوتر والقلق اللذين يتولّدهما الانتظار الطويل لتوقعات لا بد لها من السنوات لتتحقّق، ثم ان هذه الأنشطة تعطيه جَلَداً أكبر، وتصقله نفسياً وبدنياً وذهنياً، وتعدّه من كل النواحي لمواجهة التحدّي الأكبر الذي ينتظره، والذي يقتضي تكويناً نفسياً وبدنياً وذهنياً واجتماعياً خاصة، وهو التحدّي الذي يستلزمه مشروعه الخاص لنفسه، ومشروعه الجمعي لبيئته، ويلزم له أن يكون على وعي بطموحاته وآماله وتصوراته للمستقبل، وعلى بصيرة بتوجهات مجتمعه ونواقصه وعيوبه، وسلبياته وإيجابياته، والحِرَف فيه والتقاليد والأهداف والسلوكيات، وبذلك يتوازن المشروعان ولا يتصادمان، ويتكاملان، فيجعل منهما مطلبين غير متعارضين.

«وتأجيل مشروع الزواج» تحدّ من تحديات سن الشباب، والشاب يكتمل نموه الفسيولوجي نحو هذه السن، وفيها تكون فورة الجنس وشِرّته أيضاً. وللجنس فورة وشِرّة. والجنس علامة من علامات الصحّة العامة والفتوة. والفتى في هذه السن يكتمل جنسياً، وكذلك الفتاة تنضج ويظهر نضجها. وسن الشباب هو سن التجارب الجنسية، وكان سن المراهقة

«سن العادة السريّة». وفي عهد الشباب يكون التواعد باللقاء، «والحب من أول نظرة»، وتكون خبرات «الحب العُذري»، والحب المادي، ويكون الظمأ الشديد للزواج، وتأجيله للزواج بمثابة التحدي لقدرته على الاحتمال والصمود، ولمثابرته ليتحقّق له أن يتزوج بأسرع ما يستطيع. ويبدو أن نسبة عالية من الشباب يستطيعون أن يمارسوا الجنس بدون زواج، وقيل إن نحو ٥٠٪ من الشباب في سن الرشد ربما قد مارسوا الجنس ولو لمرّة واحدة، وانه ببلوغ الثلاثين تزيد هذه النسبة إلى نحو ٧٠٪ (Kinsey: Sexual Behaviour in the Human Male)، إلا أنه من ناحية أخرى فإن هذا التصرف غير الشرعي للجنس، قد يزيد من وطأة التحدّي الجنسي بما يخلقه من مشاعر ذنب وقلق وصراعات، قد تكون لها أوخم العواقب على تصدّع الشخصية وشذوذ السلوك أو انحرافه. والبعض يرقى بتحدي الزواج ويجعله تحدياً أخلاقياً أو يجعل مضمونه أخلاقياً، وبه يكون اختبار الكثير من أفكار الشاب، ومُثُله، وثقته في قدراته، واحترامه لنفسه. وهو يواجه هذا التحدّي كاختبار لقدرته على الملاءمة بين دوافعه الجنسية وسلوكه الاجتماعي. والجنس إمتحان حقيقي للشباب لأنهم يواجهونه بأنفسهم منفردين، دون عون من أهل أو قريب أو صديق أو ناصح. والجنس يشعرهم بالاستقلال لأنهم فيه إما يختارون السقوط أو الفضيلة، وإما أن يكونوا على مستوى المسؤولية وتحملها، وإما أن يسلكوا بإباحية، وهو تحدٍّ هائل لسيطرة الشاب على نفسه، وأن يفرض إرادته، وأن يكون له نظامه، وتعلو به أخلاقه ومُثُله. والزواج معناه تنظيم الجنس، وإذا اقتنع الشاب بالزواج كنظام، فمعنى ذلك أنه قد اقتنع أيضاً أن يشمل النظام كل مستويات حياته الأخرى. ويحتاج المتزوج إلى نضج في التفكير والعاطفة ليتفاهم مع زوجته ويحقّق التوافق المطلوب في الزواج. وليس الزواج هو مجرد إجتماع بين اثنين في بيت واحد، وعلى الشباب أن يدركوا أن الزواج أكبر تحدٍّ لشخصياتهم ولذكائهم ولصحتهم النفسية.

وأما «تربية الأطفال» فهي تحدٍّ آخر ولكنه لاحق لمرحلة الشباب. وهي تحدٍّ

للأبوة والأمومة. والأبوة مسألة شديد التعقيد وتتطلب إعداداً نفسياً ومزاجياً وعاطفياً وذهنياً معيناً، «والأبوة والأمومة» عطاء خالص. وليس للأب أو للأم أن ينتظر مقابلاً من الطفل. وليس لهما أن يطلبا الإنجاب قبل أن يستشعرا الرغبة فيه. والأبوان منذ البداية هما القدوة للطفل، وهما نموذج لكل سلوك ونشاط، ومنهما يتلقى القيم البنّاءة.

والتحديات كثيرة لا حصر لها في مجتمعاتنا العربية بالنظر إلى كثرة المذاهب فيها: الدينية، والسياسية، والاجتماعية، والفوارق الهائلة بين الطبقات، وأنواع التعليم المختلفة، وانتشار الأمية، وغلبة الأساطير والخزعبلات على العلم والمعرفة. ويواجَه الشاب بكل ذلك، وعليه أن يجتاز كل هذه الصعوبات وينفذ من خلال كل تلك الحواجز. وتشكّل «الواجبات الاجتماعية» تحدٍّ كبير للشباب، وخاصة عند شباب الطبقة البورجوازية والطبقات الكادحة من العمال والفلاحين، ولعدم وجود الضمانات الاجتماعية في حالات كالوفاة والعجز عن الكسب. وتُعوِّل الكثير من الأسر على شبابها في الرزق ومواصلة رسالة الآباء وتعليم الإخوة، ولذلك ضغوط هائلة قد تحيد بالشاب في التفكير وتنحرف به في السلوك.

وللأوضاع الاقتصادية تحدّياتها أيضاً، وبصرف النظر عن تأخيرها للشباب عن تحقيق آمالهم، والوفاء خصوصاً بمشروع الزواج، فإنّ تردّي هذه الأوضاع في مجتمعاتنا قد تدفع بالبعض إلى أفكار ثورية، أو تتسبب لهم في الجُناح. ويبدو أن العوامل كثيرة في الجُناح إلا أن أقواها جميعاً وأخطرها هو العامل الاقتصادي والآثار النفسية المدمّرة التي تترتب عليه.

ولم يكن الحال هكذا قديماً، وربما تغيرت الأمور كثيراً في بلادنا عن ذي قبل. ونحن نمر الآن بفترة تغيير اجتماعي واقتصادي هائل تشمل العالم كله، بين نظم بالية وأخرى حديثة، وعلاقات محافظة وعلاقات متحرّرة، ومؤسسات ونظم آلت إلى القدم وأفكار جديدة تريد أن تتحقق وتتعيّن مكانها، وعلى الشباب أن يبقوا متوازنين بين هذا كله. وعالم اليوم بمواصلاته واتصالاته الجوية

واللاسلكية وعبر الأقمار الصناعية، واضطراباته السياسية والعقائدية، هو عالَم للقلق، حتى ليطلق على عصرنا بحق «عصر القلق The age of anxiety». وهو عالم يتعامل كل يوم مع الوكالات والشركات الكبيرة والأهداف العريضة، والتجمعات السكانية الضخمة في المدن والأسواق والمستشفيات والمدارس والجامعات، الأمر الذي جعل الناس يستشعرون أنهم ما عادوا يتعاملون مع بشر، بل مع أجهزة وآلات حاسبة وبطاقات وأرقام هوية. ويخلق ذلك إحساساً بفقدان الشخصية، وانفصال عن القوى الاجتماعية المؤثرة. وهذه التغيرات بمثابة إنقلابات في أسلوب الحياة، ولها ضغوطها الهائلة على كل الناس من مختلف الأعمار، وخاصة الشباب، لأنهم أعرض الفئات، ولأنهم يتخللون كل الطبقات والفئات والطوائف.

ويُشجَّع الشباب على التعليم، وأن يأخذوا بنصيب وافر منه، بالنظر إلى ما يمكن أن يعود عليهم من مكانة واحترام وعائد مادي، وخاصة التعليم الجامعي. ويسعى الشباب في كل الطبقات إلى تحصيل نوعيات معيّنة من التعليم الجامعي يوافق عليها المجتمع ويثيبها أكبر الثواب، غير أن هذا التعليم باهظ التكاليف، وهو تحدٍّ من أكبر التحديات للشباب. وعنق الزجاجة في التعليم هو الثانوية العامة في البلاد العربية، بالنظر إلى ما يتطلبه التعليم الجامعي من مجموع كبير يستلزم الحصول عليه جهداً شاقاً. والثانوية العامة تحدٍّ للشباب وللأهل. بالإضافة إلى أن التعليم الجامعي يستنفد وقتاً طويلاً، ولربما يتخرج الشاب من كلية كالطب مثلاً وهو في الثلاثين، وعليه أن يعمل عدداً آخر من السنين ليؤمّن مستقبله، وبمعنى آخر فإن الجامعي ربما يبلغ الأربعين وهو لم يتزوج ولم يكوّن أسرة، وذلك إحباط كبير لكل مشروعاته، وله ضغوطه الهائلة على الشاب في العشرينات والثلاثينات.

ومن الممكن أن يقال الكثير عن تأثير الاستخدامات الذرية في كافة المجالات السلمية والحربية على تفكير الشباب. والأفكار في هذا المجال محتدمة والآراء متباينة، والناس بين متفائل ومتشائم، ويعيش الشباب هذا

المناخ القلق تتنازعهم مخاوف الدمار النووي، وتحدوهم آمال هذا العصر الذري الواعد بالخير في الزراعة والصناعة، وتتعلق خواطرهم بمجتمعات مثالية كاليوتوبيا، وربما كان اعتناق الكثيرين للشيوعية أو الاشتراكية لأنهما مذهبان يستشرفان المستقبل ويعدان بمجتمعين مثاليين، قيل في أوصافهما أنهما «مجتمعا الوفرة»، حيث الشعار في أحدهما «من كل حسب جهده إلى كل حسب حاجته»، وفي الثاني «من كل حسب جهده إلى كل حسب عمله». وينبئ الشعاران بأن العمل هو القاعدة، وأنه لن يكون هناك فرق بين الناس بسبب اللون أو الجنس أو العِرق أو الحسب أو النسب، وأن المساواة هي القانون، وأنه في «مجتمع الوفرة» ستتحقّق كل الأماني وستشبع كل الحاجات، وسنجد الشقق للسكن، وسنزودها بالمستحدث من الأجهزة وأدوات الرفاهية، وسيعم الخير، ويجد الجميع الطعام والشراب واللباس. ولعله لهذا السبب كان الشباب يُقبل على «الشيوعية والاشتراكية» إقبالاً منقطع النظير، حتى أنه قيل إن ٩٠٪ من أعضاء الحزبين الشيوعي والاشتراكي كانوا من الشباب دون الثلاثين.

ولا سبيل إلى مواجهة هذه التحديات إلا من خلال السياق الكلي لنمط الحياة بطرق تحترم ظروف الشباب الأدبية والعاطفية والاجتماعية والاقتصادية، وهي ظروف حسّاسة وشخصية وتتطلب إعمالاً ذهنياً وتقليباً للرأي، وبصيرة نافذة، وأحكاماً صائبة شديدة التعقيد. ويساعد على التعامل مع هذه المشاكل أو المسائل أو القضايا التعليم الذي يحصّله الشاب، والخبرة التي تتهيّأ له، فمثلاً لكي يختار لنفسه عملاً أو مهنة، ويواجه تحدي هذا الاختيار فقد يلزمه أن يجرّب عدداً من الوظائف إلى أن يجد الوظيفة التي ترضيه شخصياً وتعطيه الأجر المادي المناسب، والتي فيها يمكنه أن يمارس مهاراته ومواهبه بطريقة فعّالة، ولن يتيسر له ذلك إلا إذا نال قسطاً من التعليم الرسمي أو غير الرسمي حتى يستطيع أن يصقل مواهبه وقدراته ويتبينها. وبعد أن يجرّب عدداً من المهن أو الحرف أو الوظائف يجد أن فرص

الاختيار تقل وتتحدّد في عدد من المهن، أو ربما في مهنة واحدة، أو وظيفة بعينها هي فرصته المعقولة، والتي يمكنه فيها أن يجد نفسه بدرجة أو بأخرى ويحصل منها على أقصى ما يستطيع أن يحصل عليه. وأغلب الشباب يواجهون «تحدي الوظيفة أو المهنة» بهذه الطريقة، وكثيراً ما يلجأ الشاب إلى طلب النصيحة أو المساعدة إذا احتاجهما عندما يشق عليه أن يتّخذ القرار المناسب، وإذا أعوزته الدافعية أو إذا تكرّر معه الفشل. وقد تكون المساعدة في شكل مشورة يسألها من صديق أو من الأسرة، وقد يستنصح أهل الرأي، وربما مدرّسه أو أستاذه الجامعي. وهناك مكاتب إستشارية في الدول الكبيرة يجمع المشرفون عليها - إلى جانب التخصصات المختلفة - بين الدراسات الميدانية ودراسات علم النفس. والمرشد المهني Vocational guide يستخدم مختلف الاختبارات لتقويم المهارات والقدرات، وقياس الشخصية، وتحديد أهداف الحياة، ويساعد الشاب على أن يتعرف إلى حقيقة دوافعه. وقد يتقدّم الشاب بطلب النصح من عالم نفس أو أخصائي إجتماعي أو طبيب نفسي. ومن المهم أن نعرف متى يتحتّم علينا أن نطلب النصيحة، وأن لا نتردّد في طلبها. والشباب بهم هذا الميل لطلب المشورة، ولديهم الحسّ السليم لمن يتوجهون إليه بطلبها. ويتمتعون ببصيرة حول ماهية هذه المشورة ولأي موضوع يطلبونها، وكثيراً ما يصدرون أحكاماً بشأنها أوفق وأفضل مما يصدره الكبار أو الآباء.

وتتميز فترة الشباب بالنسبة للذكر أو للأنثى بأنها عموماً فترة يمارسون فيها «الاستقلال بالرأي» في كافة اختياراتهم وفي العمل، واحتمال الكثير من المسؤوليات، ويتحقّق لهم فيها النضج البدني والنفسي، وتكون لهم البصيرة بالأحوال الاجتماعية وتفاعلات المجتمع. وتتّجه شخصياتهم نحو التكامل، ويجربون الحب والخِطبة، وقد يتزوج «الشاب» وينجب، وفي هذه السن يبلغ أوجه نشاطه الجنسي وقدرته على التعبير عن نفسه، ويهتم بعمله، وأن ترضى عنه أسرته، وتهتم «الشابة» بأن يكون لها بيت وعائلة ترعاها، وتتسم هذه الفترة بالنسبة للاثنين بأنها فترة المشاكل

المترتبة على «الالتزامات الشخصية»، والتزام الشاب يتوجّه لمهنته أو عمله، ويتوجّه التزام الشابة إلى بيتها وأطفالها، وبعض الشبان يلتزمون بالمهنة والبيت معاً، وكذلك الشابات، وقد يبرز الاهتمام بأحدهما على الآخر، وكل شاب أو شابة يرتب إهتماماته في أولويات طبقاً لما يوليها من قيم وما تعطيه من إشباع. ويعاني بيت الشاب أو الشابة اللذين يجدان متعة أكبر في العمل عن البيت، ويسوء توافقهما وتكثر الشكاوى منهما، على عكس من يحاول أن يوفق بين كل النشاطات، فهو في البيت يعطيه كل عنايته، وفي العمل يبذل فيه جهده، ويكامل بين النشاطين.

ويختلف الشباب فيما بينهم خاصة في المجالين الاجتماعي والجنسي، فشباب «الطبقات العليا» يؤجلون اختيار المهنة حتى استكمال دراساتهم العليا، ويجعلون الزواج آخر مراحل الاستقرار. ويعجل أبناء «الطبقات الريفية» بالعمل والزواج معاً. ويميل أبناء «الطبقات العليا» إلى الانخراط في الأنشطة الاجتماعية والسياسية، والزواج في هذه الطبقات كثيراً ما يكون له مضمون إجتماعي أو سياسي. ومن رأي كينزي أن النشاط الجنسي عند المتدينين وأهل الريف والشرائح العليا من المتعلمين يقل كثيراً عن غيرهم: (Kinsey: Sexual Behaviour in the Human Male). وهناك ما يشبه «الثورة الجنسية Sexual revolution» نتيجة انتشار التعليم بين الجنسين، ويتّجه العالم إلى نوع من الأعراف المتماثلة أخلاقياً تستطرق في كل أرجائه وتتسم بالصدق والموضوعية.

ويختلف «دور الفتاة» عن «دور الفتى»، والفتاة عادةً سلبية إعتمادية بينما الفتى عدواني إستقلالي، ويُعنى الذكور بكسب العيش بينما الإناث بالبيت وتربية الأطفال. وتتباين المعايير الأخلاقية بالنسبة للجنسين، فالمباح للذكور لا يباح للإناث، والذكر أكثر حرية أن يفعل ما يشاء بعكس الأنثى، غير أن تحرير المرأة من المطبخ والغسيل والرضاعة بتأثير الاختراعات ووسائل التغدية الاصطناعية أتاح لها أن تشارك أكثر في النشاط الاجتماعي والاقتصادي، ويبدو أن الثروة الاجتماعية

قد آل أمر أغلبها إلى أيدي النساء، وأدّى إلى تشابه التوجهات عند النساء والرجال، وهو تشابه ما يزال الرجال يرفضونه ويعيشون حالة لاواقعية من المفاهيم عن النساء. وهذه الحالة أظهر ما تكون حينما تتخرج البنت والولد بالشهادة نفسها، ومن الكلية نفسها، ويتزاحمان على العمل ويتنافسان فيه، تنافساً يجعل البنات عدوانيات يتذرعن بالعدوانية ليكون لهن الفوز في مهن ووظائف هي من اختصاص الذكور. وهذه العدوانية تضطر إليها الفتاة وإلا فلن يقيّض لها الفوز. ويواجه الفتيان هذا التحوّل في الدور والهوية الجنسيين بسلبية يصفها بعض علماء النفس بأنها سلبية مفرطة قد لا تعجب الفتيات، حتى ليمكن أن تتهم الفتاة فتيان هذا العصر بأنهم قد صاروا مخنثين تنقصهم الرجولة. والنتيجة أن شباب هذه الأيام عليهم أن يعتادوا هذا التخالف في الأدوار بين الجنسين. وصار الفتى يشارك فتاته إذا تزوجا في أعمال البيت وتربية الأطفال، وصار يقاسمها تكاليف العيش، وصارت الاختلافات في الاتجاهات بين الجنسين أقل ظهوراً عمّا مضى. ويبدو أن الاتجاه الآن أن يتحمل الشباب عدوانيةً واسترجالاً أكثر من البنات، وأن تتلاءم البنات مع اعتمادية وسلبية أكثر من جانب الفتيان. ويزيد الأمر سوءاً أن الفتاة رغم أنها تعمل وتنافس الفتيان فإنها ما تزال مصرّة على أن تتجمل كفتاة، وأن تمارس عملها مع احتفاظها بأنوثتها. وأيضاً فإن الفتى ما يزال رغم انطوائه تحت إمرة فتاته التي أحبّها وتزوجها يريد أن تكون له بعض حريته التي كانت له وهو أعزب. وهذا التباين في الأدوار، والتغير الذي شمل الجميع، جعل «مفهوم الأسرة» مختلفاً عند الشباب. وتعاني البنت أكثر من الشاب من جرّاء تأخير زواجها، فالتأخير في الزواج لا يناسب أنوثتها. وهناك ما يشبه الاتفاق على أن تجاوز البنت لسن الثلاثين يجعلها غير صالحة للزواج، وذلك شيء قد يسبّب قلقها وقلق المحيطين بها، وهو ما لا يحدث بالنسبة للشاب. وفي حين قد يكون الشاب الأعزب مادة تسلية ومرح بين زملائه وأقاربه، فإن العانس محط إشفاق من الصديقات والأقارب. غير أن

الإصرار على عدم الزواج بالنسبة للشاب إذا أوغل في الثلاثينات قد يجعل المحيطين به يفكّرون عنه تفكيراً مختلفاً، وقد يتهمونه «بالعجز الجنسي». وما من شك أن الالتزام بالزواج لكلا الجنسين مؤشراً على النضج، وعنصر من عناصر الشعور بالأمان، وتتحقّق به الهوية، وأن للشخص قيمة، أو انه إختصاراً دليل على احترامه لنفسه.

وطبيعي أن يكون لفترة الشباب إيجابياتها وسلبياتها على مرحلة الرجولة وما بعدها، فالزواج السعيد أو الشقي، والوظيفة المتفقة مع الميول أو التي يسوء اختيارها قد تترتب عليهما آثار تستمر مع الشخص مدى الحياة.

وعلاج الفشل أو القصور في هذه السن يناسبه أي من الإرشادات أو العلاجات التي تقوم على التنفيس عن النفس، والكلام بحرية عن المشاكل وطرحها طرحاً صريحاً مع معالج نفسي أو موجه نفسي، وتفيد «المهدئات» أحياناً كعلاج بالعقاقير قد تتيسر به جلسات التحليل النفسي أو العلاج النفسي.

ومن الاضطرابات التي يعاني منها الشباب في هذه السن الاكتئاب، والعُصاب النفسي، والقلق، وتبلغ الإصابة بالفُصام أَوَجّها في سن الشباب، وهناك أسباب عديدة للفصام أهمها الصراع بين حاجات الشاب النفسية والواقع الخارجي. ويأتي الفُصام الشاب الذي نما وجدانياً نمواً غير سليم أو توقف نموّه الوجداني، فيجد نفسه في هذه السن في مواقف تستغرقه ويضطرب بها ويتداعى بالمرض. ولسن الشباب مقتضيات من الواقع تستنفد طاقة الشاب، ولها وطأة قد ينوء تحتها جهازه النفسي. وهذا الواقع في الأحوال الصحية هو الذي يزود الشاب بكل وسائل الإشباع العاطفي وكل الفرص التي تتحقّق بها حاجاته، ولكنه بالنسبة للفُصامي يبدو وكأنه يعارض هذا الإشباع ويعوق ذلك التحقّق، لأن جهازه النفسي أعجز من أن يواكب مقتضياته ويساير مواقفه، فتغرقه المشاكل الاجتماعية، وتتحطّم بها وسائله الدفاعية العادية، فلا يقوى على التعامل بفاعلية وكفاءة مع الناس والظروف.

ولأواسط العمر أو الرشد الناضج مشاكله المختلفة عن مشاكل الشباب. والراشد الناضج يواجَه بتحديات منها «المسؤوليات» الجسام العائلية وغير العائلية الملقاة على عاتقه، فهو مُطالب بأن يعول أسرته وأن يرعاها صحياً واقتصادياً ونفسياً وتعليمياً، وهو يعطي ولا يتوقع لعطائه مقابل، وربما يضطر أن يعول أبويه، وربما حماه وحماته، وكلما زادت سن هؤلاء كلما زادت الأعباء عليه.

والراشد الناضج وسط مسؤولياته الكثيرة قد يُخشَى عليه أن يفقد ذاتيته وتتوه منه هويته وتزول عنه فرديته، ويطلق علماء علم النفس الوجودي على هذه الحالة إسم «السقوط النفسي»، وهو أن ينسى الشخص نفسه في الآخرين وتكون له قيمهم ويتخلق بأخلاق القطيع. ويواجه الراشد الناضج بتحدٍّ المحافظة على ذاتيته وفرديته وهويته ضد ما تهدف إليه وسائل الإعلام في الدولة ونظام التعليم، من مشابهة أفراد الأمة بعضهم بالبعض، وأن يكون التماثل بينهم في السكن واللباس والعقائد والأفكار والمشاعر. وعلى الراشد الناضج أن يوازن بين المطلبين: أن يكون نفسه وأن ينتمي لمجتمعه، وأن يحفظ عليه قيمه وأن يعلي من قيم جماعته، وأن تكون له خصائصه وأن تكون له خصائص قومه وشعبه.

ويعاني الشباب من «التناقض» بين ما تفرضه الحياة العملية من قواعد في السلوك لا تتفق مع ما يقول به الدين والأخلاق من مبادئ، غير أن الراشد الناضج يغلب عليه أن يوفّق بينهما، وأن يعمل على ألا يتضاربا فيه، وهو يعيش وقائع العصر المادية ويعاني أزمة الأخلاق في المجتمع، والمجتمع الحديث من سماته هذه «الازدواجية»، فبينما الجامع يدعو إلى أشياء فإن الشارع والمصنع ودور الحكومة تطبق أشياء مختلفة تماماً.

و«السقوط في الرتابة» تحدّ من تحديات أواسط العمر، وذلك أن الراشد الناضج وقد احترف وظيفة طوال هذه السنوات فقد يُخشَى عليه أن لا يتعامل معها بالإبداع اللازم، وقد تصبح حياته الزوجية مملة لتشابه أيامها ووقائعها، وقد يزهد هذه الرتابة ويصاب بالسأم،

وقد يكره مسؤولياته، ولربما يصحو يوماً ليعلن تمرّده على مهنته وأولاده وزوجته. والتحدّي الذي يواجَه به الراشد الناضج هو أن يظل على اهتمامه ببيته، وأن يوفّق بين مطالبه ومقتضيات وظيفته ومستدعيات حياته الخاصة، وأن يحافظ على خصوصيته وسط هذه العمومية التي تغرقه فيها مسؤولياته، وأن يحفز همّته باستمرار ويحافظ على طموحاته ويستحث دافعيته.

ولربما تواجَه حياته الزوجية بتحديات جنسية تدفع به إلى إنشاء علاقات بطرف ثالث. «وسن الرجولة» هو السن التي قد يتورط فيها الرجل بأن تكون له «علاقات جنسية خارج نطاق الزوجية». كما أن المرأة في أواسط العمر قد تنزلق إلى علاقات عاطفية مع غير زوجها عندما يعزّ عليها أن يفهمها الزوج أو أن تجد لديه الحنان الذي يعوزها في هذه السن.

ويُخشَى على الرجل والمرأة مع التقدم في السن أن يتثبتا على سلوكيات واتجاهات معينة. والتحدّي الذي قد يواجهاه خصوصاً في الأربعينات، يفرضه العزوف عن التجديد والخوف من كل جديد باعتباره بدعة، أو باعتبار أن زمنهما قد تخلف بهما، أو باعتبار الأفكار التي يمثلها المُحدَث والتي لا يفهمانها. والراشد الناضج في هذه السن كثيراً ما يتصادم مع الجديد، والجديد غالباً يبشّر به الشباب، ويتمثّل «صراع الأجيال» في التناقض بين مقتضيات حياة واعدة يطلبها الشباب، ووقائع يومية لُحمتها ارتباطات من الماضي، تُزكيها مبادئ وواجبات قديمة، ينهض بعبئها الرجال والنساء في أواسط العمر وسن الكهولة. والراشد الناضج الذي يحقّق لنفسه التوافق المنشود هو الذي يتصرّف بمرونة مع الأحداث، ويحاول باستمرار أن يتفهّم الجديد وأن يواليه، وألا يتخلف عن الركب، وأن يساير الأفكار الحديثة، وأن ينفتح على العالم ويحاذر الانغلاق والجمود والرتابة.

وهذه الحياة الحديثة بمتطلباتها هي تحدٍّ للراشد الناضج، وعليه أن يفهم باستمرار أن «الصيرورة» هي قانون الوجود، وأنه لا شيء ثابت، وأن كل شيء

إلى تغيّر، ومواكبة التغيّر تستنفد طاقة نفسيّة وتتطلب عزيمة، بالإضافة إلى أن إيقاع التغيّر يشتد. ولئن كانت هناك سمة تبرز على غيرها من سمات عالمنا الحديث فهي «المنافسة والسعي وراء النجاح»، وعلى الراشد الناضج أن يواجه تحدّيات التغيير والمنافسة ومتطلبات النجاح، وكلها أمور لها ضغوط نفسية مردودها على نوعية الحياة العائلية وتخلق مشاكل يعاني منها الراشد الناضج. وكان الأطفال في الماضي غير البعيد بمجرد البلوغ تكون لهم حياتهم المستقلة، وأما اليوم فإن عبء احتمال تربية الأطفال قد يستمر مع الراشد إلى عمر متأخر، وربما قد يبلغ الكهولة وما يزال أولاده يعتمدون عليه. وهذا «الاعتماد الطويل الأجل على الأبوين» من قِبَل الأولاد هو ظاهرة جديدة شديد التعقيد، يستوجب معها على الأبوين أن يطّرد إشرافهما، وأن تتغير مع هذا الاطّراد الأدوار التي يقومان بها بحسب أعمار الأولاد وتطورات نموهم وترقّيهم.

وتتفاوت الحلول التي يمكن أن يلجأ إليها الراشد الناضج بحسب شخصيته والملابسات المختلفة للمواقف التي يتعرّض لها. وعموماً فإن بلوغ هذه السن يجعل صاحبها يميل إلى أن يكون عملياً في تعامله مع مشاكله، وإنْ كان في الوقت نفسه مثالياً في فلسفته، وعفوياً في سلوكه الاجتماعي. وأواسط العمر هي السن البراجماتية من سنوات العمر التي نمرّ بها. بمعنى أننا فيها ندخل مختلف المواقف بذهن مفتوح، ونتعرض لملابساتها ونستعرض الحلول لها عفو الخاطر، ونتحمل مسؤولية ما نفعل، وقد نضطر إلى أن نغيّر من سلوكنا كلما دعت الضرورة.

وفي هذه السن نولي «المال» أهمية خاصة، مع زيادة عدد أفراد الأسرة، وارتفاع تكاليف المعيشة، وتعدّد أوجه الإنفاق، ومن ثم يكون اهتمامنا بزيادة «الدخل» والحرص على البحث عن أعمال إضافية. ومن التحديات التي نواجهها في هذه السن المواءمة بين الرغبة في أن نعمل أكثر والرغبة في أن تكون لنا «إجازاتنا» التي يمكن أن نروّح فيها عن أنفسنا. وكثيراً ما نضحّي بأوقات فراغنا والراحة التي تتوجب لنا

فيها مقابل أن نرفع من مدخولنا. وقد يكون ذلك مصدر مضايقات بين الزوجين من جهة، وبينهما وبين الأولاد من جهة أخرى. ونخطئ إذ نحسب أن المال في شكل هدايا للزوجة أو مصروف أكبر للأولاد قد يعوّضهم عن عدم تواجد الأب بينهم بحجة العمل.

وأواسط العمر هي «سن المسؤولية»، وقد يجد الأب نفسه ممزقاً بين مسؤولياته المتعارضة وخاصة في الأسر التي تعاني من ضوائق مالية. والأبوة سند وعون ودعامة قوية، والأمومة حنان وعطف ومحبة وفهم. وبقدر ما يعطي الانتماء للأسرة من إشباع عاطفي للأبوين بقدر ما تكون رغبتهما في بذل المزيد من الجهد لإسعاد كل الأطراف. والنضج في أواسط العمر يعينهما على تجاوز كل المشاكل، وتقرّب بينهما هذه المشاكل وتكون من عوامل المزيد من التفهّم والمشاركة والتكافل. ومن تحديات هذه السن الرغبة في «استشعار الأمان»، إلا أن السعي من أجل ذلك قد يتسبّب في الكثير من القلق، ولعله من نافلة القول أن نردّد أنه لا سعادة زوجية بدون هذا الأمان، ويطلبه الزوجان، وتلح عليه المرأة خصوصاً، وينشده الأولاد. وأمان سن النضج هو المقدمة لأمان قد يعمل الزوجان نهاراً وليلاً، وتستنفد الضغوط الاقتصادية الكثير من تفكيرهما ووقتهما، وقد تفسد بسببها العلاقات بينهما وخاصة في الطبقات الكادحة والمتوسطة، فأما الأولى فذلك لأنها تعيش في عوز، وأما الثانية فبسبب تطلعاتها، والمستويات الطموحة التي يريد أن يبلغها أفرادها، والمظهرية التي يريدون أن يحافظوا على أنفسهم فيها. وتفرض العلاقات الاقتصادية نوعاً من السلوك الاجتماعي، وتكون لها آدابها الخاصة سواء عند الطبقة العاملة أو البورجوازية. وفي أواسط العمر قد يظهر جمود البعض أو تسامحهم، «والراشد المتزمت» قد يصرّ على سلوكيات معيّنة يحسب أنه بها يحول دون انجراف أسرته مع تيار التغيّرات الاجتماعية والجديد من الآداب والأخلاق، وقد يقول بقدسية مدّعاة للتقاليد. وعكسه «الراشد الناضج» الذي يواكب التغيير والجديد ويسمح به،

ويعيش عصره ولكن دون تبذّل ولا إسفاف ولا تفريط ولا مغالاة، وهو الذي يوازن بين المستحدث من الأفكار والقديم من التقاليد، وعلى هذه الموازنة تعتمد ديمومة الحياة العائلية وتماسك البيت. وتختلف المفاهيم بين الراشدين بحسب الثقافة والطبقة الاجتماعية. وتطبيق هذه الموازنة يتباين في المدينة عنه في الريف، وكلما ساد الجهل، وتدنّت الأحوال المعيشية كلما ساد التعصّب وكثرت المنازعات وندر الفهم، ونحن نعيش فترة من التمزّق بين الحضارة الغربية الوافدة ولها هجمة شرسة، وبين تعاليم الإسلام بمفاهيمها السائدة، ويبدو أننا نعيش حالة من «اللاتوازن الوجداني والانفصام الفكري» تظهر آثارها جلية على الرجال والنساء في بلادنا في أواسط العمر، حتى ليبدو الناس أكبر من أعمارهم. ويصاب الكثيرون في هذه السن بالاكتئاب، وتتراوحهم تقلبات مزاجية، ويظهر عليهم القلق والتوتر، ومن الممكن أن يصابوا بالفصام، ولعله لهذا السبب ينتشر تعاطي المخدرات والخمور، وتعد بلادنا من أكثر العالم إستهلاكاً للمخدرات، ويعاني الناس فيها من اضطرابات الشخصية والكثير من الأعراض العصابية. والناس عموماً في أواسط العمر معرّضون في بلادنا وفي غير بلادنا لمختلف الاضطرابات النفسية، وهذه السن هي التي يكثر فيها المرضى الذين يعالجون بالمصحات النفسية، وعادة ما يبدأ الانهيار النفسي بالشكوى من الأرق والتعب والشرود، وقد تكون هناك أفكار غريبة يشطح إليها الذهن، أو تكون هناك هذاءات من نوع ما، وقد يتعذّر على الراشد أن يتواصل والناس من حوله، سواء في البيت أو في العمل، وقد تفيد المهدئات كعلاج مؤقت أو مساعد، كما قد تفيد الإجازات والسفر، إلا أن العلاج النفسي يصبح ضرورة أحياناً، ومنه العلاج بالتحليل النفسي، أو العلاج بالتنفيس، بمجرد البوح بالمشاكل وطرح المنغصات والمضايقات والتصريح بها، والإفشاء بالمشاعر المختلفة Talking out processes. ومن اللازم أن يكون للراشد «صديق» ينصحه ويُصدقه الرأي ويشير عليه. ويتوجب في كل الحالات أن تسود

العلاقات الزوجية روح المحبة والفهم حتى يتسار الزوجان. و«الإفضاء النفسي» مسألة حيوية في العلاقات الزوجية وللتخفيف من أعباء الحياة. وفي الحالات الشديدة قد يكون من اللازم إستشارة المعالج النفسي.

مراجع:

- Pressey & Kuhlechological Developments through the Life Span.
- Lehman, H.C.: Age and Achievement.



- ١١ -
سيكولوجية السلوك

السلوك ومجاله ومحدداته ووراثته. السلوك وأنواعه. السلوك التعبيري. أنماط كريتشمر. دراسات أولبورت وڤيرنون. تأثير الضغوط النفسية على السلوك. دراسة حركات الأيدي عند الشعوب. تعبيرات الوجه. السلوكية، والاضطرابات السلوكية، والعلاج السلوكي.



السلوك Behaviour هو الموضوع الذي يدور عليه علم النفس. والسلوك في اللغة سيرة الإنسان ومذهبه واتجاهه، فنقول إن أحد الناس حسن أو سيئ السلوك، ونقصد إلى وصف سيرته أو اتجاهاته أو مذهبه في الحياة. والسلوك في الاصطلاح أمر مختلَف بشأنه، وذلك أن جماعة السلوكيين Behaviorists قالوا إن السلوك هو ما يأتيه الفرد من تصرفات واستجابات واضحة للعيان ويمكن رصدها وقياسها، وقال غيرهم بتعريف أوسع للسلوك حيث ضمّوا إلى ما سبق ما يفكّر فيه الفرد، وما يتحصّل بذهنه من نتائج، وما يذهب إليه خياله وتصوّره، وتلك أمور قد يكون من الصعب ملاحظتها أو التصدّي لها، بالإضافة إلى أن علماء الطب قد رأوا أيضاً أن يوسّعوا من تعريف السلوك، فيضموا إليه العمليات التي تقوم بها الأعصاب وتنقلها إلى مناطق الجسم المختلفة، وتكون سمة لشخص بعينه، تؤثّر على سلوكه الظاهر وإن كانت هي نفسها سلوكاً مخفياً. وكذلك اعتُبرت اللغة سلوكاً فكرياً تنطرح فيها الأفكار فنصوغها كلمات وعبارات

يتفاهم بها الناس. ويبدو أن هذا الخلاف حول مفهوم السلوك قد ترتب على الرغبة في إقامة علم النفس على أساس موضوعي، له شكل وقواعد وقوانين محدّدة. ومن ناحية أخرى كانت هناك رغبة مماثلة في توسيع رقعة علم النفس، بحيث يشمل السلوك: الاستجابات الظاهرة والمخفية كذلك، والأخيرة كما نعلم هي التي تدفع إلى الأولى. والأولى أن نقول بوجهة نظر جامعة، فالسلوك من الاستجابات الكلية التي ينفعل بها الكائن الحيّ جميعه، وإن بدا أنه ينفعل بعضو دون سائر الأعضاء، ومن ثم فإننا إذا تعرّضنا لوصف السلوك الظاهر، عدّدنا أوصافه، فإذا تطرّقنا إلى ما يطرأ على الجسم من تغيّرات مصاحبة للسلوك الظاهر، فإننا قد نتناول العمليات الفسيولوجية الداخلية، أو قد نتناول ما يفكر فيه الشخص أو يتصوّره. ولنضرب لذلك مثلاً بالجائع: فإن ما يعتمل بداخله من عمليات فسيولوجية، تتعلق بالجوع، لتجعله يستشعر وطأةً له تدفعه إلى أن يحصل على الطعام بطريقة ما من عدّة طرق ينصرف إليها تفكيره، ولكنه يختار أنسبها له ليتصرّف بوحيها محقّقاً لنفسه الشبع.

وتتعلق بالسلوك مجموعة من المصطلحات السيكولوجية، فالسلوك له مجال يتمّ من خلاله، ويُطلق عليه إسم «مجال السلوك Behaviour field»، وقد نقول «حيّز السلوك Behaviour space» أيضاً، ونعني بالمجال أو الحيّز: المكان الذي يحتوي الكائن والمثيرات للسلوك، وربما تكون مثيرات مادية من البيئة أو مثيرات من داخل الكائن نفسه. وتتبادل البيئة والكائن التأثير، وكل كائن لا بد له من مجال أو حيّز مجال، بحيث تكون هناك إمكانات لفعله أو انفعاله فيه. و«محدّدات السلوك B. determinants» هي العوامل التي تتدخل في المجال لتجعل الكائن يسلك سلوكاً معيناً. وربما تكون هذه المحددات وراثية تتعلق بأمور تجعل من الممكن أن يرث الكائن السلوك، وهذه هي الناحية التي تدرسها «وراثة السلوك Behaviour genetics»، وموضوع السلوك «Behaviour object» هو ما يستهدفه الكائن من سلوكه، و«السلوك التلقائي Spontaneous behaviour» هو العفوي غير

المقصود أو المتعمد. و«ملاحظة السلوك Behaviour observation» هي رصده وقياسه، ويكون ذلك في بيئة طبيعية أو داخل المعمل بإجراءات وأجهزة معيّنة. و«تشكيل السلوك Behaviour shaping» بتوجيه التعلّم وجهة يكتسب بها الكائن مهارات معيّنة تيسر له إتيان سلوك متعلم. و«المخزون السلوكي Behaviour repertoire» هو رصيد الخبرة السلوكية، والإمكانات السلوكية التي يمكن للكائن أن يمارسها، وتكون في استطاعته هذه الممارسة بحكم تكوينه وجنسه وما تعلمه. و«سجل السلوك B. record» هو الوصف التفصيلي لما لوحظ على شخص ما خلال مدّة معيّنة. و«تركيبة السلوك B. setting» هي مشتملات السلوك من حركات وأفعال ترتبط بموضوع أو مكان ما، بحيث إذا غيّرنا الأفراد لم تتغير تركيبة سلوك الأفراد الجدد عن الأفراد القدامى. و«قطعة السلوك B. segment» هي أصغر «وحدة سلوك B. unit» وصفية لاستجابة معيّنة. و«التماثل السلوكي Behavioral homology» هو أن يأتي سلوك كائن مشابهاً لسلوك كائن آخر، من حيث النمط أو ما يدفع إلى السلوك، أو ما يهدف إليه. و«ديناميات السلوك Behaviour dynamics» هي دراسة دوافع السلوك ومسبباته، والنتائج التي تترتب عليه. و«السلوك اللغوي Verbal behaviour» ضرب من السلوك وإنما لا يكون فعلاً وحركة، وإنما ينطرح في عبارات يستجيب بها المرء لمثير من المثيرات. و«السلوك الكُتَلي Molar behaviour» هو السلوك منظوراً إليه ككل، أو كوحدة. وليس كمجموعة من الجزئيات، بعكس «السلوك الجزئي Molecular behaviour»، وهو الخاص بجزئية دون غيرها من الجزئيات المكوّنة للسلوك الكتلي أو الكلي. و«السلوك المتعيّن Intrinsic behaviour» يؤدّيه عضو من الجسم، بعكس «السلوك الخارجي Extrinsic b.» الذي ليس له عضو يقوم به، فالزعامة مثلاً لا يختص بها عضو أو أعضاء، بعكس أن تطرف العين فذلك سلوك العين مجاله. و«السلوك الصريح Explicit b.» نراه رأي العين، بعكس «السلوك المضمر Implicit b.» الذي يدخل كجزء من أجزاء عدّة يتضمنها سلوكٌ

كتلي، أو أنه «سلوك مُغَطّى .Covert b»، وهو أيضاً بخلاف «السلوك المكشوف .Overt b» أو الصريح. و«السلوك المتعلّم .Learned b» نقيض «السلوك المكشوف .Overt b» أو الصريح. و«السلوك المتعلّم .Learned b» نقيض «السلوك الفطري .Innate b»، و«السلوك الجنسي .Sexual b» هو ما يكون له طبيعة جنسية. و«السلوك العُصابي .Neurotic b» عَرَضٌ من أعراض الإصابة بالعُصاب النفسي؛ و«السلوك السوي .Normal b» هو السلوك العادي الذي يأتيه أغلب الناس وليس عليه مأخذ ما؛ و«السلوك الوسواسي Obsessional .b» سلوك عُصابي يتكرر مع المرء نتيجة هواجس معيّنة ويأتيه صاحبه مقسوراً عليه. و«السلوك السلبي .Negative b» يناقض «السلوك الإيجابي .Positive b». و«السلوك الإجرامي .Criminotic b» يصف الفعل الإجرامي الذي يقوم به المجرم. و«السلوك الفوضوي .Chaotic b» ليس لاعتبارات النظام والإعداد والترتيب فيه نصيب. و«السلوك الجمعي .Collective b» يقوم به مجموعة من الناس يتشاركون في التفكير والفعل. و«السلوك كلغة Behaviour-language» هو ما نلجأ إليه من حركات أو إيماءات صامتة تقوم مقام اللغة، وذلك أظهر لدى الأطفال في مراحل العمر الأولى وقبل تعلّم الكلام، حيث قد يبكي الطفل أو يبتسم أو يضحك أو يبدي الضيق أو الانزعاج بأصوات فيها غَناء عن الكلام. و«السلوك العُقْديّ .Normal b» من مصطلحات العلاج السلوكي الجماعي للأطفال، فيُظهر الطفل أسوأ ما عنده من سلوكيات في الجلسات الأولى، ويبدو صخّاباً، وسمي هذا السلوك عُقْدياً من العُقدة - وهي نقطة التقاء مدارين، وهي أيضاً العَجُز، ومنبت الأوراق في الشجر، وفي السلوك هي النقطة التي يبدو فيها المعالج مطيعاً من ناحية ورافضاً متمرداً من ناحية أخرى. و«نُهَيْر السلوك .B. stream» هو استمرار السلوك في مجال معين صادراً لا يتوقف. و«السلوك الأمومي Maternal .b» هو السلوك العاطف الحنون الحادب الذي يميّز الأمهات في رعايتهن للصغار. «والسلوك الإحجامي .Abient b» سلوك اجتنابي، قد يكون به نجاة الكائن الحيّ من أخطار محدقة، ونقيضه «السلوك

الإقدامي Adient b.» الذي به يكون إقبال الكائن على المثير. و«التكامل السلوكي Behavioral integration» هو أن تترابط مجموعة من الأفعال المختلفة والمنفصلة عن بعضها بحيث تصنع سلوكاً كلياً يؤدّي إلى نتيجة واحدة لم تكن لتتحقق لولا اجتماع هذه المسالك عليها. وكل فعل من الأفعال السابقة هو «وحدة سلوكية Behaviour episode» مستقلة لها بدايتها ونهايتها، إلا أنها تصنع مع غيرها من الوحدات سلوكاً كلياً متكاملاً.

و«السلوك التعبيري Expressive b.» هو السلوك الكاشف عن حقائق الشخصية ويتميّز به الشخص، ويُعرف عنه ويكون دليلاً عليه، وقد يكون سلوكاً حركياً، أو لفظياً، أو الاثنين معاً، ومن ذلك الرقص التعبيري، والتمثيل الإيمائي، والتمثيل عموماً، والرسم، وخط اليد، وحركات الدين، والمشية، والأوضاع التعبيرية للجسم كالتي يتّخذها في الغضب مثلاً، وعند الاستعداد والتهيؤ، وما يظهر على الجسم من علامات الانتباه واليقظة أو التعب والتواني والغفلة.

ودراسة السلوك التعبيري تتصل بالتشخيص النفسي، وقد جاءت دراسة رسوم الأطفال الذين يعانون اضطرابات نفسية، متوافقة مع نتائج دراسة شخصياتهم وتحليل ردود أفعالهم على بطاقات رورشاخ، كما ان الدراسات على رسوم الأطفال الأميركيين أثبتت توافقاً في السلوك التعبيري عند العميان.

ويحظى السلوك التعبيري بالاهتمام منذ القدم بالنظر إلى قيمته التشخيصية. وقد نبّه أرسطو Aristotle (٣٨٤-٣٢٢ ق.م) في كتابه «الشعر Poetics» إلى المعنى الذي يمكن أن ينصرف إليه السلوك التعبيري في الفنون، وقال إن السلوك التعبيري غايته الإظهار الخارجي للدواخل. والفرق بين السلوك العادي والسلوك التعبيري أن السلوك العادي يستهدف عملاً أو فعلاً بصرف النظر عن نتائجه، فأن تتحقق أو لا تتحقق نتيجة له، مسألة مرهونة بالظروف، والنتيجة في السلوك العادي شيء إضافي بالنسبة للفعل، وأما السلوك التعبيري فالفعل فيه ونتيجة الفعل مرتبطان. والسلوك التعبيري محاكاة

للطبيعة، ومعنى أنه محاكاة Imitation أنه يوجِد ما لم تستطع الطبيعة أن توجده على النحو الذي يمكن أن توجده الطبيعة عليه لو أنها أنتجته فعلاً، فالرقص التعبيري مثلاً، أو التمثيل، هو محاكاة للطبيعة، أي أنه يستلهم الموجود منه في الطبيعة ويبدع مثله من غير أن يكون صدى أو نسخة أخرى مكرّرة من الطبيعة.

والسلوك التعبيري قد يكون إظهاراً مباشراً لحالة نفسية، كالفرح، أو الغضب، أو الخوف، وقد يكون سلوكاً تواصلياً غريزياً بأنماط سلوكية وراثية، أو تواصلياً قصدياً بأنماط سلوكية متعارف على معانيها، وقد يكون ظاهرة تنفيس عن توترات إنفعالية، وقد يكون سلوكاً تكيّفياً، بمعنى أن صاحبه يصدر به عن رغبة في التكيّف مع البيئة ومتطلباتها، أو أنه سلوكٌ شرطي وكان في الأصل سلوكاً تكيّفياً، كأن يكون تعبيرنا عن رفضنا لحكايات مقززة بأن نظهر التقزز منها بالتعبيرات المتعارف عليها، وهي تعبيرات تأتينا عفوياً في الطفولة ونستجيب بها لما يُقدّم لنا من أطعمة قد لا نتذوقها.

ولعل أبرز الدراسات النفسية للسلوك التعبيري الحركي هي الدراسات في مجال المسرح، والدراسات النفسية الحركية التي يقوم بها علم النفس الرياضي. والحركات المعبّرة التلقائية هي حركات أولية، وأما الحركات التي يكون إظهارها قصداً فهي حركات متعلَّمة ويُطلَق عليها لذلك إسم الحركات التعبيرية الثانوية، وهي تعدّل من الحركات التعبيرية الأولية وتضيف إليها بحسب الثقافة والتربية. وقد ثبت من دراسات أولبورت وفيرنون Allport-Vernon (١٩٦٠) على السلوك التعبيري، أن المهاجرين الوافدين من إيطاليا إلى الولايات المتّحدة تتأثر تعبيراتهم الحركية بالثقافة الأميركية بعض الشيء، ويقل استخدامهم لأيديهم وتعبيرات الوجه عمّا هو عليه الإيطاليون في بلادهم، إلا أن أولادهم الذين ينشأون كليةً في البيئة الأمريكية تقترب تعبيراتهم الحركية كثيراً من التعبيرات الأمريكية العادية. والتعبيرات الحركية قد تصدر مُغالَى فيها، وقد تكون ردود فعل عفوية للمشاركة الاجتماعية أو

للتواصل، وبعضها لا يتضمن تعبيراً حقيقياً عن اتجاهات دافعية، وصدوره ليس إلا من الردود المتعارف عليها من باب التحية أو المجاملة، أو يكون للتمويه والخداع، أو نفاقاً. وبعض التعبيرات يكون رمزياً، وقد تعني الشك أو الاستنكار أو عدم التصديق أو الاستحسان، وهي تعبيرات لها وظائفها اللغوية أو انها تحلّ محل السلوك اللفظي.

ومن التعبيرات الأولية ما يشترك فيه الإنسان مع الحيوان كالصراخ مثلاً، ومنها ما هو إنساني كالضحك، وبعض القرود قد يظهر أنها تضحك إلا أن الإنسان يتميّز بالضحك الصريح. ويأتي الأطفال في الأسابيع الأولى بعد الولادة ردود فعل كالبكاء، وتتقبض عضلات وجوههم ويظهر التوتر على الجسم، ثم يبدأ الابتسام بعد ذلك بقليل. وتلاحظ هذه التعبيرات على الأطفال في ظروف ليس فيها تعلّم، وتخلو من التعزيز الاجتماعي، كما عند العميان أو الحالات التي يصاحب فيها الصمم والعمى. والطفل الأعمى يبتسم برغم أنه لا يرى أحداً يبتسم ولم يتعلم ذلك. وتثبت الدراسات المقارنة تشابه التعبيرات الأولية في كل الثقافات، وصدورها عن الحالات نفسها الدافعة إليها، وتُستَخدم للغايات نفسها، فالضحك مثلاً يعبّر في كل مكان عن الفرح حتى لو كانت له أحياناً معان إضافية، أو كانت هناك أحياناً طرق أخرى للتعبير عنه. ومن الممكن استحداث بعض ردود الفعل التعبيرية كالغضب والخوف والانتباه في الحيوانات، باستثارة المخ الأوسط، وكذلك قد يضحك أو يبتسم أو يبكي الإنسان إذا عانى من تلف بالمخ، أو تعرّض لتنبيه كهربي في منطقة المعاد.

وتثبت الدراسات على أنواع الحركات التعبيرية، انها جميعاً عند الفرد الذي لا يعاني من الاضطراب، تأتي متوافقة ولا تتعارض من حيث المعنى. وجاء تحليل هذه الحركات أيضاً عند أشخاص من أنماط كريتشمر (Kretshmer: Physique and Character - 1971) متوافقاً مع المعروف من حركات هذه الأنماط. كما ان دراسة الأصوات وحدها قد جاءت متفقة مع المعروف عن الشخصيات التي أصدرتها. وأيضاً ثبت توافق الخطوط

اليدوية مع بقية الحركات التعبيرية التي يمكن أن يأتيها أصحاب هذه الخطوط. وثبت من دراسات أولبورت وڤيرنون أن أنماط حركات اليدين والرأس وغيرهما هي سمات ثابتة في الشخصية، وأن العمل نفسه الذي يمكن أن تقوم به مجموعة من العضلات عند شخص ما يتم دائماً بالحركات نفسها كلما تكرر هذا العمل، وأن الأعمال المختلفة التي يمكن أن تقوم بها مجموعات عضلية مختلفة تتم دائماً بالحركات نفسها من مجموعات العضلات نفسها، وهو ما يثبت أن هناك «وحدة في الشخصية» تنعكس على التعبيرات الحركية، وانه لهذا السبب فإن الأفعال وعادات التعبير تُظهر انسجاماً وتوافقاً بينها. وقد اكتشف أولبورت وڤيرنون ان هناك بدلاً من عامل سرعة واحد، ثلاثة عوامل مستقلة: للرسم، وللتعبير اللفظي، وللحركات الإيقاعية، وتبين من ثم أنه لا وجود لإيقاع نفسي واحد، وأن بعض الأفراد يعبّرون عن أنفسهم بتوكيد أكبر من الآخرين نتيجة ما يسميانه «الضغط النفسي Psychic pressure»، وأن البعض يميلون للاتساع في الحركات بحيث تشغل مساحات أكبر من حيث المشية أو خط اليد أو المساحات التي تدور فيها التعبيرات اليدوية، والبعض متحرر ومندفع في حركاته، ومع ذلك فهناك درجات من التوافق الحركي كما ان هناك درجات من وحدة الشخصية، وطالما أن الشخصية منتظمة فإن حركاتها متسقة مع بعضها، وانفراط عقد الشخصية يكون به تناقض الحركات فيما بينها.

وقد ثبت أن وصف الأفراد من أصواتهم فقط لا يختلف عن وصفهم مما يظهر من سلوك عياني في حضورهم. وكذلك فإن توصيف الشخصية من حركات الأيدي فقط والأوضاع التي تتخذها، هو توصيف صادق للشخصية. والمعروف أن المرضى بالفُصام الكتاتوني يستخدمون أيديهم كثيراً للتعبير عن توهماتهم، فقد يبسط المريض أصابع يديه العشرة ويتثبت على ذلك تعبيراً عن الوصايا العشر (هذا هو تفسير أحدهم وليس تفسيرنا، لأن الثقافات تختلف في ذلك)، وقد يضم يديه بشدّة رمزاً للقوة. و«دراسة حركات

الأيدي» عند الشعوب تؤكّد الخصائص النفسية المعروفة عن الشخصية القومية، فالشعب الإيطالي مثلاً يغالي في استخدام الأيدي، وفي التأكيد بها على ما يقوله الأفراد، واليهود عموماً مقتصدون في استخدام الأيدي ويستعملونها كثيراً في التعداد، كأن يقول اليهودي أولاً وثانياً وثالثاً إلخ. فيعبّر بأصابعه عن ذلك. و«المشية» عند كل شخص من خصوصياته، وترتبط بنبضه وسرعة تنفسه، ويتعرف الكثيرون على الأفراد المختلفين من رؤية مشيتهم وحدها أو سماع صوت المشية. وفي إحدى الدراسات كانت تُقرَأ القصص ويُطلَب من المفحوصين إعادة سردها، وقد تبين أن «أسلوب سرد القصص» يتأثر بالشخصية ويتوافق مع الخصائص النفسية الأخرى التي تظهرها مختلف التعبيرات الحركية أو الصوتية. وفي دراسة أخرى على «تعبيرات الوجه» تبين أن الجزء السفلي منه أكثر تعبيراً من الجزء العلوي، وأن الجزء الأيمن أقوى تعبيراً من الجزء الأيسر. وكذلك تبين من دراسة الصور للأعمار المختلفة أن تعبيرات الوجه لا تختلف في سن الرابعة عنها في سن الرابعة والثلاثين. وهناك ما يثبت أن الإنسان يتميز عن الحيوان بعضلات في الوجه، خاصة بمنطقة الحاجبين، مهمتها التعبير عن العواطف والانفعالات الرهيفة، وفيما عدا ذلك فقد يتشابه الإنسان والحيوان في الكثير من تعبيرات الوجه، كالتكشير، وإظهار الأنياب، وفغر الفم، واتساع العينين عند المفاجأة. وكثير من الناس قد يسيئون تفسير صور الوجه وتعبيراته، ودراسة الشخصية من تعبيرات الوجه تصيب في ٢٥ أو ٣٠٪ من الحالات، ولا تفيد دراسة الوجه إلا إذا اقترنت بدراسة التعبيرات الأخرى المصاحبة لمناطق الجسم الأخرى، كاليدين، وحركة الأقدام، والأوضاع التي يمكن أن يتخذها جسم الشخص.

و«السلوكية Behaviorism» اصطلاح قال به لأول مرة جون برودس واطسون John Broadus Watson سنة ١٩١٣، وهي اتجاه في التفكير، ومدرسة في علم النفس، يشار إليها أحياناً باسم المدرسة السلوكية Behaviour school، تقوم على

الدعوة إلى قصر البحوث النفسية على الظواهر الموضوعية للسلوك التي في الإمكان ملاحظتها وإخضاعها لمناهج البحوث العلمية الطبيعية. والسلوكية كحركة علمية من الحركات التي اهتمت بدراسة ما توصل إليه الاتجاه الموضوعي في علم النفس، وهو الاتجاه الذي يقصد إلى إنشاء علم نفس موضوعي، وكانت في زمنها تعتبر ثورة على المذهبين الوظيفي Functionalism والاستبطاني Introspectionism، والأول يُعنى بدراسة السلوك من حيث وظيفته أو نفعه، والثاني يدرسه من حيث عملياته الشعورية في العقل. وكان واطسون يقول بوجهة نظر تجعل العلم مساوٍ لكل ما هو مادي وميكانيكي وفيزيائي، وقال بأن كل ما يُذكر عنه أنه نفسي فهو غير علمي ومن الظواهر فوق طبيعية، ومن ثم فقد تناول قضايا الشعور بالنقد الشديد، وانتقد أية نظرية تُدخِل في اعتبارات بحوثها النواحي الذاتية والعواطف والإرادة وأية مصطلحات أخرى لا يمكن إخضاعها للملاحظة والقياس. وقال واطسون إن الاتجاه العلمي الحقيقي في علم النفس: هو الذي يقتصر على البحث في السلوك بوصفه استجابة عضلية وغُدِّية، وأما الشعور والحالات النفسية فتلك أمور ليس مجالها العلم كعلم. ووجهة النظر هذه المتشدّدة قد يُطلَق عليها أحياناً إسم «السلوكية الراديكالية Radical behaviorism»، تمييزاً لها عن اتجاهات سلوكية أخرى أقل تشدداً وبها اختلافات هامة عن سلوكية واطسون، ومن ذلك سلوكية سكينر Skinner، حيث يتوجه الاهتمام فيها إلى تأثير السلوك على البيئة وليس على السلوك نفسه كما فعل واطسون ذاهباً في ذلك مذهب باڤلوڤ Pavlov (١٨٤٩ - ١٩٣٦) الروسي. و«سلوكية باڤلوڤ» - وهي نسخة أخرى من المدرسة السلوكية، ويقال لها «السلوكية الروسية» في مقابل «السلوكية الأمريكية» عند واطسون وسكينر وغيرهما - تقوم على دراسة السلوك باعتباره فعلاً شرطياً، وتدرسه من ناحيته الفسيولوجية.

وكانت هناك تخريجات أخرى بخلاف ما سبق حول مناهج السلوكية، ومن ذلك الاتجاه السلوكي عند هل Hull (١٨٨٤-

١٩٥٢)، والاتجاه الغرضي عند تولمان Tolman (١٨٨٦ - ١٩٥٩). وبينما نجد السلوكية الأمريكية والروسية، كلاهما اتجاهان عمليان واهتمامهما بالسلوكية كمنهج في البحث، فإن «السلوكية الأوروبية» إتخذت شكل التنظير والفلسفة عند جيلبرت رايل مثلاً.

ويعرّف واطسون السلوك باعتباره حركة تُؤدَّى في الزمان والمكان، من ثم يصبح من الممكن قياسه باعتبار أن له كَمًّا، وكل كَمّ يقاس، والكمّ مجال العلوم الطبيعية.

ويتوجّه واطسون باهتمامه إلى نشاطات الكائن الحيّ باعتبارها الكليّ، إلا أنه انصرف إلى البحث في نواح معيّنة تتصل بالسلوك والعلاقة بين المثير والاستجابة، وعنده أن كل سلوك إستجابة لموقف أو لإثارة، فالطفل مثلاً تتربّى لديه اتجاهات نحو المحيطين به، وأساس هذه الاتجاهات المواقف الكثيرة التي كان ينفعل لها باستجابات تكوّنت منها هذه الاتجاهات. ويمكن ردّ العادات إلى المثير - الاستجابة، وكذلك العواطف، والتفكير. فلو حلّلنا أية عادة فسننتهي حتماً إلى أنها كانت استجابة لمثير. ومن ثم فإننا لو استطعنا أن نَخْلُص فعلاً إلى المثير الأصلي الذي ترتبت عليه الاستجابة، فإننا باستحداثه قد نستحدث أيضاً الاستجابة المتوقعة، بمعنى أننا نستطيع أن نتحكم في السلوك بتحكمنا في الاستجابات.

ويرى واطسون أن الكلب الذي يتحلّب ريقه لرؤية الطعام، قد يتحلّب ريقه أيضاً بظهور مثير شرطي Conditioned stimulus يترافق مع ظهور المثير الأصلي، كأن يكون جرساً يدق، فإذا دقّ الجرس سنجد أن الكلب يستجيب حتى ولو لم يظهر الطعام، وهو ما يسميه التعلم بالإشراط Learning by conditioning، ويُرَدّ إليه أغلب ما نتعلمه، فالطفل يتعلم أن يحبّ أمه بالإشراط، لأن وجه الأم يترافق وأن يُطعَم من الثدي، فيمتد حبّه للثدي المُطعِم إلى الأم، ويتعلم أن يستجيب لمداعباتها حتى وإن لم يكن هناك إطعام.

والطفل «ألبرت Albert» الذي أجرى عليه واطسون تجاربه في الخوف، تعلّم أن يخاف من أي شيء له فِراء، نتيجة ترافق

هذا الشيء ومثيرات يستجيب لها بالخوف. ولذلك كان واطسون يقول إنه يستطيع أن يعدّل من السلوك كيفما يشاء، ويصنع من الاستجابات والاتجاهات في الأطفال ما يريد، بحيث يتحكم في تكوين الطفل، ومن ثم تكوين الراشد الذي سيكونه من بعد!

ولقد كان اهتمام واطسون بالنواحي العلمية بحيث أنه أراد أن ينشّئ الناس أولادهم على العلم دون العواطف! ولقد قال قولته المشهورة «إن حب الأم هو أقوى ما يمكن أن يُعطَى للطفل من السموم!»، فظن الناس أن التدليل والعطف والحدب يفسد الأولاد، فكانت النتيجة أنهم أسرعوا إلى تعهد أطفالهم بالرضاعة الاصطناعية حتى يقللوا من أخطار تأثير الأم عليهم. وحتى العواطف قال عنها واطسون إنها يمكن أن تُرَدّ إلى الاستجابات الطبيعية الحشوية! فالحب مثلاً هو أصلاً إستجابة جوع أو جنس؛ وأما التفكير فيختلف عن العواطف، وأصل التفكير على ذلك ليس حشوياً مثل العواطف. وكل صور التفكير عبارة عن لغة ضمنية Implict language يمكن ردّها إلى حركات عضلية تُكتَسب بالتعلّم الإشراطي، والدليل على ذلك أنه بالإمكان تسجيل حركة الحنجرة للشخص الذي ينهمك تفكيره في حلّ مسألة رياضية، وأيضاً فإنه أمكن رصد حركة الأصابع عند المصابين بالصمم والبكم وهم يحلمون أو يفكّرون.

وكان واطسون من القائلين بتأثير البيئة، ومن دعاتها المتحمسين، وتجاهل أثر الوراثة ولم يتعرض له. وكان يرى أن الإنسان والحيوان سيّان إزاء الطبيعة والبيئة، وما يجري على أيهما يمكن أن يجري على الآخر، ولذلك خصّص الكثير من وقته لدراسة أثر البيئة على الحيوان ليستخلص من ذلك قوانين يمكن تطبيقها على الإنسان. وهناك تجارب لا يمكن إجراؤها على الإنسان ويمكن الاستفادة من إجرائها على الحيوان وتعميمها على الإنسان من بعد، بعد أن نضع في اعتبارنا تعقّد التركيب الإنساني. ونتيجة هذه النظرة أن المدرسة السلوكية كانت فيها التجارب الكثيرة على الحيوانات وخاصة في مجالات علم النفسي الفسيولوجي والسلوك المتعلّم.

وهناك أوجه نقد عديدة للمدرسة السلوكية: فدعواها العريضة أنها تقوم على «الموضوعية» يمكن دحضه بأن الموضوع الواحد قد يختلف رصده من ملاحظ لآخر، «والذاتية» موجودة طالما كان هناك «ملاحظ». وكان اهتمام السلوكية «بالعالم المادي» دون «النفس» باعتبار أن القول بالنفس يردّنا إلى القول بالروح في الديانات وغيرها، فأسقطت «الدراسات النفسية»، وكان الأولى بها أن تُدرِج الظواهر النفسية ضمن دراساتها العلمية. ولم توفق السلوكية عندما ردّت «العواطف» إلى أصول من الاستجابات الحشوية، وردّت «التفكير» إلى الحركات بالحنجرة، وذلك شيء قد تبدو معه الأقوال أو الآراء التي ذهبت إليها أقوالاً أو آراء علمية، أو لها وجه علمي، وهو ما يمجّه الذوق ويرفضه العقل. وجانَبَ السلوكية الصواب إذ ردّت عمليات التعلّم المعقّدة جداً إلى شيء بسيط غاية البساطة هو «العلاقة بين المثير والاستجابة». و«الإنسان ليس هو هذا الكائن الآلي» الذي يمكن التحكّم في تعلّمه واستجاباته، بحيث إذا عَلِمنا بالمثير فيمكن أن نستحدثه لنستحدث الاستجابة، فالإنسان له «إرادة» ويترسّم «غايات» معيّنة لنفسه، ولا يمكن أن يخضع هذا الخضوع الآلي لما يُفعَل به، بالإضافة إلى أن السلوكيين - ومنهم واطسون نفسه - يستبعدون فكرة «الشعور»، بما يفيد أن الإنسان لا يعي ما يفعله، وذلك أمر غاية السُخف! ويذهب بعض السلوكيين إلى تأجيل البحث في الشعور حالياً مما يجعل مذهبهم مذهباً ناقصاً، طالما أن «النشاط الشعوري» هو حقيقة لا تُنكر من حقائق الحياة. ورغم كل هذه المثالب في السلوكية إلا أن أفضالها على الفكر السيكولوجي لا تُجحَد، فقد أسهب السلوكيون في التجارب وجعلوا من علم النفس علماً موضوعياً وتطبيقياً، ولفتوا الانتباه إلى مجال لم يلتفت إليه علماء النفس من قبل، ألا وهو الناحية التطبيقية للمعرفة العلمية بالسلوك البشري، بهدف حلّ الكثير من المشاكل الحقيقية بدلاً من الانصراف بالكلية إلى دراسة أحوال الشعور دون غيرها.

و«الاضطرابات السلوكية Behaviour disorders» إصطلاح فضفاض أدّعى إلى إدراجه ضمن الاضطرابات الطبية النفسية، ويُقصَد بها الانحرافات السلوكية عند الجانحين المراهقين، كالهروب من المدرسة، والشجار، والسرقة، والتزييف، وإشعال الحرائق، وإتلاف الممتلكات، وتعاطي المخدرات والمشروبات الكحولية، وارتكاب الجرائم الجنسية، والصعلكة، والقوادة، وقد نُلحِق بها العادات السيئة عند الأطفال كقضم الأظافر، والبوال، والاستمناء باليد، ومصّ الإبهام، ونوبات الغضب وسورته التي لا مبرر لها. وغالباً ما تعني الاضطرابات السلوكية كل الأفعال التي يأتيها الشباب ولا يرضى عنها المجتمع وتحاربها الشُرطة، ويمكن أن توصف بأنها أفعال أو أنشطة مندفعة، ومتهورة، ومعادية للمجتمع. وقد تتضمن اضطرابات السلوك بعض الأفعال التي تُعدّ أعراضاً عُصابية مثل اللوازم، والتهتهة، والتجوال الليلي، والنشاط الزائد، رغم أنه من شروط الفعل ليكون اضطراباً سلوكياً أنه لا يصدر عن قلق عُصابي أو سوء فهم ذُهاني للواقع.

والعلاج السلوكي Behaviour therapy نوع من العلاج النفسي يقوم على النظرية السلوكية، بمعنى أن المشاكل الانفعالية لا يصاب بها البعض إلا لأنهم قد فشلوا في تعلّم استجابات ذات جدوى، أو لأنهم اكتسبوا أنماطاً من السلوك الخاطئ، ومن ثم فإنه لكي نصلح حالهم ينبغي أن يخضعوا لعملية تعلّم جديدة من شأنها فكّ الارتباط بينهم وبين الاستجابات الخاطئة أو الفاشلة وتعلّم استجابات جديدة مجدية وفعّالة وناجحة، ولهذا السبب فقد يُفضَّل أن يُطلَق إسم «العلاج بمقتضى نظرية التعلم Learning theory therapy» على إسم «العلاج السلوكي».

وليست ثمة حاجة في هذا النوع من العلاج النفسي لكشف المخبوء في اللاشعور، أو لزيادة استبصار المريض بحالته ومشاكله وأسبابها، أو للتوجه بالتغيير لشخصية المريض تغييراً يتناولها من أساسها، وإنما يهدف العلاج إلى مراجعة الأنماط الحالية لسلوك المريض، والعمل على أن يتخلص من

السيئ منها - وهو عادةً ما يشكّل أعراض الاضطراب، وبتعبير أحد السلوكيين «لو استطعنا أن نعاون المريض على التخلص من الأعراض فإننا بذلك نقضي على العُصاب» (Eysenck ١٩٦٠).

والعلاج السلوكي له عدّة طرق، ومن ذلك طريقة الإشراط التقليدي البسيط Simple classical conditioning، وتُستخدم لتغيير بعض أنماط السلوك دون البعض الآخر، ومنها البُوال، بأن ننيم الطفل البوّال على حشيّة موصلة كهربائياً بحيث يُدَق جرس إذا بدأ يبول فيوقَظ، وبتكرار ذلك لعدد من الليالي يعتاد على الاستيقاظ كلما امتلأت مثانته واحتاج أن يبول، فإذا تحقّق هذا التعديل لم تعد ثمة حاجة أن ينام على تلك الحشية واستقامت حياته.

ومن طرق العلاج السلوكي أيضاً طريقة الإشراط الإجرائي Operant conditioning، واستُخدمت مع بعض المرضى بالفُصام الذين يُضرِبون عن الطعام رافضين أن يتناولوه وحدهم، ويحتاج الأمر لتغذيتهم أن تقوم به ممرضة، وبعض من دأبهم أن يزعموا أن الطعام مسموم، أو أن الله قد أمرهم أن يصوموا، وبعضهم كان شديد الانطواء على نفسه ويعتزل الجميع ولا يفعل شيئاً البتة. وتقوم طريقة العلاج على اشتراط بعض الإجراءات ليمكن للمريض أن يتناول طعامه، فمثلاً لا يُدفع المرضى إلى المطعم، بل يُتركون أحراراً يدخلون إليه أو لا يدخلون، ويستمر الباب مفتوحاً مدّة ثلاثين دقيقة يُغلَق بعدها ويُترك المرضى بدون طعام، فإذا حان وقت الوجبة التالية أعلن أن الباب سيظل مفتوحاً لمدّة عشرين دقيقة فقط، وفي اليوم التالي يُعلن أن الباب سيظل مفتوحاً لمدة خمس عشرة دقيقة، وفي الوجبة التالية يُعلن أنه سيظل مفتوحاً لمدة عشر دقائق، وهكذا إلى أن لا يُفتَح الباب إلا لمدة خمس دقائق فقط. ونجحت التجربة، وفي خلال ثلاثة أيام لا غير كان كل المرضى قد واظبوا على اللحاق بالمطعم في الموعد المحدّد دون إبطاء ودون معاونة من أحد، بل وأكثر من ذلك أمكن للمشرفين على التجربة إشتراط بعض الإجراءات يقوم المرضى بتنفيذها ليمكن لهم أن يتناولوا وجباتهم، كأن يُشترط أن يكون الدخول إلى المطعم

بثياب معيّنة، أو أن يضع المريض قطعة نقدية في صندوق حتى يتسنّى له الدخول، ويُحال بين المريض والدخول إذا لم يرضخ لما يُطلب منه.

وفي العلاج بالإشراط المنفّر Aversion conditioning يمكن تغيير السلوك غير المرغوب بربطه بعقاب من نوع ما، فمثلاً قد نصبغ أظافر المريض بقضم الأظافر أو بمص الإبهام بالمُرّ، بحيث كلما رغب في مص إصبعه أو قضم أظافره أصابه النفور بتأثير المر.

وفي العلاج بالانطفاء Extinction therapy إذا لم تعزّز الاستجابة فإن المريض يقل إتيانه لها إلى أن تزول منه بالكلية، أي تنطفئ مع عدم تعزيزها باستمرار.

وفي طريقة الكفّ المتبادل Reciprocal inhibition يكون علاج الاستجابة غير المرغوب فيها باستثارة المشاهد التي تستحدثها، ثم تعليم المريض أن يقطع الاستجابة غير المرغوب فيها باستجابة أخرى كالاسترخاء مثلاً، فمع تكرار التجربة تَكُفُّ كلٌّ من الاستجابتين وتزولان، فمثلاً في علاج المخاوف يُسأل المريض عما يخيفه، كأن يكون مشهد جنازة، ثم يبدأ المعالج فيصف له المشهد ويطلب منه رفع يده إلى أعلى عندما يبدأ شعوره بالحزن والقلق والخوف، ويكرر ذلك عدّة مرات إلى أن تصبح المسألة عادية ويتلاشى الخوف.

وفي العلاج بالانعكاس الشرطي Conditioned reflex therapy يستحث المعالج المريض على أن يعبّر عن انفعالاته باليدين والوجه والكلام، ولا يُخفي أو يكبت شيئاً مما يشعر، باعتبار أن الصحة الانفعالية تكون من خلال التعبير التلقائي والسلوك بعفوية، ومن ثم يحاول المعالج أن يشرط أو يهيئ مريضه ليتصرف بناءً على ما يشعر به، ويظهر ذلك على وجهه (الكلام بالوجه)، أو بأن يعارضه صراحة وبصوت جهير بأن يقول متعمداً «أنا... وأنا... وأنا» دون تردّد، وأن يتقبل مديح الآخرين له ويشكرهم عليه ويبادلهم المديح، وأن يتعلم أن يعيش في الحاضر وفي المكان نفسه بدلاً من أن يفكّر ويخطّط لمستقبل ولمكان آخر.

ويبدو أن تطبيق العلاج السلوكي يزيد باستمرار وتتنوع طرقه بتنوع الاضطرابات التي يتصدّى لعلاجها. وتُعالج به حالياً الكثير من العادات السيئة كاللوازم، وقضم الأظافر، ومصّ الإبهام، والتدخين والتهتهة والكثير من اضطرابات الشخصية، كاللواط، والتشبّه، والفيتيشية، والاستعراء، والإدمان الكحولي، وإدمان المخدرات، وبعض الاستجابات العُصابية مثل التجوال الليلي، والعمى الهستيري، والفوبيا، والبرود الجنسي عند النساء، وعُقال الكاتب، وأيضاً يعالج به الضغط العصبي، والقرحة الإثني عشرية، والربو الشعبي.

وأحياناً يقال للعلاج السلوكي إنه «تعديل السلوك Behaviour modification». وقد يقال للشخص أو للطفل الذي يلزم تعديل سلوكه أنه مشكلة سلوكية Behaviour problem ، أي أن سلوكه مُشكل. والطب السلوكي Behaviour medicine فرع جديد نوعاً ما من الطب يقوم على بحوث ونظريات العلوم الاجتماعية، ويعالج الأشخاص المُشكلين علاجاً سلوكياً كالذي أسلفنا القول فيه. وأما «العلم السلوكي Behaviour science» فهو الاسم البديل للعلم الاجتماعي ويطلق على أي من العلوم الاجتماعية، وهي: علم النفس، وعلم الاجتماع، والأنثروبولوجيا الاجتماعية، وعلم الأخلاق البيئية Ethologyونقصد به دراسة سلوك الكائنات في بيئاتها الطبيعية لملاحظة العلاقة بين تركيبها الوراثي وظروف البيئة وأثرها على السلوك. ومن ذلك تأثير الازدحام على السلوك، والاختلاف بين الكائنات في ذلك. ويطلق البعض إسم «البؤرة السلوكية Behavioral sink» على المنطقة المزدحمة بالسكان من أي نوع من الكائنات، حيث يشذّ السلوك ويضطرب مع الزحام، وكأن المنطقة المزدحمة بمثابة بؤرة فساد. وكانت البحوث على ذلك على الحيوانات وخاصة القوارض في الأقفاص، غير أن بعض العلماء يرى في تطبيق نتائج هذه البحوث على الإنسان مغالاة قد تكون مرفوضة لهذا السبب.



مراجع:
- Watson: behaviorism.
- Watson: Psychology as a Behaviorist Views it.
- Watson: Psychology from the Standpoint of a Behaviorist.
- Darwin: The Expressions of the Emotions in Man and Animals.
- Allport & Vernon: Studies in Expressive Movement.
- Skinner, B.F.: The Behaviour of Organisms.
- Hull, C.L.: Principles of Behaviour.
- Yates, A.: Behaviour Therapy.
- Teasdale, J.: Aversion Therapy and the Behaviour Disorders.



- ١٢ -
سيكولوجية العبقرية

العبقرية واختبارات الذكاء والشخصية. ظاهرة العالم الأبله. بحوث جالتون وتيرمان. العبقرية عند الذكور والإناث. علاقة العبقرية بالاضطرابات العقلية والنفسية...



العبقرية Genius، قيل: نسبةً إلى عَبْقَر وهو السيد الذي ليس فوقه أحد، ويقال عبقري لكل من يُتعجَّب مِن كماله وقوته وحذقه. واللفظة الأجنبية لاتينية الأصل، لاسم جني Geni العربية، والعبقري هو الحاذق كالجن، وعَبْقر في العربية قومٌ من الجن. والعبقرية نبوغ في ناحية من النواحي الإبداعية، والعبقري يمكن أن يكون مخترعاً، أو مؤلفاً، أو منظّراً، أو سياسياً، أو عسكرياً، يأتي بجديد ويغيّر من القديم. والعبقرية لها بصماتها في الفنون والعلوم والآداب، وفي التجارة والإدارة. ومخايل العبقرة تظهر في تصرفات العبقري منذ الطفولة، وقيل إن «سن التميّز» هي الرابعة أو الخامسة، وفي هذه السن يلفت النظر إلى «الطفل الموهوب Gifted child» حصيلته اللغوية، وتفوّقه في النطق، وسعة معلوماته، ونشاطه الفكري، وحركاته الكثيرة، وممارساته التي يسبق بها أقرانه في الرسم، أو الموسيقى، أو الحساب. وقد يقال للطفل أنه «عبقري»، كما قد يقال له أيضاً إنه «طفل متفوق Superior child»، و«طفل معجزة Prodigy»، و«طفل ذكي

Bright child». ولقد قيل إن الكثيرين من العباقرة على العكس عُرِف عنهم تخلّفهم الدراسي وغباؤهم، ومن ذلك أن الأكويني Aquinas (١٢٢٤ - ١٢٧٤م) - الفيلسوف الكبير - كان يُطلَق عليه إسم الثور الغبي Dull ox، وأن إينشتاين Einstein (١٨٧٩ - ١٩٥٥) - عالم النسبية الكبير - لم يبرز كطالب في المراحل الباكرة من عمره، إلا أنه من الصعب التحقّق من صدق هذه الروايات، كما ان المنطقي أن تكون طفولة العبقري متوافقة مع رجولته، وأن يكون تحصيله العلمي وريادته الإبداعية قد بدأهما مبكراً عن غيره.

والعبقرية يمكن رصدها وقياسها باختبارات الذكاء واختبارات الشخصية، إلا أن ذلك يكون من باب التقدير وليس التحديد. فالعبقرية ليست مجرد ذكاء، وجوانب العبقرية التي يمكن أن تكون لشخصية العبقري أكثر من أن تقاس تحديداً، واصطلاح القياس بالمعنى الذي يمكن أن ينصرف إليه في علم النفس يبدو كما لو كان لا ينطبق على العبقرية.

و«العبقرية بالإمكان Potential genius» تكون بالعبقري إمكانات تُظهرها تنشئته، والبيئة التي تتعهده برعايتها، وشخصيته التي من صفاتها الدأب، والمثابرة، وحب المعرفة والتعلم، واستطلاع الأمور واتخاذ القرارات، وحلّ المشاكل. واصطلاح «العبقرية بالإمكان» أو «العبقري بالإمكان» قال به لويس تيرمان Terman (١٨٧٧ - ١٩٥٦) نتيجة بحوث ودراسات لأحوال الأطفال من أصحاب الذكاء العالي والتحصيل المشهود، وهو يذكر أنه من بين كل مائتي طفل هناك طفل واحد له الإمكانات التي يحتمل معها أن يكون عبقرياً، وأن يحقق بها ما لم يحقّقه غيره من أقرانه العاديين أو حتى الأذكياء. ويذهب تيرمان إلى أن نسبة ذكاء العبقري تبدأ من ١٤٠، وذلك ما لم يوافقه عليه علماء وجّهوا لبحوثه النقد، باعتبار أنها نسبة متدنيّة، كما ان تيرمان إقتصر في تحديد العبقرية المحتملة على الذكاء وحده. والصحيح أن الطفل الذي لديه إمكانات العبقري يستطيع أن يبزّ أقرانه في كل شيء، ويتميّز بمجال معيّن، أو قدرة خاصة يتفوق بها في مجالها على الجميع، كأن يمهر في الحساب، أو يستطيع الرسم باتقان، أو يعزف

كالراشـدين. وهـو سـريـع الإدراك والملاحظة، وذاكرته الحافظة لها قدرة استيعاب هائلة. وقد يقال إن ظاهرة العالم الأبله Idiot savant تدحض ما قيل عن شرط الذكاء العالي للعبقري، وهذه الظاهرة قد روّج لها بعض العلماء في إنجلترا وفرنسا خصوصاً. وقيل إن الأبله الذي تقل نسبة ذكائه عن ٥٠ قد يأتي من الخوارق ما يذهل العارفين، فقد يستطيع الجمع أو الطرح لأرقام كبيرة في سرعة مبهرة، وقد يتذكر العشرات من الكلمات أو المحفوظات ويرددها بغير خطأ، إلا أن ذلك كما قيل في مجال واحد، وهو في غير هذا المجال الأبله الذي لا يدري من أمر نفسه الكثير. ومع ذلك فربما كان البَلَه في هذا الطفل نتيجة فصام يؤثر في شخصيته، إلا أن قدراته الذهنية تبقى على حالها، أو أن البله به يأتيه وراثياً منذ الميلاد، أو يتسبب عن أذى يلحق الجنين وهو بعد في الرحم، أو يلحقه أثناء الولادة وتتعطل به قدراته إلا هذه القدرة دون غيرها التي يُظهر فيها تفوقاً، ورغم ذلك فظاهرة العالم الأبله قد تكون فردية علمية أذاعها البعض دون سند من الواقع.

وهناك من الشواهد على أن العبقرية لا تظهر إلا في العائلات الموهوبة، وان ظهور أحد أفرادها كعبقري يزيد من احتمالات أن يظهر فرد آخر منها، وثالث ورابع كعباقرة. ولقد أجرى فرانسيس جالتون Galton (١٨٢٢ - ١٩١١) بحثاً إحصائياً في العائلات البريطانية التي خرج منها علماء وتبين له أن العائلات التي تتميز بالتفوق في التحصيل العلمي وتُعقد لها الريادة فيه هي عائلات بعينها، وأن تاريخها حافل بالأفراد المتميزين في كافة المناشط الفكرية، مما يذكر أن جالتون نفسه كان قريباً لداروين شديد القرابة، وكأن ظهورهما معاً في التاريخ نفسه تقريباً لدليل على صدق حدسه العلم، وفي القرآن عندنا نحن المسلمين ما يصادق على مقالته في الآية: ﴿ذُرِّيَّة بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ﴾ (آل عمران - ٣٤). وذهب هافلوك إليس في بحثه المشابه إلى تأييد جالتون على نظريته، وقال إن من المحتمل وجود ميكانيزمات وراثية تنقل الاستعدادات من جيل إلى جيل في

الأسرة الواحدة، وذلك ما ذهب إليه تيرمان أيضاً في كتابه «دراسات جينية في العبقرية Genetic Studies of Genius» (١٩٢٦).

ويكاد ينعقد إجماع الدارسين والمنظّرين على أن العبقرية نتاج الوراثة والبيئة معاً، فالاستعدادات الموروثة لا بد أن تتسلمها بيئة مواتية تشجع على التحصيل، وتنمّي المواهب وتتيح لها فرص التفتح، وإلا فمصير هذه الاستعدادات إلى الذبول والاضمحلال. وحتى مع وجود المورثات للعبقرية فإن ميكانيزم الوراثة لا يمكن أن يعمل عمله إلا في شروط معيّنة وبيئة رحمية واجتماعية صالحة، وبغرض تأمين ذلك كله فلا يمكن أن نأمن عامل الصدفة، سواء أثناء الحمل، أو بعد ذلك خلال عملية النمو. وأما عامل البيئة فالتاريخ يقدّم الشواهد على أن بعض البلاد كان لها في فترات من التاريخ تأثيرها الحاسم في إظهار عبقرية من كان لهم باع طويل في المعارف والعلوم والفنون، وكانت أثينا في المدة من سنة ٥٠٠ ق.م، وحتى سنة ٢٠٠ ق.م، وكذلك فلورنسا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، مثلين واضحين لما يمكن أن تقدمه البيئة من فرص للتعبير الخلاّق وتطوير المواهب. وكذلك كانت بغداد في عصر العباسيين، والقاهرة في زمن الفاطميين. ومن المحتمل أن هناك المئات من العباقرة يولدون إلا أن عبقرياتهم يُضيّق عليها، وتتضافر عليها عوامل الانحراف بها أو إفسادها وتضليلها، أو ذبولها وأفولها، حتى لتبدو الأمة وكأنها قد صارت عقيماً.

والعبقرية أظهر بين الذكور عنها بين الإناث، وقيل إنه في مقابل «كل أنثى عبقرية» هناك «ألف عبقري ذكر»، وتختلف هذه النسبة من نشاط إلى نشاط، ففي مجال الموسيقى والشعر والرياضيات، وفي الهندسة والعلوم الطبية والبحوث اللغوية مثلاً لا يكاد يوجد عباقرة من النساء، وفي مجال الأدب هناك متميزات من النساء ولا توجد عبقريات، وقيل: ربما كان السبب أن هناك فرصاً متاحة للتعبير ولتطوير المواهب بالنسبة للذكور عنها بالنسبة للإناث، وكذلك فإن الفروق البيولوجية

بين الجنسين في صالح الذكور بالإضافة إلى تعطّل الإناث بأشغالهن، بالزواج والحمل وتربية الأطفال وأعمال البيت وهن في سن العطاء، ولذلك تأثيره على انصراف المرأة عن الاشتغال بالتميّز والتفوق. والمرأة بطبعها أرق وأضعف في البنية، ومن ثم لا تحتمل الجِدّ والمثابرة والاجتهاد الذي يستلزمه التفوق والتميّز، والذي لا بد منه لظهور العبقرية وتفتّحها. والمرأة لا تميل بشكل عام للتجديد، وميولها محافظة أكثر من ميول الرجل. والمرأة أقل إقداماً وميلاً للمخاطرة التي تستلزمها ريادة الجديد والبديع. ولا فرق في الذكاء بين الذكر والأنثى، والفروق البيولوجية والاجتماعية والثقافية والحضارية هي الفروق الوحيدة بين الذكور والإناث. وفي بلادنا وقد صارت تُكلّف النساء بأعمال الرجال المضنية، فمن غير المظنون أن تتاح الفرصة للنساء أن يبرزن وتكون لهن عبقرية مشهودة في المجالات الفكرية. وعموماً فإن العبقرية في أي من بلاد العالم يُضيّق عليها ولا تتاح لها الفرصة إلا بشق الأنفس، وربما ذلك لأن الناس عموماً يتشككون في سلوك العباقرة من حيث أنهم دائماً الخارجون على المألوف والمتمرّدون على العرف والتقاليد، والذين يفكّرون في الأمور بطريقة مختلفة، ويتصرّفون بطرق مغايرة، ناهيك عن أن بعض العباقرة لهم فعلاً أوجه شذوذهم في السلوك والتفكير حتى قيل إن العبقرية مرض عقلي، وقيل إنها سلوك تعويضي عن نقص، وإن العبقري إما له شذوذ المرضى العقليين، أو شذوذ الذين يعانون العُقَد النفسية، غير أنه قد ثبت من بحوث تيرمان أن غالبية العينة من العباقرة يتميّزون بالصحة النفسية والانضباط، كما أثبت هافلوك إليس Havelock Ellis (١٨٥٩ - ١٩٣٩) أن احتمال إصابة العبقري بالاضطراب العقلي أو النفسي تتساوى واحتمال إصابة الأفراد العاديين به. والعباقرة عموماً لديهم الحسّ العالي بالواقع حتى وإن تصرّفوا أحياناً بشذوذ أو كانت لهم إنفجاراتهم الانفعالية. والعبقري بوسعه أن يصحّح نفسه بعد فترات من اللاتوازن، وهذه الفترات نفسها ضرورية له ليعاني فيها ويجرّب الفكرة الجديدة

وإن كانت غريبة، وغرابتها هذه ربما هي التي يكون فيها تحوّل الفكر إلى آفاق جديدة. والتعلّم وإن كان لازماً للعبقري إلا أن تواريخ حياة العباقرة تثبت أنهم عصاميون، يتوفرون على تعليم أنفسهم أكثر مما يتعلمون من الغير. وربما كان التعريف الذي يقول: «إن العبقرية ٩٩٪ منها مجاهدة وعرق، وواحد في المائة إلهام» هو تعريفٌ صائبٌ، فالعبقري يلزمه عشرة عقول إلى جانب عقله طالما هو يلزم نفسه بالعمل الشاق، والانضباط الشديد في الأمور التي يرى أنها ضرورية له، وطالما لديه دوافع قوية تتملكه وتستحثه لأن يمهر في الفن أو العلم الذي ينصرف إليه، وان تكون له السيادة أو الريادة فيه، وأن يحيط بدقائقه، لأن ذلك سيقرّبه من بلوغ أهدافه أسرع. وربما يضيّع المجتمع على نفسه العشرات من العباقرة بالتوجيه التعليمي الخاطئ وبتغليب مصالح الأغنياء على مصالح الشعب وإهمال تعليم الفقراء. ومن دأب الطبيعة أن تنجب الأفراد باستعدادات العبقرية بدون تفريق بين غني وفقير أو حاكم ومحكوم، ولكن الذي يحدث بعد ذلك لهذه الاستعدادات متروك للحكومات، ولهؤلاء الأفراد أنفسهم، وللمجتمع الذي ينشأون فيه.



مراجع:

- Anastasi, A.: Differential Psychology.
- Terman, L.M. et al: Genetic Studies of Genius.
- Vernon, P.E.: Creativity.
- Harms, E.: Handbook of Child Guidance.



- ١٣ -
سيكولوجية الدور الاجتماعي

نظرية الأدوار، والمسرح واصطلاحاته فيها. توقعات الدور والأدوار الرئيسية ومتطلباتها والتدريب عليها وتمثلها وأداؤها. الدراما النفسية.



كلمة Role أصلاً فرنسية، من Rôle، وتشتق من لفافة الممثل من الورق المكتوب فيها نصّ دوره في المسرحية. ومفهوم الدور Role من المفاهيم المسرحية - Dramatic r. - التي أخذها علم النفس من مجالها ليستخدمها بمعنى «الوظيفة» التي تكون للفرد في مجتمعه، أو ما يضطلع به من «عمل» في موقف معين، مثل دور الأب، أو دور الأم، أو دور القائد، وهكذا، باعتبار أننا في الحياة نتلبّس شخصيات متعدّدة باختلاف المواقف، وكأننا ممثلون على خشبة المسرح، ولنا في كل مسرحية دور، وكأن الحياة كما يقول شكسبير: مسرح كبير، والأشخاص ممثلون، أو أنه بالأحرى ليست هناك «شخصيات مطلقة» في الحياة، وإنما نحن «شخوص مسرحية»، يعرفنا المجتمع من بينها بالأدوار التي نقوم بها. ونظرية الأدوار Role theory: هي وجهة النظر التي تقول بأن السلوك مظهر لأدوار نمثلها إجتماعياً، وأن التعليم والتربية والتنشئة الاجتماعية عمليات يُقصَد بها تفهّم «الأدوار الاجتماعية Social rs» والتدريب على القيام بها، وأن المعوّل عليه أن كل إنسان يختار من الأدوار النمط الذي يناسبه، وأن القيام بهذه الأدوار منذ الطفولة وتمثيلها يُصقِل الشخصية وينمّي سماتها ويوسّع من مفهوم الذات، وأن لكل مجتمع «مخزون أدوار Role repertoire» كالفِرَق المسرحية، وأن «توزيع الأدوار Role distribution» يتم اجتماعياً ويُراعَى فيه مناسبة هذه الأدوار للشخصيات التي تمثلها، فيكون التوافق النفسي بين الممثل وأدواره التي يضطلع بها. وربما لا يكون الدور الذي يوكل بأحد الأفراد من اختياره، أو يجيء دوره أكبر من إمكاناته أو أقل منها، وعندئذ لا يكون أداؤه للدور Role playing كما يجب، وقد يغالي في التمثيل Overacting؛ أو قد يجيء تمثيله بحيث يقصر عن الدور وأبعاده Underacting. وليس اضطراب السلوك في الحياة إلا لعدم مناسبة الأدوار الاجتماعية للقائمين بها، أو عدم إدراكهم لأبعادها وقصور وعيهم عن تفهمها، أو عن تفهم ذواتهم وما يحتاجون إليه نفسياً. وتفترض نظرية الأدوار أن يسأل كل شخص نفسه عن حقيقته، ومن

يكون، ومن هو الآخر أو الآخرون الذين يتعامل معهم، وما هي أدوارهم، وما هي علاقة دوره بأدوارهم. ولا يكون التفاعل بين الأفراد على وجهه الصحيح إلا من خلال فهم كل شخص لنفسه وللناس المحيطين به. وكما في المسرح فإن المكلف بدور هاملت مثلاً، يتوقع منه أن ينهض بتمثيل هذا الدور بكل ما يمكن أن يكون لهاملت من حركات وسكنات، وأن يقلده فيها حتى ليمكن أن نحسبه هاملت على الحقيقة. وبالمثل في الحياة فإن الشخص الذي يقوم بوظيفة ضابط الشرطة أو المدرس الجامعي عليه أن يمثّل دوره، ويقوم بكل ما يُفترض أن يقوم به ضابط الشرطة أو المدرس الجامعي من واجبات وأعباء، وأن يفكّر مثله يكون له خصائص الدور، وهو ما نسميه «توقعات الدور Role expectations»، وهي مجموعة التصورات، وتقمّصه للشخصية يُطلق عليه إسم «إخراج الدور r. enactment»، كما يطلق على خصائص الدور إسم «شخصية الدور r. personality». وقد تتضارب الأدوار التي يقوم بها الشخص الواحد أو تتصادم مع شخصيته الحقيقية Actual personality. وعندئذ يستشعر الصراع. و«صراع الأدوار r. Coflict» كما في المثل السابق لضابط الشرطة، كأن يجد نفسه مضطراً للقبض على شقيقه فيقوم به صراع بين دوره كضابط ودوره كأخ، أو بين الواجب والحب. وبعض الأدوار تحتاج في الحياة لعدد من «الأدوار المساعدة Auxiliary r.»، فلكي يقوم شخص بدور ضابط الشرطة فإن ذلك يستلزم أيضاً أن يكون هناك شرطة وجمهور، ونطلق على ذلك إسم «مجموعة الدور Role set»، وهي مجموعة الأشخاص المرتبطة أدوارهم بدور ضابط مثلاً حيث هو الدور الرئيسي The leading role. ويتكامل الدور الرئيسي بالتنسيق مع بقية الأدوار المساعدة، وهذا التنسيق مطلوب حتى مع الشخص الواحد وهو يقوم بأدواره المختلفة. وكل منا يقوم بالعديد من الأدوار عليه أن ينظم بينها وينسق حياته على منوالها، بحيث لا يضطرب سلوكه بأعبائها، ولا تختلط عليه خصائص الأدوار. وتفيد نظرية الأدوار في الحكم على سلوك الناس بحيث لا نحسب فظاظة شخص

في موقف سمة من سمات شخصيته، فربما تكون هذه الفظاظة من مستلزمات الدور في هذا الموقف بالذات، فضابط الشرطة الحازم مع المجرمين قد نجده حانياً عطوفاً محباً مع أسرته، وذلك أيضاً من مستلزمات الزوج أو الأب. ولكل دور «مستلزمات أو متطلبات r. demands»، ونحن نتدرب على الأدوار منذ طفولتنا، وهو ما نسميه التعيّن Identification بالآخرين، و«التدريب على الدور r. rehearsal» يزيد استبصارنا بتوقعات الأدوار، ويزيد من إدراكنا لأبعادها Role perception، ويُصقل من قدرتنا على تمثّلها Role taking aptitude ثم إخراجها. وهذه القدرة تكون بنا موهبة خاصة من الله، فبعضنا يتمتع بهذه القدرة لدرجة ملفتة للنظر، وبعض الأطفال تكون بهم باعتبارها قدرة تنضاف إلى بقية القدرات الخاصة التي يكون علينا اكتشافها فيهم في وقت مبكر لنعمل على صقلها. والقائم على الدور باعتباره كالممثل، فإنه يحتاج إلى جمهور، وكلما أتقن دوره وجاء تمثيله متوافقاً مع توقعاتهم للدور، كان استحسان الجمهور له، فضابط الشرطة الذي يقوم بدوره، وينفّذ ما عليه، ويحفظ الأمن، ويصون الأعراض، ويحمي الممتلكات، يُعطَى الأنواط ويُردَد اسمه بالافتخار. وكذلك الطفل وهو يتمرّس على الأدوار، ويزعم أنه الأب مثلاً، أو المدرس، ويسير كما يسير هذا أو ذاك، ويأمر كما يأمر، فنهشّ له ونضحك، فذلك منا الإثابة له A reward على سلوكه، وأيضاً هو تعزيز Reinforcement لهذا السلوك. والتدريب على الأدوار للأطفال يرفع مستوى طموحاتهم. ويدفعهم إلى التحصيل. وليست رسالة المسرح المدرسي The scolastic theatre إلا بعضاً من هذا الذي نذهب إليه. وتؤثر الأدوار التي يحاول الأطفال تقمّصها في تكوين شخصياتهم، ويُكثر الأطفال من هذا التقمّص في أحلام اليقظة، ففي قصة سندريلا Cinderella مثلاً يجعلها تقمُّص دور الأميرة تسلك في الحياة كالأميرات، ويرفع من طموحها فيتحقّق لها الزواج من أمير. ولا شك أن كل ممثل يتأثر بمخزون أدواره التي مثّلها في حياته، ومن الممكن أن نحكم على

الشخصية من مجموعة الأدوار التي يقوم بها صاحبها، أو من «الوظائف» التي تقلّدها، ومن اختياره لها، وأدائه الذي يكون مؤشراً على نضج شخصيته، و«حُسن اختيار الدور» الذي يناسب الشخصية دليل نضج، لأنه يعني أن صاحب الشخصية فاهم لنفسه ولأبعاد الدور، وناضجٌ يتحكم في سلوكه، ومن ثم يستطيع أن يقوم بالدور. ونحن جميعاً من خلال تكرار تعرّضنا لمواقف بعينها ننمّي في أنفسنا طرقاً للاستجابة تتثبت معنا، وهي التي نستدل منها على سمات الشخصية. وكلما اتفقت متطلبات الدور مع فكرة الشخص عن ذاته، كان ذلك أدعى لحُسن أدائه، ولتنافي الصراعات بين متطلبات الدور وفكرته عن ذاته. ونلمس أثر استحسان «الجمهور المشاهِد» لتمثيل الأدوار مما نلحظه من حُسن استقباله، أو مما يجري من مناقشات حوله في جماعات المناقشة أو على صفحات الجرائد والمجلات، أو في محطات التليفزيون، وداخل صالات الألعاب والساحات الرياضية، وبعد العروض الموسيقية. وللجمهور مزيتان، الأولى أنه يؤكّد باستحسانه ويعزّز عنده هذا السلوك ويدفعه إلى المزيد من طلب الإتقان. وقد يحدث أن يتقمّص الشخص دوراً يناسب سياقاً معيناً، إلا أن أسلوبه في القيام بالدور قد يحدث أن يتكرر معه في النهوض بأدوار أخرى، ولسياقات مختلفة، بصرف النظر عن مناسبة حرفية الدور لها، ونطلق على ذلك إسم «إنتشار الدور Role diffusion»، وذلك من تأثير الخلط عليه، فتتوه أهداف الدور عنه، وتضل عنه هويته أو شخصيته، ويتلبّس الدور ويسلك من وحيه، سواء على المسرح أو في الحياة في كل ما يتقلّد من أعمال ومهام. وتقوم فكرة العلاج النفسي بالدراما النفسية Psychodrama على نظرية الأدوار، باعتبار أن المريض وهو يمثل أدواراً من حياته يعايش المواقف التي تسببت له في الاضطراب، ويطرح عنه عُقدَه، فيستبصر مشكلته وصراعاته، فيتحقّق له من ذلك العلاج.



مراجع:

Biddle, B.J.: Role Theory: Role Theory: Concepts and Research.
- Gross, N., Mason, W.S. & MC Eachern, A.W.: Explorations in Role Analysis.
- Sader, M.: Rollentheorie.
- Sarbin, T.R.: Role Theory.



- ١٤ -
سيكولوجية المهارات

المهارات وأنواعها والتدريب عليها واكتسابها. المهارة في المجالات الاجتماعية والتربوية والرياضية إلخ...



المهارة Skill نشاط معقد يُظهر الشخص الماهر على قدرة وكفاءة تميّزانه عن غيره من الأفراد العاديين في نشاط من الأنشطة، وتُكتَسب المهارة بالتعلّم والتدريب والممارسة. وقد نتحدث عن المهارة فنقصد بها في المجال الاجتماعي مهارة الشخص الواعي بالتفاعل الاجتماعي في بيئته، والذي يترقّى صُعُداً في هذه البيئة من حيث الأدوار الاجتماعية وتمثلها والتعامل بكفاءة مع مختلف المواقف الاجتماعية - وهو ما نطلق عليه إسم المهارة الاجتماعية Social skill. وقد نقصد بالمهارة في المجالات التربوية إجادة القراءة والكتابة والعمليات الحسابية مما يقال له المهارات الأساسية Basic or fundamental skills واكتسابها ضروري لاكتساب المهارات الأعلى Higher-skills، أو Higher level skills، كالمهارة اللغوية Language skill تعبيراً وإنشاءً وبياناً. فإذا كانت المهارة قدرة على القراءة السريعة المُجملة للمعاني Skimming s.، أو على الاستيعاب Comprehension s.، أو على التلخيص Summerizing s.، فهي مهارة دراسية Study skill تتعلق بالدراسة والبحث. والمهارات من هذا النوع «مهارات ذهنية Intellectual skills»، في مقابل «المهارات الحركية Motor skills»، والأولى عملياتها ذهنية، بينما الثانية

عملياتها حركية. وبالطبع فإن أي عملية ذهنية قد تترافق معها عمليات حركية، وكذلك فإن أية عمليات حركية لا بد أن تصاحبها عمليات ذهنية، غير أن الأغلب والأعم في المهارة الذهنية أو المهارة الحركية هي العمليات الذهنية أو الحركية التي تطبعها بطابعها، بحيث يمكن أن نصفها بالوصف الذهني أو الحركي فقط، وغالباً ما نتحدث عن المهارة ونقصد بها المهارة الحركية، حيث يرتبط «اكتساب المهارات Acquisition of skills» بالأنشطة الرياضية كالسباحة وغيرها، وبالأنشطة الانتاجية في مجال الصناعة. ومحك المهارة عند العمال والفنيين هو قضاء فترة تدريب، وبلوغ العامل أو الفني مستوى من الإجادة في الأداء يزيد به الانتاج ويجود. ويتضمن «السلوك الماهر Skillful behaviour» عدداً من الاستجابات الحركية غالباً، أي غير اللفظية، التي توظف فيها أعضاء الحركة، كالقدمين، والساقين، والذراعين، واليدين، والأصابع، في تآزر، بحيث يقوم الشخص الماهر بأداء النشاط المنوط به في سرعة ودراية، وبأقل الجهد وأقصر الطرق. وتتألف الحركة في السلوك الماهر من وحدات حركية هي مثيرات واستجابات تتسلسل في انتظام هرمي، بحيث تؤدي الأبسط إلى الأعقد، ويكون الجسم وهو يؤدّيها في وضعه المريح الذي يناسبه للقيام بالأداء الجيد. ومع التقدم في الأداء يستغني الشخص الماهر عن بعض الحركات ويقتصد فيها. وتعمل أعضاء الحركة في تآزر مع أعضاء الحسّ كالعينين والأذنين، ولذلك فقد يقال عن المهارات الحركية إنها «مهارات إدراكية حركية Perceptual-motor skills». ومن خواص المهارات عموماً أن «التآزر» فيها غالباً يشمل الجسم كله، بأعضائه وحواسه، في شكل تكيّف عام، وبالأخص في المهارات الدقيقة كما عند الطيارين مثلاً. ويلزم لتعلّم المهارة الانتباه لطريقة أدائها، ولفت نظر المتعلم إلى طبيعتها، والمكونات الحسيّة والعضلية التي فيها. ويقتضي ذلك أحياناً وصف هذا الأداء وصفاً لفظياً، وتوجيه المتعلم إلى أسلوب الاستجابة الذي قد يفضل أسلوبه الذي قد يختاره لنفسه لو تُرِك بدون إرشاد.

ويَفْضُل «التوجيه الإيجابي» أسلوب التوجيه بالتنبيه إلى الأخطاء. وقد يحتاج المعلم إلى «عرض توضيحي» قد يفيد في التعلم بالمحاكاة لنموذج الأداء الماهر. ولعل استخدام «الأفلام» من خيرة الوسائل التوضيحية بالنظر إلى إمكان عرضها عرضاً بطيئاً يمكن به ملاحظة تفاصيل الأداء. وبعض المهارات تفيد في التدريب على أدائها «الطريقة الجزئية» عن «الطريقة الكلية»، بتقسيم السلوك الماهر إلى وحدات، بحيث تُمارَس كل وحدة منفصلة إلى حدّ اتقانها، فيكون الانتقال إلى الوحدات التالية. وبعض المهارات قد يكون في التدريب على أدائها بالطريقة الكلية إقتصاد في الجهد واختصار للوقت. ويفيد التمرين الموزّع عن التمرين المركّز في اكتساب المهارة. وبعض المهارات أثناء تعلّمها لا يمكن اكتسابها إلا بمعرفة نتائج التعلم، وهو ما يسمى «التغذية الرجعية الإخبارية Informative feedback»، والأفضل في التغذية الرجعية أن تتم مترافقة مع التدريب، وباستمرار مع تكراره. وهناك من الشواهد ما يؤكّد أن وصف المتعلم لما يؤدّيه أثناء الأداء يفيده في اكتساب المهارة. وقد يفيد «التسميع الذهني Mental rehearsal» للخطوات التي يتم بها السلوك الماهر، وهو نوع من التدريب المتخيّل يصلح أكثر مع المبتدئين. وكذلك يصلح مع المبتدئين «التوجيه الآلي» كما في تعلّم الخط، باستخدام النقط المكوّنة للحروف، بالسير عليها بالقلم. وللدراسة التحليلية القَبْلية لسلوك المهارة فائدة الإحاطة بتفاصيل تكوينه - أي السلوك - وشكله. ويبدو أنه في اكتساب المهارة فإن الأسلوب الأمثل هو الذي يبلغ بالمتعلم إلى محك الاتقان بأيسر الطرق وأسرعها، فإذا بلغ المتعلم «محك الاتقان»، فإن أيَ محاولة تفوق ذلك هي من قبيل الزيادة التي لا مبرّر لها، ويمكن الاستغناء عنها إلى حين الاحتياج إليها من بعد إذا تدنى مستوى السلوك الماهر، أو بعد انقطاع طويل عن الممارسة.



مراجع:

- A. Bilodeau: Acquisition of Skill.

❖ ❖ ❖

- ١٥ -
سيكولوجية الملكات

المَلَكات وفراسة الدماغ. بحوث جول وسبورزهايم. فرضية المطبّعات. فرويد والملكات...

❖ ❖ ❖

الأساس في سيكولوجية الملكات أن للعقل وظائف متميزة وطبيعة فيه كالذاكرة والإرادة والحكم والانتباه، وأن هذه «الوظائف أو الملكات Faculties» لها مواضعها من الدماغ، بدليل أن إصابة الدماغ في أي منها يحرم الشخص من الوظيفة أو الملكة العقلية Mental f. المختصة. ومن ذلك أيضاً ما يقال له «فِراسة الدماغ Phrenology»، أي قراءة معالم الشخصية من شكل وحجم الرأس، وما عليه الرأس من بروزات في مواضع، باعتبار أن الرأس هو مخزن القوى العقلية، ومن ثم فإن بعض المواضع قد تكون أكبر عند بعض الناس عنها عند غيرهم، أو قد تكون عند الشخص نفسه أكبر من غيرها في دماغه، فنحكم بأن هذا الشخص لديه القوة العقلية في الموضع البارز أكبر من سائر القوى، أو أكبر من مثيلتها عند غيره من الناس، ومن ثم فإن المتمرس بهذا العلم يستطيع أن يتعرّف إلى ما يتميز به شخص ما من ملكات أو قوى عقلية بأن يتحسّس رأسه ويدرس جغرافيته.

وكان فرانز جوزيف جول Gall (١٧٥٨ - ١٨٢٨) - عالم التشريح الكبير - أول من اشتغل بدراسة مواضع الملكات العقلية في الدماغ، وأما الذي وضع أسس هذا العلم - إن كان علماً على الحقيقة - فهو يوحنا كاسبار سبورزهايم Spurzheim (١٧٧٦ - ١٨٣٢)، وهو الذي ابتدع إسم «فراسة الدماغ»، ووضع المتخصصون في الفراسة Phrenologists من المشايعين له «خرائط» للرأس، حدّدوا فيها مواضع

المَلَكات أو القوى العقلية، وجعلوها سبعاً وثلاثين مَلَكة، تنقسم إلى ثلاثة أقسام، فإذا غلب قسم إنطبعت الشخصية به. والأقسام الثلاثة: قسمٌ منها يصنع الشخصية العاطفية أو الانفعالية، وقسمٌ يصنع الشخصية الفاعلة ذات الحركة والنشاط، وقسمٌ يصنع الشخصية المفكرة. ومن شأن كل قسم أن يؤثّر على بِنْية الجسم بحيث تأتي متوافقة مع نمط الشخصية، ومن ذلك تأثيره على الوجوه وأساريره، فيعدل مظهر الوجه وعلى المزاج والخُلق، وهو ما عُرف باسم «فراسة الوجوه Physiognomy». وبرغم أنه لم يثبت علمياً وجود هذه الملكات، ولا أقسام الرأس الثلاثة، إلا أن القول بالملكات، وبمواضعها في الرأس، وبنسبة الاضطرابات العقلية إلى الاضطرابات في شكل الرأس، وبالتبعية إلى الاضطرابات في مواضع المَلَكات، وفي أحجامها، أرسى دعائم علم النفس كعلم يندرج ضمن العلوم وليس كفرع من الفلسفة الميتافيزيقية. وسيطرت «نظرية المَلَكات» أو «علم نفس الملكات f. psychology» على التفكير النفساني لفترة طويلة إلى أن دالت وعفا عليها النسيان، وحلّت محلها نظريات أخرى، ومنها نظرية أو «فرضية المطبّعات Modularity hypothesis»، و« المطبّع Module» إسم حديث للملكة. فبحسب بروكا Broca (١٨٢٤ - ١٨٨٠) - عالم المخ الكبير - تتحدد في المخ مناطق لها أهمية في التعلّم الإدراكي والوظائف اللغوية. والمطبّعات - كما يقول جرانيت - عالم التشريح الكبير - أعضاء استقبال في هذه المناطق مهمتها تعديل الإحساس الوارد ليتحقق الإدراك بالطريقة التي يتم بها في الإنسان أو في الحيوان. والمطبّعات بذلك بديل للمَلَكات. كما أن القول بالاستعدادات والقدرات العقلية شبيه بالقول بالملكات، وكان فرويد - وهو مؤسّس مدرسة التحليل النفسي - يقول بأقسام للنفس شبيهة بالملكات، ومن ذلك قوله بالمَلَكة الناقدة Criticizing faculty، ويقصد بها الضمير. ومع أن سيكولوجية الملكات غير موجودة الآن على المستوى الرسمي فإن الكثيرين جداً ما يزالون يستخدمون اصطلاح الملكة لوضوح معناه، وما يزالون يشيرون إلى

«ملكة التذكّر»، أو «ملكة التخيل»، أو «ملكة الرسم» وهكذا، ويقصدون بها القدرات الخاصة.



مراجع

- T. Acquinas: Summa Theologia.
- R. Descartes: Meditations on First Philosophy.
- C. von Wolff: Psychologia Rationalis.
- W. James: The Principles of Psychology.



- ١٦ -
سيكولوجية المشاركة الوجدانية

التعاطف والمشاركة الوجدانية. الأطفال والمشاركة الوجدانية. التجارب الفنية. التقمص الوجداني. المشاركة الوجدانية حاسة سادسة. المشاركة في التربية وفي التحليل النفسي والألعاب الرياضية. زيادة المشاركة الوجدانية عند النساء. الأمزجة والمشاركة في الصحة والمرض.



المشاركة الوجدانية Empathy نوع من التعاطف Sympathy، إلا أن التعاطف يكون في الأحزان دون الأفراح، بينما في المشاركة الوجدانية نحن نتشارك في كل الانفعالات سواء بالفرح أو الحزن. والتعاطف عمل نأتيه عن إدراك بما نفعل، ولا نفقد فيه هويتنا أو ذواتنا، ولا ننسى أننا لسنا الآخرين، وأن ما نشعر به هو مجرد تعاطف معهم وليس انفعالاً بالأحداث التي جرت لهم. وليست كذلك المشاركة الوجدانية، فنحن فيها قد نضحك لضحك الآخرين، أو يرين علينا الاكتئاب لاكتئابهم، وحتى وإن لم نعرف أسباب هذا الضحك أو ذاك الاكتئاب، بينما في التعاطف يكون إدراكنا للمصاب

أو الفجيعة، وتعبيرنا عن مشاعرنا المتعاطفة بالإشارة أو بالكلام، وأما في المشاركة الوجدانية فنحن نفعل مثلما يفعلون، فنبكي أو ننوح، أو قد نرقص ونغني، فنحن نتقمص شخصية الآخر حتى ليمكن أن نقول إننا نكون في حالة تقمُّص وجداني Emotional indentification.

ويبدأ الأطفال من سن الثانية أو الثالثة يشاركون وجدانياً غيرهم من الأطفال، فيبكون لبكائهم أو يخافون لخوفهم، ولا يكون التعاطف إلا في مرحلة متأخرة عندما يزيد لديهم الإدراك للحالات الوجدانية للآخرين وأسبابها. وفي التجارب الفنية لا نقول إننا نتعاطف مع الفنان «في» مشاعره، ولكننا نقول إننا نشاركه مشاعره، حتى ليمكن أن تستغرقنا التجربة الفنية بكل ملابساتها فننسى فيها أنفسنا، وذلك ما نقصد إليه من أن المشاركة الوجدانية قد ترقَى إلى حدّ التقمص الوجداني. وهذا التقمّص ضروري لأنه يُدخلنا أو يقدّمنا إلى التجربة الفنية من أوسع أبوابها، وهو سبيلنا لنتعرف عليها. ولا تعني المشاركة الوجدانية أننا نتعين بالشيء تعيناً كاملاً حتى لتكون ذاتنا هي ذاته، فلا بد دائماً من بعض البُعد النفسي، وهو يتمثّل في أن تمثّلنا للشيء هو تمثُّل مؤقت. وفي التحليل النفسي مثلاً يتمثّل المحلل النفسي الحالة الوجدانية للمريض، لا ليكون هو والمريض واحداً، وإنما ليفهم المريض، فهو يضع نفسه مكان المريض ويحاول أن يتصوّر مشاعره، ويتخيّل أفكاره، حتى يستطيع أن يلم بخيوط تفكيره ومشاعره. وقد يتساءل المحلل نفسه عمّا يمكن أن يظنّه به المريض أو ردّ فعله على تصوراته عنه، وذلك ما يسميه «موراي Murray» (١٩٣٣) «Recipathy»، ويطلق موراي على عملية المشاركة الوجدانية التي بهدف تقويم أحوال الآخرين ذهنياً ووجدانياً إسم «المشاركة الوجدانية الناقدة Criticizing e.». ويجعل سوليڤان Sullivan (١٨٩٢ - ١٩٤٩) من المشاركة الوجدانية حاسة سادسة A six sense، ويقول إنه ليس من الضروري أن نعبّر عن المشاركة الوجدانية باللغة، وإنها أقوى ما يمكن عند الأطفال في السن بين ستة شهور وسنتين، وإنها وسيلة التطور الباكر

في الشخصية، لأنه عن طريقها يقلّد الطفل أبويه في اتجاهاتهما وقيمهما وأوجه القلق عندهما. ويبدأ الطفل مبكراً في ملاحظة هذه الأمور عند والديه، وينتقل إليه أثرها ويتمثّلهما. ومن رأيه أنه حتى في تذوق الطعام، ينتقل إلينا استحسان الطعام أو استهجانه مما نلاحظه على الأبوين أو المرضعة أو الخدم وهم يتذوقونه. ويرتبط هذا الاستحسان أو النفور عند الأطفال الصغار من رؤيتهم لسلوك الكبار والمشاركة الوجدانية التي يبدونها تأييداً أو نفوراً مثلهم. ويلزم للمربين والمدرسين والآباء أن يكون لديهم قدر من المشاركة الوجدانية، لأنه وسيلتهم لفهم الصغار. وحتى القياديون The leaders فإنهم في حاجة إلى قدر من المشاركة الوجدانية ليكون فهمهم لمن يتزعمونهم أو يقودونهم. ونحن كمتفرجين Spectators إذا كان لدينا بعض من المشاركة الوجدانية فقد نستطيع أن نتفهم دور الممثل، بأن نتصور أنفسنا فيه، ونحكم على سلوكه من تصورنا لهذا السلوك. وكذلك الممثل The actor، فبقدر ما يتقمّص الدور وجدانياً يكون ذكاؤه في تمثّله وعرْضه. ونحن نتشارك وجدانياً ونحن نشاهد مباريات كرة القدم حتى لنتوهم أننا نلعب مع اللاعبين، فنصرّ على أسناننا، أو نركل بأقدامنا، أو تندفع أذرعنا في حركات كما لو كنا ندفع الكرة هنا أو هناك، ونصحّح بعض الألعاب التي لا تعجبنا. وينجح الشعراء والفنانون في أن يجعلوا تصوّرنا لوجدانيات الآخرين تصوراً أرقى أو أرق. ويبدو أن المشاركة الوجدانية تتوقف على مستوى النضج الانفعالي للشخص، ومستوى ذكائه وثقافته، والاتجاهات السائدة عنده. وعموماً فإن الأطفال تكون لديهم المشاركة الوجدانية أقوى أو أكثر احتمالاً من الكبار، وكذلك النساء، وتزيد المشاركة الوجدانية بين الأفراد إذا وجدوا في جماعة كبيرة، أسرع منهم إذا وُجدوا في جماعة صغيرة. ويختلف الأفراد عن بعضهم البعض في قابليتهم للمشاركة الوجدانية بحسب أمزجتهم، فصاحب المزاج الذي يميل إلى المرح يكون أسرع في التأثّر بحالات المرح،

بينما صاحب المزاج الذي يميل إلى الحزن، لا يشارك إلا فيما يكون فيه حزن. وقد نكون أميل إلى الحزن في حالات المرض، بينما نميل أكثر إلى المرح في حالات الصحة. ونلاحظ أن الجماعات تميل إلى أن تتجانس في الوسط الوجداني الذي يسودها.



مراجع
- Murphy: Social Behaviour and Child Personality.



- ١٧ -
سيكولوجية التعيّن «التعيّن أو التقمّص أو التوحّد بالغير»

التعيّن الاجتماعي والكوني والمتعدّد. تفسيراته المختلفة بحسب مختلف المدارس. التعيّن الأوّلي والثانوي والإسقاطي والاستدماجي.



التعيّن Identification هو التوحّد والتقمّص أيضاً، ونلجأ إليه كثيراً وخاصة في الطفولة، إذ تُعوزنا الحيلة ونعاني من النقص أو العجز أو الإحباط أو الفشل، فتكون استعانة الأنا بالتعيّن - نتعيّن بموضوع .Object i، نرفع به عن أنفسنا هذه السلبيات، فنتوحّد بالكبار والمشاهير والقادرين وأصحاب النفوذ والأقوياء في محيطنا، ونتقمّص شخصياتهم، أو نتعيّن بقيمهم واتجاهاتهم، وبمثُلهم العليا وسلوكياتهم، ونصوغ شخصياتنا على منوال شخصياتهم، فالتلميذ قد يتعيّن بأستاذه الذي يحبّه، والطفل يتعيّن غالباً بذويه، والرياضي يتعيّن بفريقه أو ببطل من الأبطال، والممثّل قد يتقمّص الدور في المسرحية حتى ليتلبّسه في الحياة كما في المسرح من طول معايشته له. والتعيّن لذلك قد يكون وقتياً، وقد يستمر لفترة أطول، ويساعد على نمو الذات، ويسرع بالتعلم، ويطلق البعض على مثل هذا التعيّن إسم التعيّن الاجتماعي .Social i، وهو أحياناً خفيف لا يظهر، وأحياناً يكون بشكل مغالى فيه حتى لتنمحي شخصية

المتعيّن في شخصية المتعيّن به وتذوب فيها، ومثل ذلك يحدث عند الصوفية، وتعيّنهم يقال له التعيّن الكوني Cosmic i.، لأن الصوفي تذوب بالتعيّن شخصيته تماماً في الوجود كله أو تفنى به، وهذا هو معنى الفناء الصوفي Mystic annihilation، وكان ذلك ما ذهب إليه الحلاّج وغيره من صوفية وحدة الوجود Pantheism، وهو أيضاً ما يشعر به بعض المرضى بالاضطرابات النفسية كما في فقدان الشخصية Depersonalization، فيزعمون أن وجودهم غير واقعي، وأنهم يتلاشون في العالم، أو في بعض أنواع الفصام فيكون إحساس المريض بأنه ليس نفسه وأنه شخص آخر، وقد تتعدد الشخوص التي ينتحلها لنفسه ويتقمّصها، وذلك هو التعيّن المتعدد Multiple i.، فيكون مرة هتلر مثلاً، ومرة أخرى يكون نابليون. والمرضى بتعدد الشخصية Multiple personality يكون لهم هذا التعيّن المتعدّد أيضاً. ومن محاذير التعيّن أن المتعيِّن كثيراً ما يتوحّد بشخصية المعتدي - التعيُّن بالمُعتدي i. with the aggressor، وتفسّر ذلك نظرية التعيّن بالمنافس أو الخصم i, with the rival or with the opponent theory، فالشخص الذي يكون في موقف منافسة معنا لمدة طويلة ولا نستطيع أن نهزمه، قد نلجأ إلى التوحّد به، بأن تكون لنا لغته وقيمه وعاداته ولباسه، لعلنا بذلك لا نكون في موقف مواجهة معه، وذلك ما يحدث كثيراً عند الأمم المهزومة أو المغلوبة على أمرها والمستعمَرة، فليس تقليد الأوروبيين والأميركيين بخاصة إلا من هذا القبيل، وكلما اشتدت شراسة الخصم أو المعتدي أو المنافس وظهر تفوقه كلما راج التعيّن به وكَثُر. وشبيه بذلك موقف الطفل في أول حياته، وهو الموقف الذي يشير إليه المحللون النفسيون باسم الموقف الأوديبي Oedipus situation، حيث يختار منافسه الأوديبي من جنسه ليتعيّن به كحلّ للصراع بينهما، فالولد الذي يحب أمه يجد أباه في موقف المنافس له على هذا الحب، ويجده الأقوى والأقدر والمعقود له الغلبة. وكذلك تميل البنت إلى أبيها لأنه عكس جنسها، وتجد في أمّها مزاحماً لها على حبها له، وينحلُّ الإشكال بأن يتعيّن

الولد بأبيه ليكون مثله، وتتعيّن البنت بأمها، ويأخذان عنهما دور الذكورة أو الأنوثة حسب جنس الطفل.

وللتعين تفسيرات أخرى، منها تفسيره بنظرية النفوذ الاجتماعي The social-influence theory، حيث نميل دائماً إلى أن نتعيّن بالأشخاص الناجحين ونقلّدهم، لعلنا بذلك نصل مثلهم إلى النجاح ونحقّق الشهرة، وليست عبادة البطل Hero-worship إلا من هذا القبيل، حيث أصحاب النفوذ هم دائماً أبطال تحتذيهم أممهم، وخاصة في مرحلة المراهقة التي ما يكاد يخلو الشاب الذي يمرّ بها من أن يكون له بطل يتعشّقه ويقتدى به، ويكون له نموذجاً لتفكيره وسلوكه.

وقد يذهب البعض وخاصة الارتباطيين Associanists إلى تفسير التعيّن بالإشراط Conditioning، وأنه نتيجة التعزيز الثانوي Secondary reinforcement، فالطفل الذي يربط بين ما يتحصّل عليه من إشباع بيولوجي ووجود الأبوين، قد نجده يقلّدهما من بعد عندما يصبح في إمكانه أن يأتي بعض الأفعال، لأنه يدرك أنه بهذا التقليد يقترب في سلوكه من مستوى سلوكهما الذي كان مشبعاً له، ومن ثم يعطيه الإحساس بأنه يتابعهما على ما يفعلان، الشعور بالرضا نفسه الذي كان له قديماً.

ويطلق أصحاب التحليل النفسي على التعيّن في الطفولة إسم التعيّن الأولي Primary i. أو البدائي Primitive ، لأن الطفل فيه يتصرف دون تمييز بين ما هو له وما هو من العالَم من حوله، والأم وثدياها والأشياء التي يلعب بها هي امتداد لجسمه، وهي منه، ويغضب أشد الغضب لو حُرِم منها أو حُجبت عنه، فإذا كَبُر تمايز عمّا حوله ومن حوله، ورأى العالم يتسع كثيراً، وعانى من الانفصال عمّن يحبّ وما يحبّ، فيتعين بهذا أو ذاك، ويرى فيه نفسه ويلاعبه أو يحادثه توهّماً، وقد يحتضن الدمية ويقبّلها لأنها نفسه، وهو محروم من أمه التي سافرت أو خرجت لتعمل، فيعوّض نفسه عنها بأن يكون هو نفسه الأم، وتكون الدمية نفسه، وذلك ما يسميه علماء التحليل النفسي التعيّن الثانوي Secondary i.، وهم يقولون أيضاً بتعين إسقاطي Projective i.، بأن نرى أنفسنا في الأشياء أو الناس من

حولنا، فنبرر سلوكهم بحسب دوافعنا لمثل هذا السلوك لو صدر عنا لا بحسب دوافعهم، وكثيراً ما نلمس ذلك بين الزوجين بعد مشاهدة مسرحية أو أحد الأفلام، فينتصر أحدهما لسلوك معيّن بينما يدحضه الآخر، ويذهب الاثنان إلى تبريرات إسقاطية ترجع إلى ظروفهما، وليس لموقف وظروف الشخصية في المسرحية أو الفيلم. والتعيّن قد يكون تعيّناً شعورياً Conscious i. مقصوداً ومتعمداً Deliberate، وقد يكون لاشعورياً Unconscious i.؛ وقد يكون فردياً Individual i.، وقد يكون جمعياً Collective i. وهناك أيضاً التعيّن الاستدماجي Introjective i.، بأن يتّجه توحّدنا أو تعيّننا إلى ناحية من نواحي الشخصية التي نتعيّن بها، كأن نستدمج آراءها في مجال معيّن، فيكون جزءاً من بنائنا الفكري مثلاً، حتى لنتصرف كأنها آراؤنا نحن على الحقيقة. ويبدو أن التعيّن الثانوي والاستدماج Introjection مترادفان في التحليل النفسي، وكان فرويد يستخدمهما بمعنى واحد، والصحيح أنهما ليسا كذلك، حيث الاستدماج هو وسيلة أو ميكانيزم التعيّن، فلا تعيّن بلا استدماج، غير أن كتابات هذه الأيام لا تفرّق في الاستخدام بين المصطلحين.



مراجع:

- Freud: Introductory Lectures on Psychoanalysis.
- Freud: The Ego and the Machanisms of Defence.
- Miller, N.E. & Dollard, J.: Social Learning and Imitation.



- ١٨ -
سيكولوجية اللعب
Psychology of Play

اللعب في وقت الفراغ. اللعب والعمل. أدبيات اللعب. شخصيّة اللاعب. اللعب ومراحل العمر. اللعب الإنفرادي والإستكشافي، والإيهامي. المحاكاة.

اللعب الدرامي كوسيلة إسقاطيّة. أنواع أخرى من اللعب. اللعب كعلاج...



نحن نلعب في وقت الفراغ، واللعب من أنشطة وقت الفراغ، وله شروطه بهذا الاعتبار، وبدونها لا يكون لعباً، ومن ذلك أن اللعب ليس التزاماً، ولا يستهدف الكسب، ويصدر عن رغبة حقيقية في تحريك الأعضاء، وممارسة الرياضة والترويح عن النفس Recreational play، بالانطلاق دون قيود، وصرف الطاقة الحبيسة أو الزائدة، والتحرر من التكاليف الاجتماعية والرسميات. واللاعب الذي قد يجعل من مهارته في اللعب حرفة يكتسب منها، لا يصبح ما يأتيه لعباً ولكنه «عمل»، وقد يتحصّل له منه الإرهاق، وقد يصاب وهو يؤدّيه بالإحباط، وقد يفشل دون تحقيق أهدافه المادية أو الاجتماعية وتعتريه من ذلك مختلف الاضطرابات النفسية التي يمكن أن يتعرّض لها العامل الفاشل أو المُحبَط. والفرق بين «العمل واللعب»: إنه في اللعب يكون السعي لتحقيق نوع من الرضا عن النفس والإشباع الذاتي اللذين هما غاية في حدّ ذاتهما، وذلك يجعل من اللعب نشاطاً له طبيعة إستمتاعية خاصة تختلف عمّا يمكن أن يتيحه لنا أداء «العمل» أحياناً من استمتاع، غير أن «المتعة التي يهيؤها العمل» ترتبط بالتزامات مهنية أو عائلية أو اجتماعية، وذلك شيء يجانب طبيعة المتعة التي تتحصّل في اللعب Play-pleasure، فأنت إذ تعمل تُضطَر إلى استكمال ما تعمل، وأن تنهض به على الوجه الذي ترى أنه أنسب وأفضل، فهناك أصول دائماً لا بد من مراعاتها في العمل، وهي أصول تحكم العامل من خارج نفسه أو ذاته، وأما في اللعب فأنت حرّ أن تلعب بالطريقة التي تحب، وأن يستغرق لعبك ما تشاء من وقت، ولك أن تتوقف عن اللعب إذا تعبت أو أصابك منه السأم، وذلك ما يجعل البعض يقول بأدبيات اللعب Play moralities كأدبيات العمل، فأنت لست مضطراً لأن تلعب «لتُرضي أحداً»، وهذا على الأقل هو حال اللاعب الهاوي Amateur player، بخلاف حال اللاعب المحترف Professional player،

ويكفي في اللعب أنه «يرضيك» وحدك، وينصرف إليه انتباهك كاملاً، حتى أن البعض وهو يلعب قد يستغرقه اللعب تماماً عن كل ما حوله. وفي اللعب تبين شخصية اللاعب Player's personality فيما يختار من ألعاب، والطريقة التي يمارسها بها، ويُظهِر اللاعب إمكاناته وقدراته ومهاراته، ويطرح من خلال اللعب صراعاته، وعُقده، وميوله، واهتماماته، واتجاهاته، واللعب نشاط مهم من ثمّ كأهمية نشاط العمل سواء بسواء، وحتى النظريات الاشتراكية التي تعتبر الإنسان عاملاً بالدرجة الأولى، تجعل من اللعب ضرورة نفسية، كما أنه ضرورة ترفيهية، وضرورة إجتماعية، وضرورة تعليمية. والإنسان يبدأ نشاطه بعد أن يولد كنشاط له طبيعة اللعب، وتتفتح حواسه ويزيد وعيه بما حوله من العالم من خلال لهوه بالأشياء واستمتاعه وهو يلعب بها - Ludic play أي اللعب العشوائي - ويتعرّف إليها، ويتعلّم أن يميز أثناء ذلك بين مختلف الأشكال والألوان والأصوات. وتتعاقب مراحل النمو علينا منذ الميلاد، ومعها تتزايد استعداداتنا وننضج أكثر، ومن ثم تختلف قدراتنا على إتيان اللعب ونُقبِل على الألعاب التي تشتمل على حركات يمكن أن نقوم بها، والتي تشبع فينا إتجاهات واهتمامات وميولاً ونزعات معينة تنسجم مع مرحلة العمر التي نمر بها. والطفل الصغير يكون لعبه في أول الأمر إنفرادياً Solitary play، أي أنه يُلاعب نفسه، وقد يستمر ذلك معه فيما بعد، ومع أنه قد يحب أن يلاعبه الآخرون إلا أن هذا اللعب الانفرادي قد يستمر معه إلى مراحل أخرى، وحتى الراشد منا قد يؤثّر أحياناً أن يلعب اللعب الانفرادي Solitary playing. وفي اللعب الانفرادي تكون حركات الطفل عشوائية، وكأنما يعبث بالأشياء. ويشبه لعبه لعب صغار الحيوانات، وهو لعب إستكشافي Exploratory play، وهو نفسه اللعب الذي يظل معه مع تنظيم أكثر في المراحل الأخرى من العمر، والذي به يكون إقباله على الأشياء من باب حب الاستطلاع والعلم بالأشياء، فيحاول أن يفك أجزاءها ويتعرّف إلى دخائلها، والطفل في سن ما قبل المدرسة يكون ذلك دأبه، ويستمتع أيما استمتاع بأن يرفع الأغطية

والملاءات لينظر ما تحتها، أو ينحّي الستائر جانباً ليرى ما يكون خلفها. وقد يلذّ له أن يشاهد الآخرين وهم يلعبون، فيحاول أن يحاكيهم، والمحاكاة Imitation شكل جديد من اللعب، والفُرجة Spectating على الآخرين يلعبون لها متعة اللعب، وتستمر المحاكاة والفُرجة معنا حتى النهاية، ويقوم اللعب الإيهامي على المحاكاة، أي استرجاع الخبرات التي يمر بها الطفل فيعاود طرحها ولكن بطريقته وذلك يجعله يسيطر عليها. والفُرجة ميل شديد يكون بالأطفال لمطالعة كل ما يجري حولهم ويكبر معهم ليكون من بعد عند الكبار «حُمّى الفُرجة Spectatoritis» التي تستبد بهم، ويكون من خلالها تعينهم بكبار اللاعبين أو الفرق الرياضية المشهورة، وانتصارهم لها وفرحتهم البالغة بفوزها، واكتئابهم الشديد وحزنهم الواضح إذا حدث وهُزمت هذه الفرق أو خذلهم لاعبوها. ويعني «اللعب الإيهامي Make-believe play» أو «let's ptetend p.»: أن الطفل يتصور نفسه في أدوار Roles معينة. هذا التصور يعني أن الطفل قد بلغ مرحلة التصوّر من الذكاء، وهي مرحلة لا تأتيه إلا ابتداءً من سن السنة والنصف، وتستمر معه حتى نحو السابعة أو الثامنة، وفيها يستطيع الطفل أن يشير إلى الأشياء في حالة عدم وجودها بإشارات أو رموز تحلّ محلها ويعمّمها من بعد، ومن ثم فقد يرمز لأخيه بالدمية ويخاطبها ويتصوّرها تبكي ويهدهدها، وقد يقذف في الهواء بكُرة مُتَصوَّرة لا وجود لها، ويصبح في استطاعته دون أن يرجع إلى الأشياء الأصلية أن يقوم بسلسلة من الأفعال الإيهامية بالتفصيل، وأن يكرر مشاهد كاملة من الأحداث اليومية كأن يلعب «لعبة الآباء والأمهات»، أو «لعبة الشراء والبيع» في المحلات، ولا تكون الأشياء المتخيلة مجرد أشياء واقعية، بل قد تكون أشياء مخترعة لم تمر في خبرة الطفل. والكثير من الأطفال يكون لهم مثلاً رفقاء لعب متخَيَّلون - Imaginary play companions، ويعطونهم أسماء مُتَخيلة أيضاً هي في أحيان كثيرة تحريف لأسماء واقعية. ومع التقدّم في السن يتطور اللعب الإيهامي ليكون أكثر اتساقاً وتكون أحداثه أكثر تماسكاً. وعادة ما يكون تفكير الطفل

في اللعب الإيهامي تفكيراً إحيائياً Animistic، أي تفكيراً يضفي على الأشياء الجامدة من حوله حياة وروحاً بحيث يتخيّلها تضج من حوله بالحركة والكلام. ويؤثّر الغضب والإحباط في نوع اللعب الإيهامي، فيكون أبطال القصص في هذا اللعب هم الشخصيات التي تتسبب في الضيق للطفل. ويتسم اللعب الإيهامي للطفل الذي يتعرض للمضايقات بطابع عدواني صريح، ويخفف عنه أن ينفّس عن غضبه أو إحباطه في لعبه. وعندما يتيح اللعب الإيهامي للطفل أن يتخفف مما به من عدوانية في لعبه، فإنه يكون أقل عدوانية في سلوكه العادي مع الأطفال أو المربيات أو ذويه. ومن سمات الدُّمَى Dolls التي يلعب بها الطفل إيهامياً، أنها كلما كانت أكثر تجريداً من حيث الشكل كلما يتيح ذلك للطفل أن يتخيلها ممثّلة لمختلف الأشخاص أو الموضوعات، فمثلاً قد يُذكِي عُود من الحطب خيال الطفل فيعامله كحصان أو حمار أو أي حيوان يعرفه، أكثر مما يمكن أن تهيؤه له دمية حقيقية لها شكل الحصان أو الحمار فعلاً. ومن دأب الأطفال أن يتخيلوا الأشخاص الذين تقع منهم مضايقات لهم باعتبارهم أشراراً أو عفاريت أو سحرة أو مُسوخاً شائهة. ويكشف الطفل في لعبه الإيهامي حقيقة مشاعره نحو الناس والأشياء، ومن ثم يكون اللعب الإيهامي وسيلة إسقاطية ويسمى «اللعب الإسقاطي Projective p.»، ويستخدمه علماء التحليل النفسي كوسيلة تشخيصية لمعرفة ما يضايق الطفل ويتسبب عنده في المخاوف أو التهتهة أو التبوّل الليلي أو غير ذلك من الاضطرابات، عندما لا تكون أسبابها عضوية وتدفع إليها عوامل نفسية محضة. ولا ينتهي هذا اللعب الإيهامي ببلوغ الطفل السابعة أو نحوها عندما يزيد احتكاكه بالحياة ويتجه تفكيره لأن يكون منطقياً وليس انفعاليا، ويصبح هذا اللعب من بعد هذه السن «لعباً تخيلياً Fictional play»، وقد يتحقق عنده وهو يحاول أن يقلّد الناس من حوله ويحاكي حركاتهم وطريقتهم في الكلام ويعتمد على المحاكاة في رواياته للأحداث، ومحاكاته ليست طبق الأصل ولكنها لأبرز ما يسترعي الانتباه عنده فيهم. واللعب التخيلي يساعد الطفل على

التمثّل بمختلف الأدوار وإدراك مضمونها والتمييز بينها، والتعيُّن ببعض الناس وتمثّل أخلاقياتهم وأهدافهم، وقد يكبر معه أكثر من ذلك ويكون لعباً دراميا Dramatic play يظهر كقدرة على التمثيل، ويكون دافعاً للطفل إلى أن ينخرط في الفرق التمثيلية، وأن ينمّي هواياته تلك حتى ليمكن أن يكون التمثيل موضوع دراسته ويحترفه من بعد، أو يكون التمثيل موضوعه الأثير للفرجة وتستهويه الروايات التي لموضوعاتها وشائج تربطها بميوله واتجاهاته وعُقَده والمكبوت في نفسه من الرغبات والصراعات.

واللعب في الطفولة الباكرة عندما يكون بقصد التنشيط وأن يمارس به الطفل وظائف أعضائه يُسمَّى لعباً وظيفياً Functional play، ويظل هذا اللعب معه باستمرار مع مراحل عمره كلها يهدف منه إلى أن يصقل مهاراته الحركية. واللعب الذي يتمثل في تعشّق الطفل للحكايات والاستماع إليها، وتأمل الصور، ومشاهدة أفلام الكرتون ومسرحيات العرائس، ومحاكاة ما تعرضه ولو محاكاة داخلية، هو «لعب إستقبالي Receptive play»؛ فإذا انهمك الطفل في أن يجرّب الرسم بالألوان أو الطباشير، أو أن يصوّر الأشياء بالصلصال والرمل والطين، أو أن يشكّلها بالمكعبات، فلعبه يطلق عليه إسم «اللعب الإنشائي Constructive play»؛ وإذا جرّب أن يصدر أصواتاً، أو يلعب بآلات موسيقية، أو يغني، فلعبه يقال له «اللعب الموسيقي Musical play»، وكل ذلك أنواع من اللعب يأتيها الأطفال في نحو الثانية وقبل أن يلتحقوا بالحضانة في الثالثة، حيث يبدأ اللعب يتخلّى قليلاً عن انفراديته، وعن أن يكون «لعباً منزلياً Indoor play»، ويبدأ يكون بمشاركة الآخرين، و«خارج البيت Outdoor play»، أو يكون محاكاةً للآخرين في لعبهم، وهذا هو «اللعب المتوازي Parallel play». فقد يظل الطفل يلعب بألعابه دون أن يتعاون مع الأطفال الآخرين أو يتبادل معهم ألعابه، إلا أنه يلعب بها في حضور الأطفال، وهو يُقبِل على اللعب أكثر كلما تواجد مع الأطفال، ولا يبدأ «اللعب التعاوني Collaborative play» الحقيقي إلا في نحو السابعة، وكلما تقدّم الطفل في

السن كلما كان أقدر على اللعب التعاوني، ويتوقف التعاون بين الأطفال في لعبهم على درجة صعوبة الألعاب. واللعب التعاوني يزيد قدرتهم على التواصل فيما بينهم، ويزداد حجم الجماعة التي يلعب معها الطفل مع تقدم السن، ففي نحو سن الثالثة قد تقتصر «جماعة اللعب Playing team» غالباً على ثلاثة أطفال، ولعبهم معاً لا يستمر عادة لفترة طويلة فسرعان ما ينفرط عقدهم، إلا أنهم في نحو سن الخامسة تكبر جماعتهم فتضم أربعة أو خمسة أطفال ويدوم لعبهم لمدة أطول. ومن الملاحظ أن الأطفال قبل سن الثانية أو الثالثة ليس بوسعهم أن يتواجدوا معاً لأكثر من طفلين غالباً يترافقان معاً، والطفل لا يمكنه أن تكون له علاقة حسنة بأكثر من طفل في الوقت نفسه والمكان نفسه، وحينما يوضع ثلاثة أطفال معاً فإنه لا يلعب منهم معاً في أية لحظة إلا اثنان فقط. ويطمئن الأطفال إلى اللعب معاً في حضور الأمهات أو إذا كانت البيئة التي يلعبون فيها مألوفة لهم، ولعبهم مع إخوتهم أكثر. ومن المألوف أن يتلامس الإخوة بين الثانية والثالثة، وأن يقعوا معاً، ويتمرغوا على بعضهم البعض في نوع من «اللعب بالتلامس Tactile play» كما تفعل صغار القطط والكلاب وغيرها من الحيوانات. ولا يعني قيام اللعب التعاوني بين الأطفال أن استجاباتهم لبعضهم البعض فيها مشاركة وجدانية، أو أنها استجابات تعاطفية تجاه شركاء اللعب. وكثيراً ما يكون اللعب التعاوني في السن قبل الحضانة تخيُّلات جماعية، فمثلاً يحب الأطفال في هذه السن لعبة القاطرات، إلا أن كل طفل لا يتخيل نفسه إلا في دور السائق، بينما الأطفال غيره يراهم في أدوار الركاب. ولا يرقى اللعب التعاوني أو المتشارك إلى مستوى «اللعب الاجتماعي Social play» إلا بعد أن يتعلم الأطفال الكثير. واللعب الاجتماعي عندما يبدأ الأطفال ينمو معهم ويستمر في الترقّي إلى ما نعرفه من اللعب المنظم بين الكبار. و«اللعب المنظم Organized play» هو الذي يسير وفق القواعد والأصول، ويكون بالمشاركة، ويقوم على التعاون، وتُحصَى فيه الكثير من العلاقات الاجتماعية. وهو بقدر ما يقوم على المشاركة والتعاون من ناحية فإنه يقوم

أيضاً من ناحية على التنافس. ولا يعني أننا نحتاج إلى شركاء في اللعب أن ترتفع المشاجرات بين الشركاء، وليس التنافس في اللعب وتأكيد اللاعب لذاته على شركائه إلا نتائج للعب الاجتماعي أكثر منها أسباباً له. وقد يرقى هذا اللعب ليصبح هواية Hobby، ومن ذلك «هوايات تربية الحيوانات Animal hobbies»، والهوايات الحرفية Craft hobbies كالنجارة، والتصوير، والتفصيل، والبستنة .Gardening hs.

وعادة ما يتوجّه الطفل قبل سن الثانية بثورات غضبه إلى الكبار من حوله، وأما بعد الثالثة أو الرابعة فإن العراك مع الأطفال الآخرين تكون له الصدارة، وهي السن التي تكون للأطفال أهمية بالنسبة لبعضهم البعض، وقبل الثانية لا يلحظ الأطفال بعضهم البعض كثيراً، وفي الثالثة يضطربون إذا تبين لهم أن آخرين يلحظونهم وهم يلعبون، وذلك أن أداءهم لأي لعب لا يكون بالمستوى والإنجاز الذي يعجبهم، إلا أنهم بعد ذلك وفي نحو الخامسة يختار الطفل طفلاً آخر يلعب معه، ولعبهم يكون أفضل إذا جرى وهم أزواج أكثر منه وهم فرادى، ويرتفع الأداء مع النمو في السن ووجود التنافس، والأطفال بعد الثالثة يميلون إلى التنافس، ولو حدث واجتمعوا وقال واحد منهم أن لديه قاطرة، يقول الباقون: هم أيضاً لديهم قاطرات، وهكذا في كل شيء. وقيل إن سن السابعة أو الثامنة هي السن الانتقالية التي يكون فيها تحوّل اللعب التعاوني إلى لعب الجماعات والعصابات Gangs، ويستمر هذا التحول حتى الثانية عشرة، والطفل في هذه السن يبدأ يعزف عن ألعابه الانفرادية، وينتظم في الجماعة أو العصابة، ويكون التنافس ليس بينه وبين طفل آخر ولكنه التنافس بين جماعته وجماعة أخرى، أو بينهم كجماعة أطفال وبين جماعة الكبار، والتحدي هو سمة هذا التنافس، ويندرج الأطفال في ألعابهم الجماعية في شكل الركض والقفز والمصارعة، وكل أنواع الألعاب التي فيها الحركة والعنف والتحدي، ويلاحظ ذلك على الصبيان أكثر من البنات، وفي هذه السن يكون الافتراق بين الصبيان والبنات، وتدوم الجماعة أكثر وكذلك يقل تقلب الطفل في

صداقاته الفردية. ويعتمد قيام العصابة على ظروف أفرادها الاجتماعية والتركيبات النفسية التي لهم. وربما كان انفراق البنات عن الصبيان في هذه السن مرجعة للضغوط الاجتماعية، وقد لوحظ أن «جماعة اللعب» التي تواجَه بالمقاومة من الكبار يزيد تماسك أفرادها. وتميل جماعة اللعب المسماة باسم العصابة إلى أن يؤلفها الأطفال الذين طالت معاشرتهم لبعضهم بحكم المعرفة الوثيقة من الطفولة الباكرة، وتكثر كظاهرة إجتماعية في الأحياء الفقيرة، حيث يكون لها إشباع نفسي كبديل لحالات العوز والفقر والحرمان العاطفي، بالنظر إلى التفسّخ العائلي الذي يعيشه أطفال هذه الأحياء. والعصابة أو الشِلّة لها قواعد سلوك خاصة بها يدين لها الأطفال بالولاء في ألعابهم.

وربما تكون هناك ممارسات جنسية للأطفال حتى قبل البلوغ. و«اللعب الجنسي Sexual play» يعرفه الأطفال عموماً منذ الحضانة، فقد يجد الطفل متعة جنسية وهو يمسك قضيبه، وقد ينخرط الأطفال الكبار في التنافس على التبوّل لأبعد مدى، أو في الاستعراض بالقضيب، وقد يكون لهوهم باستعراض الاستمناء الجماعي، أو تبادل الاستمناء، أو إتيان الجنس صريحاً واستعراض معاودته لمرات.

والكثير من اللعب في المراهقة وما قبلها يقوم على المحاكاة والتقليد بتأثير ما يسمى «الأقران Peers» أو الصحاب من أعضاء الشِلّة أو العصابة. والكثير من هذا اللعب تُسنَد فيه الأدوار للاعبين وتكون له قواعد وأهداف. ويخلص اللاعبون للجماعة وتكون لهم تخيلاتهم العالية، فقد يحسب اللاعب في مباريات كرة القدم أو غيرها أنه يلعب ليرفع إسم بلده، وربما يتصور أنه يلعب لفتاته أو لكي يصفق له الجمهور.

واللعب قد يقبل عليه الناس في أي عمر وأية مرحلة كممارسة ونشاط، وقد ينمو ذلك معنا ويلازمنا دائماً، حتى انه في تدريبات الجيش - وهي آخر ما يمكن أن يقال عنها إنها لعب، قد تُمارس كألعاب ولو أنها في الواقع تدريبات. واللعب من هذا النوع هو تسام بغرائز القتال

والصراع، ومن شأن هذا التسامي أن يجعل هذه الغرائز تمارَس تحت إسم الفروسية والشجاعة والتضحية والفداء، أو في شكل رقصات الحرب. وهناك فروق لذلك بين الشعوب والأفراد في ألعابهم.

ويميل الناس في الشعوب التي لها حاصل ذكاء عالٍ إلى الألعاب التي تشتمل على الكثير من النشاط العقلي، وكذلك يميل الأفراد من ذوي الذكاء العالي إلى الألعاب التي ليس فيها صخب. ويكثر بين الأطفال الموهوبين أن يختاروا شركاء لهم في اللعب من تخيلاتهم، ويكثر كذلك أن يلعبوا وحدهم. ويتميز لعب الطفل الذكي بأنه أكثر تنوعاً وتلوناً ونضجاً، وعلى عكس ذلك يكون لعب الطفل المتخلف عقلياً، فهو أقل تجديداً في لعبه ويفضل الألعاب التي ليس لها قواعد معقدة. والصبيان بشكل عام أكثر خشونة في ألعابهم من البنات، وتشجّع البنات في كل الثقافات على اللعب الهادئ، ويحب الصبيان «ألعاب التنافس Competitive plays» عن البنات. والطفل الذي يُحرَم اللعب ينشأ متبلد المشاعر والذكاء وعاطل من المهارات الاجتماعية. ويؤثّر الحرمان من الأسرة وخاصة الأم، والنشأة في الملجأ أو المدرسة الداخلية، يؤثر في فاعلية الطفل في اللعب، وهو يأتيه بدون اهتمام، وربما ترجع السلبية عند هذا الطفل إلى حرمانه من المؤثرات في اللعب، بالنظر إلى اختلاف طبيعة المؤسسات عن البيوت، فطفل المؤسسة إنفعالاته محصورة في سريره وأقرانه ودميته، بينما الطفل في البيت يُحتَضن كثيراً ويُحمَل ويتحدثون إليه ويضحكون معه. ولاتجاهات البيت تأثيرها كذلك على اتجاهات اللعب عند الطفل الراشد. ومن دأب الطفل الذي ينشأ في البيوت التي يُطلق عليها إسم البيوت المتسامحة Tolerant homes، والتي تقوم التربية فيها على التحرر من القيود والمخاوف، أن يكون لعبه متحرراً ومنطلقاً ويتميز بالأصالة والتجدد، وعلى عكس ذلك يأتي الطفل الذي يتربّى في بيت مستبد Authoritative home فإنه يكون خانعاً ويميل إلى الألعاب الهادئة ويخاف من التجديد. كما أن الزيادة في تدليل الطفل Child-pampering تطبعه بطابعها فلا يحب الألعاب التي فيها مجازفة، ويخشى

على نفسه من الخشونة، ومن ثم يكبر وبه نقص واضح في المهارات الاجتماعية.

وليس من المستحب أن يكثر الآباء من شراء الدُّمَى وأدوات اللعب للطفل، فذلك يشغله بها عن الاتصال الجماعي، ومن ناحية أخرى فإن نقص هذه الدمى والأدوات يصرف الطفل الى اللعب بالرمل والتراب والحجارة والطين والماء ويتعرض لأن تتسخ ملابسه. والطفل الذي يجد ما يلعب به في حدود ذكائه وطاقته الحركية تنمو فيه الميول للتنشّط والاستكشاف والبناء. وكذلك تختلف تأثيرات الألعاب على الأطفال، فالألعاب التي تحتاج لشركاء تساعد على تنمية الاتصال بالآخرين، والطفل الذي يلعب بالعروسة أو يلوّن بالقلم يميل إلى أن يتحدث مع زملائه، على عكس الطفل الذي ينهمك في قصّ الورق أو التلوين بالزيت أو مطالعة الصور في الكتب. ويألف الأطفال بسرعة الألعاب التي لها ملمس ناعم، و«الدمية ذات الملمس الناعم» أهم بالنسبة للطفل من الدمية ذات الشكل الحسن، ويفيد احتضان الدمى من هذا القبيل في تخفيف توتر الطفل وقلقه، وقد تقوم مقام الأم عنده، وتستخدم كوسائل إسقاطية يعبر الطفل من خلال تعامله معها عن مشاعره تجاه نفسه وذويه والآخرين.

وكان فرويد هو أول من استخدم اللعب كعلاج ووسيلة تشخيص لحالة طفل صغير إسمه هانز، وعُرفت حالته في تاريخ التحليل النفسي باسم «حالة هانز الصغير Little Han's case». وطوّرت ميلاني كلاين Melanie Klein (١٨٨٢ - ١٩٦٠) طريقة فرويد واستخدمت «اللعب الحرّ Free playing» مع الأطفال في مكان التداعي الحر للألفاظ مع الكبار، وافترضت أنه في اللعب الحر يُسقط الطفل صراعاته ورغباته دون أن يعي ذلك، ومهمة المعالج النفسي تكون بأن يُصادق الطفل ويلعب مع ألعابه، ويستوضحه مشاعره وسلوكه، ويفسّر له ذلك من خلال اللعب واضطلاعه بالأدوار المختلفة التي يلمس أن الطفل يريده أن يضطلع بها، وتساعده على إظهار حقيقة مشاعره، ويكون تفاعله فيها مع الطفل إيجاباً. وتؤكّد أنّا فرويد Anna Freud (١٨٤٧) على دور المعالج النشيط في

توجيه الطفل من خلال اللعب أكثر من تفسير العلاقات له في اللعب. ومن خلال اللعب تكون إعادة تشكيل سلوكياته وتعليمه تربوياً، على عكس طريقة ميلاني كلاين التي تعتمد على التفسيرات التي تقدّم عن ألعابه الرمزية، حتى أن بعض المعالجين الذين يأخذون بمذهبها لا يهتمون باللعب إلا لأنه مجرد طريقة للتواصل مع الطفل المريض، بالنظر إلى ما يمكن أن يخلقه اللعب من ظروف ومواقف إجتماعية ومناسبات وموضوعات للكلام معه. وربما كان اللعب الحر بطريقة «العلاج غير الموجه Non-directive psychotherapy»، أو «العلاج المتمركز حول العميل Client-centered psychotheray»، بدون أي توجيه أو تفسير من الكبار، له ميزة علاج الكثير من الاضطرابات الانفعالية. ويقتصر دور المعالج على أن يكون لعب الطفل تحت إشرافه، فيوافق أو يسمح أو يبيح له أن يأخذ زمام المبادرة، ويفترض أن الطفل في هذه الحالة سيُخرج في اللعب صراعاته واندفاعاته غير المقبولة إجتماعياً، ويكون اللعب بمثابة التطهير Purgation أو Catharsis له منها، وذلك لأن إفراغ Cathecting الانفعالات عن طريق اللعب في مناخ يوحي بالطمأنينة للطفل ويَشعُر فيه أنه آمن، يؤدّي بالضرورة إلى خفض ما عند الطفل من قلق، فيستطيع بعد ذلك أن يتوافق مع المتطلبات الاجتماعية بشكل أسرع وأيسر. ويُطلق على العلاج بالطرق السابقة إسم «العلاج باللعب Play therapy»، وتتنوع أساليبه بتنوع المدارس النفسية، فنظريتا الجشطلت والمجال تفترضان مثلاً أن تطور الشخصية يتوقف على نوع التمايز الذي للأفراد. واللعب هو طريقة الطفل لاكتشاف العالم والتوافق معه وتعلّم التناسق الحركي واستخدام الرموز والتخيّل، ومشاركة الكبار للأطفال في ألعابهم يؤكّد للأطفال صلاحية ما يقومون به وما يتضمنه لعبهم من المعاني. ويستخدم اللعب في كل المذاهب النفسية لقيمته التربوية، وبهدف التعديل في سلوك الطفل، أو لمساعدته على فهم مشكلات مثل مولد أخ له، أو خَلْق العالم، أو التغلب على

غيره من الأطفال. واللعب في التحليل النفسي يصدر عن تنامي الطاقة الليبيدية ويتطور بتطورها، وهو سلوك بديل لما يمكن أداؤه في الواقع، وتكون به السيطرة على أنواع القلق، من حيث أن الطفل يمكن أن يعيد تمثيل المواقف المسببة له، ويتعامل معها من جديد التعامل الذي يدعّم أناه ويقوّي ثقته في ذاته، فيستطيع من ثم مواجهة أية اضطرابات مستقبلة بثقة أكبر (أنظر أيضاً المحاكاة، والعلاج النفسي).



مراجع:

- Millar, S.: Psychology of Play.
- Piaget J.: Play, Dreams and Imitation in Childhood.
- Beach, F.A.: Current Concepts of Play in Animals.
- Lehman. H.C. & Witty, P.A.: The Psychology of Play Activities.
- Schlosberg, H.: The Concept of Play.



- ١٩ -
سيكولوجية المحاكاة

التعلّم بالمحاكاة. أنواع المحاكاة. المحاكاة الرمزية. النموذج في المحاكاة. الاستهوائية. المحاكاة الخلاّقة والهستيرية...

❖ ❖ ❖

يتم اكتساب الكثير من المهارات والقيم والتقاليد والعادات والاتجاهات بتقليد الآخرين عليها، ونحن نتعلم بالمحاكاة Imitation، ونتعلم أيضاً أن نحاكي في المراحل المبكرة من العمر. وقيل إن الطفل في أسابيعه الأولى بعد الولادة يدرك الانفعالات، ويلحظ تغيرات الوجه في نحو الشهر الثالث ويفهم معانيها، ويأخذ في تقليد الآخرين عليها، فإذا كان في الشهر السادس فهو يتجاوب مع ما يُطلَب منه ويرى ذويه يؤدّونه أمامه، ويتعلم أن يقلّدهم مودعاً وملوحاً بيديه، أو واضعاً يده على فمه

كأنما يعني أنه يرسل قبلة في الهواء، وهو في الشهر الثاني عشر يبدأ يقلّد الأصوات. والحافز إلى التقليد يبلغ أشدّه في العمر من السنتين إلى الثلاث سنوات عندما يبدأ يُلبِس نفسه، ويأكل بنفسه، ويحاول أن يسيطر على نطق الكلام، ويحاكي الوالدين والمحيطين به من الكبار فيما يأتيانه من حركات وخصائص، وما يصدر عنهم من أقوال يردّدها ترديداً، ويلحظ ذلك كله منهم ويكرّره المرّة تلو المرّة وكأنه يدرّب نفسه عليه، ومن ثم يتعلم الكثير حتى ليعجب مَن حوله متى تعلّم ذلك وأين تعلمه، ولكنها قوّة الملاحظة فيه وتنبّهه لما يدور حوله وتقليده له. وقد يساعده الكبار على التقليد بأن يتحدّثوا إليه في وضوح، ويكرروا الكلمات أمامه ويُسمِعوها له كثيراً، ويشجعونه على التقليد، ويطلعوه على الأشياء ويفكّوها أثناء مطالعته لهم، ويطلبوا منه أن يفعل الشيء نفسه. وكلما حاول المحاكاة إمتدحوها فيه، وكلما كرّر واسترجع وقال ما يريدونه أن يقول، أثنوا عليه وعزّزوا فعله واستحسنوه.

ومن المحاكاة ما قد يكون كأنما هي عدوى سلوكية Behavioral contagion، كالتثاؤب نأتيه عفوياً ولا إرادياً دون إعمال فكر أو إرادة لمجرد أن آخر يتثاءب. ومنها ما يكون منابةً لإتيان سلوك كسلوك الجماعة، وعندئذ لا يكون السلوك المحاكِي طبق الأصل كالسلوك المحاكَى «بفتح الكاف» مثلما يرى أطفالٌ أحدَهم يرسم فيطلبون ورقاً وأقلاماً ليرسموا هم أيضاً، فرغم أنهم يحاكونه في فعله إلا أن رسوماتهم تختلف قطعاً عن رسومات بعضهم البعض. وهناك المحاكاة بالملاحظة i. through observation، وهي التي يقوم عليها التعلّم غالباً كما أسلفنا، وكانت مدار بحث وتجريب من علماء النفس منذ القرن الماضي. والمعروف أن مصطلح المحاكاة لم يدخل علم النفس إلا سنة ١٨٩٠، عندما بدأ البحث في مجالها من قبل علماء أمثال جابرييل تارد Tarde (١٨٤٣ - ١٩٠٤) في كتابه «قوانين المحاكاة Les lois de l'imitation»، ووليام مكدوجال (١٩٠٨) صاحب كتابه «مقدمة في علم النفس الاجتماعي Introduction to Social

Psychology». والمحاكاة في أول عهدنا بالحياة تكون «تلقائية وعفوية i.Spontaneous»، أو أنها «غريزية i.Instinctive»، نأتيها من غير تعلّم وبدون خبرة ولا قصد. وهي شيء أشبه بالانطباع Imprinting، مثل أفراخ البط التي بمجرد أن تخرج من البيض تتابع أمها في السير، وقد تبين أنها من الممكن أن تتابع أي شيء يتحرك ككرة متدحرجة أو المجرّب نفسه. والفطري فيها هو «سلوك» المتابعة وليس «موضوع» المتابعة. وكذلك المحاكاة عند الطفل في الأسابيع الأولى، فإنه يأتيها كأنما هو «مطبوع» المتابعة. وكذلك المحاكاة عند الطفل في الأسابيع الأولى، فإنه يأتيها كأنما هو «مطبوع» على ذلك، ثم من بعد ذلك تكون المحاكاة تصوّراً وتمثّلاً للمواقف والناس، ويتم ذلك بالتشجيع على المحاكاة من قبل الأهل والأقارب. ولو لم يكن هذا الاستعداد للمحاكاة موجوداً لدى الطفل ما طاوع أهله عليها. والمحاكاة من النوع التلقائي، وكذلك «المحاكاة الرمزية» عند الأطفال الكبار، لازمتان لنمو الطفل وتعلّمه، وبدون المحاكاة لن يتعلم الطفل اللغة، وقيل إنه حتى في اللغة فإن أساسياتها البسيطة فطرية في الطفل، ولهذا يسهل عليه من بعد إستحضارها صوتياً بالمحاكاة عليها، وليس خطأ الطفل في المحاكاة في اللغة لأنه يسمعها خطأ ويقلّد الخطأ، ولكن لأن هذه الأساسيات النحوية عنده بسيطة جداً، فلا تسعفه بفهم الفروق بين الحاضر والماضي، والمفرد والمثنى، ومن ثم فرغم حرصه على المحاكاة إلا أنه بسبب عدم النضج والتهيؤ الكامل للمحاكاة الصحيحة، يجانبه التوفيق فيها، ولهذا السبب كثيراً ما تضحكنا محاكاة الأطفال. والمحاكاة لازمة للطفل لتنشئته إجتماعياً، والطفل يحاكي الطفل الأكبر، كما يحاكي الراشد، بسبب أنهما أكبر منه. والناس عموماً تحاكي الأكبر سناً، أو مركزاً، أو علماً، أو الأكثر أناقة أو بلاغة أو فصاحة. ويُطلق على من يحاكونه إسم «النموذج Model» أو «المثال». ومن الممكن أن يحاكي الطفل الشخص المؤثّر في حياته، أو الذي يهديه الحلوى،

أو يقصّ عليه القصص. والشخصيات الجذّابة يمكن أن يحاكيها الكبار أيضاً. وأما الذي يقوم بالمحاكاة فهو «إستهوائي» غالباً، وقد يعاني من نقص في اعتبارات الذات، أو قد تكون له شخصية اعتمادية، أو ربما يعاني من كثرة الفشل فتتزعزع ثقته بنفسه ويميل لذلك إلى مسايرة الآخرين. وربما لهذا السبب كانت البنات أكثر ميلاً عن الصبيان إلى المحاكاة، بسبب تنشئة البنات تنشئة تطبع فيهن الانقياد، ومع ذلك يتوقف سلوك المحاكاة عند المفاضلة بين الذكور والإناث على من يكون صاحب الشخصية الأقوى في موقف المحاكاة. والصبيان عموماً أميل إلى محاكاة سلوك العنف من البنات. وليس من الضروري تواجد النموذج في الموقف لكي نحاكيه. ويختلف مفهوم «القوة» بحسب التربية، وهناك ما يثبت أن الأولاد الصغار يميلون إلى محاكاة شخصيات الأفلام الطيبة، والشخصيات القادرة، وقد تكون «القدرة» في القصة أو المسرحية للشخصية الشريرة، فتكون محاكاتهم لها. ويبدو أنه كان لا بد للمحاكاة في الطفولة الباكرة أن تكون فطرية، حيث يكون الطفل لا حول له ولا قوّة، وليس من سبيل أمامه إلا أن يحاكي ليستمر في البقاء، وتمكّنه المحاكاة من التعيّن بالأكبر منه، والأقدر، فيسلك سلوك القدرة ولو لم يتهيأ له، ويتعلم من المحاكاة كيف يتصرف بالبكاء، وما الذي ينبغي أن يقول ويفعل. والتعيّن والتصوّر الإيهامي من أهم ظواهر الطفولة ومقوماتها على المحاكاة. وفي المراهقة وما قبلها يساعدانه على أن يعثر لنفسه على هوية، ويشق لنفسه طريقاً، ويجد ذلك فيما يسمى عبادة البطل Hero-worship، حيث قد يتعيّن بمُصلح كبير، أو زعيم، أو قائد، أو شاعر، أو ممثل، ويحاول أن يحاكيه في سلوكه، ومن شأن ذلك أن يطوّر تمثّلات الطفل وينمّيه عقلياً ووجدانياً. وفي الكِبَر يستمر معنا سلوك المحاكاة، وربما يكون أيضاً لمشايعتنا للأقوى، أو ربما تيمُّناً واستجلاباً للبركة أو للمنفعة. ولو لم تكن المحاكاة لما كان ميلنا إلى مسايرة الأغلبية واعتناق أفكارها،

ومتابعة أهل الرأي والحل والعقد والثقاة من أقوامنا. ويستغل المعلنون هذا الميل للمحاكاة للمرموقين، فيفضلون أن تكون الدعاية لسلعهم عن طريق الممثلين المشهورين، أو لاعبي كرة القدم البارزين وهم رموز المجتمع، والمحاكاة لذلك رمزية Symbolic i.، ولها تأثير كبير على سلوك المستهلكين.

والمحاكاة لا تعني النقل Copying، ولا المماثلة Mimicking، لأن النقل هو تقليد طبق الأصل لا أصالة فيه ولا ابتداع، والمماثلة نقلٌ مبالغ فيه، وأما المحاكاة فهي صياغة Modelling للسلوك، فيشكل المحاكي ما يقول أو يفعل على منوال الآخر، ويقتضي منه ذلك أن يفهم القواعد التي يقوم عليها السلوك الآخر، فيلتزمها دون أن ينقل السلوك نفسه، وذلك عملٌ خلاّق يميل بالبعض إلى أن يقول بما يسميه «المحاكاة الخلاّقة Creative imitation»، وربما كان هذا هو ما يلتزمه الأتباع والحواريون بصدد محاكاتهم للنموذج أو المثال.

وللمحاكاة مزايا وأوجه قصور، ومن مزاياها أنها اختصار للوقت في التعلّم، ويكفي فيها قاعدة «إفعلْ كما أفعل Do as I do» ليتعلم الشخص الطريقة دون أن يُلمَّ بالأسباب التي حدت إليها أو الفلسفة خلفها. ويكفي العامل أن يلاحظ العمال يعملون ليقلدهم على عملهم، أو يكفيه أن يشاهد فيلماً عن ذلك. و«المحاكاة الاجتماعية Social i.» يكون بها تعلّم العادات الاجتماعية التي بدونها لا يكون الاجتماع. والذي يحاكي يستشعر بعملية المحاكاة أنه واحد من أعضاء المجتمع، وتتأكد بمحاكاته لبقية الأعضاء ولاءاته الاجتماعية، ويقوى به الانتماء للمجتمع. ومن جهة أخرى فإن الغلو في المحاكاة والأخذ بها كأسلوب حياة يجعل الشخص تابعاً دائماً، ويقضي على استقلاليته، وينفي عنه التفكير الإبداعي، ويُرديه في حمأة الآلية، دون فهم للأمور ولا إعمال فكر في المشاكل، وقد يقبل لذلك آراء الآخرين دون تمحيص، وينخرط في الانحيازات، ويكون تقليدياً في حياته.

ومن المحاكاة سلوك مَرَضِي يقال له «المحاكاة الهيستيرية Hysterical imitation»، فيأتي المريض به الأعراض

السلوكية نفسها التي يراها على آخر يتعيّن به فتتلبسه الأعراض ويأتيها مثله، فلو كان الآخر يشكو الشلل مثلاً فقد يصاب المريض بالمحاكاة الهستيرية بشلل أيضاً ليست له الأعراض التشريحية للشلل، ويقال له الشلل نفسي المنشأ، كأن يشكو الخدر في الذراع دون الساق، أو في الكفّ دون الذراع. وربما نلحظ هذه المحاكاة الهستيرية في بعض الناس حيث تجدهم يردّدون ما يقوله الغير أمامهم ترديداً بلا وعي ودون حاجة إليه، وهي الظاهرة المرضية التي يقال لها الصداء اللفظي Echolalia. وهناك الظاهرة المماثلة والتي مجالها الحركة وتسمى لذلك الصداء الحركي Echopraxia، وهي محاكاة قد يأتيها البعض أيضاً دون وعي، فإذا قطّب المتحدث مثلاً فقد يُقطّب أيضاً المستمع، وإذا ضحك المتحدّث ضحك المستمع، وقد ينهض فينهض مثله وهكذا، وتلك ظواهر مرضية نلحظها واضحة جلية عند مرضى الفُصام بالذات.



مراجع:

- Millar & Dollard: Social Learning and Imitation.
- A. Bandura: Social Learning and Personality.
- Ervin, S.M.: Imitation and Structural Change in Children's Language.
- Flanders, J.P.: A Review of Research on Imitative Behaviour.



- ٢٠ -
سيكولوجية النَّوم Sleep Psychology

النوم والموت، واضطرابات النوم، وطقوسه، والحرمان منه، ودورة النوم.



النوم: غشية ثقيلة تهجم على البدن فتُبطل عمل الحواس، وهذا المعنى في العربية غير موجود في أسماء النوم

الأوروبية، ففي الانجليزية الكلمة Sleep، أصلها جرماني من Sleps وSlaf، ومنها Schlaf الألمانية، وSlaap الهولندية، والمعنى فيها جميعاً هو: التعب الخامل، نقول Schlafen أي خمل، نتيجة التعب، ومنها Schlapp الضعيف المنهك أو الخامل، وليس هذا هو المعنى للنوم في العربية؛ وكذلك كلمة Slumber الإنجليزية فإنها أيضاً تعني الخمول، ونترجمها في العربي النعاس. وأما كلمة Doze، ومنها Dizz، فهي الدوخة، ونترجمها الغفوة، ومثل ذلك Somnus اللاتينية، وSommeil الفرنسية، وSen الروسية، وSan الصربية، وجميعها ترجع إلى Sona الهندية، ولا تفي منها بوصف حالة النوم إلا الكلمة العربية «النوم»، فهي أدقها وأفضلها، لأنها تعني إضطجع ورقد، وسكن واطمأن، وهمد، تقول: نام العرق أي لم يعد ينبض.

والنوم Somnus إله النوم، إبن إريبوس ونوكس Nox، وهو صنو الموت - ثاناتوس Thanatos، ويقال للموت إنه نوم أبدي Somnus longus، والاثنان من أولاد الليل، ولمّا تناولت جولييت في مسرحية شكسبير «روميو وجولييت» عقار النوم، كان القليل منه يسبب النوم، والكثير يسبب الموت، فالنوم والموت شقيقان، وجولييت ماتت بالكثير من العقار. وأما «سنو وايت» في قصة «Snow White and the Seven Dwarfs» من تأليف الأخوين Grimm (١٨١٢م) فإنها أخذت القليل من عقار النوم فعاشت ولم يدركها الموت. وخلط «المسيح في قصة ليعازر» بين النوم والموت وساوى بينهما (يوحنا ١١/٤). والنظريات كثيرة في سيكولوجية النوم وفي فسيولوجيته، فعند إمبادوقليس Empedocles (٤٩٣ - ٤٣٣ ق.م.) فإن النوم يسببه ابتراد الدم ابترادا طفيفاً، واعتبر أبقراط Hippocrates (نحو ٤٦٠ ق.م) هذا الابتراد بسبب انسحاب الدم، ونسبه أرسطو Aristotle (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) إلى أن أدخنة الجسم تتجمع في الرأس فيبترد البدن وينام، وقال الأفروديسي Alexander of Aphrodisias (٢٠٠ م) إن الجسم يفقد حرارته في النوم، وقال غير هؤلاء إن النوم يتسبب فيه هزال يطرأ على المخ من طول اليقظة، وإن الأرواح الحيوانية تقل في

الجسم باستنزافها في العمل فيتراخى ويخمل، أو أن الأوكسيجين يقل بالمخ فتكون الحاجة للنوم لتجديد كل ذلك.

ولم يكن للنوم مكان معيّن قديماً، ثم صارت غرف النوم المستقلة، وأوقات النوم الخاصة. ولا يأتي النوم إلا على مراحل متتابعة، ويكون عميقاً في الساعات الأولى، ثم يخفّ بالتدريج، وله موجات كهربية بالمخ، وبروفيل خاص، ففي البداية تكون تموجات ألفا صغيرة وسريعة وغير منتظمة، ويتذبذب السجل الكهربي للعينين ذبذبات بطيئة تماثل حركة دوران العينين، ثم تظهر تموجات أكبر تُعرف بمغازل النوم، ويتدنى التوتر العضلي، وتهدأ العينان وتسكنان، وهذه هي المرحلة الثانية، ثم تزداد تموّجات السجل الكهربي وتصبح أشد بطأً وتسمى تموجات دلتا، ثم يكون الطور الثالث فتزداد التموجات كبراً، وكذلك في الطور الرابع، والمرحلتان هما مرحلتا النوم العميق، والتموجات فيهما من نوع دلتا، وقد تتغير حركة الجسم فيبدأ التسجيل من جديد، ثم نعود إلى المرحلة الأولى وهكذا، وفي الليلة الواحدة تكون هناك أربع دورات أو خمس، وسميت المرحلة الأولى والثانية مرحلتي النوم المُرمّش REM sleep، والمرحلتان الثالثة والرابعة مرحلتا النوم غير المرمش NREM sleep.

وزمن النوم حدّده البعض بست ساعات، أو بخمس للشباب والكهول، وست للتجار، وسبع للمترفين، وثمان للكسالى والخاملين. ويقضي الرضيع ثلثي اليوم نائماً، وفي الشهر الثالث قلما يستيقظ في الليل، وفي سن ستة شهور يقضي اثنتي عشرة ساعة نائماً، ثم يتحول نمط النوم بالتدريج مع تقدّم السن من النمط متعدد المراحل إلى النمط ذي المرحلة الواحدة. ويتساوى النوم المرمش والنوم غير المرمش عند الرضيع، وتزيد الحركة عنده عنها عند البالغ في فترات النوم المرمش، وتزيد أكثر عند الأطفال مبتسري الولادة، وتتناقص مدّة هذا النوم حتى تبلغ ٢٥٪ من الزمن الكلي للنوم في العام الثاني أو الثالث للطفل. وتأخذ كبار السن غفوات من النوم أثناء النهار، وينتشر نوم القيلولة Nap بالنسبة للكثيرين. والنوم المبكر والاستيقاظ المبكر أفضل صحياً

ونفسياً. والناس في النوم أنماط، فالبعض لا يجدون مبرراً للنوم المبكر في الليل، والبعض ينامون أول الليل ويستيقظون في الصباح أكثر نشاطاً وحيوية، والبعض ينامون لأربع ساعات فقط، وهناك من تطول فترات نومهم، وكان إينشتاين ينام عشر ساعات يومياً، وأنسب مدّة للنوم سبع ساعات، وما زاد عن ذلك أو قلّ دليل على وجود عوامل داخلية تتسبب فيه، ويكثر الموت بين من ينامون أقل أو أكثر من الساعات السبع.

ومن خواص النوم أننا نرى فيه الأحلام عن مشاهد من الماضي القريب أو البعيد، لها طبيعة جذابة، غير أن الأحلام عموماً تفتقر إلى الخيال، وكثيراً ما لا نتذكر ما حلمنا به في الصباح، وفي معظم الأحيان تكون ذكرياتنا عن الأحلام باهتة غير مشوّقة، وكل أحلامنا يظهر فيها على الأقل شخص من معارفنا، وفيها حركة، ومضمونها سلبي، والشفاء والهزيمة والفشل أكثر وقوعاً بها من الرضى والنجاح. وتكثر الكوابيس Nightmares بأحلام الأطفال، وهم يحلمون بالحيوانات، وتتمتع أحلامهم بقدر من النشاط، والأطفال في سن الابتدائي يكونون أكثر إيجابية وفعالية في أحلامهم، ومعظمها ليس من النوع المخيف.

وبعض الناس قد يرون أنهم لا يحلمون، وهذا وَهْم، وعلى العكس فإننا نحلم عدّة مرات أثناء النوم الواحد، وكلما طال النوم طال وقت الحلم، فإذا قصر النوم قصر وقت الحلم، وتتماثل وقائع الحلم مع الطول الفعلي لزمن الحلم. ولا يوجد إرتباط مباشر بين الرَّمَش ومحتوى الحلم. غير أن أحلام النوم المرمّش أكثر حيوية من أحلام النوم غير المرمّش.

وفي النوم نفقد السيطرة على مجرى الأفكار، وليست الأحلام خداعات، ولكنها مجموعة من الرغبات، أو المخلفات Day-residues من انطباعات الحسّ في اليوم السابق، أو أن للمثيرات الحسيّة الخارجية دوراً رئيسياً في استثارتها، وتنشأ حالة الحلم Dream-state من نشاط المخ نفسه، كما تنشأ حركات العينين من نشاط الشبكات العصبية المرتبطة بالبصر، وتنشأ إنطباعات الحركة عن إستثارة المناطق الحركية.

والأحلام لها مغزى حضاري، ومن خلالها نتصل بصور أخرى من صور الحقيقة أو الواقع. وقيل إن العالم الخارجي للحلم ليس فعلاً هو العالم الخارجي، ولكن منطقةٌ في ذهن الحالم، فالحالم لا يحلم بأشياء لا يعرفها وإنما بالأشياء فقط التي يعرفها. وتحتوي الأحلام على معنى ظاهر ومعنى خفي كامن. والحلم لغة الذهن أو العقل، ولا يقل عالم الأحلام في واقعيته عن عالم اليقظة، وإنما واقعيته واقعية مختلفة. وللأحلام نواح إبداعية تلهم الحلول، وتتيح الاهتداء إلى ما يَعْمى عنا في اليقظة، وقد يفيد البعض من الأحلام فيطلب أن يحلم، لعله في الحلم يرى حلاً لمشكلته، ولذا كان الذين يحلمون محظوظين، ولهذا قال الشاعر هيلدرلين Hölderlin (١٧٧٠ - ١٨٤٣): الناس ملوك عندما يحلمون، ومتسولون عندما يستخدمون العقل والحكمة!

ولاستجلاب النوم قد يلجأ الناس القادرون مادياً إلى استخدام الأقراص المنومة، وهي عادةً غالية الثمن لا يقوى على شرائها إلا المترفون، والمتوقع أن خُمس مواطني الدول الغنية يتعاطى الأقراص المنومة، ومنهم أربعون في المائة يبلغون الستين من العمر. وكان الناس في الماضي كلما أعوزهم النوم يلجأون إلى الخمر، إلا أنها تصيب متعاطيها بالصداع، بالإضافة إلى سوء رائحتها وبذاءة لسان شاربيها وسوء أدبهم. وفي العالم الثالث كانوا يتعاطون الحشيش لاستجلاب النوم، وكان المتدينون والفقراء يلجأون إلى استخدام بعض الأعشاب يغلونها أو ينقعونها لعلها تفيدهم كمهدئات، وكمدخل للنوم، مثل الينسون، والكاركاديه، وزهور الشيخ، ولم تعرف الأقراص المنومة Sleeping pills إلا ابتداء من سنة ١٨٦٥، حينما اكتشفت الباربيتورات Barbiturates، إلا أنها كانت تسبب الإدمان، وتُحدث جرعاتها الزائدة التسمم، فاستعيض عنها بالبنزوديازيبين من نوع الليبريوم والفاليوم، وانتشر استخدامهما بسرعة، وتأكّد أنهما يؤديان إلى الإدمان ويتطلبان زيادة الجرعة باستمرار.

وتستحدث الأقراص المنومة آثاراً سيئة على دورة النوم Sleep-cycle، ولها

نتائج نفسية خطيرة، وتؤثر بالإضعاف والإنقاص من النوم المُرَمَّش وغير المرمَّش، وتغيير السجل الكهربي للمخ، واستحداث الخلل في وظائف المخ، وفي قدرة النوم على تعويض نشاط المتعاطي. ولهذه الأقراص آثار لاحقة، ويغلب على المتعاطين النعاس في اليوم الثاني، ويختل بها التنبيه والأداء، ويضعف التركيز، وتتسبب فيما يسمى الأرق المرتد Rebound insomnia عند التوقف بعد فترة طويلة من التعاطي، وتظهر أعراض الانسحاب، ولذلك يتزايد استهلاك الأقراص عند كبار السن، وعند النساء بخاصة في منتصف العمر، ويشيع الإدمان بين هؤلاء، وقد يتسبب لهم ذلك في فقدان الذاكرة، والنسيان الكثير، والخلط، والدوار، وقد نظن ذلك عند النساء من أعراض الشيخوخة المبكرة، وعند كبار السن من أعراض الشيخوخة. وثبت جلياً أن من المستحيل تحقيق أن يوجد قرص النوم المثالي الذي يمكن أن يُعين مَن يتناوله على النوم في يُسر من غير مضاعفات لاحقة، وأن أقراص النوم شديدة الخطورة سواء على وظائف المخ أو انتظام النوم، ولذلك وجب أن يكون تعاطيها في أقل الحدود، ولأقل الفترات.

واضطرابات النوم أعراض شائعة لها أسبابها النفسية قبل أسبابها الفسيولوجية أو العضوية، وتبلغ نسبة الذين يعانون من هذه الاضطرابات بين الرجال ٧٪، وبين النساء ١٢٪، وعلى ذلك فاضطرابات النوم أكثر بين النساء منها بين الرجال، وتزيد مع تقدم العمر، وأكثر الشكاوى منها في صعوبة الدخول في النوم، وفي كثرة الاستيقاظ في الليل، وفي الاستيقاظ المبكر. وبعض الناس يشكون من الأرق في حين أنهم ينامون فعلاً، غير أنهم لا يشعرون أنهم في حالة طيبة في الصباح.

وتتنوع أسباب اضطرابات النوم، فالأرق مثلاً، الغالب فيه أن أسبابه نفسية، وأن صاحبه تلح عليه أفكار معينة كأنها الحواز، وربما تكون شخصيته من النمط القلق، أو أنه يعاني من صراعات نفسية، ومشاكل خارجية، ولعل شخصية ماكبث Macbeth في مسرحية وليام شكسبير، نموذج للمعاناة من الأرق نفسي المنشأ، وقد تتسبب الأمراض الداخلية

في الأرق، وكثيراً ما يرجع إلى أسباب من المحيط والبيئة الخارجية، وربما تكون الضجة في الشارع، والتلوث السمعي من أسبابه، إلا أن ما يعنينا هو الأرق النفسي، وهو الذي يتسبب في الأرق المزمن. وللطقس والتغيرات المناخية علاقة بانصراف النوم عند البعض، وقد يُحدث تغيير سرير النائم أو حجرة نومه أرقاً من نوع ما، وتؤثر في النوم الطريقة التي يقضي بها النائم الساعات السابقة على نومه والتي تسبق موعد نومه، والأوفق دائماً أن لا ينغمس من يعزم على النوم في أي أنشطة جسمية أو نفسية تتسبب له في الإجهاد البدني أو العقلي أو النفسي، وقد يكون الأرق من علامات الاكتئاب.

ولتحسين النوم عدّة وسائل، منها أن يكون التوجّه إلى السرير في موعد معيّن يدأب عليه الشخص ويواليه، والنوم جزء من إيقاع بيولوجي على امتداد اليوم بطوله، فإذا اضطربت مواعيد النوم المنتظمة فإن الشخص يعاني من اضطرابات النوم، وعليه أن يلجأ إلى التدريبات للاسترخاء، وأن يترك همومه وينصرف عنها ويركّز في أن يترك نفسه على سجيتها، وأن يستمع إلى موسيقى هادئة لو أحب، أو يقرأ قصة مبهجة، وأن يتجنب الإثارة والمهيّجات، وما يولّد التعب البدني والنفسي، ويتجنب نوم القيلولة، لأن الذين يعانون من اضطرابات النوم ليلاً يكونون عادة من الذين يُقبلون على النوم في الظهيرة. وعلى النائم أن يختار حجرة نومه بألوان معيّنة هادئة، وأن يكون سريره مريحاً، ومرتبته مستوية.

ومن اضطرابات النوم المشي أثناء النوم Sleep-walking أو Somnambulism، وهو اضطراب نفسي عضوي معروف من قديم الزمان، والمرضى به كثيراً ما يُشاهَدون يسيرون مفتوحي العينين ومبسوطي الذراعين فوق إفريز أسطح العمارات أو الشرفات، وكانوا قديماً يظنون أن المشي أثناء النوم إنما يكون تحت وقع أحلام معيّنة، وثبت خطأ ذلك، حيث أنه لا يكون إلا في فترات النوم العميق .Deep s وليس النوم الخفيف – أي في المرحلتين الثالثة أو الرابعة من مراحل النوم، عندما تكون الأحلام نادرة الحدوث. والصورة المألوفة بهذا

الاضطراب أن يُرى المريض به جالساً على سريره، نائماً أو مستلقياً مفتوح العينين، وقد ينهض ويقول بضع كلمات ثم يعود إلى النوم. والكلام أثناء النوم Somniloquy كالمشي أثناء النوم. وقد يتهيأ النائم للخروج ويغيّر ملابسه ويرتدي الملابس الخارجية، وهو يسمع ما يقال، ويرى ويبصر، ويتجنب أن يصطدم بشيء، ومن الممكن أن يجيب على ما يوجه إليه بكلمات من مقطع واحد، وكثيراً ما يعود إلى النوم ولكنه في هذه المرة لا يستلقي على سريره، وإنما ربما يستلقي في مغطس الحمام، ومن الخطأ الظن أن بوسعه أن يتجنب المخاطر، وعندما يستيقظ من نومه فإنه لا يذكر أبداً ما كان منه أثناء مشيه.

ومن اضطرابات النوم أيضاً: النوم المرضي أو الناركوليبسيا Narcolepsy، والنوم المفرط Hypersomnia، وفي النوم المرضي يأتي النعاس في شكل هجمة لا يستطيع المريض دفعها Paroxysmal sleep، وينام المريض لفترة قصيرة ويستيقظ أكثر نشاطاً، ويتكرر نومه واستيقاظه، وعندما تأتي الهجمة فقد يكون مضاجعاً لامرأته فيسترخي فجأة ويكف عن الحركة ويسقط نائماً، وقد تأتي الهجمة أثناء تناول الطعام أو وهو في الحمام، وسبب المرض سوء التوازن بين النوم الخفيف وبين اليقظة، وهناك حالات توصف بأنها رغبة مفرطة في النعاس Excessive drowsiness، وتأتي بالنهار، ويعاني المريض من صعوبة شديدة أن يبقى يقظاً. وهناك الإفراط في النوم ويرجع إلى اختلال نظام النوم واليقظة. و«مرض النوم Sleeping sickness» هو غفوة مستمرة بسبب التهاب في الدماغ. و«شلل النوم Sleep paralysis» يكون فيه النائم كالمشلول فلا يفتح عينيه ولا يغلقهما. و«النوم السُّكْري – Sleep drunkness» (من السُّكْر) يكون كالغفوة ويعاني النائم ما يشبه الكابوس. ونوم المساطيل Yen sleep من أثر المخدر، وYen كلمة صينية بمعنى الأفيون، ونوم المخدَّر كما يقولون: He sleep like a log، يعني ينام كلوح خشب، وكما يقولون: Dead to the world، يعني ميت عن العالم لا يدري بشيء.

والشخير Snoring، وتوقُّف التنفُّس Sleep apnea من اضطرابات النوم، ويقال إن ١٠٪ من البالغين يشخّرون شخيراً يُسمع من الغرفة المجاورة، ومن الممكن أن يصل علو الشخير إلى مستوى ٨٠ ديسيبل (وحدة قياس الصوت)، أي مستوى صوت الحفّار الميكانيكي في الشارع، وأنه من بين كل مائة رجل فإن ٣١ منهم غالباً يشخرون، بينما تبلغ هذه النسبة عند النساء ١٩ من كل مائة امرأة. ويحدث الشخير بسبب النوم على الظهر، وانزلاق اللسان والفك الأسفل أثناء ذلك، والتنفس من الفم، وتذبذب سقف الحلق، والسمنة المفرطة أو زيادة الوزن. وأما «توقُّف التنفُّس» فيستحدثه غالباً نقص شاذ في التوتر العضلي للحلق، والمريض يتوقف تنفسه عدّة مرات في الليلة الواحدة لعدّة ثوان، وعندئذ يتقلب في سريره، ثم يستأنف التنفس بشخير إنفجاري، ويتسبب ذلك في نقص الأوكسجين بالجسم، وزيادة ضغط الدم في مجرى الرئتين، وعدم انتظام ضربات القلب.

وللنوم طقوس عند «الحيوان»، ولكل حيوان طريقته الخاصة في استجلاب النوم، والمكان الذي يختاره لنومه، وله أوضاعه المفضلة عند النوم. ويلاحظ النوم عند كل الفقريات. ولا يستوي السُّبات الشتوي Hibernation الذي هو من عادة أنواع من الحيوانات. والنوم. وتلاحظ مراحل النوم الخفيف والنوم العميق عند الثدييات، والتناسب عندها بين النوم واليقظة متفاوت، وكلما صغر مخ الحيوان وارتفع معدل أيضه، تقصر دورة النوم غير المرمش والنوم المرمش. وتقضي الحيوان ذات الظفر وقتاً طويلاً في الاغفاء. و«للطيور» أنماط سلوك النوم نفسها كما عند الثدييات، والمؤكّد أن الطيور المهاجرة التي تضطر إلى عبور البحار والمحيطات والطيران بالأيام بشكل مستمر لا يمكن أن تستغني عن النوم أثناء الطيران، والغالب أنها تنام وهي منزلقة على التيارات الهوائية. ويختلف نمط النوم عند «الزواحف»، وتتعاقب أطوار الراحة والنشاط عندها جميعاً، وكذلك في «النباتات»، ويتعقّد النوم كلما اتجهنا من الكائنات البسيطة إلى الكائنات العليا، وكل حيوان أو كائن

يفقد جزءاً من النوم فإنه لا بدّ أن يعوّضه.

والحرمان من النوم يمكن أن يؤدّي إلى خفض قدرة الشخص على الأداء، وقد تكون له عواقب مأساوية على سائقي السيارات وعمّال الصناعة والعسكريين. وكان الناس قديماً يلجأون إلى أسلوب الحرمان من النوم كوسيلة للضغط على الشخص أو لدفعه على الاعتراف، والبعض كانوا يلجأون إليه كوسيلة تعذيب - التعذيب باليقظة Tormentum vigilae، أو التعذيب بالأرق Tortura insomniae، واستخدموا الحرمان من النوم لقياس بطولة الشخص، كما حدث مع البطل الأسطوري جلجاميش Gilgamesh (ملحمة من الفولكلور الشعبي البابلي لملك بطل كان هذا هو اسمه). وبعض الناس يعتبرون النوم مضيعة للوقت، وأجريت تجارب لقياس تأثير الحرمان من النوم، وثبت أن المحروم يعاني من هلوسات وخداعات بصرية وحسيّة، وتسهل استثارته، ويكثر عنده الشك فيمن حوله، والبعض إستطاع أن يستمر يقظاً لمدة سبعة أيام، وتسعة أيام، وقالوا في تبرير قيامهم بهذه التجارب إنها لمجرد قياس قدرة العقل على التحكم في الجسم، ومع استمرار الحرمان كانت هناك هذاءات واضطرابات في الإدراك، وأعراض لفقدان الشخصية، وآلام في الأطراف، وارتعاشات طفيفة. وبعض الناس يعيشون حياتهم ويعملون دائماً على خفض أوقات نومهم خفضاً إرادياً، والناس عموماً يعانون من حرمان مزمن من النوم. ولذلك يعوّضون عنه أيام الإجازات، وفي تجارب الحرمان كان النوم التعويضي يتركز على النوم العميق، واكتشف الباحثون إمكان علاج الاكتئاب بالحرمان من النوم، إلا أن ذلك لم يتأكد تماماً. وتُعالَج بالنوم إضطرابات كالفصام، وذهان الاكتئاب، ويستمر المريض نائماً ثمانية أو عشرة أيام متواصلة ويُغذّى بالحقن.

وللنوم إيقاع بيولوجي سيكولوجي خاص، وكل إنسان لا بد له من الراحة كمقابل للنشاط، والله قد خلق الليل لباساً والنهار معاشاً ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً وَجَعَلْنَا النَّهارَ مَعَاشاً﴾ (النبأ - ١٠)، وتبلغ الراحة في المتوسط ما بين خمس

إلى سبع ساعات، ووقتها هو الليل غالباً. وفي الليل تقل فرص النشاط، وتزيد المخاطر، والاستعداد للنوم يبدأ من بعد الغروب، فإن كان العشاء فإن أكثر الناس يغلب عليهم النوم، ومن الصعب أن نتخيل بيئة لا زمن فيها، وأن بوسعنا أن نهرب من تأثير الليل والنهار على حياتنا، وفي التجارب التي تمّ فيها عزل المفحوصين تماماً عن أي تأثير لليل والنهار، وأي إشارة إلى الزمن، كان المفحوصون ينامون في المتوسط سبع ساعات يومياً، وقد تختلط عليهم الأمور في البداية، ولكنهم بشكل عام لديهم الإحساس الداخلي بالزمن، وبالليل والنهار، وبذلك يكون لدينا يومان: «يوم موضوعي Objective day» - وهو الذي يتألف من أربع وعشرين ساعة، و«يوم ذاتي Subjective d.» يركن فيه الإنسان إلى حسّه الداخلي بالزمن، واليوم الذاتي يزيد عن اليوم الموضوعي، ورغم ذلك فإن نسبة النوم إلى اليقظة تظل كما هي لا تتغير إلا قليلاً. وكل كائن حيّ لديه ساعته الداخلية بالزمن إن افتقد الساعة الخارجية، وحتى النباتات المعروفة بانتحائها إلى الشمس، فإنها لو وضعت في الظلام، فإنها عندما يحين وقت انتحائها ستنتحي رغم عدم وجود ضوء الشمس، والثابت أن إيقاع الساعات الأربع والعشرين هو الإيقاع النفسي والبيولوجي الغالب على كل الطبيعة. والساعة الداخلية، أو ما يسمونها «الساعة النفسية»، أو «البيولوجية»، هي المسؤولة عن تدبير العمليات الإيقاعية النفسية والبيولوجية في الطبيعة. وعندما يفقد الكائن الحيّ الإحساس بالزمن، كأن يعيش في مكان معزول زمنياً عزلاً كاملاً فإن إيقاع الأربع والعشرين ساعة يحلّ محله ما يسمونه «الإيقاع التقريبي Circadian rhythms» أو «الإيقاع الحرّ Free-running rhythm»، بمعنى أن الشخص المعزول عن الزمن أو عن الإحساس بالليل والنهار ينام وقتما يكون في حاجة إلى النوم، وقد يتصادف ذلك في وقت الليل أو وقت النهار، والمهم أن «إيقاع النشاط - الراحة» يستمر، فينام الشخص الساعات السبع المطلوبة في أي وقت، وعلى ذلك قيل إن الساعة البيولوجية تتحكم فيها «إيقاعات الليل -

النهار»، والساعة النفسية تتحكم فيها إيقاعات النشاط - الراحة. وهاتان الساعتان ليستا من باب الافتراض، ولكنهما من الواقع المادي، ويقال لهما معاً «الساعة الداخلية»، وهي في جانب منها نفسية، وفي جانب بيولوجية، ومكانها في المخ، وتنظّم العمليات النفسية والبيولوجية المختلفة في الجسم، ودورتها ثابتة، ومقدارها أربع وعشرون ساعة، والنفسية هي التي تتحكم في إيقاع «النوم - اليقظة»، أو «الاسترخاء - والاستنفار». ولذلك تزداد الحاجة للنوم كلما طالت الفترة التي قضيناها إيقاظاً، ليبقى الإيقاع سليماً، وكلما انخفضت درجة حرارة الجسم زادت الحاجة للنوم، فإيقاع النوم معاكس لإيقاع درجة الحرارة، والميل إلى النوم تتحكم فيه العملية الإيقاعية، وبينما نجد أن هذه العملية أكثر تحكماً في النوم الخفيف، فإن النسبة المئوية للنوم العميق تعتمد على طول فترة اليقظة السابقة.

وعملية النوم يمكن أن نعدها نوعاً من التكيف للظروف الداخلية جسمياً ونفسياً، وللظروف الخارجية الطبيعية والبيئية والاجتماعية. والنوم من كل ما سبق هو نوع من الراحة المفروضة، وبدون النوم ليس بوسع أي كائن حيّ أن يواجه الظروف والأخطار. وتتضمن الخاصّة الدورية للنوم أن لا يغادر أي كائن حيّ مسكنه في ساعات الخطورة، فأنواع الحيوانات التي يكون أعداؤها نهاريين تخرج في الليل، والحيوانات المفترسة تكيّف نومها حسب نوم ضحاياها، والحيوانات آكلة العشب ليس عندها الضرورة التي تفرض عليها النوم في وقت معيّن، ونومها لذلك موزّع. والتكيف لا يكون مع البيئة فقط، وإنما مع ظروف الكائن الداخلية، والنوم هو الذي يوفّر له الطاقة بانخفاظ معدلات الأيض، ومعدلات تبديد الحرارة. والخمول في النوم إقتصاد في مواد الطاقة المحدودة. والنوم عموماً يقي من الإنهاك والإجهاد الذي يترتب على بقاء النشاط لمدد طويلة. وكما أننا نأكل إذا جعنا، فنحن أيضاً ننام إذا كانت بنا حاجة للنوم. وتجري أثناء النوم عمليات من التركيب الأيضي أو التخليق، فلا عجب إن كان النوم من أعظم النِّعَم والمِنن وجعله الله

آية على قدرته تعالى، فقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ (الروم ٢٣).



مراجع:

- The Use and Misuse of Sleeping Pills: Mendelson, W.B.
- Sleep Disorders: Gartfield: Snoring and Sleep Apnea.



- ٢١ -
سيكولوجية الإيحاء والاستهواء

الاستهواء في الصحة والمرض، وفي الحرب والسلم. أحوال العقل في الاستهواء. إستهواء الأضعف. الاستهواء الإيجابي والسلبي والمضاد والأولى والمغنطيسي. الإيحاء الوجداني والعلاج الإيحائي.

❖ ❖ ❖

الاستهواء Suggestibility قابلية للإيحاء Suggestion، يكون إستعداداً يميل بصاحبه إلى تصديق ما يقال له من غير تمحيص ولا تحقيق. وبعض الناس يتميّزون بالاستهوائية الشديدة. ومن السهل استهواء الجماهير عند اجتماعها، والسلوك الجماهيري المتجاوب مع الإيحاء سلوك شديد العدوى، والأثر الاستهوائي للسلوك أكبر من الأثر الاستهوائي للكلام. والمَرضى مع ضعف الصحة والتهافت تقل بهم القدرة على مقاومة الإيحاء. وفي الحرب النفسية تضعف الروح المعنوية، فتكون الجماهير أكثر تقبّلاً للإيحاء الذي يتمثّل في الإشاعات، بل إنها لتطلب هذه الإشاعات وتسعى إلى مصادرها لتَوافُقها مع توقعاتها ومخاوفها والحالة الوجدانية المسيطرة عليها. ومن المهم لنجاح الإيحاء أن تكون الحالة الوجدانية متوافقة مع الأفكار المراد الإيحاء بها. وكذلك للحالة العقلية دورها في تقبّل الإيحاء، فمثلما أن الخائف يميل إلى أن يصدق ما يبرر له مخاوفه، فإن الذي يأخذ بفكرة معيّنة يميل إلى أن يستمع

ويتقبّل من الأفكار ما يناسب تفكيره. وكلما تدنّى النضج العقلي للمتلقّي للإيحاء وتدنّت ثقافته، قلّتْ مقاومته للإيحاء، وزاد ميله للتأثّر بما يقال له. ونلاحظ أن الأطفال يميلون إلى تصديق ما يقوله الكبار، كما أن النساء أقل مقاومة للإيحاء من الرجال. ويتعلق تأثير الإيحاء بمكانة المؤثر Suggestionist، وذلك ما نسميه الإيحاء المعتمد على المكانة للمؤثّر Prestige suggestion. وأغلب الإيحاء إجتماعي Social s.، أي أنه يقوم على ميل الناس للانتماء، واحتذاء المجتمع، وتقليد بعضهم البعض فكرياً، وكلما كان الفرد قليل الدراية متدنّي الوعي إجتماعياً، ومتخوّفاً من استقلالية الرأي، كان أميل للاستهواء Suggestible.

والاستهواء منه السلبي Negative s.، ومنه الإيجابي Positive s.، فالذي يطاوع ميوله الاستهوائية ويشايع الغير فيما يفكّر فيه إستهوائي إيجابي، والبعض قد يفعل أو يفكّر على عكس ما يقال له، وذلك هو الاستهوائي السلبي، واستهواؤه قد نُطلق عليه إسم الاستهواء المضاد Counter-s.. وأيضاً فإن الاستهواء الذي يتمّ في الظروف العادية التي لا تعمُّل فيها ولا اصطناع، نسميه إستهواءً أوّلياً Primary s.. وقد نقصد إلى الإيحاء ونتعمد استحداثه بخلق ظروف مؤاتية له وأجواء نفسية تساعد عليه، كما في التنويم المغنطيسي وفي العلاج بالإيحاء، ويطلق على الإيحاء الأول إسم الإيحاء المغنطيسي Hypnotic s.، ويقوم على تقبّل الوسيط لما يطلبه منه المنوم، وقد يطلب إليه أن يقوم بأشياء بعد أن يصحو دون أن يتذكّر أنه قد طلب منه ذلك. وكذلك فإن في العلاج بالإيحاء «Suggestion therapy»، أو «الإيحاء العلاجي Therapeutic s.»، يهتم المعالج بتقوية ذات المريض واستنفار قوى المقاومة للمرض عنده، وقد تكون للمريض إتجاهات إيمانية فيقوّي المعالج من هذه الاتجاهات، وبعض الاضطرابات النفسية قد تشفى فعلاً شفاءً إيمانياً، ويوصف الإيحاء في هذه الحالات بأنه «إيحاء وجداني Affective s.»، أي يقوم على مخاطبة المريض وجدانياً وعاطفياً دون مخاطبة عقله منطقياً. ونلاحظ أن هذا النوع من الإيحاء يُسمَّى أيضاً باسم «الاستهواء الذاتي Autosuggestion »، أي

أن الشخص نفسه وقد قويت ذاته وارتفعت معنوياته يوهم نفسه بنفسه بالشفاء. والإيحاء الذاتي يكون بتأثير الشخص في نفسه على عكس الإيحاء الغيري «Alter-s.» الذي يكون تأثراً بأفكار الغير، وأغلب الإيحاء غيري، أو أن الإيحاء يكون ظاهرياً إيحاءً غيرياً ثم يكون الجزء الإيجابي فيه إيحاءً ذاتياً، فبعد أن يتأثر الشخص بغيره فإنه يؤثّر هو نفسه في نفسه. وفي الإيحاء المغنطيسي لا يكون الإيحاء سلوكياً، وإنما يقوم كليةً على الألفاظ، ولذا يسمونه «إيحاءً لفظياً Verbal s.». والبعض يطلق على عملية الإيحاء من خلال التنويم المغنطيسي إسم «تشكيل الأفكار Ideoplasty»، حيث ينصبّ اهتمام المنوِّم على توجيه أفكار الوسيط وتشكيلها بالطريقة التي يريدها. ومن ذلك أيضاً أنه في عمليات غسيل المخ Brain-washing يعقب ذلك عملية «إيحاء بالأفكار Thought s.»، ويكون العميل المراد تشكيل أفكاره شديد التهافت معنوياً، وناقداً لكل ما كان يعتقده من قبل، وتكون إستهوائيته ظاهرة حتى ليسهل ملء دماغه من جديد بالأفكار الجديدة المناقضة لأفكاره السابقة. ويعتمد هذا الإيحاء أو الاستهواء - وكل استهواء - على تكرار وترديد ما يُلقَى على السامع، ويُتّبع هذا التكتيك في الإعلان، وفي الحملات الانتخابية، وفي الحرب الدعائية والحرب النفسية.



مراجع:

- K.G. Stukat: Suggestibility.
- Schultz, J.H.: Die Seelische Krankenbehandlung.
- Schmidbauer, W.: Schamanismus und Psychotherapie.



- ٢٢ -
سيكولوجية الانطباع

السلوك الانطباعي غريزي وهو تعلّم محدود. إكتشافه حديثاً ودراسته عند

مختلف الأنواع. الانطباع والغريزة المفتوحة والغريزة المغلقة. الانطباع والخوف. الانطباع عند سبولدنج وكونراد لورنز. الانطباع والفترة الحرجة...



الانطباع Imprinting، سلوكٌ فطري يُضرَب به المثل على التعلّم المحدود Restrictred learning، وهو نوع التعلّم الذي مجاله حدود الغريزة، فأفراخ البط Ducklings مثلاً تخرج من البيض ولديها استعداد موروث أن تَتْبَع To follow أي شيء يتحرك، ولذلك فهي تتبع أمها، إلا أننا لو حجبنا عنها الأم واستبدلناها بأي شيء آخر يتحرك كأن يكون إنساناً أو كلباً، أو حتى كرة من المطاط، فإن الأفراخ ستتبع هذا الشيء في حركته، بشرط أن يأتي تعلّمها لمتابعة هذا الشيء في الوقت المناسب لهذا التعلّم، وهو الوقت الذي يتلو مباشرة قدرتها على المشي بكفاءة. وإذا استمرت متابعتها لهذا الشيء مدّة كافية، كأن تكون خمس عشرة دقيقة، فإنها تنطبع بهذا الشيء وتُؤثره على البط من بني جنسها، وقد تشحنه شحناً جنسياً من بعد عندما تنضج وتحاول أن تأتيه، ويظل ذلك معها مدى الحياة. وهذا السلوك - أي الاتباع - غير متعلّم، وهو نوع من ردّ الفعل الغريزي الذي يعتمد على استعداد يظهر في الوقت المناسب. والفطري في هذا السلوك هو الاتّباع نفسه وليس اختيار الشيء المتّبع، ولذلك يُدرَج ضمن ما يسمى الغريزة المفتوحة Open instinct، على عكس الغريزة المغلقة Closed instinct التي لا تستجيب إلا لمثير معيّن وليس لأي مثير. وأفراخ البط لديها استعداد الاتّباع، إلا أن موضوع الاتّباع عندها يمكن أن يكون أي مثير طالما أنه يتحرك. وقد تحدّث عن الانطباع كسلوك لأول مرة (١٨٧٣) العالم الإنجليزي سبولدنج Spolding، وأعطاه الاسم (١٩٣٧) العالم كونراد لورنز Lorenz، وذكر كشرط له أن يتم قبل أن يتعلم الكائن الحي أن يستجيب بالخوف من الأشياء المتحركة، لأنه عندئذ سيهرب منها ولن يتبعها. ومن

رأي البعض أن ابتسامة الطفل الوليد في الأسبوع الثاني أو نحوه إنطباعية، أي أنها فطرية فيه ولكنه يتعلم أن يطلقها لدى رؤية وجه الأم وهو يتحرك أمام ناظريه، ومن ثم ترتبط بهذا الوجه، ثم يتعلم من بعد أن يطلقها لدى رؤية أي شيء آخر يتحرك كأن يكون دمية أو حيواناً أليفاً، طالما أن أمه تبتسم له مشجعة أثناء ذلك. وتسمى الفترة التي يستغرقها التعلّم بالانطباع «الفترة الحرجة»، وهي تختلف من كائن لآخر، فهي عند الدجاج من ١٣ إلى ١٦ ساعة بعد الفقس، وعند الكلاب تستغرق من ثلاثة إلى سبعة أسابيع، وعند الخراف العشرة أيام الأولى بعد الولادة. وفي رأي البعض أن الانطباع هو أسرع أنواع التعلّم ويلزم لكل تعلم إجتماعي تالٍ.

❖ ❖ ❖

مراجع:

- Sluckin, W.: Imprinting and Early Learning.
- Smith, F.V.: Attachment of the Young, Imprinting and other Developments.
- Thorpe, X.H. & Zangwill. O.L.: Current Problems in animal Behaviour.
- Thorpe & Zangwill: Learning and Instinct in Animals.
- Fabricius, E.: Crucial Periods in the Development of the Following Response in Ducklings.
- Gray, P.H.: Theory and Evidence of Imprinting in Human Infants.



- ٢٣ -
سيكولوجية العواطف

العواطف مادية ومعنوية. العواطف السائدة. عواطف حب الذات واحترام الذات واعتبار الذات. النضج العاطفي...



العاطفة Sentiment صفة مزاجية مكتسبة تتكون باجتماع عدد من

الانفعالات المتشابهة حول موقف أو موضوع معين، وتستثار مرتبطة بهذا الموقف أو الموضوع دون غيره. ومن شأن العواطف أنها تنظّم الانفعالات بربطها بالموضوعات. وقيل عن العواطف: إنها استعدادات عقلية مكتسبة وعادات إنفعالية تنظّم بعض نواحي النشاط الانفعالي أو المزاجي حول موضوعات معيّنة تبعاً لمؤثرات البيئة وعوامل التعلّم.

وأحياناً يقال إن العاطفة Emotion، ولكننا نؤثر ترجمة عاطفة بكلمة Sentiment، وأما Emotion فنترجمها بكلمة إنفعال. (أنظر الانفعالات في المقال التالي).

والعواطف مادية ومعنوية، فحب الأم أو الأبوين أو الأسرة أو الوطن «مادي»، بينما حب الشرف أو العدل أو كراهية الظلم «معنوي». والعواطف أيضاً فردية وجمعية، فأن أحب فتاة بعينها هو عاطفة فردية، ولكن أن أحب النساء جميعاً هو عاطفة جمعية. والتطور الطبيعي لتكوين العواطف أنها تبدأ مع الأطفال مادية وفردية، ومع النمو واكتمال النضج العاطفي Sentimental maturity تكون معنوية وجمعية، فالطفل يبدأ مثلاً يحب أمه ثم يُشرِك معها أباه، وتكبر الدائرة لتشمل الإخوة والمحيطين به، ثم المدرسة، فالمدينة، ثم يكون حب الوطن، بل وحب الإنسانية جمعاء. وتسود إحدى العواطف غيرها عند البالغ وتتحكم في سلوكه، فالشخص الذي يحب العِلْم مثلاً لدرجة أن يوجهه هذا الحب في كل علاقاته بالناس وتقويمه لهم، ويسيطر على سلوكه وكل توجهاته، هو شخص لديه عاطفة سائدة Master sentiment، والعلم بالعواطف السائدة عند الآخرين ييسِّر التنبؤ بسلوكهم في المواقف المختلفة. ومن العواطف السائدة عند البعض مثلاً عاطفة حب الذات Self-sentiment، والمحب لذاته يُكبِر من يعظّمه، ويرضيه أن يمدحه الناس، ويكثر من الحديث عن نفسه، وقد يحب أن يتجمّل بالقول الطيب والهندام الأنيق، وقد يطيل النظر لنفسه في المرآة. ومن الممكن قياس النضج الوجداني أو العاطفي بكشف ما إذا كان الشخص مهتماً بنفسه فيكون ما يزال في الطفولة الوجدانية لم يبرحها، أو كان متمرداً على الناس وعاداتهم ونظمهم

فهو ما يزال في المراهقة، فإن كانت إهتماماته منصرفة إلى الجماعة ومصالحها والوطن ومشاغله والقضايا الإنسانية فهو في مرحلة تمام النضج الوجداني. والمحب لذاته عاطفته السائدة هي حب الذات، وهي غير عاطفة إحترام الذات Self-respect sentiment، لأن الذي يحترم نفسه لا يرضَى لها الصَّغار. وتفرض عاطفة اعتبار الذات Self-regarding sentiment إعتبارات معينة على الفرد لا يتجاوزها، وإنْ فَعَلَ استشعر الاستياء من نفسه، ويشعر بالرضا عن نفسه إذا حقّق لها ما يتفق وفكرته عنها. ومن رأي مكدوجال أن عاطفة إعتبار الذات هي المنظّم الأساسي للسلوك، وهي القائد الأعلى للنزعات، والتي تتوقف عليها قوة الشخصية، ووحدة إتجاهاتها، وتناسق أفعالها، وتوازن تصرفاتها.



مراجع

- McDougal: Outline of Psychology.
- McDougal: Social Psychology.



- ٢٤ -
سيكولوجية الانفعالات

الوجدان والشعور. الانفعالات الأولية والثانوية. المزاج العام والانفعالات المشتقة. العادة الانفعالية والانفعالية العامة. النضج الانفعالي ودراسات الانفعالات. التبلد الانفعالي ونظرية الانفعالات...



الانفعال Emotion من الفعل Emote وMovere بمعنى يحرّك، ومن ثم كان الاسم الانفعال أي المسبب للحركة والفعل، وهو كل «سلوك» أو «إستجابة» ذات صبغة وجدانية. وتُطلق كلمة وجدان Affect على الجانب الشعوري الذاتي أو الاستبطاني لحياتنا الانفعالية، حتى لتستخدم الكلمتين «إنفعالي» و«وجداني» كثيراً كمترادفين، فنَصِفُ الانفعال بأنه خبرة وجدانية Affective، ونَصِفُ الوجدان بأنه خبرة إنفعالية Emotional، وهي صعوبة نصادفها كلما كنا بصدد

تعريف أية خبرة إستبطانية، فنحن نستطيع أن نصف ما يصاحب السرور والكدر من أحوال جسمية أو مظاهر سلوكية، ولكننا إذا أردنا تعريف السرور أو الكدر كخبرتين ذاتيتين فلا نملك إلا أن نصف أحدهما باعتباره عكس الآخر. ويُطلق إسم «الوجدان» على أبسط أنواع الانفعال وهو «الشعور Feeling» وكون ذاتياً، أو هو الجانب الانفعالي لكل إدراك حسّي، وهو أيضاً الإحساس بالرضا أو بالكدر. ومن العلماء من يذهب في تعريف الانفعال مركّزاً على الجانب العضوي النزوعي. ويؤكّد فرويد على الجانب الوجداني، ويذهب إلى أنه من صميم الانفعال أن نستشعره - أي نستشعر الانفعال - ومعنى استشعارنا له أن نستدخله الشعور، يشير فرويد بذلك إلى قدرة الانفعال باعتباره شحنة وجدانية، على الاستقلال عن الموضوع المصطبغ به، وقد يُدفَع الموضوع إلى اللاشعور، وأما الانفعال فإنه وإن تابعه لفترة إلى اللاشعور، فإنه ينطلق من بعد في صورة شحنات وجدانية تلتصق بموضوعات أخرى بديلة. ويذهب مكدوجال McDougal (١٨٧١ - ١٩٣٨) إلى أن لكل غريزة جانباً إدراكياً يثير الغريزة، وجانباً وجدانياً يكون به الانفعال، وجانباً نزوعياً يهدف إلى تحقيق الغرض من الغريزة. ويسمِّي مكدوجال الجوانب الوجدانية للغرائز «الانفعالات الأولية Primary emotions»، ففي غريزة الهرب مثلاً تكون رؤية الخطر الداهم جانباً إدراكياً، والشعور بالخوف هو الجانب الانفعالي أو الوجداني، وهو إنفعال أوّلي، واتجاهنا للهرب هو الجانب النزوعي. وحيث أن الانفعالات متعلقة بالغرائز الفطرية فهي فطرية أو أولية، ولكنها تترقّى وتتهذّب وتتعدّل وتنضج مع النمو، فتخفّ حدّتها ولا تستثار إلا لمنبّه كاف، فلا ينفعل الراشد بما كان ينفعل به وهو طفل، وكذلك يتحوّل الجانب النزوعي إلى الناحية الاجتماعية الأخلاقية، فيتخذ الغضب مثلاً شكل النقد الموضوعي، ويترقّى العدوان فيصبح مثلاً منافسة رياضية. وقد تتجمع الميول الانفعالية حول موضوع وتصبح عاطفة Sentiment، وقد يمتزج إنفعالان أوليان أو أكثر فينشأ عنهما إنفعال ثانوي Secondary

emotion، أو إنفعال مزيج Blended emotion، وهو مزيج من أكثر من انفعال، كالرهبة - فهي مزيج من الإعجاب والخوف. وهناك نوع ثالث من الانفعالات هو الانفعال المشتق Derived emotion، ويتركب من إحساسات وجدانية لا ترتبط بالغرائز، بل تحتدم في النفس كلما كان هناك دافع قوي مثل الفرح أو الحزن أو الأمل أو اليأس. وتسمى شدّة الانفعال أو حدّته سورة الانفعال Passion، كسورة الغضب مثلاً. وأما الحالة المزاجية Mood فهي حالة إنفعالية أخف من السورة وأطول أمداً، وأحياناً تكون بسبب القمع، أي عندما لا يأخذ الانفعال حقّه في التعبير أو التنفيس، وأحياناً تكون مرحلة من مراحل سورة الانفعال وهي في طريقها إلى الزوال، فعندما تخفّ حدّة الغضب مثلاً تتخلف لدى الغاضب حالة مزاجية يكون فيها مزاجه نكداً فتسهل استثارته. وقد تترتب هذه الحالة المزاجية على الاضطرابات الفسيولوجية، مثل عسر الهضم، واضطرابات الغدد، وما ينشأ عن ذلك من استثارات للمراكز العصبية المصدّرة للانفعالات. ويختلف المزاج العام Temperament عن الحالة المزاجية من حيث ديمومته وانطباع الشخص إنفعالياً به، وهو القابلية العامة للفرد لأن ينفعل بأسلوب يخصّه هو وحده دون سواه، ويرجع للفطرة، وقابلية الجهاز العصبي للاستثارة، وحالة الغدد الصماء، وكيمياء الجسم، وتؤثر خبرات الطفولة في توجهاته. وحدة المزاج Temper تختص بالناحية السلوكية التي ينصرف فيها المزاج. وعندما يتكرر السلوك الانفعالي بتكرر المواقف الانفعالية تتولد العادة الانفعالية Emotional habit، وشأنها كالعادات تُكتَسب بالتعلم، وقد تكون عادات إنفعالية سيئة أو صحية. وقد يطلق على العادة الانفعالية إسم العاطفة Sentiment، إلا أن العاطفة ذاتية أكثر، في حين أن العادة تتعلق بموضوع وتُكتَسب بالخبرة. وقد تثير العاطفة الواحدة عدّة إنفعالات، فعاطفة الأمومة قد تثير انفعال الحنو حيناً، وقد تثير انفعال الغضب أحياناً إذا تهدّد شيء المولود فتهب الأم دفاعاً عنه، في حين أن الانفعال تلقائي أو غريزي. والانفعالية العامة Emotionality

هي العامل المركزي العام وراء كل نشاط إنفعالي، ولها في التكوين المزاجي العام للشخصية المكانة نفسها التي يحتلها الذكاء العام في النشاط العقلي، أي أنها عامل مشترك بين كل الانفعالات ويصطبغ بها كل النشاط الانفعالي.

والانفعالات لكي تُستثار لا بد لها من مثير أو منبّه، ولا بد لها من منفعل ترتبط الانفعالات بتكوينه النفسي والعصبي والجسمي، ومزاجه وانفعاليته أو درجة توتره، وخبراته واستعداداته الفطرية واتجاهاته الوجدانية، وثقافته والبيئة التي يعيش فيها، والقيمة أو المعنى الذي يضفيه على المنبه، وحالته الصحية ونشاط جهازه العصبي عموماً وبعض منه خصوصاً، كبعض أجزاء الفصّ الجبهي للحاء المخ، والدماغ الحشوي، والمهاد أو الثلاموس، والمهيد أو الهايبوثلاموس، والتكوين الشبكي بالدماغ، والجهاز العصبي المستقل، ونشاط الغدد الصماء، وكيمياء الدماغ عموماً، ووجود أو عدم وجود بؤرات مثيرة ذات عتبات منخفضة.

وتكون دراسة الانفعالات إما برصد السلوك الانفعالي الظاهر، الذي يشمل التغيّرات في أوضاع الجسم وحركاته، والإيماءات والنظرات، والصوت وتعبيرات الوجه، أو قياس التغيّرات الفسيولوجية الداخلية كالتغيّرات في كيمياء الدم، ونبض القلب، وضغط الدم، والتنفس، والتمثيل الغذائي، وكهربية الجلد ودرجة حرارته، والتوتر العضلي، والنشاط المَعِدي المعوي. وقد يسهل أحياناً على المنفعل أن يتحدث عما يعتريه من تغيّرات من حيث أنه يكون الأقدر على ملاحظة حالته الانفعالية ومشاعره الذاتية، إلا أنه قد تبين أن الناس يتفاوتون في القدرة على التعبير عن تجاربهم الذاتية، وأن بعضهم قد يغالي في الوصف، ويقتّر آخرون أو يحاولون صرف النظر عن انفعالاتهم، وقد يحدث أن يمثّل البعض في أدائه الانفعالي ليعطي المشاهدين إنطباعاً مغلوطاً عنها، وحتى الحيوانات والطيور يمكن أن تمثّل وتموّه الانفعالات، ومن ثم فقد لا نعوّل على المظاهر الخارجية عند دراسة الانفعالات، كعدم تعويلنا على الوصف الشفهي للخبرة الانفعالية. وتتجه

الدراسات في معظمها حالياً إلى الناحية الفسيولوجية، غير أن علم النفس يؤكّد أن الانفعالات ليست مجرد عمليات فسيولوجية، حيث أن هذه العمليات تتأثر بمكونات الشخصية، وبالثقافة، وبالتعلّم والمواقف الاجتماعية. وتختلف القيمة الانفعالية للمواقف الاجتماعية باختلاف الثقافات، فلربما يكون تقبيل الغير للزوجة غير مثير إنفعالياً في ثقافة، بينما هو في ثقافة أخرى أمرٌ في غاية الإثارة والغضب. والثقافة هي التي تحدّد المواقف الاجتماعية المثيرة للانفعالات، وما تثيره منها، وحدّتها، وطرق التعبير عنها، ومن ثم يكون الحذر عند تصنيف الانفعالات باعتبار أن مسألة التصنيف مسألة نسبية. وقد يرى البعض كواطسون Watson (١٨٧٨ - ١٩٥٨) - ممن درسوا الانفعالات عند الأطفال الأميركيين - أن الانفعالات الأساسية ثلاثة، هي: الخوف، والغضب، والحب، وقد رآها ديكارت Descartes (١٥٩٦ - ١٦٥٠) ستة كما لاحظها على أطفال فرنسا. وتتجه الدراسات المعاصرة إلى ردّ الانفعال إلى الانفعالية العامة، أو الاستعداد الانفعالي الفطري، يكون منذ الولادة بسيطاً ولا تتميز فيه أيٌّ من الانفعالات، ويمكن أن تستثار هذه الانفعالية العامة بأي منبه فجائي كالصوت العالي مثلاً. ومع التطور والنمو وفي مراحل من العمر معينة تختلف من كائن إلى آخر، وبحسب المنبّه المناسب، تتمايز الانفعالات ويرتقي التعبير عنها، ويستمر ذلك مدى الحياة وبالتدريج حتى يكتمل النضج الانفعالي Emotional maturity للكائن الحيّ، فتكون الخبرة الانفعالية هي جُماع الاستجابات الانفعالية المتعلَّمة أو نتيجة امتزاجها.

وتتفاوت الاستجابات الانفعالية في الشدّة، وفيما تستحدثه من بهجة أو كدر، وما تتضمنه من ميل نحو بعض المنبهات أو نفور منها. وتتطور الاستثارة الانفعالية الفطرية فتصبح من بعد إستثارة متعلمة، ويلعب الإشراط دوراً رئيسياً في تعلم الاستجابات الانفعالية - الانفعال الشرطي Conditioned e.. وتتزايد أهمية التعلّم والمواقف الاجتماعية كلما صعدنا السلم التطوري. ويمكن للخبرة الانفعالية أن تتسع باستمرار لتشمل موضوعات أخرى للانفعال بخلاف المثيرات التي

كانت تصنع الاستثارة الولادية، فالخوف مثلاً الذي كان يمكن أن يستثار عند الوليد بالصوت العالي الفجائي، قد يشمل من بعد كل ما هو غريب على الطفل وحتى على الراشد، ويمكن أيضاً أن تمتد المخاوف - كمصادر للانفعالات Sources of emotions، فتشمل موضوعات أخرى عن طريق التعميم وعن طريق التقليد، فمن يخاف من الفأر قد تشمل مخاوفه منه كل ما يمكن أن يماثل الفأر أو يكون به وجه شبه، كالفراء، وتنتقل عدوى الخوف إلى الأولاد عن طريق الآباء.

ولربما يكون المنبه أو المثير للانفعال مدرَكاً حسياً، أو فكرة أو تصوراً، وربما يكون منبهاً ذاتياً كما في بعض الحالات المرضية كالاكتئاب، وهو انفعال يترتب على الإخفاق أو الإحباط، أو لدوافع لاشعورية نحتاج للكشف عنها إلى التحليل النفسي وتحليل الأحلام. وبعض الحالات الانفعالية دوافع Motives في ذاتها أحياناً، والدافع عبارة عن حالة توتر في الكائن الحيّ تستثير فيه حاجة تتطلب الإشباع، فيخف التوتر، ويستعاد التوازن الفسيولوجي والنفسي، ومن ثم يكون الشعور بالراحة أو بالرضا وهو حالة إنفعالية. كما ان السعي للطعام يعطي شعوراً بالراحة، ورؤية الطعام تعطي أيضاً شعوراً بالراحة، وكذلك فإن عدم الراحة هو حالة إنفعالية Emotional state مصاحبة للجوع.

وترتبط الانفعالات بالتكيّف، وتتجه معظم البحوث في الانفعالات على اعتبارها عوامل إضطراب تشتمل العمليات الحشوية الداخلية والسلوك الخارجي وتمتد إلى الخبرة الشعورية، ففي الخوف مثلاً تتوقف حركة المعدة وتصاب بما يشبه الشلل، وهو اضطراب لا شك فيه، إلا أن هذه العمليات نفسها هي طريقة الكائن الحي للتكيّف مع ظروفه المهدّدة، وذلك أن الدم بدلاً من أن يُضَخّ للمعدة فإنه يُضَخ للعضلات والمخ واللب والرئتين والغدد لمواجهة النشاط الذي يواجه به الكائن الحيّ الخوف، فكأن هذه العمليات الداخلية ليست مظهراً للاضطراب ولكنها تنظيمية لتسمح للكائن الحيّ بالتعامل مع الموقف المهدِّد. وما يتبع ذلك من سلوك ليس من فعل الاضطراب وليس سلوكاً مضطرباً، ولكنه

سلوك منتظم يتفق والحالة الجديدة التي عليها الكائن. وكذلك في الناحية الشعورية فالتفكير الذي يناسب الموقف الجديد هو تفكير منظم يتفق وطبيعة الموقف، إلا في حالات الانفعالات العنيفة، وعند وقوع صدمة إنفعالية Choc émotif، أو نوبة إنفعالية Crise émotive، أو Crise de nerfs، عند الانفعال الفجائي Ictal e.، فقد يطيش عندئذ السلوك ويكون التفريغ الانفعالي Emotional release شديد الوطأة طائشاً، وقد ثبت أنه في الانفعالات العنيفة تقل كفاءة الفرد وقدرته على التصرف في المواقف المختلفة. وثبت أن الكثير من الاضطرابات النفسية الجسمية أسبابها إنفعالية كالربو والقولون العصبي وقرحة المعدة والامعاء وجلطة الشريان التاجي. وكل إنسان له قوّة إنفعالية Emotional stength. ويؤدّي عدم النضج الانفعالي Emotional immaturity أو عدم الاستقرار الانفعالي Emotional instability إلى سورات أو تقلبات إنفعالية. والشخصية غير المستقرة إنفعالياً Emotionally unstalbe personality هي نمط الشخصية التي يشكو صاحبها من إضطراب إنفعالي Emotional disorder، فتأتي انفعالاته غير متناسبة مع سِنّه أو عُمره الانفعالي Emotional age، ومع المواقف الانفعالية التي تستدعي هذه الانفعالات، وقد تكون أقل إستجاباته الانفعالية مما تستلزمه هذه المواقف أو أكثر. والبعض قد يكون مصاباً بتبلد إنفعالي Emotional apathy، ويلاحظ ذلك خصوصاً على ذوي الشخصية الفُصامية وأصحاب الذكاء المتدني، فقد تستدعي المواقف إنفعالات عنيفة فيواجهها الشخص المتبلّد إنفعالياً ببرود إنفعالي وكأنها لا تعنيه. وأحياناً قد تكون للمواقف الانفعالية شدّة أو وطأة إنفعالية تصدم البعض حتى ليصابوا بما يسمى الذهول الانفعالي Emotional stupor. وبعض الأطفال تكون لهم سورات غضب فيلقون بأنفسهم على الأرض ويصرخون ويركلون، ويتكرر ذلك معهم حتى ليصبح عادة إنفعالية Emotional habit. وبعض الناس لهم سمات إنفعالية Emotional traits تجعلنا نتوقع منهم إنفعالات معيَّنة في ظروف معيّنة. والنمط الانفعالي Emotional type من أنماط

الشخصية، ويغلب عليه الجانب الانفعالي عن الجانب الإدراكي. ويتفاوت الناس في طبائعهم الانفعالية Emotional attitudes، واتجاهاتهم المزاجية، ومن ثم تتفاوت إستجاباتهم الانفعالية Emotional reponses، ومن المستحيل أن نفصل الاستجابات الانفعالية عن الشخصية وعما يجري لها في البيئة الاجتماعية.

ونظريات الانفعالات هي تلك النظريات حول مسببات الانفعالات، وهي إدراكية وفسيولوجية، ومنها نظرية جيمس - لانجي James-Lange's theory، وكان لانجي (١٨٣٤ - ١٩٠٠) فسيولوجياً دانمركياً قدّم نظرية في الانفعالات مشابهة كثيراً لنظرية (وليام جيمس ١٨٤٢ - ١٩١٠)، حتى أن النظرية صارت تنسب للاثنين معاً، مع أن النظرية هي في الأصل نظرية جيمس ووضعها سنة ١٨٩٠، ويقول جيمس إن نظريته تقوم على فكرة أن التغيرات الجسمية تتبع مباشرة إدراك الاستثارة، وأن شعورنا بالتغيرات نفسها وهي تحدث هو الانفعال. وتشبه هذه الفكرة فكرة لانجي باستثناء أن لانجي حذف خطوة الإدراك وخلص إلى أن التغيرات الحشوية الحركية (الجسمية) هي الانفعال.

وتعرضت النظرية للكثير من النقد وكان أقواها هو نقد كانون (١٨٧١ - ١٩٤٥) الذي شكّك في دور التغذية الرجعية من الأعضاء الطرفية. وتعرف نظريته باسم نظرية كانون - بارد Cannon - Bard theory أو النظرية المهادية أو الثلاموسية في الانفعال The thalamic theory of emotion (١٩٢٩)، ويذهب فيها إلى أن تكامل التعبير الانفعالي يتحكم فيه المهاد أو الثلاموس الذي يقوم بإرسال أنماط إستثارة مناسبة إلى اللحاء في الوقت نفسه الذي يقوم فيه المهيد أو الهايبوثلاموس بالتحكم في السلوك. وهو يطرح وجهة نظره هذه كجزء من نقده لنظرية جيمس - لانجي التي تفترض أن التغذية الرجعية الحسيّة هي التي تتحكم في التعبير الانفعالي. وتعرضت نظرية كانون للنقد في صورة نظريات أحدث منها وأكثر تطوراً، ومنها نظرية الاستثارة أو التيقظ Activation (or arousal) theory وتحاول تفسير الاستجابة الانفعالية، وكذلك الدافعية،

في صورة إستثارة نسبية للّحاء، وتفترض أن الومضات الحسيّة والحشوية والجسمية تتجه إلى التكوين الشبكي أسفل جذع المخ، ثم تتكامل وتتوزع إلى الهايبوثلاموس حيث تنشّط مركز اليقظة، وكذلك تتوزع إلى أنوية ثلاموسية تنشّط اللحاء،والوارد خلال هذا النظام إذا كان منخفضاً فإن الكائن يكون في حالة إسترخاء، ويشبه النشاط الكهربي للمخ النشاط الكهربي في حالة النوم، وإذا كان الوارد زائداً يتم تنبيه الكائن فيوجه نفسه نحو مصادر التنبيه. ويصبح النمط الكهربي مماثلاً لحالة اليقظة. وتقع الانفعالات وكذلك العوامل الدافعية على مدى من التيقظ يمتد من النعاس وحالة إنفعالية منخفضة إلى حالة قوية مثل الهياج.

ومن نظريات الانفعالات النظرية السلوكية Behavioristic theory. وكما يمكن أن نتوقع فإن هذه النظرية تتعامل مع الانفعالات إما باعتبار أنها غير مشروطة، بمعنى أنها فطرية وعامة للنوع، أو مشروطة أي متعلمة أو مكتسبة. ولا تهم العناصر الفسيولوجية ولا الإدراكية، وتركّز النظرية على الظواهر الموضوعية التي يمكن قياسها، والتي يؤثر السلوكيون أن يطلقوا عليها إسم السلوك الانفعالي Emotional behaviour.

وتذهب نظرية التقدير الإدراكي Cognitive-appraisal theory إلى اعتبار الانفعالات حالات ذاتية هي نتاج لمثير منبّه ومجموعة من التغيّرات الفسيولوجية المصاحبة، ثم التقدير الإدراكي أو التفسيري للموقف باعتباره موقفاً ضاراً أو مفيداً، صالحاً أو غير صالح بالنسبة للفرد. والفكرة الأساسية هنا هي فكرة التقدير الإدراكي نفسها، بدعوى أن حالة التيقظ الفسيولوجية الواحدة يمكن أن تستحدث عدداً من الانفعالات، وقد تكون متعارضة مع بعضها، ومن ثم تكون الأهمية في المرتبة الأولى لتأويل أو تفسير الفرد للموقف.

وتعتبر «نظرية بابيز في الانفعال Papez's theory of emotion» من أولى المحاولات النظرية للكشف عن الميكانيزمات اللحائية الخاصة التي تكمن خلف الانفعالات. والنظرية قال بها بابيز في الثلاثينات، وافترض فيها أن

أنظمة ثلاثة حسيّة، وهايبوثلاموسية وثلاموسية متضافرة تشترك جميعها عن طريق اللحاء في تنظيم السلوك الانفعالي. ولا تنهض النظرية على دراسة تشريحية سليمة ولكنها كانت ذا أثر في التنبيه إلى دور الهايبوثلاموس، والدور التكاملي للحاء. ولقد قام ماكلين بمراجعة نظرية بابيز، واشتهرت مراجعته باسم نظرية ماكلين في الانفعال Maclean's theory of emotion ويذهب فيها إلى أن هناك مناطق أخرى من الجهاز الطرفي وخاصة فرس البحر Hippocampus ومُرَكّب اللوزة، لها أدوارها أيضاً في تنظيم السلوك الانفعالي بالإضافة إلى الهايبوثلاموس، وأن الطبقات الأقدم من اللحاء لها دورها الرئيسي في تكامل المعلومات.



مراجع

- Hebbo, D.O.: The Nature of Emotion. Selected Readings.
- Arnold, Magda: Emotion and Personality.
- Davitz, J.R.: The Language of Emotion.
- Gelhorn, E. & Loofbourrow, G.M.N.: Emotions and Emotional disorders.



– ٢٥ –
سيكولوجية الإحساس

المحسّات وإدراكها. عتبة الإحساس. الحساسية العضوية ومستوى الإحساس. النمط الحسّاس. الحسّ الكاذب. الخلط الحسّي. الحسّ الخُلُقي. الشعور الحسّي والانطباع الحسّي. تدريب الحساسية وسلب الحساسية. المذهب الحسّي والفلسفة الحسّية...



الإحساس Sensation شعور أو وعي بظروف داخل أو خارج الجسم تستحدثه إستثارة مستقبِل حسّي Sensory receptor

أو النظام الحسّي Sensory system المستقبِل. وهذا التعريف بمثابة المبدأ الذي يقوم عليه عدد من النظريات في الخبرة الحسية Sense experience، وهي نظريات تفرّق بين الإحساس وإدراك الإحساس Sense perception، فأما الإحساس فهو ما أسلفنا، وأما إدراكه فينبني عليه ويقوم بتأويله وتمييزه. ومن علماء النفس من ينكر وجود الإحساس منفصلاً عن إدراكه وتمييزه. وفي البداية تكون دائماً المُحسّات Sense ثم ترتقي إلى المعنويات. والمحسّات منها الأولى كالألوان (الحمراء والزرقاء إلخ) والأصوات، والحرارة والبرودة، والضغوط. والإحساس هو فرع من علم النفس الذي يدرس الخبرات الحسيّة، والذي يولي عنايته بتمحيص وتدقيق المبادئ الأساسية الفسيولوجية والنفسية لهذه الخبرات الحسية. وعندما بدأ علم النفس الحديث شغلت العلماء عمليات الإحساس وميكانيزماتها الفسيولوجية، وأسهمت البحوث المعملية لعلماء كبار أمثال ڤيبر Weber (١٧٩٥ - ١٨٧٨)، وفخنر Fechner (١٨٠١ - ١٨٨٧)، وهيلمهولتس Helmholtz (١٨٢١ - ١٨٩٤)، وڤونت Wundt (١٨٣٢ - ١٩٢٠)، في تطوير الدراسات على السلوك الإنساني. وتتجه البحوث الحالية إلى الناحية التطبيبية أكثر مما تتجه إلى النواحي النظرية. وتأتي أكثر البحوث في الإحساس من المنظور السيكولوجي في المجالات الحربية والصناعية والفضائية. وتقوم أهمية هذه البحوث سواء التنظيرية منها أو التطبيقية على حقيقتين، الأولى أن كل ما نعرفه عن العالم المحيط بنا والعالم الداخلي لنا يأتينا عن طريق أعضاء الحسّ Sense organs فينا، والثانية أن كل فعل أو نشاط نقوم به ينبني على المعلومات التي نتلقاها من خلال الحواس. وتتناول هذه البحوث مسائل مثل نوع الإحساس، هل هو حراري أو ميكانيكي أو كيميائي، ومداه، وعتبة الإحساس Sense limen، أي الحد الأدنى الذي يمكن أن تنزل إليه قدرة عضو الحسّ على الإحساس، وقدرة هذا العضو أو ذاك من أعضاء الحس على التمييز بين المثيرات المختلفة، وقدرته على التكيّف مع المثيرات بحيث يحتملها

إذا زادت، أو يستمر تمييزه لها إذا تدنّت تأثيراتها إلى أدنى حدودها، والأساس الفسيولوجي للإحساس في الأعصاب، ومراكز الإحساس في المخ. وربما كانت البحوث على الإحساسين البصري Visual والسمعي Auditory هي أكثر البحوث في مجال الإحساس، وذلك بالطبع لأنه عن طريق السمع والبصر تأتي أغلب الخبرة الحسية وتتسبب المعرفة ويكون السلوك. وهناك الكثير من المسائل التي تشغل العلماء فيما يخص السمع والبصر، ففي البصر مثلاً تبرز مسائل اللون ودرجاته، والعمى اللوني، وحدّة البصر واضطراباته، وفي السمع درجات الصوت، والأصوات المركبة، والضوضاء، وفي الشم Smell تصنيف الروائح وطبيعة المثير الشمّي، وفي التذوق Taste ما يتصل بالطعوم وانقسامها إلى مالح وحلو ومرّ وحمضي، وفي الإحساس الجلدي Skin sense أو Cutaneous إنقسامه إلى إحساس بالسخونة والبرودة، وإحساس بالضغوط وبالألم، وأماكن هذا الإحساس في الجسم، وطبيعة هذا الإحساس، والتمييز بين ما يكون إحساساً سوياً وإحساساً مضطرباً. ويتّصل بحاسة الاتزان Static sense الشعور بمواضع الجسم وحركاته، وتصحيح أنفسنا إذا وقعنا، وتأثير الحركة على البصر، وطبيعة دوار الحركة. ويتصل الإحساس بالحركة Kinesthetic s. تقديرنا للأوزان ولمواضع الأشياء، وللحركة في الظلام، وطريقة المشي والكلام، وحركات العضلات التي تأتي تلقائياً إذا أردنا تناول الأشياء أو بلوغها إلخ...

والحساسية العضوية Organic sensitivity هي شعورنا بما يجري داخلنا مما يتّصل بأعضاء مثل المعدة والكليتين والامعاء والمثانة وغير ذلك، مما يتّصل بالشعور بالجوع أو بالعطش أو بالرغبة في التبول أو التبرز أو الرغبة الجنسية وإشباعها إلخ. وتفيدنا الحساسية العضوية في التعرف إلى ما نحتاجه داخلياً، وهي بمثابة الإنذار في حالة تعرضنا داخلياً لمرض من الأمراض.

ومستوى الإحساس Sensation level هو إحساسنا بما عليه مثير ما من قوة، فمثلاً في اللون يكون مستوى الإحساس به هو مقدار ما نراه عليه من لمعة أو شدّة

ضوئية، وكذلك في الصوت فإن مستوى الإحساس به هو مقدار ارتفاعه أو انخفاضه من حيث سَمْعنا له.

وقد يوصف أحد الناس بأنه باحث عن الأحاسيس Sensation-seeking، وذلك بُعْد من أبعاد الشخصية يتمايز به الناس من حيث رغبتهم وسعيهم واستمتاعهم بالخبرات الحسية والمشاركة فيها، طالما كان المستوى الحسّي الذي عليه هذه الخبرات عالياً بحيث يشعرون بها شعوراً فيه امتلاء ولذّة، وبعض الناس هذه هي حياتهم فعلاً. ولعل ذلك سببٌ حدا بيونج Yung (١٨٧٥ - ١٩٦١) إلى أن يقول بأنماط الشخصية التي قال بها على أساس من الوظيفة، من حيث أن الوظائف أربع، هي: الشعور، والتفكير، والإحساس، والحدس، وكلنا بنا هذه الوظائف، غير أن وظيفة منها قد تعلو على بقيتها وتغلب على الشخص، بحيث تتلوّن بها تصرفاته وسلوكه وتطبعها، فنقول مثلاً إنه من النمط الحسّاس Sensitive type، بخلاف النمط المفكر Thinking type الذي يغلب عليه العقل، ويفكّر بعقله لا بحواسه لو جاز التعبير.

والحسّ Sense قد نعني به عضو الحس، فنقول حسّ السمع Hearing sense، وحسّ البصر Vision sense، وحسّ الشم smelling sense، وحس الحرارة Temperature sense، وهكذا، غير أنه قد يوجد الحس دون أن يوجد عضو مرتبط به كما في ظاهرة الحس الطرفي الكاذب Phantom limb، وتقع أحياناً لمن بُترت أعضاء من أجسامهم، حيث يشعرون بعد بتر العضو بإحساسات ينسبونها إليه وكأنه موجود، فمثلاً قد يشعر من بُترت ساقه بعد العملية بوقت، أنه يريد أن يهرش في الساق وكأنها قائمة لم يحدث لها شيء. وأيضاً قد يوجد الحسّ ولا يكون مرتبطاً بالعضو المتّصل به، وإنما بعضو آخر ليس له، وذلك كما في ظاهرة الخلط الحسّي Synesthesia، وهي حالة مرضية وليست من الصحة في شيء. ومجال دراسة هذه الظواهر الشاذة هو اضطرابات الحساسية Sensitivity disturbances.

واضطرابات الحساسية تتشوه بها الحساسية فتزيد عن حدّها، أو تنقص، أو تفسد، ومن ذلك الخُدار Anesthesia وهو

فقدان الحساسية تماماً نتيجة تخدير أو تنويم أو تلف يلحق بالعصب، والنوع النفسي منه لا يتماشى موضعه من الجسم مع تشريح الأعصاب، فيكون الخُدار مثلاً باليد وحدها من المكان الذي نضع عليه القفاز، أو يكون بالمعصم حيث نضع الساعة، ويسمى لذلك بالخدار الهستيري Hysterical a.، لأنه ليس عضوياً، أي ليست له أسباب عضوية. وفي كلال اللمس Hypoesthesia يكون فقد الحساسية جزئياً، وهو عَرَض هستيري أيضاً، أي منشؤه نفسي، وكذلك النوع المسمَّى فرط الحساسية Hyperesthesia، فيزيد إحساس المريض بمؤثرات من نوع بصري أو سمعي أو لمسي، إلخ، أو يكون شديد الحساسية للحرارة أو البرودة، وذلك شيء قد نجد له أسباباً نفسية أو عضوية.

ومن اضطرابات الحساسية كذلك ثلاثة أنواع يصاب بها المرضى بالاستجابة التحولية، وهي فقد الألم Analgesia، وفرط الألم Hyperalgesia، وتشوّش الحس Paresthesia كما في النَّمَل والخَدَر. وهناك أنواع أخرى قد تكون لها أسباب نفسية أو غير نفسية كخدر الدغدغة Gargalesthesia، فلا يكون هناك إحساس بالدغدغة لو حدثت، وعكسه فرط خدر الدغدغة Hypergargalesthesia، وفرط التذوق Hyperageusia وعكسه نقص التذوق Hypoageusia، وفرط الحركة Hyperkinesthia ونقص الحركة Hypokinesthia، وفرط حسّ الحرارة Hyperthermoesthesia، وفقدان الإحساس بها Thermoanesthia، وفرط اللمس Hyperbaresthia ونقص اللمس Hypobaresthesia، وفرط الحساسية للاهتزازات Pallesthesia، وفقدان الحساسية للاهتزازات Palmanesthesia، وفرط الحساسية للألم Hyperalgesia ونقص الحساسية له Hypoalgesia، وفرط الحساسية للصوت Hyperacusia ونقص الحساسية للصوت Hypoacusia.

وقد ننسب الحسّ إلى غير أعضاء الحس فنقول الحس أو الإحساس بالمكان Sense of place، والإحساس بالزمان Sense of time، فنربط بين الحسّ وأحد

أبعاد العالم المادي، ونقصد بالحسّ هنا الوعي، فالحسّ بالمكان هو وعي بالمكان، والحسّ بالزمان أو الوقت هو وعي بالزمان، والمقصود بالوعي هنا الإدراك، وإدراك المكان أو الزمان هو إدراك بالوجود المكاني بالنسبة إلى موضع شيء من أشياء أخرى، أو إدراك للوجود الزماني أي موقع حدث معين من أحداث أخرى وقعت قبله أو بعده أو ترافق وقوعها معه، وكأننا نعني هنا بالحس أننا نُقصر هذا المكان أو الزمان على المكان أو الزمان عندما يكونان ذاتيين. وأما المسافة الحسيّة Sense distance فهي الفترة التي تنقضي بين إحساسين. وأيضاً فقد يقترن الحسّ بشيء معنوي فنقول «الحس الخُلُقي Moral sense» ويكون كالمَلَكة بالشخص يستشعر الأمور بها بالنسبة إلى الأخلاق. والحسّ الخلقي من الأسماء التي يتسمّى بها الضمير، وهو أداة تقويم الأفعال والأقوال خُلُقياً.

والإحساس بالانتماء Sense of belonging شعورٌ قوي بالانتماء للجماعة، يدفع الفرد لاستدماج مبادئ الجماعة وقيمها، وتبنّي أهدافها والدفاع عنها.

والإحساس بالهوية Sense of identity شعور المرء بأنه شخص منفصل ومتميّز عن الآخرين. والإحساس بالذنب Sense of guilt هو إحساس بالكدر ناتج عن نقد الأنا الأعلى أو الضمير لبعض الدوافع، أو لطريقة التعبير عنها، وخاصة الدوافع الجنسية والعدوانية. وقد يكون الإحساس بالذنب شعورياً جزئياً، بمعنى أن الإحساس يكون شعورياً ولكن أسبابه تكون لاشعورية، كما قد يكون هذا الإحساس بالذنب لاشعورياً، ناتجاً عن حاجة المريض إلى العقاب، ويعمل فيه دون أن يدري، فيرتكب من الأفعال ما يعرّضه للمساءلة دائماً. والشعور الحسّي Sense feeling هو حلاوة أو كدر نستشعرهما عقب خبرة حسية. والإدراك الحسّي Sense perception هو هذا الإدراك القائم على المنبّه الحسّي، وقد أسلفنا القول فيه. والخداع الحسّي Sense illusion إدراك خاطئ لمثير خارجي، ويرجع للتفسير الخاطئ لقوانين الطبيعة، مثل ظاهرة إنكسار العصا في الماء، أو إلى الخلط النفسي، وهو من إضطرابات الإحساس والإدراك.

والمُعطَى الحسي Sense datum إصطلاح جديد نسبياً عن فكرة قديمة قِدَم الفلسفة، وهي فكرة الموضوع المباشر للإدراك الحسّي. ويعتقد الكثير من الفلاسفة بأن الأشياء المادية الخارجية ليست هي موضوعات الإدراك الحسي المباشر، إذ أنه في أي موقف إدراكي بوسعنا أن نشك دائماً في أن ما ندركه بالحسّ هو شيء مادي حقيقي، لأنه ربما كان نوعاً من الخلط أو الحلم، إلا أننا رغم ذلك، ومهما كان الأمر مع الواقع الخارجي، فلا يمكن إلا أن نكون على يقين من أن حواسنا تتأثر به على نحو ما. وعلى الرغم من أننا قد نشك فيما قد تكون عليه الأشياء إلا أننا لا يمكن أن نشك في الكيفية التي تبدو لنا بها ساعة إدراكها. وهذه الكيفية هي ما نُطلق عليه إسم المُعطَى الحسي، فأنا الآن أرى الكرسي، وأنسب إليه ظهراً وملمساً ووزناً، ولكن لا الظهر ولا الملمس ولا الوزن حاضر أمام حواسي، فالعناصر المستدل عليها في إدراكنا هي العناصر القابلة للشك، وأما ما هو غير ذلك، أو الذي يتبقى بعد ذلك فهو المُعطَى الحسّي.

والانطباع الحسّي Sense impression إصطلاح عند السلوكيين أرادوا به تجنّب الحديث في الإدراك، لأنهم كانوا يقصرون كل شيء على الإحساس، فأطلقوا على نوع التفكير المتخلف عن الإحساس إسم الانطباع، ونسبوه إلى الحسّ، فهو انطباع حسّي، أي عقابيل فكرية للإحساس.

والفترة الحسّاسة Sensitive period هي مدّة زمنية يكون فيها الكائن حسّاساً لموضوعات معيّنة، ويستجيب فيها إستجابات فسيولوجية ونفسية لمثيرات بعينها، مثل الدورة النزوية في الحيوان. وقد نقول الفترة الحساسة لاكتساب المهارات اللغوية، ونعني بها الفترة التي يكون الطفل فيها قادراً على تعلّم اللغة واستيعاب وظائفها، وهي تقع في السن بين نحو السنة والبلوغ.

والحساسية Sensitivity هي القابلية للاستثارة لمثير، وقد تزيد الحساسية لسبب ما، وزيادة الحساسية Sensitization تعني أن الشخص ربما يكون حساساً حساسية مفرطة لمثير دون مثير آخر، وربما تزيد الحساسية بمنطقة

من الجسم دون منطقة أخرى. والمنطقة الحسّاسة Sensitive zone هي منطقة تشتد بها الحساسية لمثيرات معينة، فمثلاً المنطقة الشهوية من الجسم هي منطقة حسّاسة جنسياً، وقد يضرب الأب إبنه على مقعدته باستمرار فيزيد بها الحساسية وقد يجعل ذلك من الولد مأبوناً. وسلب الحساسية Desensitization طريقة من طرق العلاج بأن ندرب الشخص الذي يشكو الحساسية المفرطة من نوع ما على أن يسلك إزاء المثير المعين بطريقة عادية، بحيث يقل به عدد الأفكار والخواطر المشحونة بالقلق التي يثيرها هذا المثير أو الموقف، وبذلك يتمكن الشخص من معاودة التعامل مع المثير أو دخول الموقف واستئناف نشاطه السوي. وتدريب الحساسية Sensitivity training طريقة من طرق العلاج السلوكي الجماعي طوّرها كورت ليفين Kurt Levin (١٨٩٠ - ١٩٤٧) وكارل روجرز Carl Rogers في الأربعينات، ودخلت ضمن علم النفس الصناعي، وهي خطوة مهمة من خطوات تعليم الكبار، حيث يدرّب العمال على التعبير الحرّ عن أنفسهم، وعلى أن تكون لهم ردود فعل شخصية تترتب على اجتماعهم بغيرهم، فيلتقون بغيرهم ويتسنّى لهم عن طريق هذه اللقاءات أن يتخلصوا من أية أفكار مسبقة لديهم عن الآخرين، ويكتسبون حساسية إجتماعية مطلوبة.

والمذهب الحسّي Sensualism هو القول بأن كل إدراك هو إدراك حسّي أصلاً، وأن المذهب الحسّي هو الذي له دعوة معيّنة تقول باللّذة وتجعل الاستغراق فيها اتجاهاً في الحياة وأسلوباً للعيش.

والفلسفة الحسّية Sensationalism تردّ كل العمليات العقلية ومحتوياتها إلى عناصرها، باعتبار هذه العناصر وحدات من الأحاسيس يجمع بينها الترابط، وإذن فكل الفكر مستمد من الحسّ وحده.

وللإحساس عتبة يقال لها عتبة الإحساس Sensation threshold، والإحساس العتبي Threshold sensation هو الإحساس الإدراكي المدخلي. والعتبة المطلقة Absolute threshold تعني المستوى الأدنى أو الحدّ الأقل الذي يمكن أن نرى عنده بالعين، أو نسمع بالأذن، أو نتذوق باللسان، إلخ. فإذا قلّ المثير بحيث

لا يبلغ في قوته هذا الحدّ الأدنى من الإحساس من فرط ضعفه فإننا لن نراه، ولا نسمعه، ولا نتذوقه. والناس تتباين بشأن هذا الحدّ المطلق، وأعضاء الحسّ أيضاً تتباين بشأنه وتتغاير فيما بينها، ولهذا كان هذا الحدّ إفتراضياً بالنظر إلى أنه حدّ نسبي جداً. وكانت لتجارب العتبة المطلقة في الإحساس نتائج مذهلة أظهرت لنا حقائق عن أعضاء الحسّ لم نكن نعرفها من قبل، ومن ذلك مثلاً أن العين شديدة الحساسية للمثيرات لدرجة أنها تستطيع أن تتبين في الليلة الظلماء ضوء عود الكبريت المشتعل على بعد - قيل ثلاثة أميال، وأيضاً فإن الأذن يمكنها أن تسمع دقات الساعة على بعد عشرين قدماً إذا كانت الحجرة هادئة.

والتكيّف الحسي Sensory adaptation هو أن تقل بنا الحساسية لمثير معيّن مع طول المسافة التي يظل بها تأثير هذا المثير سارياً، ونسمي ذلك التكيّف السالب، مثلما يحدث إذ نسمع ضجة القطار وهو سائر فنعتادها حتى لننام فإذا توقف القطار وتعطلت الضجة صحونا.

والحرمان الحسّي Sensory deprivation هو أن يُسلَب الشخص من إمكانياته الحسية، كأن تتعطل حواسه عن العمل أو يعيش في عزلة حسيّة باختياره أو مفروضة عليه.

ومراحل التطور الحسّي Stages of sensory development هي التي يمرّ بها الفرد إبتداءً من الفترة التي يكون فيها استخدامه لحواسه إستخداماً ذاتياً مركزياً، إلى الفترة التي يكون فيها خروجه بحواسه إلى غير ذاته. وفي الفترة الأولى يكون استخدامه للشمّ والتذوّق واللمس، وفي الفترة الثانية يكون استخدامه للسمع والبصر، يمدّ بهما أحاسيسه إلى العالم البعيد من حوله.

والدافع الحسّي Sensory drive هو رغبة شديدة أو حاجة ماسة في أن يخبر الشخص موضوعاً خبرة حسية. والتمييز الحسّي Sensory discrimination هو القدرة على التمييز بين التنبيهات المتفاوتة في الكم أو في الكيف. والمجال الحسّي Sensory field هو مجموع ما يتصل بشخص ما من مؤثرات حسيّة يمكن أن ينفعل بها ويستجيب لها في زمان

ومكان معينين. ويوصف هذا المجال بأنه مجال ثري حافل بالمحسّات، أو مجال فقير مجدب من شأنه أن يعيش الشخص فيه في حرمان حسّي.

والعادة الحسيّة Sensory habit هي سلوك مكتسب تكون لنا به القدرة التلقائية على التمييز بين المؤثرات أو المحسوسات والتجاوب معها عضوياً وبتلقائية.

والتكامل الحسّي Sensory integration هو أن تستثار أكثر من حاسة معاً بمثير واحد، ويتكرر ذلك حتى يقترن تجاوب الحاستين أو أكثر، فإذا حدث واستثيرت إحداهما فإن الأخرى تستثار أيضاً بالتقارن، وذلك ما عليه الحال في التعلم الشرطي مثلاً.

والاستجابة من النمط الحسّي Sensory-reaction type هي التي يتوجه فيها الانتباه إلى ملاحظة المؤثر، بينما مثلاً في الاستجابة من النمط الحركي يولي فيها الشخص إنتباهه للحركة التي يستجيب بها للمؤثر وليس للمؤثر نفسه أو نوعه وماهيته وما إلى ذلك.

والمؤثر الحسّي Sensory stimulus هو الذي يتوجه بتأثيره إلى حاسة من الحواس. والعملية الحسيّة Sensory process هي العملية التي يقوم عليها الإحساس. والإحساس الأولي Protopathic sensation هو إحساس فطري كالجوع والجنس، والإحساس الثانوي Secondary s. هو إحساس مكتسب كالابتهاج بالموسيقى أو السرور لاحتساء كوب شاي في يوم بارد. والإحساس الذاتي Subjective s. مصدره ذاتي وينسب إلى الحسّ الخاص به، فمثلاً الجرس في الأذن دون وجود جرس خارجي أو جرس من داخل الجسم، إلا أن الأذن تطن كالجرس وكأنها تسمع جرساً أو كأن بها جرساً. وتزايد الإحساس Sensation increment من مصطلحات الفيزياء النفسية، عبارة عن تسارع في الحساسية الذاتية تتنامى به الخبرة الحسيّة الذاتية. والإحساس الوجداني Affective s.. والتفاعل الحسّي Sensory interaction هو أن تتداخل العمليات الحسية مع بعضها البعض بشكل تلقائي متزامن، فإذا أمكن تنظيم هذا التفاعل بهذه الطريقة فإننا نطلق عليه إسم التنظيم الحسّي Sensory

organization. والإحساس الأقصى Maximal sensation هو أقصى ما يصل إليه الإحساس بمثير، فلو زادت قوّة المثير عن ذلك لما زاد الإحساس بها عن هذا المستوى. والحساسية المطلقة Absolut sensitivity هي القدرة على الإحساس بمثير وهو في أقل حالاته تأثيراً، أو في أضعف حالاته.



مراجع:

- Boring, E.G.: Sensation and Perception in the History of Experimental Psychology.
- Milner, P.M.: Physiological psychology.
- Hensel, H.: Allgemeine Sinnesphysiologie.

❖ ❖ ❖


AL-OBEIKAN
1086591
SR 1260.00 1/24